

قصة مدينتين

تشارلز ديكنز

- ♦ المؤلف: تشارلز ديكنز
- ♦ العنوان: قصة مدينتين
- ♦ ترجمة: شهرت العالم
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2025
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٤ / ٢٧٥٧٣

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 419 - 7

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq for Publishing & Distribution

17 Mahmoud Basiony St, 6th floor, from Tallat Harb Sq, Cairo – Egypt

Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com

١٧ شارع محمود بسيوني - الدور السادس - متفرع من ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

f afaqcairo @ afaqcairo X afaqcairoplsh

تشارلز ديكنز
قصة مدينتين

ترجمة
شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب:

A Tale of Two Cities

by Charles Dickens

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© Afaq Publishing House 2024

المحتويات

٩	الكتاب الأول - بُعث إلى الحياة
١١	الفصل الأول: الفترة الزمنية
١٦	الفصل الثاني: عربة البريد
٢٦	الفصل الثالث: ظلال الليل
٣٣	الفصل الرابع: الإعداد
٥١	الفصل الخامس: متجر النبيذ
٦٨	الفصل السادس: صانع الأحذية
٨٥	الكتاب الثاني - الخيط الذهبي
٨٧	الفصل الأول: بعد خمس سنوات
٩٨	الفصل الثاني: المشهد
١٠٩	الفصل الثالث: خيبة الأمل
١٣١	الفصل الرابع: تهنئة
١٤٢	الفصل الخامس: ابن آوى
١٥٢	الفصل السادس: مئات الأشخاص

١٧١	الفصل السابع: صاحب السيادة في المدينة
١٨٥	الفصل الثامن: صاحب السيادة في الريف
١٩٤	الفصل التاسع: رأس الجورجونة
٢١٢	الفصل العاشر: وعدان
٢٢٥	الفصل الحادي عشر : صورة رفيق
٢٣٢	الفصل الثاني عشر: الزميل الرقيق
٢٤٣	الفصل الثالث عشر: الزميل الفظ
٢٥١	الفصل الرابع عشر: التاجر الأمين
٢٦٧	الفصل الخامس عشر: الحياكة
٢٨٥	الفصل السادس عشر: لا تزال الحياكة مستمرة
٣٠٣	الفصل السابع عشر: ذات ليلة
٣١١	الفصل الثامن عشر: تسعة أيام
٣٢١	الفصل التاسع عشر: استشارة
٣٣٣	الفصل العشرون: توُسِّل
٣٣٩	الفصل الحادي والعشرون: صدى وقع الأقدام
٣٥٧	الفصل الثاني والعشرون: البحر لا يزال هائجًا
٣٦٦	الفصل الثالث والعشرون: النار تشتعل
٣٧٧	الفصل الرابع والعشرون: الانجذاب إلى صخرة المغناطيس

٣٩٥	الكتاب الثالث - مسار العاصفة
٣٩٧	الفصل الأول: سري للغاية
٤١٥	الفصل الثاني: حجر الشحذ
٤٢٥	الفصل الثالث: الظل
٤٣٣	الفصل الرابع: هدوء في العاصفة
٤٤١	الفصل الخامس: قاطع الأخشاب
٤٥١	الفصل السادس: الانتصار
٤٦١	الفصل السابع: طرق على الباب
٤٧٠	الفصل الثامن: أوراق اللعب
٤٩٠	الفصل التاسع: اللعبة جاهزة
٥١٠	الفصل العاشر: حقيقة الظل
٥٣٢	الفصل الحادي عشر: الغسق
٥٣٩	الفصل الثاني عشر: الظلام
٥٥٢	الفصل الثالث عشر: اثنان وخمسون
٥٧١	الفصل الرابع عشر: انتهاء الحياكة
٥٩١	الفصل الخامس عشر: الحُطى تتلاشى إلى الأبد

الكتاب الأول بُعْثْ إِلَى الْحَيَاةِ

الفصل الأول

الفترة الزمنية

كان أفضل الأزمان، وكان أسوأ الأزمان، كان عصر الحكمة، وكان عصر الحماسة، كان زمن الإيمان، وكان زمن الشك، كان موسم النور، وكان موسم الظلام، كان ربيع الأمل، وكان شتاء اليأس، كان أمامنا كل شيء، ولم يكن أمامنا شيء، كنّا جميعاً نتجه مباشرة إلى الجنة، كنا جميعاً نتجه مباشرة إلى الاتجاه الآخر... باختصارٍ، كانت تلك الفترة تشبه إلى حدٍّ كبير الفترة الحالية، حتى إن بعض أكثر مؤرخيها ضجيجاً أصرَّ على وصفها، إن خيراً أو شراً، بأعلى درجات المقارنة فقط.

كان يجلس على عرش إنجلترا ملكٌ ذو فك كبير وملكة ذات وجه عادي؛ وكان يجلس على عرش فرنسا ملك ذو فك كبير وملكة ذات وجه جميل^(١). بدا واضحاً بجلاء، أكثر من وضوح البلّور، للسادة المُهمنين على مخازن الأرغفة والأسماك في البلدين أن الأمور قد استقرت بشكلٍ عام إلى الأبد.

(١) في عام ١٧٧٥، كان ملك وملكة فرنسا هما لويس السادس عشر (حكم من ١٧٧٤ إلى ١٧٩٣) وزوجته ماري أنطوانيت. وفي إنجلترا، كان الزوجان الحاكمان هما جورج الثالث (حكم من ١٧٦٠ إلى ١٨٢٠) وزوجته شارلوت صوفيا - (الترجمة).

كان ذلك في عام ألف وسبعمائة وخمسة وسبعين لميلاد السيد المسيح. تمتعت إنجلترا بالوحي الروحي في تلك الفترة الأثرية، كما هي حالها اليوم. كانت السيدة ساوثكوت^(١) قد احتفلت مؤخرًا بعيد ميلادها المبارك الخامس والعشرين، وكان جندي نبوي من حُرَّاس الحياة قد بَشَّرَ بظهورها السامي عن طريق الإعلان عن اتخاذ ترتيباتٍ لابتلاع لندن ووستمنستر. حتى وجود شبح شارع كوك-لين (أو زقاق الديوك)^(٢) كان انقضى عهده منذ اثنتي عشرة سنة فقط، بعد أن بثَّ رسائله، كما بثَّت أرواح نفس هذه السنة الأخيرة رسائلها (تلك الأرواح التي تفتقر إلى الأصالة بشكلٍ خارقٍ للطبيعة). كانت مجرد رسائل وصلت مؤخرًا بالترتيب الديني للأحداث إلى التاج الإنجليزي والشعب الإنجليزي، من مؤتمر للرعايا البريطانيين في أمريكا؛ ومن الغريب ما ثبت من أنها أكثر أهمية للجنس البشري من أي رسائل أخرى تلقَّاهَا حتى الآن من أيٍّ من دجاجات حضَّانة زقاق الديوك.

في فرنسا، التي كانت أقلَّ حظًا بشكلٍ عام فيما يتعلق بالأمور الروحية من شقيقتها صاحبة الدرع والرمح الثلاثي، فقد تدرجت بسلسلة فائقة أسفل التل، وأخذت تصنع النقود الورقية وتنفقها. إلى جانب ذلك، وبتوجيه من قساوستها المسيحيين، أمتعت نفسها

(١) جوانا ساوثكوت (Joanna Southcott, 1750-1814): زعمت أنها نبيَّة، وكتبت عدة نبوءات. لم تُذكر في الرواية إلا في هذا الموضع. ويمكن الاطلاع على قصتها في: https://dickens.stanford.edu/dickens/archive/tale/issue1_gloss.html - (المترجمة).

(٢) كوك-لين «أو زقاق الديوك (Cock Lane)»: شارع صغير في مدينة لندن، اشتهر بسبب الشبح الذي قيل بوجوده هناك عام ١٧٦٢ - (المترجمة).

بإنجازاتٍ إنسانية: مثل الحكم على شاب بقطع يديه، وتمزيق لسانه بكماشة، وحرق جسده حيًّا، لأنه لم يركع تحت المطر لتكريم موكبٍ قذرٍ من الرهبان مرَّ أمام ناظره على مسافة نحو خمسين أو ستين ياردة. ومن الأرجح بما يكفي وجود أشجار متنامية متجذرة في غابات فرنسا والنرويج عند إعدام هذا الشاب المُتألم؛ أشجار حدَّدها بالفعل الحطَّاب -القدر- لتقع وتُنشَر إلى ألواحٍ لصنع إطارٍ متحرك معين به كيس وسكين^(١)، دَوْن التاريخ فظائعه. ومن المرجح بما يكفي وجود عربات بدائية تحتمي من طقس ذلك اليوم بالذات في البيوت الخشنة لبعض الفلاحين في الأراضي الطينية المجاورة لباريس؛ عربات ملوثة بوحل الريف، تشتمُّها الخنازير، وتجنم فيها الدواجن؛ وهي العربات التي خصَّصها بالفعل المزارع -الموت- لتكون عرباته لنقل المحكوم عليهم بالإعدام في أثناء الثورة. على أن ذلك «الحطَّاب» وذلك «المزارع»، على الرغم من أنهما يعملان بلا توقف، كانا يعملان في صمتٍ، ولم يسمعهما أحدٌ في أثناء تحركهما بخُطى مكتومة: فقد كان مجرد قبول أي شك في أنهما مستيقظان، يُعتبر إلحادًا وخيانة.

أما في إنجلترا، بالكاد ما كان يتوفَّر قدرٌ من النظام والحماية لتبرير الكثير من التفاخر الوطني. فقد قام رجالٌ مسلحون بعمليات سطوٍ جريئة، وسرقات في الطرق السريعة، في العاصمة ذاتها كل ليلة؛ وتلقَّت العائلات تحذيراتٍ علنية من مغادرة البلدة قبل نقل أثاث منازلهم إلى مستودعات التنجيد لحمايتها. وكان قاطع الطريق السريع في الليل

(١) المقصود هنا المقصلة - (المترجمة).

يعمل نهارًا تاجرًا في المدينة؛ وبعد أن تعرّف عليه زميله التاجر، وتحذّاه اللص وأوقفه بصفته «الكابتن»، أطلق على رأسه النار بشجاعة وانطلق بعيدًا. وكمنّ سبعة لصوص لعربة البريد، فأطلق الحارس النار على ثلاثة وقتلهم، ثم أطلق الأربعة الباقون عليه النار «نتيجة لنفاذ ذخيرته»؛ وبعدها سرقوا البريد وهم مطمئنون. وقام أحد قاطعي الطريق بإجبار ذلك الحاكم الرائع، عمدة لندن، على التوقف والاستسلام عند تورنهام جرين، ثم نهب هذه الشخصية اللامعة على مرأى من جميع حاشيته. وخاض السجناء في سجون لندن معارك ضد سجّانهم، فأطلق عليهم صاحب الجلالة القانون جولاتٍ من بنادقه المُحمّلة بالطلقات والرصاص. وانتزع اللصوص الصليبان الألماسية من أعناق اللوردات النبلاء في قاعات حفلات الاستقبال في البلاط الملكي. وذهب الجنود المسلحون إلى حي سان جايلز بحثًا عن البضائع المُهرّبة، فأطلق عامة الناس النار عليهم، وأطلق الجنود النار على عامة الناس؛ ولم يعتقد أحدٌ أن أيًا من هذه الحوادث تخرج عن المألوف. وفي وسط ذلك كله، كان الجلاّد تحت الطلب دائمًا، مشغولًا على الدوام، وأساء من كونه عديم الفائدة. نجده أحيانًا يتولى الإعدام شنقًا لصفوفٍ طويلة من مجرمين متنوعين؛ وأحيانًا يشنق في يوم السبت أحد لصوص المنازل، بعد إلقاء القبض عليه يوم الثلاثاء؛ وأحيانًا، يحرق أيدي عشرات الناس في نيوجيت؛ وفي أحيانٍ أخرى، يحرق كتيبات أمام باب قاعة وستمنستر، واليوم، يودي بحياة قاتل وحشي، بينما يودي غدًا بحياة لصٍّ بائس سرق ستة بنسات من ابن أحد المزارعين.

كل هذه الأشياء، وألف مثلها، حدثت وانتهت في تلك السنة القديمة العزيزة، سنة ١٧٧٥. في سياق ذلك كله، وبينما كان «الحطّاب» و«المزارع» يعملان دون أن يلتفت إليهما أحد، كان هذان الملكان عريضا الفكين، والملكتان، ذات الوجه العادي وذات الوجه الجميل، يتحركون بضجة كبيرة، وهم يحملون حقوقهم الإلهية في الحكم بيدٍ عالية. وعلى هذا النحو، كان عام ١٧٧٥ يقود عظمتهم، فضلاً عن قيادة عدد لا يُحصى من المخلوقات الصغيرة -المخلوقات التي ترد في هذا التسجيل التاريخي من بين الباقيين- على طول الطرق التي امتدّت أمامهم.

الفصل الثاني

عربة البريد

في إحدى ليالي الجمعة في أواخر نوفمبر، كان طريق دوفر هو الطريق الذي يمتد أمام أول شخص من الأشخاص الذين تشملهم هذه القصة. كان طريق دوفر يقع، بالنسبة إليه، خلف عربة بريد دوفر، التي تشق طريقها متناقلة أعلى تل شوترز. سار صاعدًا أعلى التل وهو يخوض في الوحل بجانب عربة البريد، كما فعل بقية الركاب؛ ليس استمتاعًا بممارسة رياضة المشي في ظل هذه الظروف، وإنما لأن التل، وسرج الخيول، والطين، والبريد، كانت مجتمعة ثقيلة للغاية، إلى درجة أن الخيول قد توقفت بالفعل ثلاث مرات، فضلًا عن أنها جرّت العربة مرة واحدة خلال الطريق، بقصد التمرد والعودة إلى بلاكهيث. على أن اللجام والسوط وسائق العربة وحارسها قد قرؤوا جميعًا ذلك المقال عن الحرب، الذي يحظر الرأي القائل إن بعض الحيوانات الغاشمة تتمتع بالعقل؛ وبالتالي استسلمت الخيول وعادت إلى أداء واجبها.

شَقَّتْ الخيول طريقها برؤوسٍ متدلّية وذبولٍ مرتعشة عبر الوحل الكثيف، متخبطة ومتعثرة بين الفينة والأخرى، كأنما مفاصلها تتمزق إلى أشلاء. كان السائق يريحها، في كثيرٍ من الأحيان، ويوقفها قائلاً

يحذر «وو-هوو! ماذا -هوو- إذن!»، وعندئذٍ يهز الحصان القيادي القريب رأسه، وكل شيء عليه، بعنفٍ؛ مثل حصان حازم على نحوٍ غير عادي، نافياً إمكانية صعود المركبة إلى أعلى التل. وكلما أصدر الحصان القيادي هذه الخشخشة، يجفل الراكب، كأني راكب عصبي، ويضطرب ذهنه.

تصاعد ضبابٌ من البخار من جميع التجاويف، وأخذ يتجول في عزلته أعلى التل، مثل روح شريرة تبحث عن الراحة ولا تجدها. شق ضبابٌ رطب شديد البرودة طريقه البطيء خلال الهواء في تموجات متتابعة تنتشر بوضوحٍ بعضها فوق بعض، مثل أمواج بحرٍ مضطرب. كان الضباب كثيفاً بما يكفي لحجب كل شيء عن ضوء مصابيح العرب، باستثناء مصابيح العرب نفسها، وعلى مسافة عدة ياردات قليلة من الطريق، كما تصاعدت رائحة الخيول الكادحة كالبخار إلى ذلك الضباب، كأنما هي التي تسببت فيه كله.

كان راكبان آخران، إلى جانب ذلك الراكب، يسيران بثقلٍ إلى أعلى التل بجوار عربة البريد، وكان الثلاثة ملتحفين بلفائف حتى عظام الخد وفوق الأذنين، ويرتدون أحذية طويلة الرقبة. لم يكن في إمكان أي من الثلاثة أن يحدد، من خلال أي شيء يراه، كيف يبدو أي من الاثنين الآخرين؛ فقد اختبأ كلٌ منهم عن أعين رفيقيه العقلية بعددٍ من اللفائف يماثل تلك التي تخفيه عن أعينهما الجسدية. كان المسافرون في تلك الأيام يشعرون بخجلٍ شديدٍ من حفاظهم على السرية بعد تعارف قصير؛ ذلك أن أي شخص على الطريق قد يكون لصاً، أو مرتبطاً بلصوص.

ويرجع وجود المرتبطين باللصوص إلى إمكانية أن يضم كل مكتب بريد وحانة لاحتساء البيرة شخصًا يتقاضى أجرًا من «القبطان»؛ بدءًا من صاحب المكان إلى أدنى عامل في إسطنبول عادي، وهو السبب الأكثر ترجيحًا. هذا ما فكر فيه حارس عربية بريد دوفر، في ليلة الجمعة تلك من شهر نوفمبر عام ١٧٧٥، وهو يقف في موقعه الخاص خلف عربية البريد التي تصعد تل شوتر بخطى متناقلة، ضاربًا بقدميه ومُرَّزًا بصره ويديه على صندوق الأسلحة أمامه، حيث توجد بندقية مشحونة مُلقاة فوق ستة أو ثمانية من المسدسات التي يحملها الفرسان، موضوعة فوق طبقة من السيوف المقوسة.

كانت مركبة بريد دوفر في حالتها العادية المألوفة؛ حيث يشك الحارس في الركاب، ويشك الركاب بعضهم في بعض، وفي الحارس، ويتشكك جميعهم في كل شخص آخر. ولم يكن السائق متأكدًا من أي شيء سوى الخيول، التي كان في إمكانه -بضمير مرتاح- أن يُقسم بالكتاب المقدس -بالعهدين القديم والجديد- إنها غير صالحة للرحلة. قال السائق: «وو... هوو! هكذا إذن! قفزة واحدة أخرى ونصل إلى القمة. عليكم اللعنة؛ فقد واجهت صعوبات كافية لنصل إليها! ...يا جو!».

أجاب الحارس: «مرحبًا».

«كم الساعة معك، يا جو؟».

«عشر دقائق تمامًا بعد الحادية عشرة».

«يا للمصيبة!»، صاح السائق الغاضب، «ولم نصل إلى قمة تل شوتر بعد! تباً! ياه! واصلي بسرعة أيتها الأحصنة!».

اندفع الحصان القيادي بعزم، بعد أن ضربه السائق بالسوط، وحذت الخيول الثلاثة الأخرى حذوه. وأخذت مركبة بريد دوفر تكافح مرة أخرى لشق طريقها، وأخذية ركابها عالية الرقبة تخوض إلى جانبها في الوحل. وقد توقفوا عندما توقفت المركبة، وظلوا على مقربة منها. ولو كان أيٌّ من الثلاثة يتمتع بالجرأة ليقترح على شخص آخر أن يسير إلى الأمام قليلاً في الضباب والظلام، لكن أثار الشكوك وعرض نفسه لإطلاق النار على الفور كقاطع طريق.

حملت القفزة الأخيرة مركبة البريد إلى قمة التل. توقفت الخيول لتلتقط أنفاسها ثانية، ونزل الحارس ليفرمل العجلات تمهيداً للانحدار، مع فتح باب العربة للسماح للركاب بدخولها.

«تباً! يا جو!»، صاح السائق بصوتٍ تحذيري، وهو ينظر إلى أسفل من مقعده.

«ماذا تقول يا توم؟».

أنصت كلاهما.

«أقول، يا جو، إن حصاناً يتبختر قادماً نحونا».

«أقول إن حصاناً يأتي راكضاً، يا توم»، أجاب الحارس، مُبعداً قبضته عن الباب، ثم صعد برشاقة إلى مكانه «أيها السادة! باسم الملك، خذوا حذركم جميعاً!».

ومع هذه المناشدة السريعة، قام بتجهيز زناد بندقيته، استعدادًا للهجوم.

كان المسافر الذي تتحدث عنه هذه القصة يقف على عتبة العربة، ليركب. وكان الركبان الآخران قرييين خلفه، وعلى وشك اللحاق به. ظل على العتبة، نصفه في العربة ونصفه الآخر خارجها؛ وظل المسافرين في الأسفل على الطريق. انتقل نظرهم جميعًا من السائق إلى الحارس، ومن الحارس إلى السائق، وأخذوا ينصتون. نظر السائق إلى الورا، ونظر الحارس إلى الورا، وحتى الحصان القيادي رفع أذنيه ونظر إلى الورا مثلهم.

ساد الهدوء الشديد نتيجة للسكون الذي أعقب توقف المركبة وصرير حركتها، إضافة إلى سكون الليل. وكان لهاث الخيول يثير في المركبة حركة اهتزازية، كما لو أنها في حالة اضطراب. وكانت قلوب الركاب تنبض بصوت عالٍ، بما يكفي لسماعها. لكن هذا التوقف الهادئ كان يُعبّر، على أي حال، وبشكل مسموع، عن وجود أناس يلهثون، ويحبسون أنفاسهم، ويتسارع نبضهم بسبب ما يتوقعونه.

تناهى إلى سمعهم صوت حصان يُقبل نحوهم أعلى التل بسرعة وقوة.

«يا هذا!»، صاح الحارس بأعلى صوتٍ قدر استطاعته، «أنت هناك! قف! سأطلق النار!».

خفت الوتيرة فجأة. وفي ظل الكثير من التشوش والتخبط، انطلق من بين الضباب صوت رجل: «هل هذه هي عربة بريد دوفر؟».

أجاب الحارس: «وما أهمية ذلك بالنسبة إليك! من أنت؟»

«هل هذه عربية يريد دوفر؟».

«لماذا تريد أن تعرف؟».

«أريد راكبًا، إذا كانت هي العربية».

«أي راكب؟».

«السيد جارفيس لوري».

وفي لحظة، أوضح الراكب الذي تدور حوله قصتنا أن هذا هو اسمه. نظر إليه الحارس والحوذي والراكبان الآخران بارتياحٍ.

«ابق في مكانك»، قال الحارس للصوت الصادر من وسط الضباب،
«لأنني إذا ارتكبت أي خطأ، فلن أتمكن من تصحيحه طوال حياتك.
على السيد المحترم الذي يحمل اسم لوري أن يجيب على الفور».

«ما الأمر؟»، سأل الراكب، ثم بصوتٍ مرتجف قليلًا: «من يريدني؟
أهو جيرري؟».

(تمتم الحارس لنفسه: «أنا لا أحب صوت جيرري، إن كان هو
جيرري. صوته أخشن من أن يناسبني، إنه جيرري»).

«نعم، سيد لوري».

«ما الأمر؟».

«رسالة أرسلت إليك من هناك. من تي. وشركاه».

«أيها الحارس، أنا أعرف هذا الرسول»، قال السيد لوري وهو

ينزل إلى الطريق، يساعده من الخلف الراكبان الآخران -على نحوٍ سريعٍ أكثر من كونه من قبيل التهذيب- ثم اندفعا على الفور إلى العربية، وأغلقا الباب والنافذة، ثم أضاف «يمكنه أن يقترب، لا يوجد ما يمنع». «آمل ذلك، لكنني لست متأكدًا»، قال الحارس مخاطبًا نفسه بصوت أجش؛ ثم قال: «مرحبًا بك!».

أجاب جيرى بصوتٍ أكثر خشونة من ذي قبل: «حسنًا! ومرحبًا بك!».

«تقدّم على مهل! أتمانع؟ وإذا كان على سرجك أي جراب، فلا تدعني أرى يدك تقترب منه؛ ذلك أنني شيطان سريع الخطأ، وعندما أخطئ، يتخذ خطئي شكل الرصاص. والآن، دعنا نراك».

أخذت تظهر ببطء هيئة حصان وفارس عبر حركة الضباب الدوامية، مقتربًا من مركبة البريد، حيث يقف المسافر. انحنى الفارس، مُلقيًا نظرة على الحارس، وقَدَّم إلى المسافر ورقة صغيرة مطوية. كان حصان الفارس لاهثًا ومُرهقًا، كما كان الطين يغطي كلاً من الحصان والفارس؛ من حوافر الحصان إلى قبعة الرجل.

«أيها الحارس!»، قال المسافر بنبرة رجل الأعمال الواثقة الهادئة.

أجاب الحارس اليقظ باقتضاب: «سيدي»، ويده اليمنى على مقبض بندقيته المرفوعة، ويده اليسرى على ماسورة البندقية، وعيناه على الفارس.

«ليس هناك ما يدعو إلى القلق. أنا أعمل في بنك تيلسون. وأنت

تعرف بالتأكيد بنك تيلسون في لندن. أنا في طريقي إلى باريس للعمل،
خذ عملة الكرونة هذه لشراء مشروب. أيمكنني قراءة هذا؟».

«لا بأس، على أن تُسرِع يا سيدي».

فتح الرسالة على ضوء المصباح الجانبي لعربة البريد، وقرأ... أولاً
لنفسه، ثم بصوت عالٍ: «انتظر الأنسة في دوفر». ليست طويلة، كما ترى
أيها الحارس. وأنت يا جيري، قل إن إجابتي هي «بُعْث إلى الحياة».
اعتدل جيري على سرجه، قائلاً بصوتٍ أكثر خشونة: «هذه إجابة
غريبة جداً أيضاً».

«عُد إليهم بهذه الرسالة، وسيعرفون أنني تلقيت رسالتهم، كأنني
أجبت كتابة. فلتصحبك السلامة، طاب مساؤك».

وبعد هذه الكلمات، فتح المسافر باب العربة ودخل، دون أن
يساعده على الإطلاق زملاؤه المسافرون، الذين سارعوا في إخفاء
ساعاتهم ومحافظهم في أحذيتهم، ويتظاهرون الآن بالنوم. ولم يكن
لديهم أي غرض مُحدد أكثر من تجنُّب الخطر الذي قد ينبجم عن أي
فعل من نوع آخر.

تحركت العربة متناقلة مرة أخرى، والتفت حولها أكاليل
الضباب الكثيف عندما بدأت في الهبوط. سرعان ما أعاد الحارس
بندقته إلى صندوق الأسلحة. وبعد أن ألقى نظرة إلى بقية محتوياته،
ثم إلى المسدسات التكميلية التي يرتديها في حزامه، نظر إلى
صندوق أصغر أسفل مقعده، يحتوي على عددٍ قليلٍ من أدوات

الجِدادَة، ومِشعلين، وصندوق اشتعال. فقد كان مُزوَّدًا بهذه العِدة المِكملة بحيث يُستعان بها في حال انطفاء مصابيح العربَة وواجهتها مُحنة؛ وهو ما يحدث من حين إلى آخر، وعندئذٍ عليه فقط أن يحبس نفسه في الداخل، ويُبعد شرارات محتويات صندوق الاشتعال عن القش، ويحصل على ضوء بأمان وسهولة مقبولين (إذا حالفه الحظ) في خمس دقائق.

وبصوتٍ هادئ، نادى الحارس من فوق غطاء العربَة: «توم!».

«مرحبًا، جو».

«هل سمعت الرسالة؟».

«نعم سمعتها، يا جو».

«وماذا فهِمت منها يا توم؟».

«لا شيء على الإطلاق، يا جو».

قال الحارس متأملًا: «يا لها من مصادفة أيضًا، لأنني مثلك لم أفهم أي شيء».

أما جيري، الذي تُرك وحده في الضباب والظلام، فقد ترجَّل في هذه الأثناء؛ ليس فقط للتخفيف عن حصانه المُنهك، وإنما أيضًا لمسح الطين عن وجهه، ونفض البلل عن حافة قبعته، التي يمكنها استيعاب نحو نصف جالون. وبعد أن وقف واللجام على ذراعه المِلطخة بشدة، بحيث لم يُعد صوت عجلات عربَة البريد يصل إلى سمعه، وأصبح الليل ساكنًا مرة أخرى، استدار ليهبط التل.

قال الرسول ذو الصوت الأَجَش وهو ينظر إلى فرسته: «بعد هذا الركض من تمبل بار^(١)، يا فرستي العجوز، لن أثق بساقيك الأماميتين إلى أن أصل بك إلى السهل. «بُعث إلى الحياة»؛ يا لها من رسالة شديدة الغرابة. لن يفيدك ذلك كثيرًا يا جيري! أقول يا جيري! ستكون في حالة سيئة للغاية، إذا أصبح البعث إلى الحياة موضة، يا جيري!».

(١) تمبل بار (Temple Bar): بوابة كانت تقع بين مدينتي لندن ووستمنستر الإنجليزيتين. (المترجمة).

الفصل الثالث

ظلال الليل

يا لها من حقيقة عجيبة جدرة بالتأمل: أن كل مخلوق بشري قد تشكّل ليكون بمنزلة سر عميق ولغز لكل مخلوق بشري آخر. وأفكر جدياً، عندما أدخل مدينة عظيمة ليلاً، أن كل منزل من تلك المنازل المتجمعة المظلمة مُحاطٌ بسرّه الخاص؛ وأن كل غرفة في كل منزل منها مُحاطة بسرّها الخاص؛ وأن كل قلب ينبض في مئات الآلاف من الصدور هناك، يُعد، في بعض تخيلاته، سرّاً بالنسبة إلى القلب الأقرب إليه! ينطوي ما يشير إليه ذلك إلى شيء من الفضاة، أو شيء حتى من الموت نفسه. لم يُعد في إمكاني الآن أن أُقلّب أوراق هذا الكتاب العزيز الذي أحبيته، وعبثاً أمل أن أتمكّن من قراءته كله في الوقت المناسب. لم يُعد في إمكاني أن أنظر إلى أعماق هذه المياه التي لا يُسبر غورها؛ فعندما أُلقت الأضواء الخاطفة نظرة لحظية عليها، رأيت لمحاتٍ من كنزٍ مدفون وأشياء أخرى مغمورة. كان مُقدّراً أن يوصد هذا الكتاب تماماً، وإلى الأبد، ولم أكن قد قرأت منه سوى صفحة واحدة. وكان مُقدّراً أن يُحبس البحر في صقيعٍ أبدي، بينما يتلاعب الضوء على سطحه، وأنا أقف جاهلاً على الشاطئ. مات صديقي، مات جاري، مات حبيبي، حبيبة روعي. إنه التعزير والإدانة الحتميان للسر الذي

كان موجودًا دائمًا في تلك الشخصية، الذي سأحمله في شخصيتي حتى نهاية حياتي. في أي مدفنٍ من مدافن هذه المدينة التي أمرُّ بها، هل يوجد نائم أكثر غموضًا من سكانها المنشغلين، في شخصياتهم الباطنية، بالنسبة إليّ، أو أكثر مما أنا عليه بالنسبة إليهم؟

أما فيما يتعلق بميراثه الطبيعي، وليس ما تنتقل إليه ملكيته، كان للرسول على صهوة جواده نفس ممتلكات الملك، أو كبير وزراء الدولة، أو أغنى تاجر في لندن. وتصدّق الحال نفسها على المسافرين الثلاثة المحبوسين في تلك المساحة الضيقة لعربة بريد قديمة متثاقلة؛ كانوا ألباسًا بعضهم لبعض، كلّ منهم لغزٌ مكتمل، كأنما هو في عربته الخاصة ومعه ستة أشخاص، أو في عربته الخاصة ومعه ستون شخصًا، وبينه وبين العربة التالية مسافة تبلغ عرض مقاطعة كاملة.

عاد الرسول في هرولة مريحة، وتوقف كثيرًا عند الحانات لتناول الشراب، لكنه أظهر ميلًا إلى الحفاظ على سرية مهمته، وإبقاء قبعته مرفوعة فوق عينيه. كانت عيناه تنسجمان بشكلٍ جيدٍ مع تلك الزخرفة؛ كون سطحها أسود، دون عمق في اللون أو الشكل، ومتقاربتين إلى حدٍّ كبير من بعضهما - كما لو كانتا خائفتين من اكتشافهما في شيء ما، منفردتين، إذا بقيتا متباعدتين. كان يبدو عليهما تعبيرٌ شرير، تحت قبعة قديمة مرفوعة إلى أعلى، مثل مبصقة ثلاثية الزوايا، وفوق وشاح كبير يغطي الذقن والحلق، ويهبط تقريبًا إلى ركبتي مُرتديه. وكان عندما يتوقف للشرب، يزيح هذا الوشاح بيده اليسرى، وفقط بينما يسكب الخمر بيده اليمنى. وبمجرد الانتهاء من ذلك، يُعيد الوشاح ثانية.

«لا، يا جيري، لا!»، قال الرسول وهو يعزف على موضوع واحد في أثناء سيره، «لن يناسبك هذا يا جيري. أنت يا جيري، أيها التاجر الأمين، هذا لن يناسب مجال عملك! لقد بُعث! اصفعني إن لم أعتقد أنه سكران!».

أثارت الرسالة التي يحملها ارتباك عقله، إلى درجة أنه رغب عدة مرات في خلع قبعته لحك رأسه. باستثناء قمة رأسه، التي كانت صلعاء بخشونة، كان لديه شعر أسود مشعث، يرتفع بخشونة في جميع الاتجاهات، وينمو إلى أسفل، ليصل تقريباً إلى أنفه العريض غير الحاد. كان الأمر أشبه بعمل أحد الحدادين، أشبه بقمة جدارٍ شائكٍ بقوة أكثر من كونه رأساً من الشعر؛ إلى حد أن أفضل اللاعبين في لعبة القفز فوق الظهر ربما يرفضونه، باعتباره أخطر رجل في العالم للقفز فوق ظهره.

وبينما كان يهرول عائداً بالرسالة التي عليه تسليمها إلى الحارس الليلي في كُشكِهِ عند باب بنك تيلسون، بجوار تمبل بار، الذي كان سيسلمها إلى سلطات أعلى في الداخل، اتخذت ظلال الليل أشكالاً أمامه مثل تلك التي تثيرها الرسالة، واتخذت أشكالاً أمام فرسه نشأت من الموضوعات الخاصة التي تثير عدم ارتياحه، ويبدو أنها كانت كثيرة، لأن الفرس كان يجفل عند كل ظل على الطريق.

واصلت عربة البريد سيرها متناقلة، متأرجحة، مهتزة، ومتعثرة خلال طريقها الشاق، وداخلها الزملاء الثلاثة الغامضون. كشفت ظلال الليل لهم، بالمثل، عن الأشكال التي توحى بها أعينهم الناعسة وأفكارهم الشاردة.

كان المسافرون في عربة البريد يشعرون بهلعٍ مصرفي، ويرغبون في سحب أموالهم من بنك تيلسون. هذا، بينما كان المسافر الذي ينتمي إلى ذلك البنك -بذراع ممدودة خلال الحزام الجلدي الذي يحُول دون ارتطامه بالمسافر المجاور ويدفعه إلى ركنه، كلما تعرضت العربة لهزة استثنائية- يومئ برأسه في مكانه، بعينين نصف مغلقة، ويتخيل أن النوافذ الصغيرة في العربة، ومصباحها الذي يلمع خافتًا خلال تلك النوافذ، وتلك الحزمة الضخمة لدى المسافر المقابل له، قد أصبحت هي البنك وحقت نجاحًا كبيرًا في مجال الأعمال. وتخيل أن صلصلة أطقم الأحصنة هي رنين المال، وسُدد في خمس دقائق عددٌ من الحوالات المصرفية أكبر حتى مما سدده بنك تيلسون، بكل علاقاته الأجنبية والمحلية، بثلاث مرات. ثم انفتحت أمامه الغرف الحصينة الموجودة تحت الأرض في بنك تيلسون، بما تحتويه من مخازنها وأسرارها الثمينة التي كان المسافر يعرفها (ولم يكن ما يعرفه عنها قليلًا)، ودخل يتجول بينها وهو ممسك بالمفاتيح الكبيرة والشمعة ضعيفة الاشتعال، ووجد لها آمنة وقوية وسليمة وساكنة، تمامًا كما رآهما آخر مرة.

وعلى الرغم من أن البنك كان حاضراً في ذهنه على الدوام تقريباً، وعلى الرغم من أن العربة كانت بجواره دائماً (بطريقة مشوشة، مثل الشعور بالألم تحت تأثير مادة مُخدِّرة)، كان في ذهنه تيار آخر من الانطباعات لم يتوقف قطُّ عن الجريان طوال الليل: أنه في طريقه لإخراج شخص من قبره.

والآن، أظهرت العديد من الوجوه نفسها أمامه، لكنَّ ظلال الليل لم تُشر إلى الوجه الحقيقي للشخص المدفون. على أنها جميعاً كانت وجوهاً لرجلٍ في سن الخامسة والأربعين، وتختلف بشكلٍ أساسي في المشاعر التي تُعبّر عنها، وفي بشاعة حالة الاهتراء والهزال التي تعتر بهم. تابعت أمامه مشاعر الكبرياء، والازدراء، والتحدي، والعناد، والخضوع، والنواح؛ كما تابعت أيضاً أنواع مختلفة من الخدود الغارقة، وألوان البعث، والأيدي والأشكال الهزيلة، لكن الوجه كان واحداً، على العموم، وكل رأس كان قد شاب قبل الأوان. سأل الراكب الناعس هذا الشبح مائة مرة:

«منذ متى وأنت مدفون؟».

وكان الجواب دائماً هو نفسه: «ما يقرب من ثمانية عشر عاماً».

«وهل فقدت كل أمل في إخراجك؟».

«منذ وقت طويل».

«هل تعلم أنك تُبعث إلى الحياة؟».

«يقولون لي ذلك».

«آمل أنك تهتم بالحياة؟».

«لا أستطيع أن أقول».

«هل أريها لك؟ هل تأتي لرؤيتها؟».

كانت الإجابات عن هذا السؤال مختلفة ومتناقضة. في بعض الأحيان، كان يأتي الرد المتقطع كالتالي: «تمهل! قد تقتلني سرعة رؤيتي

لها». وفي بعض الأحيان، كان يجيب بعد وابلٍ من الدموع الرقيقة قائلاً:
«خذني إليها». وكان، في أحيان أخرى، ينظر مُحدقاً ومتحيراً، ثم يقول:
«أنا لا أعرفها، أنا لا أفهم».

وبعد هذا الحوار المُتخيّل، كان المسافر يحفر ويحفر ويحفر في
خياله - أحياناً بجاروف، وأحياناً بمفتاح كبير، وأحياناً بيديه - لإخراج
هذا المخلوق البائس. وعندما يخرج أخيراً، ويتساقط التراب حول
وجهه وشعره، يتحوّل فجأةً إلى غبار، ثم يجفل المسافر من تلقاء نفسه،
ويُخَفِّض النافذة ليشعر بحقيقة الضباب والمطر على خده.

ومع ذلك، حتى عندما تفتح عيناه على الضباب والمطر، وعلى
رقعة الضوء المتحركة الصادرة عن المصابيح، وعلى السياج الممتد
على جانب الطريق، ويبدو مترجعاً إلى الخلف بسبب حركة العربة،
كانت ظلال الليل خارج العربة تسقط في موكب ظلال الليل داخلها.
وتبدو المنشأة المصرفية الحقيقية في تمبل بار موجودة، وكذا الأعمال
التجارية الحقيقية التي جرت في اليوم السابق، فضلاً عن الغرف
الحصينة الحقيقية، والرسالة الحقيقية المُرسلة إليه، والرسالة الحقيقية
التي تحمل ردّه. وفي وسط هذا كله، يرتفع الوجه الشبحي، ويتوجه إليه
بالحديث مرة أخرى.

«منذ متى وأنت مدفون؟».

«ما يقرب من ثمانية عشر عاماً».

«آمل أنك تهتم بالحياة؟».

«لا أستطيع أن أقول».

ظل يحفر ويحفر وحفر إلى أن نبَّهته حركة تنم عن نفاذ الصبر، قام بها أحد المسافرين الآخرين، فرفع النافذة، فسحب ذراعه بإحكام من خلال الشريط الجلدي، وأخذ يتأمل الشكلىن النائمين حتى فقد عقله السيطرة عليهما، وانزلقا مرة أخرى بعيدًا.. إلى البنك والقبر.

«منذ متى وأنت مدفون؟».

«ما يقرب من ثمانية عشر عامًا».

«وهل فقدت كل أمل في إخراجك؟».

«منذ وقت طويل».

كانت الكلمات لا تزال في سمعه كأنما قيلت للتو، ترنُّ بوضوح في سمعه كما كانت دائمًا الكلمات التي قيلت في حياته، عندما بدأ المسافر المرهق يعي بضوء النهار، ووجد أن ظلال الليل قد اختفت.

أنزل النافذة، ونظر إلى شروق الشمس. كانت هناك تلة من الأرض المحروثة، عليها محراث متروك من الليلة الماضية عندما لم تكن الخيول مربوطة. وخلف ذلك، بستان هادئ من الأشجار الصغيرة المقطوعة، حيث لا تزال العديد من الأوراق ذات اللون الأحمر المحترق والأصفر الذهبي باقية على الأشجار. وعلى الرغم من برودة الأرض ورطوبتها، كانت السماء صافية، وارتفعت الشمس مشرقة وهادئة وجميلة.

«ثمانية عشر عامًا!»، قال المسافر وهو ينظر إلى الشمس، «يا لكرم خالق النهار! أن تُدفن حيًّا لمدة ثمانية عشر عامًا!».

الفصل الرابع

الإعداد

عندما وصلت عربة البريد بنجاح إلى دوفر، خلال فترة الظهيرة، فتح الخادم في فندق رويال جورج باب العربة كما هي عادته. قام بذلك ببهجة احتفالية، ذلك أن رحلة البريد من لندن في الشتاء كانت إنجازًا يستحق المسافر المغامر التهنئة عليه.

بحلول ذلك الوقت، لم يكن باقياً سوى مسافرٍ مغامرٍ واحدٍ يستحق التهنئة؛ فقد وصل الاثنان الآخران إلى وجهتهما على الطريق. كان الجزء الداخلي من العربة عَفْنًا، بقشَّه الرطب القذر، ورائحته الكريهة، وعمته، ويشبه إلى حدٍّ ما بيتاً كبيراً لإيواء الكلاب. وكان المسافر المتبقي، السيد لوري، وهو ينفض نفسه من سلاسل القش، ومن تشابُك معطفه المجمع، وقبعته المرفرفة، وأرجله الموحلة، يشبه نوعاً من الكلاب الكبيرة.

«أيها النادل، هل سيبحر المركب إلى كاليه غدًا؟».

«نعم يا سيدي، إذا استمر الطقس جيداً والرياح معتدلة. سيكون المد جيداً في نحو الساعة الثانية بعد الظهر، يا سيدي. هل تريد سريراً يا سيدي؟».

«لن أذهب إلى الفراش حتى الليل، لكنني أريد غرفة نوم، وحلاقًا». ثم الإفطار يا سيدي؟ نعم، سيدي. من هذا الطريق، يا سيدي، إذا سمحت. إلى غرفة كونكورد! خذ حقيبة السيد المحترم والماء الساخن إلى غرفة كونكورد. اخلع حذاء السيد المحترم في غرفة كونكورد. (ستجد نازًا رائعة من الفحم البحري، يا سيدي). أرسل الحلاق إلى كونكورد. هيا، تحرك الآن نحو غرفة كونكورد!».

تُخصَّص دائمًا غرفة النوم المُسمَّاة «كونكورد» للمسافر عن طريق عربة البريد، ويتدثر دومًا هؤلاء المسافرون بشدة من الرأس إلى القدم. وقد كان لهذه الغرفة سمة غريبة منذ إنشاء فندق «رويال جورج»: على الرغم من أن نوعًا واحدًا فقط من الرجال كان يُشاهد داخلًا إليها، فقد خرج منها جميع أنواع وأصناف الرجال. وهكذا، كان نادل آخر، وحمَّالان، والعديد من الخادِمات، ومالكة الفندق، يتسكعون جميعًا بالمصادفة في مواقع مختلفة على الطريق بين غرفة كونكورد وغرفة الطعام، عندما مرَّ رجل في الستين من عمره في طريقه لتناول الإفطار، وهو يرتدي بذلة رسمية بُنية اللون، بالية إلى حدٍّ كبيرٍ وإن كانت مُصانة جيدًا، وذات أكمام مربعة كبيرة مطوية وجيوب قلابة كبيرة.

لم يكن في غرفة الطعام شاغل آخر، في تلك الظهيرة، غير الرجل ذي البدلة البنية. كانت مائدة إفطاره تقع أمام النار. جلس ساكنًا، ونورها يسطع عليه في انتظار الوجبة. جلس ساكنًا، كأنما يجلس لثُرْسَم لوحة له.

بدا مُنظَّمًا ومُرتبًا للغاية، واضعًا يَدًا على كل ركبة، وساعة صاحبة تدق بموعِظة رنانة تحت صدريته، كأنما تزهو بوقارها وطول عمرها في مواجهة رعونة النار وسرعة تلاشيها. كانت ساقه ممشوقة، وكان مزهواً بها بعض الشيء لأن جواربه البنية كانت أنيقة ومُحكمة وذات ملمس ناعم. كما كان حذاؤه وأبازيمه تتسم بالأناقة أيضًا، رغم بساطتها. كان يرتدي باروكة شقراء صغيرة، ناعمة و متموجة، وشديدة الإحكام على رأسه: من المُفترَض أن تُصنَعَ أي باروكة من الشعر، لكنها بدت أكثر كأنها منسوجة من خيوط الحرير أو الزجاج. لم تكن ملابسه الكتانية ناعمة مثل جواربه، لكنها كانت بيضاء مثل قمم الأمواج التي تتحطم على الشاطئ المجاور، أو قطع الشراع التي تلمع في ضوء الشمس بعيدًا في البحر. وكان وجهه، الذي اعتاد قمعه وتهديته، لا يزال زوج من الأعين المشرقة الندية يُضيئه تحت الباروكة الغربية، التي لا بد أنها كَلَّفَتْ صاحبها، في السنوات الماضية، بعض الآلام للتدريب على ذلك التعبير المُركب والمتحفظ لموظفي بنك تيلسون. كان لون وجنتيه صحيًّا؛ ووجهه، رغم الخطوط التي تمتد خلاله، يحمل بعض آثار القلق. ولكن، ربما كان أهل الثقة من موظفي بنك تيلسون غير المتزوجين يشغلون أساسًا بهموم الآخرين؛ وربما الهموم المُستعملة، مثلها مثل الملابس المستعملة، تأتي بسهولة بين فترة وأخرى.

بعد أن استكمل السيد لوري تشبُّهه برجلٍ يجلس لُترسم لوحة له، غلبه النعاس، أيقظه وصول فطوره، وقال للنادل، وهو يحرك كرسيه في اتجاه الفطور:

«أتمنى إعداد الإقامة لسيدة شابة قد تأتي إلى هنا في أي وقت اليوم.
قد تسأل عن السيد جارفيس لوري، أو تسأل فقط عن رجل من بنك
تيلسون. برجاء إبلاغي».

«حاضر يا سيدي. بنك تيلسون في لندن، يا سيدي؟».

«نعم».

«حاضر، يا سيدي. كثيرًا ما يشرفنا، يا سيدي، استقبال رجالكم
المحترمين عند سفرهم ذهابًا وإيابًا بين لندن وباريس. يسافر كثيرًا
موظفو بنك تيلسون وشركاه، يا سيدي».

«صحيح. نحن بنك فرنسي، وكذلك إنجليزي».

«نعم، سيدي. أعتقد أنك لست معتادًا مثل هذا السفر، يا سيدي؟».

«ليس خلال السنوات الأخيرة. فقد مرت خمسة عشر عامًا منذ أن
جئنا - أقصد منذ أن جئْتُ - آخر مرة من فرنسا».

«حقًا، يا سيدي؟ كان ذلك قبل عملي هنا يا سيدي. قبل عمل
مجموعتنا هنا، يا سيدي. كان فندق رويال جورج في أيدٍ أخرى في
ذلك الوقت، يا سيدي».

«أعتقد ذلك».

«لكنني أراهن بقوة، يا سيدي، على أن بنكًا مثل تيلسون وشركاه
كان مزدهرًا منذ خمسين سنة، وليس مجرد خمسة عشر عامًا مضت؟».
«يمكنك مضاعفة هذا الرقم ثلاث مرات وتقول مائة وخمسين، ولا
تبتعد بذلك عن الحقيقة».

«حقًا، سيدي!».

أدار النادل فمه وكلتا عينيه وهو يخطو متراجعًا عن المائدة، ونقل منديله من ذراعه اليمنى إلى اليسرى، واتخذ وضعًا مريحًا، ووقف يراقب الضيف وهو يأكل ويشرب، كأنما يراقب من مرصد أو برج مراقبة؛ كما هي عادة التُّدُل القديمة في جميع العصور.

عندما أنهى السيد لوري فطوره، خرج في نزهة على الشاطئ. تُخفي بلدة دوفر الصغيرة، الضيقة والملتوية، نفسها بعيدًا عن الشاطئ، وتُحجم رأسها في المنحدرات الطباشيرية، مثل نعامة بحرية. كان الشاطئ عبارة عن صحراء تضم أكوامًا من مياه البحر والحجارة المتساقطة بشدة؛ والبحر يفعل ما يحلو له، وما يحلو له هو الدمار. كان يهدر على المدينة، ويهدر على المنحدرات، ويقلب الساحل بجنون. كان الهواء بين المنازل ذا نكهة سمكية قوية، حتى إن المرء ربما يفترض أن الأسماك المريضة ارتفعت لتغطس فيه، كما يهبط المرضى من البشر إلى البحر ليغطسوا فيه. كان الصيد في الميناء قليلًا، بينما كان التنزه ليلاً والنظر إلى البحر كثيرًا: خاصة في فترات المد واقتراب الفيضان. وكان صغار التجار الصغار، الذين لا يمارسون أي عمل تجاري على الإطلاق، يحققون أحيانًا ثروات ضخمة لأسباب غير معروفة، ومن اللافت إلى النظر عدم قدرة أي شخص في هذا الجوار على تحمُّل رؤية مُشعل المصابيح.

مع انحسار النهار نحو فترة ما بعد الظهر، وأصبح الهواء مشحونًا مرة أخرى بالضباب والبخار بعد أن كان صافيًا على فترات بما يكفي لرؤية الساحل الفرنسي، بدت أفكار السيد لوري غائمة أيضًا. وعندما

حل الظلام، جلس أمام مدفأة غرفة الطعام في انتظار عشاءه مثلما انتظر فطوره من قبل، وأخذ عقله يحفر ويحفر ويحفر في جمرات الفحم الحمراء المتقدة.

إن زجاجة من نبيذ كلاريت الجيد بعد العشاء لن تضر حفاًراً يحفر في الفحم الأحمر، بخلاف أنها تميل إلى صرفه عن العمل. كان السيد لوري خاملاً لفترة طويلة، وقد سكب للتو كأسه الأخيرة من النبيذ، ويبدو على مظهره الرضا الكامل الذي يبدو على رجل مسن ناضر البشرة وصل إلى نهاية الزجاجة؛ وذلك عندما تناهت إلى سمعه قعقة عجلات في الشارع الضيق ودمدمة في ساحة النزل.

وضع كأسه دون مساس، وقال: «إنها الآنسة!».

وبعد دقائق قليلة، جاء النادل ليعلم عن وصول الآنسة مانيت من لندن، وأنها يسعددها رؤية السيد النبيل من بنك تيلسون.

«بمثل هذه السرعة؟».

كانت الآنسة مانيت قد تناولت وجبة طعام خفيفة خلال الطريق، لذا لم تطلب شيئاً عند وصولها؛ وكانت حريصة للغاية على رؤية الرجل النبيل من بنك تيلسون على الفور، إن كان ذلك مناسباً له.

لم يتبقَّ للرجل النبيل من بنك تيلسون سوى إفراغ كأسه في حالة من اليأس البليد، وتسوية باروكتة الكتانية الصغيرة الغريبة عند أذنيه، واتباع النادل إلى غرفة الآنسة مانيت. كانت غرفة كبيرة مظلمة، مؤثثة بأسلوب جنائزي بشعر الخيل الأسود، وملئية بطاولات داكنة ثقيلة ومُزينة بدرجة

كبيرة، بحيث انعكست الشمعتان الطويلتان على الطاولة في منتصف الغرفة بشكل كئيب على كل ورقة؛ كأنما الشمعتان مدفونتان في قبرين عميقين من خشب الماهوجني الأسود، ولا يمكن توقُّع صدور أي ضوء منهما إلى أن يجري استخراجهما.

كان يصعب اختراق الظلمة إلى درجة أن السيد لوري، وهو يشق طريقه فوق السجادة التركية البالية، افترض أن الأنسة مانيت توجد حاليًا في غرفة مجاورة. لكنه، بعد أن تجاوز الشمعتين الطويلتين، رأى سيدة شابة تقف لاستقباله عند الطاولة بينهما وبين المدفأة؛ سيدة شابة لا تزيد على سبعة عشر عامًا، ترتدي عباءة ركوب الخيل، وما زالت تمسك بيدها شريط قبعة السفر المصنوعة من القش. بينما استقرت عيناه على شخصية قصيرة ونحيلة وجميلة، وكمية من الشعر الذهبي، وزوج من الأعين الزرقاء التي قابلت عينيه بنظرة استفسار، وجهة ذات قدرة فريدة (تُدَّكر كم كانت شابة ورقيقة) على التشكُّل في تعبيرٍ ليس الحيرة تمامًا، أو التعجب، أو الذعر، أو مجرد انتباه ثابتٍ بارع، على الرغم من أنه تضمن جميع التعبيرات الأربعة - بينما استقرت عيناه على تلك الأشياء، مرَّ بذهنه تشابه واضحٌ مفاجئ لطفلة كان قد حملها بين ذراعيه على الممر عبر هذا المسار نفسه، في يوم بارد، حيث تدفق البرد بكثافة وارتفع البحر عاليًا. تلاشى الشبه، كما يتلاشى النَّفس على سطح مرآة مستطيلة عمودية شاحبة خلفها، كان على إطارها موكب مستشفى من الكيوبيد السود، والعديد منهم مقطوعو الرأس وجميعهم مشلولون، يقدمون سلاسلًا سوداء من فاكهة البحر الميت إلى الإلهات السود. انحنى بوقارٍ أمام الأنسة مانيت.

«أرجوك أن تجلس يا سيدي»، قالت بصوتٍ شابٍّ واضح ولطيف للغاية؛ به لكنة أجنبية بعض الشيء، وإن كانت محدودة جدًا في الواقع. قال السيد لوري، مستخدمًا آداب السلوك في عصر سابق، وهو ينحني بوقار مرة أخرى، ثم يتخذ مقعده: «أنا أُقبِّل يدك، يا آنسة».

«تلقيت بالأمس، يا سيدي، رسالة من البنك تخبرني بوجود معلومات... أو اكتشافات...».

«لا تهمل الكلمة يا آنسة. تفني أيُّ من الكلمتين بالعرض».

«... تتعلق بالملكات الصغيرة لأبي المسكين، الذي لم أره قطُّ... فقد مات منذ فترة طويلة...».

تحرك السيد لوري في كرسيه، وألقى نظرة مضطربة نحو موكب مستشفى الكيوبيد السود كأنما ضُمَّت سلالهم السخيفة أي مساعدة لأي شخص!

«... مما يستوجب ضرورة ذهابي إلى باريس، حيث أتواصل هناك مع أحد رجال البنك المحترمين، الذي تجشم عناء السفر إلى باريس لهذا الغرض».

«أنا هذا الرجل».

«وهذا ما كنت مستعدة لسماعه، يا سيدي».

انحنى له (كانت السيدات الشابات ينحنين احترامًا في تلك الأيام)، برغبة كبيرة في أن تنقل له شعورها بأنه أكبر منها سنًا وأكثر حكمة. انحنى لها مرة أخرى.

«لقد أجبْتُ البنك، يا سيدي، أنه ما دام أولئك الذين يعرفون الأمر وتكرموا بتقديم المشورة لي يعتبرون سفري إلى فرنسا ضروريًا، ونظرًا إلى أنني يتيمة، وليس لديَّ صديق يمكن أن يسافر معي، فإنني أُقدِّر تقديرًا كبيرًا إذا سُمِح لي أن أضع نفسي، خلال الرحلة، تحت حماية هذا الرجل الفاضل. وكان الرجل قد غادر لندن، لكنني أعتقد أن رسولاً قد توجه إليه ليلتمس منه أن يتكرم بانتظاري هنا».

قال السيد لوري: «كنت سعيدًا بتكليفي بهذه المهمة. وسأكون أكثر سعادة بتنفيذها».

«سيدي، أشكرك حقًا، أشكرك بامتنانٍ شديد. أخبرني البنك أن الرجل الفاضل سيشرح لي تفاصيل الموضوع، وأني يجب أن أكون على أهبة الاستعداد لأن أجد هذه التفاصيل ذات طبيعة مفاجئة. وقد بذلت قصارى جهدي لإعداد نفسي، ولديَّ بطبيعة الحال شغف قوي ومتلهف على معرفتها».

قال السيد لوري: «بطبيعة الحال، نعم... أنا...».

وبعد برهة، أضاف، وهو يضع باروكته الكتانية الهشة على أذنيه مرة أخرى، «من الصعب جدًّا البدء».

لم يبدأ، لكنه في تردده، التقى نظرتها. رفعت جبهتها الشابة نفسها مُتخذة ذلك التعبير المتفرد - لكنه كان جميلًا ومتميزًا، إلى جانب غرابته - ورفعت يدها، كأنما تلتقط بحركة لا إرادية ظلًا عابرًا أو تمسك به.

«هل أنت غريب عني تمامًا يا سيدي؟».

«ألست كذلك؟»، فتح السيد لوري يديه وبسطهما إلى الخارج بابتسامة مشاكسة.

تعمّق تعبيرها بين الحاجبين وفوق الأنف الأنثوي الصغير، الذي كانت استقامته دقيقة وجميلة بقدر ما يمكن أن تكون، عندما جلست مستغرقة في التفكير على الكرسي الذي ظلّت واقفة بجواره حتى تلك اللحظة. راقبها وهي تتأمل، وفي اللحظة التي رفعت فيها عينيها مرة أخرى، تابع حديثه:

«في البلد الذي احتضنك، أعتقد من الأفضل مخاطبتك كامرأة إنجليزية شابة، آنسة مانيت؟».

«إن شئت، يا سيدي».

«آنسة مانيت، أنا رجل أعمال، ومُكلّف بمُهمة عمل يجب أن أنجزها. وعندما تستمعين، لا تصني إلى حديثي بأكثر مما لو كنتُ آلة ناطقة ... حقًا، أنا لست أكثر من ذلك. وبعد إذنك، سأروي لك، يا آنسة، قصة أحد عملائنا».

«قصة!».

بدا أنه أخطأ عمدًا في فهم الكلمة التي كررتها، عندما أضاف في عجل: «نعم، عملاء. ففي الأعمال المصرفية، نحن نُطلق عادة كلمة عملاء على مَنْ نتعامل معهم. كان رجلًا فرنسيًا من رجال العلم، حقق إنجازات كبيرة ... كان طيبًا».

«ليس من بلدة بوفيه؟».

«ماذا، نعم، من بلدة بوفيه. كان الرجل من بوفيه، مثل والدك السيد مانيت، وكان يتمتع بسمعة طيبة في باريس. وتشرفت بمعرفته هناك. كانت تجمعنا علاقة عمل، لكنها كانت سرية. كنت في ذلك الوقت في مصرنا الفرنسي، وكنت... أوه! عشرون عامًا».

«في ذلك الوقت... هل يمكنني أن أسأل، في أي وقت يا سيدي؟».

«أنا أتحدث، يا آنسة، عن عشرين عامًا مضت. لقد تزوج سيدة إنجليزية، وكنت أحد الأوصياء. وكانت شؤونه المالية، مثله مثل العديد من السادة الفرنسيين والعائلات الفرنسية الأخرى، في يد بنك تيلسون بالكامل. وأنا، أو كُنْتُ، بطريقة مماثلة، وصيًا من نوع أو آخر للعشرات من عملائنا. هذه مجرد علاقات عمل، يا آنسة؛ لا توجد بها صداقة، ولا اهتمام خاص، ولا شيء مثل المشاعر. وقد انتقلت من نوع من العمل إلى آخر، في سياق حياتي العملية، تمامًا كما أُنقل من أحد عملائنا إلى آخر خلال يوم عملي. باختصار، ليس لدي أي مشاعر. أنا مجرد آلة. ولمواصلة حديثي...».

«لكن هذه هي قصة والدي يا سيدي. وقد بدأت أتذكر» - كانت جبهتها التي اخشوشنت على نحوٍ فضولي موجهة نحوه بقوة - «أنني عندما تُركتُ يتيمة عند وفاة والدتي بعد عامين فقط من وفاة والدي، كنتَ أنتَ من أحضرني إلى إنجلترا. أكاد أكون على يقين من أنه أنت».

أمسك السيد لوري باليد الصغيرة الحائرة التي تقدمت بثقة لتمسك بيده، ووضعها بكياسة على شفتيه. ثم قاد الشابة مباشرة إلى كرسيها مرة أخرى. أمسك ظهر الكرسي بيده اليسرى، واستخدم يده اليمنى

بالتناوب لفرك ذقنه، أو سحب باروكته على أذنيه، أو الإشارة إلى ما قاله، ووقف ينظر إلى وجهها، بينما جلست تنظر إلى وجهه.

«آنسة مانيت، لقد كنتُ أنا. وسوف ترين كيف تحدثت عن نفسي بصدقٍ الآن عندما قلت إنني لا أشعر بأي مشاعر، وإن جميع العلاقات التي أقيمها مع زملائي البشر هي مجرد علاقات عمل، عندما تتذكرين أنني لم أرك منذ ذلك الحين. لا؛ لقد كنت تحت رعاية بنك تيلسون منذ ذلك الحين، وكنتُ أنا مشغولاً بأعمالٍ أخرى لبنك تيلسون منذ ذلك الحين، أما عن المشاعر! فليس لديّ وقت ولا فرصة لهم. أنا أقضي حياتي كلها، يا آنسة، في إدارة آلة مالية هائلة».

وبعد هذا الوصف الغريب لروتين عمله اليومي، سَوَّى السيد لوري باروكته الكتانية على رأسه بكلتا يديه (وهو أمر غير ضروري على الإطلاق، فما من شيء يمكن أن يكون أكثر استواء من سطحها اللامع السابق)، واستأنف وضعه السابق.

«حتى الآن، يا آنسة (كما لاحظتِ)، هذه هي قصة والدك المأسوف عليه. والآن يأتي الفرق. إذا لم يكن والدك قد مات عندما مات... لا تخافي! أنفهم كيف تجفلين!».

لقد أجفلت بالفعل. وأمسكت معصمه بكلتا يديها.

«أرجوكِ»، قال السيد لوري بنبرة مُهدّئة، وهو يرفع يده اليسرى من ظهر الكرسي ليضعها على الأصابع المتوسلة التي تشبّثت به في رعشة عنيفة. «سيطري أرجوكِ على انفعالك... إنها مسألة عمل. وكما كنت أقول...».

اضطرب من نظرتها إلى درجة أنه توقف، وأخذ يتجول، ثم بدأ من جديد:

«كما كنت أقول، لو لم يمت السيد مانيت؛ لو كان اختفى فجأة وبصمت؛ لو كان اختطف؛ لو لم يكن من الصعب تخمين إلى أي مكان مروع أخذه، على الرغم من عدم وجود طريقة لاقتفاء أثره؛ ولو كان لديه عدو أعرفه بين أولئك المواطنين الذين يتمتعون بامتياز، بحيث يخشى أجراً الناس في زماني الحديث عنه همساً هناك وراء البحار؛ وعلى سبيل المثال، الامتياز الذي يتيح له ملء استثمارات فارغة لإيداع أي شخص في السجن ليصبح في طي النسيان لأي فترة زمنية؛ ولو كانت زوجته قد توسلت إلى الملك، والملكة، والبلاط، ورجال الدين، لمعرفة أي أخبار عنه، ولكن دون جدوى... عندئذٍ، يكون تاريخ والدك هو تاريخ هذا الرجل البائس، طبيب بلدة بوفيه».

«أتوسل إليك أن تخبرني بالمزيد، يا سيدي».

«سأفعل، سأفعل ذلك، هل يمكنك التحمل؟»

«يمكنني تحمل أي شيء سوى عدم اليقين الذي تتركني فيه في هذه اللحظة».

«أنت تتحدثين برباطة جأش، وأنت... رابطة الجأش. هذا جيد!»
(على الرغم من أن أسلوبه كان يبدو أقل اقتناعاً من كلماته). «إنها مسألة عمل. يمكنك اعتبارها مسألة تخصص العمل... عمل يجب القيام به. والآن، إذا كانت زوجة هذا الطبيب، على الرغم من أنها سيدة تتمتع بشجاعة وروح عظيمين، قد عانت بشدة من هذه القضية قبل ولادة وليدها الصغير...».

«كان الوليد الصغير ابنة، يا سيدي».

«ابنة، إنها مسألة عمل... لا تبتثسي. يا آنسة، إذا كانت السيدة المسكينة قد عانت بشدة قبل ولادة طفلتها الصغيرة، فقد قررت تجنب الطفلة المسكينة ورائة أي قدرٍ من العذاب الذي عرفت هي آلامه، وذلك بتربيتها على الاعتقاد بأن والدها قد مات... لا، لا تركعي! بحق السماء لماذا تركعين لي!».

«من أجل الحقيقة. يا سيدي العزيز، الطيب، الرحيم، من أجل الحقيقة!».

«أ...أ... إنها مسألة عمل. أنتِ تُربكيني، كيف يمكنني إنجاز العمل إذا كنت مرتبكاً؟ دعينا نحاول تصفية ذهني. إذا أمكنك أن تتلطفني الآن وتخبريني، على سبيل المثال، ما تسعة أضعاف التسعة بنسات، أو كم شلناً في العشرين جنيهاً، فسوف يشجعني هذا للغاية؛ إذ يجب أن أشعر بالراحة تجاه حالتك الذهنية».

دون أن تجيب مباشرة عن مناشدته، جلست ساكنة عندما ساعدها على القيام بلطفٍ شديد، وكانت الأيدي التي لم تتوقف عن التشبُّث بمعصميه أكثر ثباتاً مما كانت عليه، بحيث بعثت الشعور بالطمأنينة إلى السيد جارفيس لوري.

«هذا صحيح، هذا صحيح. شجاعة! عمل! يوجد عملٌ أمامك؛ عمل مفيد. آنسة مانيت، لقد أتبعت والدتك هذا الأسلوب معك. وعندما وافتها المنية -وأعتقد أنها كانت محطمة القلب- لم تكن قد توانت قط في بحثها غير المجدي عن والدك. تركتك، في الثانية من

عمرِك، لكي تكبري وتصبحي مزدهرة وجميلة وسعيدة، دون سحابة سوداء من العيش في حالة من عدم اليقين تجاه والدك؛ ما إذا كان قلبه سرعان ما توقف في السجن، أم بُلي هناك خلال سنوات عديدة طويلة». عندما قال تلك الكلمات، خفض بصره، بشفقة ممزوجة بإعجاب، إلى الشعر الذهبي المتدفق؛ كأنما صوّر لنفسه أنه ربما كان مشوبًا بالفعل باللون الرمادي.

«تعرفين أن والدك لم يكن لديهما ممتلكات كبيرة، وأن ما كان لديهما كان محفوظًا لأمك ولك. ولم يحدث اكتشاف جديد لأي أموال أو ممتلكات أخرى. لكن...».

شعر أن الفتاة تشد معصمه أقرب، فتوقف. كانت تعبيرات جبينها، الذي جذب انتباهه بشكل خاص، والذي أصبح الآن ثابتًا، قد تعمقت وتحولت إلى تعبيرات عن الألم والرعب.

«لكنه... وُجد. إنه حي. من المحتمل جدًّا أنه تغيّر بدرجة كبيرة؛ ربما أصبح حطامًا تقريبًا، على الرغم من أننا نأمل الأفضل. لا يزال في قيد الحياة. لقد نُقل والدك إلى منزل خادم قديم في باريس، وسوف نذهب إلى هناك: أنا، لأتعرّف عليه إذا استطعت؛ وأنت، لإعادته إلى الحياة، والحب، والواجب، والاسترخاء، والراحة».

سرت قشعريرة في جسدها، ومنها إلى جسده. ثم قالت بصوت منخفضٍ مميزٍ ومذهول، كأنما تتحدث في حلم:
«سأرى شبّحه! سيكون شبّحه... وليس هو!».

ربت السيد لوري بهدوء على اليدين اللتين تشبثتا بذراعه. «لا عليك، اهدئي، اهدئي! انظري الآن، انظري الآن! أنتِ تعرفين الآن الأفضل والأسوأ. أنتِ في طريقكِ إلى الرجل المظلوم البائس؛ وقريباً، بعد رحلة بحرية لطيفة ورحلة برية لطيفة، ستكونين إلى جانبه العزيز». كررت بنفس النبرة، غارقة في الهمس: «لقد كنتُ حرة، كنتُ سعيدة، لكن شبحه لم يطاردني قط!».

«هناك شيء واحد فقط أكثر»، قال السيد لوري مُشدِّداً على كلامه، كوسيلة مفيدة لجذب انتباهها: «لقد عُثِرَ عليه تحت اسم آخر؛ ذلك أنه نسي اسمه منذ فترة طويلة، أو أخفي عنه منذ فترة طويلة. سيكون أسوأ من عدم الجدوى أن نثير الآن أي تساؤلات عن أي منهما؛ وسيكون أسوأ من عدم الجدوى أن نسعى لمعرفة ما إذا كان قد ناله التجاهر لسنوات، أم أن احتجازه سجيناً كان عن عمدٍ دائماً. كما سيكون أسوأ من عدم الجدوى الآن إجراء أي استفسارات، نظراً إلى خطورة ذلك. من الأفضل عدم ذكر الموضوع في أي مكان، أو بأي شكل من الأشكال؛ مع إبعاده -لفترة ما، على أي حال- خارج فرنسا. حتى أنا، على الرغم من شعوري بالأمان كرجلٍ إنجليزي، وحتى موظفو بنك تيلسون، على الرغم من أهميتهم للائتمان الفرنسي، نتجنب أي إشارة إلى هذه المسألة. ولا أحمل معي أي قصاصة من الكتابة تشير إلى الموضوع بوضوح؛ فهذه خدمة سرية تماماً. ولذلك، تتجمّع أوراق اعتمادِي وسجلاتي ومذكراتي كلها في سطر واحد، «بُعث إلى الحياة»؛ وهي العبارة التي قد تعني أي شيء. لكن، ماذا حدث! إنها لا تسمع كلمة واحدة! أنسة مانيت!».

كانت ساكنة وصامتة تمامًا، ولم تستند حتى إلى ظهر كرسيها، بل جلست تحت يده فاقدة الإحساس تمامًا، وعيناها مفتوحتان ومثبتتان عليه. وبدا هذا التعبير الأخير كما لو أنه نحتًا أو رسمًا في جبهتها. كانت قبضتها على ذراعه قوية جدًا، إلى درجة أنه خاف أن يُبعد نفسه خشية أن يؤذيها. ولذلك نادى بصوتٍ عالٍ طلبًا للمساعدة دون أن يتحرك.

جاءت امرأة شرسة المظهر، تتقدم خدم النُّزل، ولاحظ السيد لوري حتى في اضطرابه أنها حمراء كلها، وشعرها أحمر، وترتدي ملابس ضيقة غريبة، وعلى رأسها غطاء عجيب يشبه كوب القياس الأسطواني الطويل، ومقياس جيد أيضًا، أو قطعة كبيرة من جُبِن ستيلتون. وسرعان ما حسمت مسألة انفصاله عن الشابة المسكينة، بأن وضعت يداً قوية على صدره، وقذفت به إلى الخلف، إلى أقرب جدار.

(«أعتقد أن هذه اليد يجب أن تكون لرجلٍ بالفعل!»، هذا ما خطر في بال السيد لوري اللاهث، بالتزامن مع ارتطامه بالجدار).

صاحت تلك الهيئة البشرية مخاطبة خدم النُّزل: «ماذا، انتبهوا جميعًا! لماذا لا تذهبون وتُحضِّرون الأشياء، بدلًا من الوقوف هناك والتحديث إلى وجهي؟ أنا لستُ جذابة للنظر، أليس كذلك؟ لماذا لا تذهبون وتجلبون الأشياء؟ سوف أوريكم، إذا لم تُحضِّروا أملاح الشم لإيقاظ الوعي، والماء البارد، والخل بسرعة سوف أريكم».

أحضر الخدم على الفور هذه المواد المُنعشة، ووُضعت المريضة بهدوءٍ على أريكة، واعتنت بها بمهارة ولطفٍ كبيرين: نادتها بـ «يا غاليتي!» و«يا طائري!»، وفردت شعرها الذهبي جانبًا على كتفيها باعتزازٍ وعنايةٍ كبيرين.

ثم التفتت بسخطٍ إلى السيد لوري، وقالت: «وأنت يا مَنْ ترتدي اللون البني! ألم يكن في مقدورك أن تخبرها بما كان عليك أن تخبرها به، دون إخافتها حتى الموت؟ انظر إليها، بوجهها الشاحب الجميل ويديها الباردتين، هل يليق ذلك بعمل رجل مصرفي؟».

ارتبك السيد لوري للغاية بسبب سؤال تصعب الإجابة عنه، إلى درجة أنه لم يستطع إلا أن ينظر إلى الفتاة من بعيدٍ بتعاطفٍ وتواضعٍ أضعف بكثير؛ بينما كانت المرأة القوية، بعد أن طردت خدم النُّزل بتوعدهم بعقوبة غامضة تتمثل في «سوف أريكم» شيئًا لم تذكره إذا ظلوا واقفين يحدقون، تنجح في مهمة استعادة الفتاة لوعيها تدريجيًا، وإقناعها بوضع رأسها المتدلي على كتفها.

قال السيد لوري: «آمل أن تكون في صحة جيدة الآن».

«إذا استعادت صحتها، لن يكون الفضل لك يا ذا الرداء البني. عزيزتي الجميلة!».

قال السيد لوري، بعد توقُّفٍ آخر من التعاطف والتواضع الضعيفين، «آمل أن ترافقي الأنسة مانيت إلى فرنسا؟».

«هذا شيء مُحتمَل أيضًا!»، أجابت المرأة القوية، «إذا ما قُدِّر لي يومًا أن أعبر المياه المالحة، فهل تفترض أن العناية الإلهية كانت ستجعل نصيبي في جزيرة؟».

ونظرًا إلى أن هذا سؤال آخر تصعب الإجابة عنه، فقد انسحب السيد جارفيس لوري للتفكير فيه.

الفصل الخامس

متجر النبيذ

سقط برميل كبير من النبيذ في الشارع وتحطم. وقع الحادث عند إخراج البرميل من عربة يد. سقط البرميل متدحرجًا، وتقطعت أطواقه، ثم استقر على الحجارة خارج باب متجر النبيذ مباشرة، مُحطَّمًا كقشرة الجوز.

أوقف كلُّ من كان على مقربة عمله، أو كسله، ليركض إلى الموقع ويشرب النبيذ. كانت حجارة الشارع الخشنة غير المستوية، الناتئة في كل اتجاه، والمُصمَّمة بوضوح - كما قد يعتقد المرء - لإعاقة جميع الكائنات الحية التي تقترب منها، قد حوّلت الشارع إلى برك صغيرة من النبيذ؛ يحيط بكلِّ منها مجموعة أو حشدٌ متدافع، وفقًا لحجمها. ركع بعض الرجال، واستخدموا أيديهم المضمومة كمغارف ليرشفوا؛ أو حاولوا مساعدة النساء اللاتي انحنين فوق أكتافهم، على الشُّرب قبل أن يتسرَّب النبيذ من بين أصابعهم. وقام آخرون، رجالًا ونساء، بغمر أكواب صغيرة من الأواني الفخارية المكسورة في البرك، أو حتى مناديل رؤوس النساء، التي عصروها في أفواه الأطفال الرضع لتجف. وصنع آخرون سدودًا طينية صغيرة لوقف جريان النبيذ. واندفع آخرون

هنا وهناك، بتوجيه من المُطلين من النوافذ العالية، لقطع سُبل تيارات صغيرة من النبيذ بدأت تتحرك في اتجاهاتٍ جديدة. وكرّس آخرون أنفسهم لأجزاء البرميل الرطبة والمصبوغة بالنبيذ، وأخذوا يلعبونها، بل ويمضغون حتى الأجزاء الرطبة المتعفنة بالنبيذ بتلذذٍ شديد. لم تكن هناك قنوات تصريف للنبيذ؛ ولم يقتصر الأمر على ارتشافه بالكامل فحسب، بل وامتصاص الكثير من الطين معه، إلى حد التصور أن كُنَّاسًا ربما مرّ في الشارع، لو كان في مقدور أي شخص على دراية بالمكان أن يؤمن بمثل هذه المعجزة.

دَوَى صوتٌ صاخب من الضحك والأصوات المُستمِعة -أصوات رجال، ونساء، وأطفال- في الشارع، بينما استمرت لعبة النبيذ هذه. اتَّسمت تلك التسلية بالقليل من الخشونة والكثير من المرح، كما شهدت رفقة خاصة، وميلاً ملحوظاً من جانب كل شخص للانضمام إلى شخص آخر؛ مما أدى، خاصة بين الأكثر حظاً أو الأكثر ابتهاجاً، إلى العناق المرح، وشرب الأنخاب، ومصافحة الأيدي، وحتى تشابك الأيدي والرقص، عشرات معاً. وعندما نفذ النبيذ، وحولت الأصابع الأماكن التي كان فيها وفيّاً إلى ما يشبه شبكة الشواية، توقفت هذه المظاهر، توقفت فجأة كما اندلعت؛ فالرجل الذي كان قد ترك منشاره ملتصقاً بالحطب الذي كان يقطعه، حرّكه مرة أخرى، والمرأة التي تركت وعاءً صغيراً من الرماد الساخن على عتبة الباب، حيث كانت تحاول تخفيف ألم أصابع يديها وقدميها المتضررة، أو أصابع قدمي طفلها، قد عادت إليه. والرجال ذوو الأذرع العارية وجدائل الشعر

المُلبدة، والوجوه الشاحبة كوجوه الموتى، الذين خرجوا من الأقبية إلى ضوء الشتاء، قد ابتعدوا للعودة إلى الأقبية مرة أخرى، وتجمعت كآبة على المشهد، بدت أكثر طبيعية من ضوء الشمس.

كان النبيذ نبيذًا أحمر، ولطَّخ أرض الشارع الضيق في ضاحية القديس أنطوان، في باريس، حيث انسكب، كما لطَّخ العديد من الأيدي أيضًا، والعديد من الوجوه، والعديد من الأقدام العارية، والعديد من الأحذية الخشبية. تركت يدا الرجل الذي ينشر الخشب علامات حمراء على الكتل الخشبية. وكان جبين المرأة التي أرضعت طفلها ملطَّخًا ببقع الخرق القديمة التي لَفَّتْها حول رأسها مرة أخرى. أما أولئك الذين تكالبوا إلى حد لعق ومضغ بقايا البرميل، فقد اكتسبوا لطخة وحشية حول أفواههم، وهناك رجل مُهرج طويل القامة مُلطَّخ للغاية، يبدو رأسه خارج، أكثر من كونه داخل، كيس طويل قدر من طاقة نوم، كتب على الحائط وإصبعه مغموسة في النبيذ الموحد كلمة: الدم.

كان لا بد أن يأتي ذلك الوقت، عندما ينسكب ذلك النبيذ أيضًا على حجارة الشارع، وعندما تُلطَّخ صبغته الكثيرين هناك بلونها الأحمر.

والآن، بعد أن استقرَّت السحابة فوق ضاحية القديس أنطوان، التي أبعدتها بريقٌ مؤقتٌ عن وجهه المقدس، كان ظلامها ثقیلاً، كان البرد، والقذارة، والمرض، والجهل، والعوز، بمنزلة السادة الذين ينتظرون الحضور المقدس، نبلاء القوة العظمى جميعهم، وإنما كان الأخير على الأخص أقواهم. يا لها من نماذج من شعبٍ خضع للطحن وإعادة الطحن الرهيب في الطاحونة - وبالتأكيد ليس في الطاحونة الأسطورية

التي تُحيل المُسنين إلى شباب - يرتجفون في كل ركن، ويدخلون ويخرجون من كل باب، وينظرون من كل نافذة، ويرتعدون في كل بقية من بقايا ثوب يرتدونه هزّة الرياح. كانت الطاحونة التي خضعوا لها هي تلك التي تطحن الشباب لتحيلهم إلى مُسنين؛ حيث كان للأطفال وجوه عجائز وأصوات بائسة؛ وتبدو عليهم، وعلى وجوه الكبار، المحفورة بكل شقٍّ من شقوق العُمر، وتنمو مجدداً، تنهيدة الجوع. كانت تنهيدة سائدة في كل مكان، كان الجوع يُحدّق من المنازل العالية، ومن الملابس الرثة المُعلقة على الأعمدة والأحبال؛ كان الجوع يملأ حياتهم برُقَعٍ من القش، والخرق، والخشب، والورق؛ وكان الجوع يتكرر في كل قطعة من قطع الحطب الصغيرة التي قطعها الرجل؛ وكان الجوع يُحدّق من المداخل التي لا ينبعث منها أي دخان، وينطلق من الشارع القذر الذي لم تكن بين نفاياته أي فضلات لأي شيء يؤكل. كان الجوع منقوشاً على رفوف الخبّاز، مكتوباً في كل رغيّفٍ صغيرٍ من مخزونه الضئيل من الخبز الفاسد. وكان بادياً، في متجر النقانق، في كل قطعة من الطعام المُعد من الكلاب الميتة والمعرض للبيع. وكان الجوع يهزُّ عظامه الجافة بين حبّات أبو فروة المشويّة في الأسطوانة المقلوبة؛ وكان الجوع ممزقاً إلى ذرات في كل صحن رخيص من رقائق البطاطس، المقلية ببعض قطرات الزيت المترددة.

كان الجوع يستقر في مكان يناسبه؛ شارع ضيق متعرج، مليء بالفضاظة والرائحة الكريهة، تتفرّع منه شوارع متعرجة ضيقة أخرى، وكلها مأهولة بالخرق وطواقي النوم، وتفوح منها جميعاً رائحة الخرق

وطواقي النوم، وكل الأشياء المرئية التي تعلوها نظرة حزينة تبدو عليها علامات السوء. سادت أجواءٌ تثير لدى الناس شعورًا بالملاحقة، ومع ذلك كانت هناك بعض الأفكار الجامحة حول إمكانية أن ترتد على ملاحظتهم. وعلى الرغم من إحباطهم وهزالهم، لم تكن الأعين التي تقدح شرًّا تنقصهم، ولا الشَّفاء المضغوطة -البيضاء بسبب ما تكتبه- ولا الجباه المُقَطَّبة بما يشبه حبل المشنقة الذي يفكرون في احتماله أو فيما يسببه من إيذاء للآخرين. وكانت جميع اللافئات التجارية (وعدها كبيرٌ، يماثل تقريبًا عدد المتاجر)، تضم رسومًا تعبيرية قاتمة عن العوز. لم يرسم الجزار وبائع لحم الخنزير سوى بقايا قطع اللحم الصغيرة؛ ولم يرسم الخباز سوى الأرغفة الأكثر خشونة وضآلة. أما متاجر النبيذ، فقد رسمت بوقاحة الناس وهم يشربون ويتذمرون من كمياتهم الضئيلة من النبيذ الخفيف والبيرة، ويتهامسون معًا وهم عابسون. لم يكن هناك أي شيء في حالة مزدهرة، باستثناء الأدوات والأسلحة؛ فقد كانت سكاكين وفؤوس بائعها حادة ولامعة، ومطارق الحَدَّاد ثقيلة، ومخزون صانع السلاح قاتلاً. لم تكن هناك ممرات للمشاة بين حجارة الرصيف المشوَّهة، بما فيها من بحيرات صغيرة عديدة من الطين والماء، لكنها انتهت فجأة عند الأبواب. وتعويضًا عن ذلك، كانت قناة لتصريف المياه تمتد إلى منتصف الشارع -هذا إن امتدت على الإطلاق- وهو ما كان يحدث فقط بعد هطول أمطار غزيرة، ثم تمتد من خلال العديد من التقلبات الغريبة، إلى المنازل. وكانت مصابيح خرقاء مُعلَّقة، بحبلٍ وبكرة، على مسافات واسعة خلال الشوارع. وفي الليل، عندما يُنزلها

مُشعل المصباح ويُضيئها ويرفعها مرة أخرى، كانت أليكة ضعيفة من القتائل الخافتة تتأرجح واهنة فوق رؤوسهم، كأنما لو كانت في البحر. لقد كانوا في البحر بالفعل، وكانت السفينة وطاقمها يتهددهم خطر العاصفة.

وذلك لأنه كان لا بد أن يحين الوقت عندما يتأتى على الفزاعات^(١) الهزيمة في تلك المنطقة، وهم في حالة من البطالة والجوع، أن تراقب مُشعل المصباح لفترة طويلة، بحيث يتمكنون من تصوّر الفكرة اللازمة لتحسين أسلوبه، ويرفعون الرجال إلى أعلى بتلك الحبال والبكرات ليضيئوا ظلام أحوالهم. لكن الوقت لم يحن بعد؛ وكل ريح هبّت على فرنسا كانت تهز أسمال الفزاعات عبثاً؛ ذلك أن الطيور، جميلة التغريد والريش، لم تكن لتبالي بها.

كان متجر النبيذ يقع عند الزاوية، وأفضل من معظم المتاجر الأخرى من حيث مظهره ومستواه، وكان صاحب المتجر يقف خارجه، مرتدياً صدرية صفراء وبنطلوناً أخضر، يراقب الصراع من أجل النبيذ المفقود. قال وهو يهز كتفيه للمرة الأخيرة: «هذا ليس من شأني، هذا ما فعله الناس القادمون من السوق؛ عليهم إحضار برميل آخر».

هناك، وقعت عيناه على الرجل المُهرّج الطويل يكتب نكاته، ناداه عبر الطريق:

«قل لي، إذن، يا جاسبارد، ماذا تفعل هناك؟».

(١) يرمز الكاتب إلى الشعب المحروم بالفزاعات (أي خيال المآتة)، ويرمز إلى السادة والنبلاء بالطيور - (المترجمة).

أشار الرجل إلى نكتته بأهمية كبيرة، كما يفعل أيضًا مع عشيرته في كثير من الأحيان، لكنه أخطأ هدفه، وفشل تمامًا، كما هي الحال مع عشيرته أيضًا في كثير من الأحيان.

قال صاحب متجر النبيذ، وهو يعبر الطريق ويمحو الدعابة بحفنة من الطين التقطها لهذا الغرض: «ماذا الآن؟ هل أنت أحد نزلاء مستشفى المجانين؟ لماذا تكتب في الشوارع العامة؟ أليس هناك - أخبرني أنت - أليس هناك مكان آخر تكتب فيه مثل هذه الكلمات؟».

وخلال اعتراضه، أسقط صاحب المتجر يده النظيفة (ربما عن طريق الخطأ، وربما لا) على قلب المهرج. ربت عليها المهرج بيده، وقفز برشاقة إلى أعلى، ونزل في وضع راقصٍ عجيبٍ، وانخلعت فردة من حذائه الملطخ من قدمه، ووقعت مستقرة في يده. لقد بدا مُهرجًا ذا طابع عملي، إن لم يكن شبيهًا بالذئب، إلى حدٍّ كبير في ظل هذه الظروف.

قال صاحب المتجر: «ارتدّه، ارتدّه. فلتُسمَّ النبيذ نبيذًا؛ وتنتهي عند هذا الحد». وبهذه النصيحة، مسح يده المتسخة على ملابس المهرج، كما كان... متعمدًا تمامًا، كأنما كان اتّساخ يده بسبب المهرج، ثم عبر الطريق مرة أخرى، ودخل متجر النبيذ.

كان صاحب متجر النبيذ هذا في الثلاثين من عمره، تشبه رقبته رقبة ثور، ويتسم بمظهرٍ عسكري. لا بد أن حالته المزاجية كانت حارة؛ إذ على الرغم من البرد القارس هذا اليوم، لم يكن يرتدي معطفًا، لكنه حمل معطفًا يتدلى على كتفه. كانت أكمام قميصه ملفوفة ومرفوعة

أيضاً، وذراعه البُنَيَّان عاريتان حتى المرفقين. ولم يغطَّ رأسه أي شيء سوى شعره الداكن القصير المجعد. لقد كان رجلاً داكن البشرة تماماً، ذا عَينين ثاقبتين تفصل بينهما مسافة عريضة. ويدل مظهره على تمتعه بروح الدعابة بوجه عام، وإن كان يبدو مظهرًا عنيدًا أيضًا. من الواضح أنه رجل ذو عزيمة قوية وهدف محدد؛ رجل لا ترغب في مقابلته مندفعًا خلال ممر ضيق توجد فجوة على جانبيه، فما من شيء يمكن أن يثنيه عن طريقه.

كانت السيدة ديفارج، زوجته، تجلس في المتجر خلف المنضدة عند دخوله، والسيدة ديفارج امرأة بدينة في مثل سنِّه تقريبًا، ذات عين يقظة نادرًا ما تبدو كأنها تنظر إلى أي شيء، ويد كبيرة مُثْقَلَة بالخواتم، ووجه ثابت، وملامح قوية، ويتسم سلوكها برباطة جأش كبيرة. وكانت السيدة ديفارج تتمتع بشخصية يمكن للمرء أن يستنتج منها أنها لا تتركب أخطاء عادة في الحسابات التي تُشْرِف عليها. ونظرًا إلى حساسية السيدة ديفارج للبرد، كانت تتدثر بالفراء، وتلفُّ شالًا كبيرًا زاهيًا حول رأسها، لكن دون إخفاء قرطبيها الكبيرين. كانت حياكتها أمامها، لكنها وضعتها جانبًا لتنظف أسنانها بعود أسنان. وعلى هذا النحو انشغلت السيدة ديفارج، مع مرفقها الأيمن مسنودًا بيدها اليسرى، ولم تقل شيئًا عندما دخل زوجها، لكنها سعلت مرة واحدة. أوحى مظهرها هذا، بالإضافة إلى رفع حاجبيها المحددين بشكلٍ داكنٍ فوق عود أسنانها بمسافة قريبة، إلى زوجها أنه من الأفضل أن يبحث بين العملاء في المتجر عن أي عميلٍ جديدٍ دخل عندما كان في الخارج.

وبناء على ذلك، أدار صاحب متجر النبيذ عينيه، حتى استقرتا على رجل مُسن وسيدة شابة يجلسان عند أحد الأركان. كان هناك آخرون: اثنان يلعبان الورق، واثنان يلعبان الدومينو، وثلاثة يقفون بجانب المنضدة يطيلون شرب كمية قليلة من النبيذ، وعندما مرَّ خلف المنضدة، لاحظ أن الرجل المُسن ينظر إلى الشابة قائلاً: «هذا هو رجلنا».

قال السيد ديفارج لنفسه: «بحق الشيطان، ماذا يفعلان هناك؟ أنا لا أعرفهما».

لكنه تظاهر بعدم ملاحظة الغريين، وأخذ يتحدث مع العملاء الثلاثة الذين يشربون على المنضدة.

وجّه أحد الثلاثة سؤالاً إلى السيد ديفارج: «كيف تسير الأمور يا جاك؟ هل ابتلع الناس كل النبيذ المسكوب؟».

أجاب السيد ديفارج: «كل قطرة، يا جاك».

عندما تبادل أطراف الحديث باستخدام الاسم الأول، سعلت السيدة ديفارج ثانية وهي تنظف أسنانها بعود الأسنان، ورفعت حاجبيها قليلاً مرة أخرى.

قال ثاني الثلاثة مُخاطباً السيد ديفارج: «نادرًا ما يعرف العديد من هذه الوحوش البائسة طعم النبيذ، أو أي شيء سوى الخبز الأسود والموت. أليس كذلك يا جاك؟».

أجاب السيد ديفارج: «نعم، هذا صحيح يا جاك».

عند هذا الاستخدام المتبادل الثاني للاسم الأول، سعلت السيدة ديفارج مرة أخرى، وهي لا تزال تستخدم عود أسنانها برباطة جأش عميقة، ورفعت حاجبيها قليلاً ثانية.

قال آخر الثلاثة الآن كلمته، وهو يضع وعاء الشرب الفارغ ويلعق شفّتيه.

«آه! الوضع أسوأ بكثير! هناك مذاقٌ مريّرٌ دائماً في أفواه تلك الماشية المسكينة، ويعيشون حياة صعبة يا جاك. هل أنا على حق، يا جاك؟».

«أنت على حقّ، يا جاك»، كان رد السيد ديفارج.

انتهى هذا التبادل الثالث للاسم الأول في الوقت الذي أُلقت فيه السيدة ديفارج عود أسنانها، وأبقت حاجبيها مرفوعين، وتململت قليلاً في مقعدها.

«انظروا! هذا صحيح!»، تمتم زوجها، «أيها السادة، هذه زوجتي!».

رفع العملاء الثلاثة قُبَعَاتِهِمْ ملوّحين بها لتحية السيدة ديفارج، وردّت على تحيتهم بإحناء رأسها وإلقاء نظرة سريعة عليهم، ثم أُلقت نظرة عفوية حول متجر النبيذ، وتناولت حياكتها بهدوء شديد واضح وراحة روحية، واستغرقت فيها.

قال زوجها، الذي أبقى عينيه المشرقتين عليها: «أيها السادة، طاب يومكم. إن الغرفة المفروشة على طراز ملائم للعُزَّاب، التي كنتم ترغبون في رؤيتها وتستفسرون عنها عندما خرجت من المتجر، تقع في

الطابق الخامس، يُفضي مدخل السُّلم إلى الفناء الصغير القريب من اليسار هنا»، مُشيرًا بيده، «بالقرب من نافذة متجري، لكنني أتذكر الآن أن أحدكم كان هناك بالفعل، ويمكنه أن يُريكم الطريق، أيها السادة، وداعًا!».

دفعوا ثمن نبذهم، وغادروا المكان. كانت عينا السيد ديفارج تتأملان زوجته في حياكتها، عندما نهض الرجل المُسن من ركنه، وطلب أن يقول كلمة.

أجابه السيد ديفارج: «عن طيب خاطر يا سيدي»، وسار معه بهدوء نحو الباب.

كان اجتماعهم قصيرًا جدًّا، لكنه حاسم للغاية. لم يكد الرجل يتفوّه بأول كلمة، حتى أجفل السيد ديفارج وأصبح شديد الانتباه. لم يَدُم الأمر دقيقة واحدة، عندما أومأ برأسه وخرج، ثم أومأ الرجل المُسن إلى الشابة، وخرجا أيضًا. كانت السيدة ديفارج تحيك بأصابع رشيقة، وظل حاجباها ثابتين، ولم ترَ شيئًا.

وهكذا خرج السيد جارفيس لوري والآنسة مانيت من متجر النبيذ، وانضمًّا إلى السيد ديفارج عند المدخل الذي وجَّه إليه المجموعة السابقة قبل ذلك بقليل. كان المدخل يُفتَح على فناء أسود صغير نتن، وكان بمنزلة المدخل العام لكومة كبيرة من المنازل، تكتظ بعدد كبير من السكان. وعند المدخل الكثيب المرصوف بالبلاط، المؤدي إلى السُّلم المرصوف بالبلاط الكثيب، انحنى السيد ديفارج على ركبة واحدة أمام ابنة سيده العجوز، ووضع يدها على شفتيه. لقد كان تصرفًا

لطيفاً، لكنه لم يحدث بلطفٍ على الإطلاق؛ فقد تحوّل الرجل تحوّلًا ملحوظًا للغاية في بضع ثوانٍ؛ لم تظهر على وجهه روح الدعابة، ولا أي ملمح للصراحة، لكنه أصبح رجلًا كتومًا وغاضبًا وخطيرًا.

خاطب السيد ديفارج، بصوتٍ صارم، السيد لوري، عندما بدؤوا في صعود السُّلم قائلاً: «إنه مرتفع جدًّا، وصعب بعض الشيء؛ من الأفضل أن نصعد ببطء».

همس السيد لوري: «هل هو وحده؟».

أجاب السيد ديفارج، بنفس الصوت المنخفض: «وحده! كان الله في عونهِ، من سيكون معه!».

«إذن، هل هو وحيد دائمًا؟».

«نعم».

«بناءً على رغبته؟».

«بناءً على احتياجه الضروري. لا يزال كما كان عندما رأيته أول مرة، بعد أن وجدوني وطلبوا معرفة ما إذا كنت سأخذه، وأن أتكم الأمر على مسؤوليتي... كما كان في ذلك الوقت، هكذا هو الآن».

«هل تغير كثيرًا؟».

«تغير!».

توقف صاحب متجر النبيذ ليضرب الحائط بيده، ويتمتم بلعناتٍ هائلة. لا يمكن لأي إجابة مباشرة أن تنطوي على نصف هذه القوة. أصبحت معنويات السيد لوري أثقل وأثقل، بينما يصعد هو ورفيقاه إلى أعلى وأعلى.

إن مثل هذا السُّلَم وملحقاته، في المناطق القديمة والأكثر ازدحامًا من باريس، من شأنه أن يكون شديد السوء الآن؛ لكنه، في ذلك الوقت، كان كريهاً بحقٍّ للأحاسيس المرهفة التي لم تألفه. كان كل مسكن صغير داخل هذا العش الكريه الكبير لمبنى مرتفع - أي بمعنى أن الغرفة أو الغرف خلف كل باب، تنفتح على السُّلَم العام - يترك كومة من القمامة خاصته عند سُلَمه، مع إلقاء النفايات الأخرى من نوافذه. كانت كتلة القذارة البائسة التي تولدت على هذا النحو ويتعذّر السيطرة عليها، من شأنها أن تلوث الهواء، حتى لو لم يُثقلها الفقر والحرمان بشوائبها غير المنظورة؛ وقد أدى هذان المصدران السيئان مجتمعين إلى أن أصبح الوضع يكاد لا يُحتمل. امتد الطريق خلال هذا الجو، عبر ممر مظلم شديد الانحدار من الأوساخ والسموم. ونظرًا إلى اضطرابه العقلي، وتزايد انزعاج رفيقته الشابة في كل لحظة، توقف السيد جارفيس لوري مرتين ليستريح. وجاء كل توقف منهما عند نافذة كثيفة شبكية القضبان، يبدو أن أي هواء جيد ضعيف لم يفسد بعد يهرب منها، كما يبدو أن جميع الأبخرة الفاسدة والسقيمة تزحف إليها. ومن خلال القضبان الصدئة، يمكن استشعار مذاق هذا الجوار المضطرب، وليس مجرد التقاط لمحات منه؛ ولم يكن يوجد في نطاقه أي شيء، أقرب أو أدنى من قمم برجَي كنيسة نوتردام العظيمين، يُبشر بحياة صحية أو تطلعات مأمونة.

وصلوا أخيرًا إلى قمة السُّلَم، وتوقفوا للمرة الثالثة. لا يزال أمامهم صعود سلم علوي، ذي ميل أكثر انحدارًا وأبعاد أقل اتساعًا، قبل الوصول إلى طابق العليّة. وهنا استدار صاحب متجر النيذ، الذي كان

يتقدّمهما قليلاً دائماً ويتجه دوماً إلى الجانب الذي اتخذه السيد لوري، كأنما يخشى أن توجّه إليه الشابة أي سؤال، وتحسّس بعناية جيوب المعطف الذي حمّله على كتفه وأخرج مفتاحاً.

تساءل السيد لوري في اندهاش: «الباب مغلق إذن يا صديقي؟».

أجاب السيد ديفارج متجهماً: «آآآ. نعم».

«هل تعتقد أنه من الضروري إبقاء الرجل البائس منعزلاً هكذا؟».

اقترب منه السيد ديفارج، وهمس في أذنه متجهماً: «أعتقد أنه من الضروري إدخال المفتاح وتحريكه».

«لماذا؟».

«لماذا! لأنه عاش محبوباً فترة طويلة، وبالتالي قد يخاف، أو يهذي، أو يمزق نفسه إرباً، أو يموت؛ لا أعرف ما الضرر الذي يمكن أن يلحق به إذا ترك بابه مفتوحاً».

صاح السيد لوري: «هل هذا ممكن!».

كرر ديفارج بمرارة: «هل هذا ممكن! نعم. وعالم جميل نعيش فيه، عندما يكون ذلك ممكناً، وعندما تكون العديد من الأشياء الأخرى ممكنة، وليست ممكنة فحسب، بل تحدث، تحدث، أنفهم! كل يوم، تحت تلك السماء هناك. يحيا الشيطان. دعنا نواصل».

دار هذا الحوار بهمسٍ منخفضٍ جداً، بحيث لم تصل كلمة واحدة منه إلى أذني الشابة، لكنها كانت حينذاك ترتجف تحت وطأة هذه المشاعر القوية، وكان وجهها يُعبّر عن قلقٍ عميقٍ، وفوق كل شيء عن

فزِع ورعِبٍ شديدين، إلى درجة أن السيد لوري شعر أن عليه قول كلمة أو كلمتين لطمأنتها.

«تشجعي، عزيزتي الآنسة! تشجعي! إنه عمل! وسينتهي الأسوأ في لحظة؛ بمجرد اجتياز باب الغرفة، سينتهي الأسوأ. ثم يبدأ كل الخير الذي تجلبينه له، كل الراحة، كل السعادة التي تجلبينها له. فلندع صديقنا العزيز هنا يساعدك في هذا الجانب. هذا جيد، أيها الصديق ديفارج. هيا، الآن. إنها مسألة عمل، عمل!».

صعدوا ببطء وهدوء. كان السلم قصيرًا، وسرعان ما وصلوا إلى القمة. وهناك، ونظرًا إلى وجود منعطف مفاجئ، شاهدوا على الفور ثلاثة رجال، رؤوسهم منحنية ومتقاربة على جانب الباب، وينظرون باهتمامٍ من خلال بعض الشقوق أو الثقوب في الجدار، إلى الغرفة التي يغلقها هذا الباب. استدار هؤلاء الثلاثة عند سماعهم خطوات قريبة، نهضوا وظهر أنهم أولئك الثلاثة الذين لهم نفس الاسم، وكانوا يشربون في متجر النبيذ. قال السيد ديفارج موضحًا: لقد نسيتهم عندما فاجأتني زيارتك. اتركونا أيها الفتية الطيبون، لدينا عمل هنا».

تحرك الثلاثة، وهبطوا السلم في صمتٍ.

كان يبدو عدم وجود باب آخر في ذلك الطابق، ولذا ذهب صاحب متجر النبيذ مباشرة إلى هذا الباب عندما أصبحوا وحدهم. سأله السيد لوري في همسٍ، وبقليلٍ من الغضب:

«أتجعل من السيد مانيت عرضًا للمشاهدة؟».

«أريه، بالطريقة التي رأيتها، لقلة مختارة».

«هل هذا شيء جيد؟».

«أعتقد أنه جيد».

«من هم القلة؟ كيف تختارهم؟».

«أختارهم كرجالٍ حقيقيين، يحملون اسمي نفسه - جاك هو اسمي - ومن المرجح أن يكون المشهد مفيداً لهم. كفى؛ أنت إنجليزي؛ هذا شيء آخر. ابق هناك، إذا سمحت، لحظة قصيرة».

وبعد إيماءة تحذيرية لإبقائهما في الخلف، انحنى ونظر من خلال الشق الموجود في الحائط. وسرعان ما رفع رأسه مرة أخرى، وطرق الباب مرتين أو ثلاث مرات؛ ومن الواضح أن غرضه الوحيد كان إحداث ضوضاء هناك. وللغرض نفسه، حرك المفتاح ثلاث أو أربع مرات قبل أن يضعه بشكلٍ أخرق في القفل ويديره بأقصى ما يستطيع.

انفتح الباب ببطء إلى الداخل، ونظر إلى الغرفة وقال شيئاً، أجاب صوتٌ خافتٌ بشيء، لم يكن من الممكن على الطرفين التحدث بأكثر من مقطع لفظي واحد.

نظر إلى وراء من فوق كتفه، ودعاهما إلى الدخول. طوّق السيد لوري ذراعه بإحكام حول خصر الابنة وأمسكها؛ لأنه شعر أنها تفرق. استحثّها، وعرقٌ لا علاقة له بالعمل يلمع على خده: «أأأأ، إنه عمل، مجرد عمل. هيا، ادخلي!».

أجابت وهي ترتجف: «أنا خائفة».

«من أي شيء؟ من ماذا؟».

«أعني منه؛ من والدي».

أصابته حالتها باليأس، وبإشارة من قائدهما جذب إلى فوق رقبتة تلك الذراع التي كانت ترتعش على كتفه، ورفعها قليلاً، وأسرع بالفتاة إلى داخل الغرفة. أجلسها عند الباب مباشرة، وأمسك بها، وتشبث به. أخرج ديفارج المفتاح من الباب وأغلقه، ثم أغلقه بالمفتاح من الداخل، وأخرج المفتاح مرة أخرى وأمسكه بيده. قام بذلك بطريقة منظمة، وبأعلى قدرٍ ممكن من الضوضاء والإزعاج. وأخيراً، سار عبر الغرفة بخطوات محسوبة إلى حيث تقع النافذة. توقف هناك، واستدار. كانت العلية، التي بُنيت لتكون مستودعاً للحطب وما شابه ذلك، قاتمة ومظلمة؛ ذلك أن النافذة ذات الشكل الناتئ، كانت في الحقيقة باباً في السقف، مع رافعة صغيرة فوقها لرفع المؤن من الشارع: كان مثله مثل أي باب آخر لمبنى فرنسي: بلا زجاج، ويُغلق من المنتصف إلى قطعتين. ولتجنب البرد، يُغلق نصف هذا الباب بسرعة، ويُفتح الآخر فتحة ضئيلة جداً تسمح بمرور قدرٍ محدودٍ من الضوء، بحيث كان يصعب، لأول وهلة عند الدخول، رؤية أي شيء. وكان الاعتياد الطويل وحده، الذي ينمو ببطء لدى المرء، هو ما يتيح له القدرة على القيام بأي عمل يتطلب الدقة في مثل هذا الغموض. ومع ذلك، كان يجري القيام بعمل من هذا النوع في العلية؛ ذلك أن رجلاً أبيض الشعر كان يجلس على مقعدٍ منخفضٍ، وظهره نحو الباب، ووجهه نحو النافذة، حيث وقف صاحب متجر النبيذ ينظر إليه، وكان الرجل ينحني إلى الأمام ومشغولاً للغاية في صنع أحذية.

الفصل السادس

صانع الأحذية

«نهارك سعيد!»، قال السيد ديفارج وهو ينظر إلى الرأس الأبيض المُنحني المنشغل في صنع الأحذية.

ارتفع الرأس لحظة، وردَّ صوت خافت جدًّا على التحية، كأنما جاء من بعيد:

«نهارك سعيد!».

«أرى أنك ما زلت تعمل بجِدٍّ؟».

وبعد صمتٍ طويلٍ، ارتفع الرأس لحظةً أخرى، وأجاب الصوت: «نعم... أنا أعمل». نظرت هذه المرة عينان مُنهكتان إلى السائل، قبل أن ينحني الوجه مرةً أخرى.

كان وهن الصوت يثير الشفقة والخوف. لم يكن الوهن الناتج عن الضعف الجسدي، وإن كان للحبس وسوء الطعام دورهما أيضًا بلا شك، على أن خصوصية وضعه المؤسف كانت تتمثل في الوهن الناتج عن العزلة والإهمال. كان مثل الصدى الأخير الواهن لصوت صدر منذ فترة طويلة، طويلة جدًّا. لقد فقد تمامًا حياة الصوت البشري

وصداه، إلى درجة أنه أثر على الحواس؛ مثل لون كان جميلًا ذات يوم ثم تلاشى متحولًا إلى بقعة ضعيفة بائسة. كان أجوف ومكبوتًا للغاية، إلى حد أنه كان مثل صوتٍ قادمٍ من تحت الأرض. كان صوته يُعبر تمامًا عن مخلوق يائس وضائع؛ مثل نبرة مسافر جائع، أنهكه التجوال وحيدًا في البرية، عندما يتذكر المنزل والأصدقاء قبل أن يرقد انتظارًا للموت.

مرّت بضع دقائق وهو منشغل في عمله بصمتٍ. ارتفعت العينان المنهكتان ثانية؛ ليس بأي اهتمام أو فضول، وإنما بإدراكٍ آلي باهت مسبق أن المكان الذي يقف فيه الزائر الوحيد الذي يعرفه، لم يكن خاليًا بعد.

قال ديفارج، الذي لم يرفع نظره عن صانع الأحذية: «أريد إتاحة دخول المزيد من الضوء هنا، هل يمكنك أن تتحمّل قدرًا أكبر قليلًا من الضوء؟».

توقف صانع الأحذية عن عمله؛ ثم نظر نحو الأرض على أحد جانبيه، وبالمثل على الجانب الآخر، كأنما المكان خالٍ من الأصوات؛ ثم نظر إلى أعلى، إلى المتحدث.

«ماذا قلت؟».

«هل يمكنك تحمّل قدرٍ أكبر من الضوء؟».

«يجب أن أتحمّله، إذا أدخلته». (ووضع ظلًا شاحبًا من التأكيد على الكلمة الثانية).

فتح صاحب المتجر نصف الباب المفتوح مسافة أكبر قليلاً، وثبته حينذاك عند تلك الزاوية. سقط شعاعٌ عريضٌ من الضوء على العلية، وأظهر صانع الأحذية متوقفاً عن العمل ويضع حذاء غير مكتمل على حجره، وكانت أدواته القليلة المألوفة وقصاصات الجلد المختلفة مُلقاة عند قدميه وعلى مقعده. كانت لديه لحية بيضاء، مقصوصة بخشونة، لكنها ليست طويلة جداً؛ ووجه أجوف؛ وعينان شديداً اللّمعان. كان يمكن أن يتسبب هزال وجهه ونحافته في أن تبدو عيناه كبيرتين تحت حاجبيه الداكنين وشعره الأبيض المشعث، رغم أنهما ليستا كذلك بالفعل؛ لكنهما كانتا كبيرتين بشكلٍ طبيعي، وظهرتا على هذا النحو بشكلٍ غير طبيعي. كانت خرق قميصه الأصفر مفتوحة عند الحلق، وأظهرت جسده ذابلاً ومهترئاً؛ لقد ناله الشحوب، هو وثوبه القماشي القديم، وجواربه الفضفاضة، وجميع أسماله الممزقة، نتيجة العزلة الطويلة عن الضوء المباشر والهواء، وتحولوا إلى شكل واحد من اللون الأصفر الباهت، بحيث يصعب تمييزهم عن بعضهم.

رفع يده ووضعهما بين عينيه والضوء، وبدت عظام يده شفافة. وهكذا جلس، ونظرته فارغة ثابتة، ومتوقفاً عن عمله. لم ينظر قط إلى هيئة الشخص الذي يقف أمامه إلا بعد أن يخفض بصره لينظر أولاً إلى أحد جانبيه ثم إلى الجانب الآخر؛ كأنما فقد عادة ربط المكان بالصوت، ولم يتكلم قط إلا بعد أن يشرّد أولاً بهذه الطريقة، وينسى أن يتكلم.

سأله ديفارج، مُشيرًا إلى السيد لوري ليتقدم: «هل ستنتهي فردتي هذا الحذاء اليوم؟».

«ماذا قلت؟».

«هل تنوي إنهاء فردتي هذا الحذاء اليوم؟».

«لا يمكنني القول إنني أنوي ذلك، أنا أفترض ذلك، لا أعرف».

على أن السؤال ذكره بعمله، فانحنى عليه مرة أخرى.

تقدم السيد لوري إلى الأمام بصمتٍ، تاركًا الابنة عند الباب. عندما وقف، لمدة دقيقة أو دقيقتين، بجانب ديفارج، رفع صانع الأحذية بصره إلى أعلى. لم يُظهر أي دهشة عند رؤية شخص آخر، لكن أصابع إحدى يديه المرتعشتين شردت نحو شفتيه وهو ينظر إليه (كانت شفثاه وأظفاره من اللون الرصاصي الباهت نفسه)، ثم هبطت اليد على عمله، وانحنى ثانية على الحذاء. لم تستغرق النظرة والحركة أكثر من لحظة.

قال السيد ديفارج: «لديك زائر، كما ترى».

«ماذا قلت؟».

«هنا زائر».

رفع صانع الأحذية بصره إلى أعلى، كما فعل من قبل، لكن دون أن يرفع يده عن عمله.

قال ديفارج: «تعال! ها هو السيد الذي يعرف الحذاء جيد الصنع عندما يراه. دعه يرى ذلك الحذاء الذي تصنعه، خذه يا سيدي».

أخذه السيد لوري بيده.

«أخبر السيد عن نوع الحذاء واسم الصانع».

توقف صانع الأحذية فترة أطول من المعتاد، قبل أن يرد قائلاً:

«لقد نسيت ما سألتني، ماذا قلت؟».

«قلت، ألا يمكنك وصف نوع الحذاء، ليعرف السيد؟».

«إنه حذاء سيدة، حذاء للمشي لسيدة شابة، وهو يتفق والطرز الحالي. لم أر الطراز الحالي قط، كان لدي نموذج له». نظر إلى الحذاء بلمسة فخر عابرة.

قال ديفارج: «واسم الصانع؟».

والآن، ونظرًا إلى عدم وجود عمل يمسك به، وضع أصابع يده اليمنى في تجويف راحة يده اليسرى، ثم أصابع يده اليسرى في تجويف راحة يده اليمنى، ثم مرَّ يده على ذقنه الملتحي، وهكذا في تغييراتٍ منتظمة دون لحظة انقطاع. كانت مهمة استعادته من الشرود الذي يغرق فيه دائمًا بعدما يتحدث، تماثل استعادة شخص ضعيف جدًا من حالة إغماء، أو محاولة الحفاظ على روح شخص على وشك الموت، على أمل الكشف عن شيء ما.

«هل سألتني عن اسمي؟».

«نعم، سألتك بالتأكيد».

«مائة وخمسة، البرج الشمالي».

«هل هذا كل شيء؟».

«مائة وخمسة، البرج الشمالي».

وبصوتٍ مرهقٍ، ليس تنهيدة ولا أنينًا، انحنى للعمل مرة أخرى، حتى كُسِر الصمت مرة أخرى.

سأله السيد لوري، وهو ينظر إليه بشتاتٍ: «أنتَ لست صانع أحذية من حيث المهنة؟».

تحوّلت عيناه المنهكتان إلى ديفارج، كأنما سيُحيل السؤال إليه؛ لكنه نظر إلى الأرض لعدم حصوله على أي مساعدة من جانب ديفارج، ثم عاد إلى السائل.

«أنا لست صانع أحذية من حيث المهنة؟ لا، لم أكن صانع أحذية من حيث المهنة. أنا... أنا تعلمت ذلك هنا. علّمت نفسي. لقد طلبت الإذن...».

غاب ذهنه، ولو دقائق، مُحدّقًا إلى تلك التغيرات المنظومة على يديه طوال الوقت. عادت عيناه ببطء، أخيرًا، إلى الوجه الذي شردتا عنه. عندما استقرّتا عليه، جفل، واستأنف -بطريقة النائم الذي استيقظ في تلك اللحظة- عائداً إلى موضوع الليلة الماضية.

«لقد طلبت الإذن لتعليم نفسي، وحصلت عليه بصعوبة كبيرة بعد فترة طويلة، ومنذ ذلك الحين وأنا أصنع الأحذية».

مدّ يده ليستعيد الحذاء الذي أخذ منه. قال السيد لوري، وهو لا يزال ينظر إلى وجهه بشتاتٍ:

«السيد مانيت، ألا تتذكر أي شيء عني؟».

سقط الحذاء على الأرض، وجلس ينظر بشتاتٍ إلى السائل.

وضع السيد لوري يده على ذراع ديفارج: «السيد مانيت؛ ألا تتذكر شيئاً عن هذا الرجل؟ انظر إليه. انظر إليّ. سيد مانيت، ألا يحضر في

ذهنك مصرفي قديم، ولا تعامل مالي قديم، ولا خادم قديم، ولا زمن قديم؟».

بينما جلس أسير سنواتٍ عديدةٍ ينظر بثباتٍ، وبالتناوب، إلى السيد لوري وديفارج، أخذت بعض علامات، مطموسة منذ فترة طويلة، لذكاءٍ موجّه بنشاطٍ في منتصف الجبهة، تُقحم نفسها تدريجيًا من خلال الضباب الأسود الذي هبط عليه. غمرته الغيوم مرة أخرى، أصبحت أضعف، واختفت، لكنها كانت هناك. وهكذا بالضبط تكرر التعبير على وجه الفتاة الشابة الجميل، التي تسلفت على طول الجدار إلى موقعٍ يمكنها رؤيته منه، وحيث تقف الآن تنظر إليه، رافعة يديها اللتين لم ترفعهما في البداية إلا في تعاطفٍ خائفٍ، إن لم يكن حتى لإبعاده وحجب رؤيته، لكنها تمتد الآن نحوه، وترتجف بشغفٍ لوضع ذلك الوجه الشبحي على صدرها الشاب الدافئ، وتُعيده بالحُب إلى الحياة والأمل مرة أخرى. وقد تكرر هذا التعبير بالضبط (وإن كان بسماتٍ أقوى) على وجهها الشاب الجميل، بحيث بدا كأنه يمر مثل ضوء متحرك منه إليها.

كان الظلام قد حلَّ عليه وهو قابع في مكانه. نظر إلى الاثنين، بانتباه أقل فأقل، واتجهت عيناه في ذهولٍ كثيفٍ إلى الأرض، ونظر نحوها بالطريقة القديمة، وأخيرًا، مع تنهيدة طويلة عميقة، رفع الحذاء واستأنف عمله.

سأل ديفارج هامسًا: «سيدي، هل تعرفت عليه؟».

«نعم. للحظة. اعتقدتُ في البداية أنه حالة ميؤوس منها تمامًا؛ لكنني رأيتَ بلا شك، للحظة واحدة، ذلك الوجه الذي عرفته جيدًا ذات يوم. صمتًا! دعونا نبتعد إلى الوراء أكثر. صمتًا!».

تحركت الفتاة من مكانها عند جدار العلية، واقتربت كثيرًا من المقعد الذي جلس عليه. كان هناك شيء مروع في عدم وعيه بالشخص الذي يمكنها أن تمد يدها وتلمسه وهو ينحني لأداء عمله. لم تُنطق كلمة واحدة، ولم يصدر أي صوت. وقفت الفتاة بجانبه مثل روح، وانحني مؤديًا عمله.

حدث، أخيرًا، أن احتاج إلى تغيير الأداة المُمسك بها في يده، والاستعانة بسكين صانع الأحذية. كان السكين يقع على جانبه، الذي لم يكن الجانب الذي تقف عنده الفتاة. تناول السكين، وعندما بدأ ينحني ليواصل العمل مرة أخرى، التقطت عيناه طرف ثوبها. رفع عينيه ورأى وجهها. بدأ المشاهدان يتحركان إلى الأمام، لكنها أبقيتهما بإشارة من يدها. لم تخش أن يضربها بالسكين، على الرغم من أن رفيقها كانا خائفين من أن يفعل ذلك.

حرق إليها بنظرة فزع. وبعد فترة بدأت شفته في تكوين بعض الكلمات، على الرغم من عدم صدور أي صوت منهما. وتدرجياً، على فتراتٍ من توقُّف تنفُّسه السريع والمرهق، سُمع يقول:

«ما هذا؟».

وضعت يديها الاثنتين على شفتيها، والدموع تنهمر على وجهها،

وقبلتهما مُرسلة إليه القُبلة؛ ثم شبكتهما على صدرها، كأنما تضع رأسه المُدْمَر هناك.

«أنت لست ابنة السجّان؟».

تنهدت قائلة: «لا».

«من أنت؟».

لم تكن تثق بعدُ في نبرات صوتها، فجلست على المقعد بجانبه. تراجع، لكنها وضعت يدها على ذراعه، وعندئذ انتابته رعشة غريبة، سرت بوضوح في جسده. وضع السكين بهدوء، وجلس يحرق إليها. شعرها الذهبي، الذي كانت تنظمه طويلاً في تجميعات، دُفع جانباً بسرعة، وسقط على رقبتها. مدّ صانع الأحذية يده شيئاً فشيئاً، وأمسكه وأخذ ينظر إليه. وفي هذه الأثناء، أصابه الدهول، ثم عاد إلى عمله بعد تنهيدة عميقة أخرى.

على أن ذلك لم يستمر فترة طويلة، تركت الفتاة ذراعه، ووضعت يدها على كتفه، وبعد أن نظر إليها بشكٍّ، مرتين أو ثلاث مرات، كأنما ليتأكد من وجودها بالفعل، ترك عمله ووضع يده على رقبته، وجذب خيطاً أسود متصلاً بقطعة قماش مطوية. فتحها بعناية على ركبته، وكانت تحتوي على كمية قليلة جداً من الشعر: ليس أكثر من شعرة ذهبية طويلة أو اثنتين، كان يلفها حول إصبعه ذات يوم من الأيام قديماً. أمسك شعرها بيده مرة أخرى، وأمعن النظر فيه. «إنهما متماثلان، كيف يمكن أن يحدث هذا! متى حدث! كيف حدث!».

وعندما عادت علامات التعبير المُركَّز إلى جبهته، بدا أنه أصبح واعياً أن تلك العلامات توجد على جبهتها أيضاً، أدار الفتاة بالكامل في اتجاه الضوء، وأخذ يتطلَّع إليها.

«لقد وضعت رأسها على كتفي في تلك الليلة عندما استدعيت - كانت تخشى ذهابي، على الرغم من أنني لم أشعر بأي خوف- وعندما أحضروني إلى البرج الشمالي، وجدوا هذه الشعرات على كمي. «هل يمكن أن تتركوها لي؟ لا يمكنها أبداً مساعدتي على الهرب جسدياً، على أنها قد تساعدني روحياً»، كانت تلك هي الكلمات التي قلتها، أتذكرها جيداً».

لقد شكَّلت هذه الكلمات بشفتيه عدة مرات قبل أن يتمكن من نطقها، لكنه ما إن وجد كلمات منطوقة، حتى صدرت متماسكة، وإن كان ببطء.

«كيف كان هذا؟ هل كنتِ أنتِ؟».

اندفع المشاهدان ثانية، عندما أقبلَ عليها بشكلٍ مفاجئٍ مخيف، لكنها جلست ساكنة تماماً بين يديه، وقالت فقط بصوتٍ منخفض: «أتوسل إليكما، أيها السيدان الطيبان، ألا تقتربا منّا، لا تتكلما، ولا تتحركا!».

صاح: «اسمعي! صوت من كان هذا؟».

تركت يدها يديها وهو يُطلق هذه الصيحة، ثم رفع يديه إلى شعره الأبيض وأخذ يمزقه في جنون. لقد انطفأ؛ ذلك أن كل شيء، ما عدا صناعة الأحذية، قد انطفأت. أعاد طي قطعة القماش الصغيرة، وحاول تأمينها في صدره، على أنه استمر ينظر إلى الفتاة، ويهز رأسه بكآبة.

«لا، لا، لا؛ أنتِ صغيرة جدًا، ونضرة جدًا، هذا غير ممكن، انظري
حال السجين، هذه ليست الأيدي التي كانت تعرفها، وهذا ليس الوجه
الذي كانت تعرفه، وهذا ليس الصوت الذي كانت تسمعه من قبل. لا،
لا. لقد كانت، وكان هو، قبل سنوات البرج الشمالي البطيئة... منذ
عصور. ما اسمك يا ملاكي اللطيف؟».

ابتهاجًا بنبرته وأسلوبه الناعمين، جثت ابنته على ركبتيها أمامه،
ووضعت يديها المتوسلتين على صدره.

«يا سيدي، في وقتٍ آخر ستعرف اسمي، ومن كانت أمي، ومن
أبي، وكيف أنني لم أعرف قطُّ تاريخهما القاسي، لكنني لا أستطيع أن
أخبرك بذلك الآن، ولا أستطيع أن أخبرك هنا. كل ما يمكنني أن أقوله
لك، هنا والآن، هو أنني أتوسل إليك لكي تلمسني وتباركني، قبلني،
قبلني! يا عزيزي، يا عزيزي!».

اختلط شعر رأسه الأبيض البارد بشعرها المشع، فأدفأه وأضاءه
كأن نور الحرية يشرق.

«إذا سمعتَ في صوتي - لا أعرف إن كان الأمر كذلك، لكنني
أمل أن يكون - إذا سمعتَ في صوتي أي تشابه مع صوتٍ كان ذات يوم
موسيقى عذبة في أذنك، ابكِ من أجله، ابكِ من أجله! وإذا أحسست،
عندما تلمس شعري، بأي شيء يُدْكَرك برأس محبوب لديك كان يرقد
على صدرك عندما كنت صغيرًا وحرًّا، ابكِ من أجله، ابكِ من أجله!
وإذا أعدتُ إليك تلك الذكرى - عندما أُلْمَح لك عن بيت أماننا، حيث
سأكون صادقة معك ووفية كل الوفاء بواجباتي ومُخلصة كل الإخلاص

في خدمتك - ذكرى منزل مهجور منذ زمن طويل، بينما يذوب قلبك المسكين حسرة، ابك من أجله، ابك من أجله!».

طوّقت عنقه واحتضنته، وهزّته على صدرها كطفل.

«وإذا أخبرتك، يا أعز عزيز، أن عذابك قد انتهى، وأنني جئت إلى هنا لأبعدك عنه، وأنا سنذهب إلى إنجلترا النعش في سلام وهدوء، ويجعلك هذا تُفكر في حياتك الصالحة التي أهدرت، وفي موطننا فرنسا الذي كان بالغ الإساءة إليك، فابك من أجل ذلك، ابك من أجل ذلك! وإذا عرفت -عندما أخبرك باسمي، وباسم أبي الذي لا يزال في قيد الحياة، واسم أمي التي وافتها المنية- أنني يجب أن أركع أمام أبي الكريم، وأطلب منه العفو لأنني لم أجاهد قط من أجله طوال اليوم، ولم أبق مستيقظة أبكيه طوال الليل، لأن حُب أمي المسكينة أخفى عني عذابه، فابك من أجل ذلك، ابك من أجل ذلك! ابك من أجلها، إذن، ومن أجلي! أيها السيدان الطيبان، اشكرا الله! أشعر بدموعه المقدسة على وجهي، وتنهدياته تتردد فوق قلبي، أوه، انظرا! اشكرا الله من أجلنا، اشكرا الله!».

غرق بين ذراعيها، وهوى وجهه على صدرها: كان مشهداً مؤثراً للغاية، لكنه مروع إلى حد كبير، من حيث جسامه الخطأ والمعاناة السابقتين، إلى درجة أن الرجلين المشاهدين غطيا وجهيهما.

عندما ظل هدوء العلية مستمراً فترة طويلة، واستسلم صدره الخافق وجسمه المهتز منذ فترة طويلة للهدوء الذي يجب أن يتبع جميع العواصف -شعار الإنسانية عن الهدوء والصمت الذي يجب أن تصمت عنده أخيراً العاصفة المُسمّاة حياة- تقدم الرجلان لرفع الأب

وابنته من الأرض. كان قد هوى تدريجيًا على الأرض، ورقد مُنهكًا في سُبَات. وكانت قد استقرت على الأرض معه، بحيث يستلقي رأسه على ذراعها؛ وحجب عنه الضوء شعرها المتدلي فوقه.

قالت وهي ترفع يدها إلى السيد لوري عندما انحنى فوقهما، بعد أن تمخط عدة مرات: «إذا أمكن، دون إزعاجه، ترتيب كل شيء لمغادرتنا باريس على الفور، بحيث يمكن إخراجه من الباب نفسه...».

سألها السيد لوري: «لكن، فكري مليًا. هل هو قادر على تحمّل الرحلة؟».

«أعتقد أنه أكثر تحمُّلاً للرحلة من البقاء في هذه المدينة، التي تُعتبر مروّعة للغاية بالنسبة إليه».

قال ديفارج، وهو راعٍ ينظر ويسمع: «هذا صحيح. والأكثر من ذلك أن وجود السيد مانيت خارج فرنسا أفضل، لجميع الأسباب. قل لي، هل أستاذجّر عربة وخيولاً؟».

أجاب السيد لوري، مستعيدًا على الفور سلوكياته المنظومة: «هذا عمل؛ وإذا كان يجب إنجاز العمل، فمن الأفضل أن أقوم أنا به».

قالت الآنسة مانيت في إلحاح: «أرجو أن تتركانا هنا. أنتما تريان كيف أصبح هادئًا، ولا تخافا من تركه معي الآن. هل هناك داعٍ للخوف؟ إذا أغلقتما الباب لتأميننا من دخول أي شخص، فلا شك أنكما ستجدانه، عند عودتكما، هادئًا كما تركتماه، وعلى أي حال، سأعتني به حتى تعودا، وبعد ذلك نتحرك به على الفور».

لم يكن السيدان لوري وديفارج راغبين، إلى حدٍّ ما، في اتّباع هذا المسار، وكانا يفضّلان بقاء أحدهما، لكن المهمة لم تكن تقتصر على تدبير عربة وخيول، بل تدبير أوراق السفر أيضًا؛ ونظرًا إلى ضيق الوقت، لأن اليوم كان يقترب من نهايته، قاما أخيرًا على عجلٍ بتقسيم العمل الذي كان من الضروري القيام به، والإسراع في إنجازه.

مع حلول الظلام، وضعت الابنة رأسها على الأرض الصلبة بالقرب من الجانب الذي يرقد فيه الأب، وأخذت تراقبه. زاد الظلام عمقًا، وظل كلاهما هادئًا إلى أن لمع ضوء من خلال شقوق الجدار.

جهّز السيد لوري والسيد ديفارج كل شيء للرحلة، وأحضرا معهما، إلى جانب معاطف وأغطية السفر، الخبز واللحوم والنبيد والقهوة الساخنة. وضع السيد ديفارج هذه المؤونة والمصباح الذي كان يحمله، على مقعد صانع الأحذية (لم تضم العلية أي شيء آخر سوى سرير من القش)، وقام هو والسيد لوري بإيقاظ الأسير، ومساعدته على الوقوف.

لم يكن في مقدور أي ذكاء بشري أن يقرأ أسرار عقله، في ظل الدهشة الشاحبة على وجهه المذعور. ما إذا كان يعرف ما حدث، وما إذا كان يتذكر ما قالوه له، وما إذا كان يعرف أنه حُر، كانت أسئلة لا يمكن لأي ذكاء أن يحلها. حاولوا التحدث إليه، لكنه كان مرتبكًا للغاية، وبطيئًا جدًّا في الإجابة، إلى درجة أنهم خافوا من حيرته، واتفقوا على تركه لحاله الآن. كانت لديه طريقة غريبة يائسة، لم يسبق لها مثيل من قبل، في وضع رأسه بين يديه من حين لآخر، على أنه كان يشعر بمتعة من مجرد سماع صوت ابنته، ويلتفت إليها دائمًا عندما تتحدث.

وبطريقة الخضوع للطاعة تحت الإكراه، التي اعتادها شخص منذ فترة طويلة، كان يأكل ويشرب ما يعطوه له ليأكله ويشربه، ويرتدي المعطف وغيره من الأغذية التي يعطونها له كي يرتديها، كما كان يستجيب بسهولة لابنته عندما تضع ذراعها في ذراعه، ويمسك بيدها ويبقيها بين يديه.

بدؤوا يهبطون السلم؛ يتقدّمهم السيد ديفارج حاملاً المصباح، وينتهي الموكب الصغير بالسيد لوري. لم يتجاوزوا العديد من درجات السلم الرئيسي الطويل عندما توقف، وحدث إلى السقف وحول الجدران. «هل تتذكر المكان يا أبي؟ هل تتذكر مجيئك إلى هنا؟». «ماذا قلت؟».

وقبل أن تتمكن من تكرار السؤال، تتم بإجابة كما لو كانت كررت سؤالها.

«أتذكر؟ لا، لا أتذكر؛ لقد كان ذلك منذ وقت طويل جداً». كان واضحاً لهم أنه لا يتذكر أي شيء عن نقله من سجنه إلى ذلك المنزل. سمعوه يتم «مائة وخمسة، البرج الشمال»؛ وعندما أخذ ينظر حوله، كان من الواضح أنه يبحث عن جدران الحصن القوية التي أحاطت به فترة طويلة. وعند وصولهم إلى الفناء، قام على نحوٍ غريزي بتغيير خطواته، كأنما يتوقع وجود جسر متحرك؛ وعندما لم يجد جسراً متحركاً، ورأى العربة تنتظر في عرض الشارع، أسقط يد ابنته وشبك يديه على رأسه مرة أخرى.

لم يكن هناك حشد عند الباب، ولم يكن هناك أي شخص يمكن تمييزه في أي من النوافذ العديدة، ولم يصدف حتى وجود أحد المارة في الشارع، ساد صمت وهجران على نحوٍ غير طبيعي. كان يمكن رؤية شخص واحد فقط، إنها السيدة ديفارج، التي اتكأت على عمود الباب وهي تحيك، ولم ترَ شيئاً.

كان السجين قد ركب الحافلة، وتبعته ابتته، عندما تعثرت قدما السيد لوري على السُّلم بطلب السجين، بشكلٍ بائسٍ، إحضار أدوات صنع الأحذية والأحذية غير المكتملة. نادى السيدة ديفارج على زوجها فوراً قائلة إنها ستحضرهم، ثم خرجت وهي تحيك بعيداً عن ضوء المصباح، متجهة إلى الفناء. سرعان ما أنزلت الأشياء المطلوبة، وقامت بتسليمها لهم، واتكأت بعد ذلك مباشرة على عمود الباب وهي تحيك، ولم ترَ شيئاً.

صعد ديفارج إلى مقصورة العربة، وأصدر أوامره: «إلى أبواب المدينة!». لَوَّح الحوذي بسوطه، وابتعدوا تحت ضوء المصابيح الضعيفة المتأرجحة.

تحت المصابيح المتأرجحة بشدة -التي يزداد تأرجحها وضوحاً في الشوارع الأفضل، ويزداد خفوتاً في الأسوأ- والمتاجر المضاءة، والحشود المبتهجة، والمقاهي المضيئة، وأبواب المسارح، توجهوا إلى إحدى بوابات المدينة. عند موقع الحراسة، اقترب جنود يحملون الفوانيس: «أوراقكم، أيها المسافرين!». قال ديفارج، وهو ينزل وينتحي بالجندي جانباً بوقارٍ: «انظر هنا، سيدي الضابط، هذه أوراق السيد

الموجود بالداخل، السيد ذي الرأس الأشيب. لقد أرسلت إليّ، معه، عند...»؛ خفض صوته، واضطربت الفوانيس العسكرية عندما امتدت ذراع ترتدي الزي العسكري وأدخل أحدها إلى العربة، ونظرت العينان المتصلتان بالذراع، نظرة ليست كنظرة كل يوم أو كل ليلة، إلى السيد ذي الرأس الأشيب. قال صاحب الزي: «هذا جيد. هيا، تقدموا!». وقال ديفارج «Adieu! [وداعاً]». وهكذا، تحركت العربة تحت بستان صغير من المصاييح المتأرجحة التي تزداد ضعفًا، وخرجوا منه ليواصلوا رحلتهم تحت بستان النجوم الكبير.

واصلوا رحلتهم تحت ذلك القوس من الأنوار الأبدية الثابتة؛ التي يبعد بعضها كثيرًا عن هذه الأرض الصغيرة، إلى حد أن العلماء يخبروننا أنهم يتشككون فيما إذا كانت أشعتها قد اكتشفت أرضنا بعد، بوصفها نقطة في الفضاء حيث يعاني أي شيء أو يحدث؛ فقد كانت ظلال الليل شاملة وسوداء. وطوال تلك الفترة الباردة والمضطربة، حتى الفجر، أخذت هذه الظلال تهمس مرة أخرى في أذني السيد جارفيس لوري -الجالس في مواجهة الرجل الذي كان مدفونًا وأُخرج من قبره، ويتساءل عن القوى الخفية التي فقدتها ذلك الرجل إلى الأبد، وما القوى التي يمكن استعادتها؛ السؤال القديم:

«آمل أنك تهتم بإعادتك إلى الحياة؟».

والجواب القديم:

«لا أستطيع أن أقول».

نهاية الكتاب الأول

الكتاب الثاني الخيط الذهبي

الفصل الأول

بعد خمس سنوات

كان بنك تيلسون، القائم بجوار بوابة تمبل بار يُعتبر مكانًا عتيق الطراز، حتى في عام ١٧٨٠. كان صغيرًا جدًا، ومظلمًا جدًا، وقييحا جدًا، وضييقًا جدًا. علاوة على ذلك، كان مكانًا عتيق الطراز من حيث الطابع الأخلاقي، وكان الشركاء فخورين بصغره، وفخورين بظلامه، وفخورين بقبحه، وفخورين بضيقة. ويتباهون حتى بتمييزه في تلك التفاصيل، يُحمسهم اقتناع واضح بأنه إذا كان أقل إثارة للاعتراض، سيكون أقل احترامًا. ولم يكن هذا اعتقادًا سلبيًا، بل كان سلاحًا نشطًا أطلقوه على أماكن العمل الأكثر راحة. بنك تيلسون (كما قالوا) لا يحتاج إلى مساحة متسعة، وبنك تيلسون لا يحتاج إلى ضوء، وبنك تيلسون لا يحتاج إلى تجميل. قد تحتاج إلى ذلك «مؤسسة نوكس وشركاه» (Noakes and Co.) أو «الإخوة سنوكس» (Snooks Brothers)؛ لكن بنك تيلسون لا يحتاج، شكرًا لله!

كان يمكن لأي من هؤلاء الشركاء أن يحرم ابنه من الميراث في حال إعادة بناء بنك تيلسون. وفي هذا الصدد، كان موقف البنك على قدم المساواة مع موقف الدولة؛ التي كانت تحرم أبناءها من الميراث،

في كثير من الأحيان، باقتراح إدخال تحسينات على القوانين والأعراف التي كانت محل معارضة شديدة منذ فترة طويلة، لكنها كانت فقط الأكثر احترامًا.

وهكذا، حدث أن بنك تيلسون كان بمنزلة الكمال المنتصر في الإزعاج؛ إذ بعد أن تفتح بابًا يتسم بعنادٍ أحرق وحشرجة ضعيفة في حلقه، تهبط درجتين إلى بنك تيلسون، وتعود إلى رشك في دكان صغير بئس يضم طاولتين صغيرتين، حيث يهتز الشيك الذي معك بين أيدي رجال مُسنين، كأنما لمستَه الريح، وهم يتفحصون التوقيع من خلال نوافذ قدرة، تتعرض دائمًا لحَمَام طيني من شارع فليت، وتزداد قذارة بواسطة قضبانها الحديدية، وظل تمبل بار الثقيل. وإذا كان عملك يتطلب مقابلة «مدير البنك»، فإنهم يأخذونك إلى غرفة خلفية تشبه غرفة المحكوم عليه، حيث تتأمل حياة مُهدّرة، حتى يأتي مدير البنك ويدها في جيبه، وبالكاد يمكنك أن تلمحه في الظلام الكئيب. تخرج أموالك من، أو تدخل إلى، أدراج خشبية قديمة متهاكة، تتطاير جزيئاتها إلى أنفك وأسفل حلقك عندما تُفتح وتُغلق. تجد أن أوراقك النقدية ذات رائحة عفنة، كأنما كانت تتحلل بسرعة إلى خرق مرة أخرى، وتجد أن لوحتك محفوظة بعيدًا بين النفايات المجاورة، وأفسد التعامل السيئ معها تلميعها الجيد في يومٍ أو يومين. وتجد أن مستنداتك قد دخلت إلى غرف حصينة مرتجلة، كانت في السابق مطابخ وغرف لغسيل الأطباق، وأخرجت كل الدهون العالقة في مخطوطاتها إلى هواء البنك. وتجد أن صناديقك الخفيفة التي تضم أوراق عائلتك قد صعدت السلم إلى

غرفة برمساید^(١)، التي كانت تحتوي دائماً على مائدة طعام كبيرة، وإن لم تشهد أي حفل عشاء قط. كما كانت هذه الغرفة تحتوي أيضاً على الرسائل الأولى التي كتبها لك حُبك القديم، أو أطفالك الصغار؛ تلك الرسائل التي نجت مؤخراً، حتى في عام ١٧٨٠، من رعب نظر الرؤوس المكشوفة فوق تمبل بار إليها عبر النوافذ بوحشية وشراسة فاقدتي الإحساس تليق بالحبشة أو أشانتي^(٢).

في تلك الفترة، كانت عقوبة الإعدام في الواقع وصفة رائجة للغاية لجميع جرائم الحرف والمهن، وليس أقلها مع بنك تيلسون. الموت هو علاج الطبيعة لكل الأشياء، فلماذا لا يتضمنه التشريع كعلاج أيضاً؟ وبناء على ذلك، كان المُرور يُعَدَم؛ ومن تفوّه بكلمات سيئة يُعَدَم؛ ومن فتح رسالة دون وجه حق يُعَدَم؛ ومن اختلس أربعين شلناً وستة بنسات يُعَدَم؛ وحارس الحصان عند باب بنك تيلسون، الذي انطلق به، يُعَدَم؛ ومن صك عملة شلن رديئة يُعَدَم؛ وهكذا كان يُعَدَم ثلاثة أرباع المُذنبين باقتراف أنواع مختلفة من الجرائم. ولم يكن ذلك يعني أن هذه العقوبة حققت أي فائدة تُذكر على طريق منع الجرائم -ربما تجدر ملاحظة أن الحقيقة كانت عكس ذلك تماماً- لكنها كانت تُنهي المشكلة (فيما يتعلق بهذا العالم) في كل قضية بعينها، ولا تترك أي شيء مُرتبط بها لإعادة النظر فيه. وهكذا، أودى بنك تيلسون، في تلك الأيام، مثله مثل

(١) غرفة برمساید (Barmecide room): المقصود غرفة تضم أشياء وهمية. ويرجع أصل المصطلح إلى برمساید، الذي كان أميراً في ألف ليلة وليلة وأقام وليمة لمتسولٍ، ووضع أمامه طبقاً فارغاً - (المترجمة).

(٢) الأشانتي هي مجموعة عرقية تنحدر من منطقة أشانتي في غانا الحديثة - (المترجمة).

معاصريه من أماكن العمل الكبرى، بحياة الكثير من الأرواح؛ إلى درجة أنه إذا وُضعت تلك الرؤوس التي حُكم عليها بالإعدام فوق بوابة تمبل بار بدلاً من التخلص منها سرّاً، لكان من المحتمل أن تحجب إلى حدٍّ كبير ذلك القدر الضئيل من الضوء الذي يصل إلى الطابق الأرضي من البنك.

كان موظفو بنك تيلسون من الرجال المُسنين يمارسون أعمالهم بجدية، متكدسين بين جميع أنواع الخزائن والصناديق المعتمدة. وعندما يوظفون شاباً في دار تيلسون في لندن، كانوا يخفونه إلى أن يصبح كبيراً في السن؛ يبقونه في مكانٍ معتم، مثله مثل الجُبْن، حتى يحصل على نكهة تيلسون الكاملة وطابعها المميز، وعندئذٍ فقط يسمحون له بالظهور، وهو منكب بشكلٍ مذهلٍ على الدفاتر الضخمة، مع تشكيل مظهر بنطاله وغطائه الجيتير^(١) بما يتناسب وثقل المؤسسة العام.

أما خارج بنك تيلسون -وليس داخله بأي حال، إلا إذا تم استدعاؤه- كان رجلاً غريب الوظائف، يعمل حمّالاً ومرسالاً بين الحين والآخر، بمنزلة علامة حية للمؤسسة. لم يتغيب قطُّ خلال ساعات العمل، إلا لأداء مهمة؛ وعندئذٍ يحل ابنه محله: وهو بشع متجهّم ويبلغ من العمر ١٢ عاماً، وكان صورة طبق الأصل من والده. وقد أدرك الناس أن بنك تيلسون يتساهل، على نحوٍ نبيل، مع الرجل صاحب الوظيفة الغريبة.

(١) الجيتير (gaiters): غطاء من الجلد أو القماش يمتد من الخصر إلى الركبة أو الكاحل وأزرار على الجانب. التعريف ورد في: <https://www.charlesdickenspage.com/charles-dickens-glossary.html#G> - (المترجمة).

كانت المؤسسة تتساهل دائماً مع أي شخص في هذه الوظيفة؛ وقد دفعت الفرصة بهذا الشخص إلى المنصب. كان لقبه كرانشر، وفي مناسبة نبذه المبكر، عن طريق التفويض، لأنشطة الظلام، في كنيسة أبرشية هاوندسديتش الشرقية، حصل على تسمية إضافية وهي جيري.

كان المشهد هو مسكن السيد كرانشر الخاص في زقاق السيف المعلق^(١)، من شارع وايتفرايرز: التوقيت، الساعة السابعة والنصف من صباح يوم عاصف من شهر مارس، سنة ١٧٨٠ ميلادياً. (وكان السيد كرانشر نفسه ينطق دائماً عام ميلاد السيد المسيح مُحرّفاً Anna Dominoes بدلاً من Anno Domini): على ما يبدو تحت الانطباع بأن تاريخ العصر المسيحي يرجع إلى اختراع سيدة للعبة شعبية، أطلقت اسمها عليها).

لم يكن مسكن السيد كرانشر يقع في حي جيد. كان يضم، من حيث العدد، مجرد غرفتين؛ حتى إذا اعتبرنا أن الغرفة الصغيرة التي لا تضم سوى لوح زجاجي واحد تمثل غرفة. لكنه حافظ على المكان بشكلٍ لائقٍ للغاية. في وقتٍ مبكرٍ من صباح شهر مارس العاصف، كانت الغرفة التي استلقى فيها على سريره قد نُظِّفَتْ تنظيفاً كاملاً بالفعل؛ وبين الأكواب والصحون المجهزة للإفطار، والطاولة الخشبية الثقيلة، كانت قطعة قماش بيضاء في غاية النظافة مفروشة.

كان السيد كرانشر يستلقي على سريره تحت غطاء من قماش

(١) زقاق السيف المعلق (Hanging-sword-alley): زقاق يمتد بين شارع وايتفرايرز وميدان سالزبوري في لندن، بالقرب من شارع فليت - (الترجمة).

مُرَّع، مثل المهرج في منزله. كان نومه ثقیلاً في البداية، لكنه بدأ يتحرك ويتقلب في السرير إلى أن ظهر من تحت الغطاء، وشعره الشائك يبدو كأنما يمزق الملاءات إلى شرائط، وهنا صاح بصوتٍ من السخط المفرط:

«احبسوني، إذا لم تكن قد عادت إلى فعل ذلك مرة أخرى!». مع تسرع وخوف كافيين لإظهار أنها الشخص المقصود، نهضت امرأة، ذات مظهر مهندم ونشط، من رُكن كانت تجثو فيه على ركبتيها. «ماذا!»، قال السيد كرانشر، وهو ينظر من سريره باحثاً عن حذاء طويل الرقبة، «لقد عُدت إلى فعل ذلك مرة أخرى، أليس كذلك؟». وبعد تحية الصباح الثانية هذه، ألقى فردة حذاء على المرأة كتحية ثالثة. كانت فردة حذاء موحلة للغاية؛ وهذا يصف حقيقة غريبة ترتبط بإدارة منزل السيد كرانشر: ففي حين أنه يعود غالباً إلى المنزل بعد ساعات العمل في البنك بحذاء نظيف، غالباً ما يستيقظ في صباح اليوم التالي ليجد الحذاء نفسه مُغطى بالطين.

«ماذا»، قال السيد كرانشر، وهو يغير خطابه بعد أن أخطأ مرماه، «ما الذي تنوين القيام به، أيتها المزعجة؟». «كنت أتلو صلواتي فقط».

«تتلين صلواتك! أنت امرأة لطيفة! ماذا تقصدين بالركوع والدعاء عليّ؟».

«لم أكن أدعي عليك، كنت أصلي من أجلك».

«لا، أنت لا تصلين لأجلي. وإذا كنت تصلين من أجلي، فلن أمانع في ذلك. والآن! يا جيري الصغير، أمك امرأة لطيفة، تصلي من أجل ازدهار والدك. لديك أم مطيعة، لديك يا بني. لديك أم متدينة، لديك يا ولدي: تركع وتصلي من أجل انتزاع الخبز والزبدة من فم طفلها الوحيد».

استاء بشدة الحرفي كرانشر (وكان يرتدي قميصه)، والتفت إلى والدته، مستنكراً بشدة وطالِباً منها أن تُبعد أي صلاة عن مائدته الشخصية. قال السيد كرانشر، في تناقضٍ غير واعٍ: «وما القيمة التي تفترضينها لصلواتك، أيتها الأنثى المغرورة؟ حدي السَّعر الذي تريدينه من صلواتك!».

«إنها تأتي من القلب فقط، يا جيري. وليس لها قيمة أكثر من ذلك».

قال السيد كرانشر مُكرِّراً: «ليس لها قيمة أكثر من ذلك، إذن لا تساوي كثيراً. وعلى أي حال، لا تصلي من أجلي ثانية، أتفهمين. لا أستطيع تحمُّل ذلك. لا أريد أن أكون سيئ الحظ بسبب حقارتك. إذا كان لا بد أن تركعي للدعاء، فليكن من أجل زوجك وطفلك، وليس ضدهما. إذا كان لديَّ أي زوجة أخرى ليست غير طبيعية مثلك، وكان لهذا الصبي المسكين أي أم أخرى وليست غير طبيعية مثلك، فلربما كنت كسبت بعض المال في الأسبوع الماضي؛ بدلاً من تعرُّضي لدعاء ضدي وخطة ضدي وتحايل ديني ليصيني أسوأ حظ. اللعنة!». وأضاف السيد كرانشر، الذي كان يرتدي ملابسه طوال هذا الوقت: «إذا لم أكن، بسبب التقوى وأي شيء عاصف أو آخر أصابني في هذا الأسبوع الماضي، قد

أصبت بأسوأ حظ واجهه أي تاجر مسكين نزيه! هيا يا جيري الشاب، ارتدِ ملابسك يا ولدي؛ وبينما أنظف حذائي، راقب والدتك بين الحين والآخر، ونادني إذا رأيت أي علامات على أنها تمارس المزيد من السجود. ذلك لأنني أقول لك»، وهنا خاطب زوجته مرة أخرى، «لن تعارضيني بهذه الطريقة، أنا متهالك مثل العربة التي تجرها الأحصنة، أنا نعلان مثل اللودانوم^(١)، وأسارير وجهي متوترة إلى درجة أنني لم أكن لأعرف، لولا الألم داخلها، من أنا ومن هو شخص آخر؛ ومع ذلك، ليست جيوي في أحسن حال. وأعتقد أنك كنتِ تقومين بذلك من الصباح إلى الليل لمنعي من السيطرة بشكل أفضل على الأمور، ولن أتحمّل ذلك، أيتها المزعجة، ماذا تقولين الآن!».

وجار، علاوة على ذلك، بعبارات مثل «آه! نعم! أنتِ متدينة أيضًا، لن تضعي نفسك في مواجهة مصالح زوجك وابنتك، أليس كذلك؟ ليس أنت!». وبعد أن ألقى شراراتٍ ساخرة أخرى من طاحونة سخطه، انصرف السيد كرانشر إلى تنظيف حذائه طویل الساق واستكمال استعداداته العام للذهاب إلى العمل. في هذه الأثناء، كان ابنه -الذي ازدان رأسه بأشواك أكثر رقة، وعيناه الصغيرتان متجاورتان، مثل والده- يواصل مراقبة والدته، كما طُلب منه. كان كثيرًا ما يُزعج تلك المرأة المسكينة على فترات؛ وذلك بأن يندفع خارجًا من غرفة نومه الصغيرة، وهو يرتدي ملابسه، بصرخة مكبوتة «سوف تسجدين يا أمي... مرحبًا

(١) اللودانوم (laudanum): خليط من الأفيون والكحول يُستخدم كمهدئ أو مسكن للألم أو للث على النوم - ورد التعريف في: <https://www.charlesdickenspage.com/charles-dickens-glossary.html#L> - (المترجمة).

يا أبي!؛ وبعد إطلاق هذا الإنذار الوهمي، يندفع مرة أخرى إلى غرفته بابتسامة عاقة.

لم يكن مزاج السيد كرانشر قد تحسّن على الإطلاق عندما جاء لتناول إفطاره، فقد استاء بعدوانية من صلاة المائدة التي تلتها السيدة كرانشر.

«الآن، أيتها المزعجة!، ما الذي تنوين القيام به؟ عل عُدت إلى ذلك ثانية؟».

أوضحت زوجته أنها «طلبت البركة» فقط.

«لا تفعلي ذلك!»، قال السيد كرانشر وهو ينظر حوله، كأنما يتوقع اختفاء الرغبة نتيجة ابتهالات زوجته. «لن أُل البركة خارج منزلي ووطني. ولن أُل بركة طعامي على غير طاولتي. إلزمي الصمت!».

في تجهم وعينين شديديتي الاحمرار، كما لو كان مستيقظاً طوال الليل في حفلة شملت كل شيء ما عدا البهجة، شعر جيرى كرانشر بالقلق تجاه فطوره بدلاً من تناوله، وجأً فوقه مثل أي سجين بأربع أقدام في حديقة حيوانات. وفي نحو الساعة التاسعة صباحاً، قام بتلطيف مظهره المضطرب، وأضفى على ذاته الطبيعية مظهرًا خارجيًا محترمًا وعملياً قدر استطاعته، وانطلق إلى مهام يومه.

بالكاد ما يمكن تسمية عمله بالتجارة، على الرغم من وصفه المفضل لنفسه بأنه «تاجر نزيه». وكان مخزونه يتكوّن من كرسي خشبي، مصنوع من كرسي مكسور الظهر تم تقصيره، يحمله جيرى الشاب وهو يمشي

إلى جانب والده كل صباح إلى أسفل نافذة البنك التي تُعد الأقرب إلى تمبل بار: حيث يُشكّل موقع مُعسكره طوال اليوم؛ بعد إضافة أول حفنة من القش يمكن التقاطها من أي مركبة عابرة، للحفاظ على قدمي الرجل ذي الوظيفة الغريبة من البرد والرطوبة. وفي موقعه الخاص هذا، كان السيد كرانشر مشهورًا في شارع فليت وتمبل بار، مثله مثل شهرة جدار البوابة نفسه؛ ويبدو تقريبًا مثله.

خيم جيري في معسكره الساعة التاسعة إلا ربع، في الوقت المناسب للمس قبعته ذات الزوايا الثلاث لتحية أكبر الرجال سنًا في أثناء دخولهم إلى بنك تيلسون. استقر جيري في موقعه، في هذا الصباح العاصف. وكان جيري الشاب يقف بجانبه، عندما لا يكون منشغلًا بشن غزوات على جدار البوابة، لإلحاق إصابات جسدية وعقلية حادة بالصبيّة المارين، الذين كانوا أصغر من أن يفهموا غرضه الودود. أخذ الأب والابن، وهما متشابهان للغاية، ينظران بصمتٍ إلى حركة المرور الصباحية في شارع فليت، وقد تقارب رأساهما مثلما تتقارب عينا كلّ منهما، بما يجعلهما يحملان تشابهاً كبيرًا مع زوج من القروء. ولم يؤد ظرف طارئٍ إلى تقليل التشابه بينهما؛ حيث قام جيري الكبير بضم القش وبصقه، بينما كانت عينا جيري الشاب المتلائمة تراقبه بلا كلل مثلما يراقب كل شيء آخر في شارع فليت.

أُطل من الباب رأس أحد السعاة الداخليين العاديين الملحقين بالعمل في مؤسسة تيلسون، وقال:

«المرسال مطلوب!».

«مرحى مرحى، يا أبى! هذه مُهمة مبكرة لتبدأ بها!».

وبعد أن تمنى جيري الشاب التوفيق لوالده، جلس على الكرسي الخشبي، وأخذ يسترجع متأملاً اهتمامه بالقش الذي كان والده يمضغه. تمتم جيري الشاب: «دائمًا صدئ! من أين يحصل والدي على كل هذا الصدا الحديدى؟ لا يوجد هنا أي صدا حديدي!».

الفصل الثاني

المشهد

قال أحد أقدم الموظفين لجيري المرسال: «أنت تعرف محكمة أولد بيلي^(١) جيدًا، دون شك؟».

أجاب جيري بأسلوب يتسم ببعض العند: «نعم يا سيدي، أنا أعرف أولد بيلي».

«هكذا إذن. وتعرف السيد لوري».

«أعرف السيد لوري، يا سيدي، أفضل بكثير من معرفتي بأولد بيلي»، قال جيري بطريقة لا تختلف عن شاهد كاره للشهادة أمام الهيئة المعنية، «وأفضل بكثير من رغبتني، بصفتي تاجرًا نزيهًا، في معرفة أولد بيلي».

«جيد جدًا. ابحث عن الباب الذي يدخل منه الشهود، وأعط حارس الباب هذه المذكرة الموجهة إلى السيد لوري، وعندئذ سيُسمح لك بالدخول».

(١) أولد بيلي (Old Bailey): المحكمة الجنائية المركزية في إنجلترا وويلز، ويشار إليها عادة باسم أولد بيلي نسبة إلى الشارع الذي تقع فيه - (الترجمة).

«إلى المحكمة، يا سيدي؟».

«إلى المحكمة».

بدا أن عيني السيد كرانشر تقترب قليلاً من بعضهما، وتبادلان السؤال: «ما رأيك في هذا؟».

«هل سأنتظر في المحكمة، يا سيدي؟»، سأل عن نتيجة ذلك اللقاء.
«سأخبرك. سيقوم الحارس بإيصال المذكرة إلى السيد لوري،
وعليك القيام بأي إيماءة لجذب انتباه السيد لوري، لتوضح له المكان
الذي تقف فيه. وعليك بعد ذلك البقاء في مكانك حتى يريدك».
«هل هذا كل شيء، يا سيدي؟».

«هذا كل شيء. فهو يرغب في وجود مرسال متاح لديه. وهذا
لإخباره بوجودك».

وبينما كان الموظف العجوز يطوي المذكرة عمداً ويعنونها، قال
السيد كرانشر، بعد أن تفحص الموظف في صمت، حتى وصل إلى
مرحلة استخدام الورق النشاف:

«أفترض أنهم سينظرون في قضايا التزوير هذا الصباح؟».

«سينظرون في قضية خيانة!».

قال جيرى: «هذا يعني قطع جسد المحكوم عليه إلى أربعة أجزاء،
هذه وحشية!».

«إنه القانون»، قال الموظف العجوز، وهو يدير نظارته نحوه في
دهشة: «إنه القانون».

«أعتقد أنه من القسوة أن يجيز القانون التمثيل بجسد رجل، هناك ما يكفي من القسوة في قتله، لكن التمثيل بجسد القتل أكثر قسوة يا سيدي».

واصل الموظف العجوز: «كلا، على الإطلاق. تحدّث بشكل جيد عن القانون. عليك الاعتناء بصدرك وصوتك، يا صديقي العزيز، واترك القانون ليعتني بنفسه. أنا أقدم لك هذه النصيحة».

قال جيري: «إنها الرطوبة، يا سيدي، هي ما تجثم على صدري وصوتي. وأترك لك أن تحكم مدى رطوبة طريقة كسبي للعيش».

قال الموظف العجوز: «حسنًا، حسنًا. لدينا جميعًا طرقنا المختلفة لكسب الرزق. بعضنا لديه طرق رطبة، وبعضنا لديه طرق جافة. ها هي الرسالة. اذهب».

أخذ جيري الرسالة، وقال لنفسه باحترامٍ داخلي أقل مما أظهره: «أنت عجوز هزيل أيضًا»، ثم انحنى للرجل؛ وفي طريق عودته، أبلغ ابنه بوجهته، وذهب في طريقه.

كانت عمليات الشنق تجري في تايرن^(١) في تلك الأيام، لذلك لم يكن الشارع القائم خارج نيوجيت^(٢) قد اكتسب تلك السمعة السيئة التي ارتبطت به منذ ذلك الحين. لكن السجن كان مكانًا حقيرًا، تُمارَس

(١) تايرن (Tyburn): مكان تنفيذ عمليات الإعدام العلنية حتى عام ١٧٨٣ بعد نقلهم المحكوم عليهم إلى سجن نيوجيت - (المتروجمة).

(٢) نيوجيت (Newgate): واحدة من البوابات السبع التاريخية للصور القائم حول مدينة لندن، واستُخدمت أجزاء من مباني البوابة كسجن، وتطور فيما بعد إلى سجن نيوجيت - (المتروجمة).

فيه معظم أنواع الفجور والندالة، وحيث تتكاثر أمراض رهيبة تأتي إلى المحكمة مع السجناء، وأحياناً تندفع مباشرة من قفص الاتهام إلى السيد رئيس القضاة نفسه، وتسحبه من مقعده. وقد حدث أكثر من مرة أن أعلن القاضي الذي يرتدي القبعة السوداء الحكم على نفسه بالهلاك بنفس اليقين الذي حكم به بالهلاك على السجين، وحتى مات قبله. أما غير ذلك، فقد اشتهر أولد بيلي بوصفه فناءً لفندق صغير مميت، ينطلق منه دوماً المسافرين الشاحبون، في عربات وحافلات، عبر ممرٍ عنيف إلى العالم الآخر: يجتازون نحو ميلين ونصف من الشوارع والطرق العامة، يخجلون عددًا قليلًا من المواطنين الصالحين، إن وجدوا. كان استخدامه قويًا للغاية، ومن المرغوب فيه أن يكون استخدامه جيدًا في البداية. كما اشتهر أيضًا بمنشأة عمود التشهير^(١)، وهي منشأة قديمة حكيمة، تُوقع عقوبة لا يمكن لأحد أن يتنبأ بمداها؛ واشتهر كذلك بعمود الجلد، وهي منشأة قديمة عزيزة أخرى، تضيف طابعاً إنسانياً ومُهدئاً للغاية للنظر إليها وهي تعمل؛ علاوة على ذلك، كانت الصفقات الواسعة في أموال الدم، جانباً آخر من حكمة الأجداد، التي تؤدي بشكلٍ منهجي إلى أكثر جرائم المرتزقة رعباً التي يمكن ارتكابها تحت السماء. وفي المجل، كان أولد بيلي في ذلك العهد مثلاً توضيحياً مختاراً للمبدأ القائل «كل ما هو قائم هو صواب»؛ قول مأثور قد يكون

(١) عمود التشهير (pillory): إطار خشبي أو معدني مُثبت على عمود، به ثقب لتثبيت رأس ويدي المجرم لعقابه بالتشهير العلني به وإذلاله، وفي كثيرٍ من الأحيان للمزيد من الإيذاء الجسدي - (المترجمة).

نهائياً بقدر ما هو متناقل، ألم يتضمن تلك النتيجة المزعجة أنه لا يوجد شيء كان قائماً على الإطلاق، كان خاطئاً.

شقَّ المرسال طريقه عبر الحشد الذميم، المتناثر صعوداً وهبوطاً في مشهد العمل البشع هذا، بمهارة رجلٍ اعتاد شقَّ طريقه بهدوء، واكتشف الباب الذي سعى إليه، وسلمَ رسالته من خلال فتحة فيه. ذلك أن الناس حينذاك كانوا يدفعون المال لمشاهدة المسرحية في أولد بيلي، تماماً كما كانوا يدفعون لمشاهدة المسرحية في بيدلام^(١) - لكن الترفيه الأول فقط كان أغلى بكثير؛ ولذلك، كانت جميع أبواب أولد بيلي تخضع لحراسة جيدة؛ باستثناء، في الواقع، الأبواب الاجتماعية التي يدخل منها المجرمون إلى هناك، وكانت دائماً مفتوحة على مصراعها.

وبعد بعض التأخير والتردد، دار الباب متبرماً على مفصلاته لمسافة قصيرة جداً، بما يسمح للسيد جيري كرانشر أن يحشر نفسه ليدخل المحكمة.

سأل هامساً الرجل الذي وجده بجانبه: «ماذا يحدث؟».

«لا شيء حتى الآن».

«وماذا سيحدث؟».

«قضية الخيانة».

«قضية التمثيل بجثة المحكوم عليه، هه؟».

(١) بيدلام (Bedlam): مستشفى الأمراض العقلية في لندن - (المترجمة).

أجاب الرجل متحمسًا: «آه! سوف يسحبونه لتعليقه وإعدامه شنقًا نصف إعدام، ثم يُنزلونه ويقطعونه أمام عينيه، وبعدها يُخرجون أحشائه ويحرقونها بينما ينظر إلى ذلك، ثم يقطعون رأسه، وبعد ذلك يُقطعونه إلى أربعة أجزاء، هذا هو الحُكم».

أضاف جيري، على سبيل الاحتراس: «إذا وجدوه مُذنبًا، أليس هذا ما تقصد قوله؟».

قال الرجل الآخر: «أوه! سيجدونه مُذنبًا، لا تقلق من هذه الناحية». وهنا تحوّل انتباه السيد كرانشر إلى حارس الباب، حيث رآه يشق طريقه إلى السيد لوري، والمذكرة في يده. كان السيد لوري يجلس على طاولة، بين السادة الذين يرتدون الشعر المستعار: ليس بعيدًا عن رجل نبيل، محامي السجين، وأمامه حزمة كبيرة من الأوراق؛ وجلس في مقابله تقريبًا رجل آخر يرتدي شعرًا مستعارًا ويده في جيبه، وكان انتباهه كله -عندما نظر إليه السيد كرانشر في ذلك الوقت أو بعد ذلك- يتركز على سقف المحكمة. سعل جيري بشدة وفرك ذقنه ولوّح بيده، فجذب انتباه السيد لوري، الذي كان يقف باحثًا عنه وأومأ برأسه بهدوء ثم جلس مرة أخرى.

تساءل الرجل الذي سبق أن تحدث معه جيري: «ما علاقته بالقضية؟».

قال جيري: «طوبى لي، إن كنت أعرف».

«ما علاقتك به، إذن، إذا كان يمكن للمرء أن يستفسر؟».

قال جيري: «طوبى لي، إن كنت أعرف ذلك أيضًا».

توقف الحوار عند دخول القاضي، وما ترتَّب على ذلك من ضجة كبيرة، واستقراره في المحكمة. والآن، أصبح قفص الاتهام بؤرة الاهتمام المركزية. خرج سَجَّانان كانا يقفان هناك، ثم أحضرا السجين ووضعا خلف القضبان.

حدَّق إليه جميع الحاضرين، باستثناء الرجل الذي ينظر إلى السقف. تطايرت نحوه جميع أنفاس البشر الموجودين في المكان، مندفعة مثل البحر، أو الريح، أو النار، التفتَّ وجوه متلهفة متوترة حول الأعمدة والأركان المستديرة لتتمكَّن من رؤيته. وقف الجمهور في الصفوف الخلفية، حتى لا يفوتهم شعرة منه؛ وضع الناس الموجودون في قاعة المحكمة أيديهم على أكتاف الواقفين أمامهم، لمساعدة أنفسهم، على حساب أي شخص، على رؤيته؛ وقفوا على أطراف أصابعهم، وصعدوا على الحواف، ووقفوا بجانب لا شيء، ليروا كل شبر منه. وقف جبيري واضحًا بين هذه المجموعة الأخيرة، مثل جزء حي من جدار نيوجيت المُسنن: موجَّهاً إلى السجين أنفاس البيرة التي استنشقتها حينما جاء، ثم أطلقها لتختلط بموجات أخرى من البيرة، والجن، والشاي، والقهوة، وما إلى ذلك، التي تدفَّقت نحوه، وكانت قد اقتحمت بالفعل النوافذ الكبيرة خلفه على شكل ضباب ومطر متسخين.

كان الهدف من كل هذا التحديق والصراخ شابًا يبلغ من العمر نحو خمسة وعشرين عامًا، جيد البنية وحسن المظهر، لوَّحت الشمس خديَّه، وعيناه داكنتان. كانت حالته تماثل حالة سيد شاب، وكان يرتدي ملابس بسيطة سوداء أو رمادية داكنة جدًّا؛ وتجمَّع شعره، الذي كان طويلًا

وداكناً، في شريطٍ في مؤخرة رقبتِه؛ ليبعده عنه أكثر من كونه للزينة. وكما تُعبّر انفعالات الذهن عن نفسها من خلال أي غطاء للجسم، فإن الشحوب الذي ولّدته حالته ظهر من خلال اللون البني على خده، مما يدل على أن الروح أقوى من الشمس، وكان بخلاف ذلك مسيطراً على ذاته تماماً، وانحنى للقاضي، ووقف هادئاً.

لم يكن نوع الاهتمام والتحمُّس الذي يحدق به الناس تجاه هذا الرجل من النوع الذي يرتقي بالإنسانية. لو كان مُعرّضاً لخطر الحُكم بعقوبة أقل فظاعة -لو كانت هناك فرصة للنجاة من أيّ من تفاصيلها الوحشية- لفقد بذلك الكثير من جاذبيته. كان شكل العقوبة المحكوم عليه بها، وهي التشويه المخزي، هو المشهد؛ المخلوق الخالد الذي كان من المقرر ذبحه وتمزيقه، أعطى هذا الإحساس، ومهما كان البريق الذي أضفاه المشاهدون المختلفون على الاهتمام، وفقاً لفنونهم وقدراتهم المتعددة على خداع الذات، فقد كانت جذور هذا الاهتمام تماثل وحشية غول.

ساد الصمت في المحكمة! كان تشارلز دارني قد دفع بالأمس بأنه غير مذنب، فيما يتعلق بالتهم الواردة في لائحة الاتهام التي تدينه (وتُليت في صخبٍ ولغَطٍ لا نهائي)، باعتباره خائناً كاذباً لأُميرنا، ملكنا الموقر، الجليل والمجيد والتميز، وما إلى ذلك، بسبب قيامه في مناسباتٍ مختلفة وبوسائل وطرق مختلفة، بمساعدة الملك الفرنسي لويس في حروبه ضد ملكنا الجليل والمجيد والتميز، وما إلى ذلك؛ وذلك بتنقله -ذهاباً وإياباً- بين ممالك ملكنا المذكور الجليل والمجيد

والتميز وما إلى ذلك، وممالك لويس الفرنسي المذكور، وبطريقة شريرة وكاذبة وخائنة، وغير ذلك من ملاسبات شريرة، قد كشف للويس الفرنسي المذكور عن القوات التي يعدّها ملكنا المذكور الجليل والمجيد والتميز، وما إلى ذلك، لإرسالها إلى كندا وأمريكا الشمالية. هذا هو القدر الذي استطاع جيري -الذي أصبح رأسه شائكًا أكثر فأكثر نتيجة بنود القانون- أن يستنتجه باقتناع كبير؛ وهكذا توصّل -بشكل غير مباشر- إلى فهم أن تشارلز دارني المذكور أنفًا، وتكرر ذكره مرارًا وتكرارًا، يقف هناك أمامه رهن المحاكمة، وأن هيئة المحلفين كانت تؤدي اليمين؛ وأن السيد النائب العام كان يستعد للكلام.

المتهم، الذي كان الجميع هناك يتصورون أنه سوف يُشنَق ويُقطع رأسه ويُمزق جسده إلى أربعة أجزاء (وكان يعرف أن ذلك سيحدث)، لم يجفل من الموقف، ولم يتخذ أي مظهر مسرحي، كان هادئًا ويقظًا؛ راقب الإجراءات الافتتاحية باهتمام بالغ، ووقف ويداه تركزان على لوح الخشب أمامه برباطة جأش، بحيث لم تتزحزح أي ورقة من الأعشاب التي تناثرت عليه. كانت المحكمة كلها مليئة بالأعشاب ومرشوشة بالخل، كإجراء احترازي ضد هواء السجن وحُمى السجن.

توجد مرآة فوق رأس السجن، لإلقاء الضوء عليه، وقد سبق أن انعكست عليها حشود من الأشرار والبائسين، ثم انمحت من سطحها ومن هذه الأرض أيضًا. كان يمكن أن يبدو هذا المكان البغيض بشعًا بطريقة مروعة، إذا كان في إمكان تلك المرأة أن تُعيد ما انعكس عليها سابقًا، مثلها مثل المحيط الذي سيلفظ ذات يوم موتاه. وربما طافت

بذهن السجين بعض الأفكار العابرة عن الخزي الذي احتفظت به. وعلى أي حال، أدّى تغيير موقعه إلى إدراكه لشريط من الضوء على وجهه، نظر إلى أعلى، وعندما رأى المرأة تدقّ الدم إلى وجهه، ودفعت يده اليمنى الأعشاب بعيداً.

وحدث أن أدى ذلك إلى تحوّل وجهه إلى جانب من المحكمة يقع على يساره. وعلى مستوى عينيه، جلس -في تلك الزاوية من مقعد القاضي- شخصان استقرت عليهما نظرتهم على الفور؛ على الفور إلى حد تغيير سحنته كثيراً، بحيث تحوّلت إليهما كل الأعين التي كانت تنظر إليه.

رأى الحاضرون أن هذين الشخصين: سيدة شابة تزيد قليلاً على عشرين عاماً، ورجل نبيل من الواضح أنه والدها؛ رجل يتمتع بمظهر لافت للنظر إلى حدّ كبير، يتعلق بالبياض المطلق لشعره، وشدة مُعينة لا توصف في وجهه؛ ليست من نوع نشط، وإنما تنم عن تأمل ومناجاة ذاتية. عندما ظهر هذا التعبير على وجهه، بدا كما لو كان عجوزاً. أما عندما ينفعل ويعود إلى نفسه -كما حدث الآن، في لحظة، عند حديثه إلى ابنته- يصبح رجلاً وسيماً، لم يتجاوز مقتبل العمر.

كانت ابنته تمد إحدى يديها على ذراعه، وهي جالسة بجانبه، وتضغط بالأخرى عليه. اقتربت منه، خوفاً من المشهد، وشفقة على السجين. كانت جبهتها تُعبّر بشكل لافت للنظر عن رعبٍ وتعاطفٍ مذهلين، حيث لم تشعر إلا بالخطر المحدق بالمتهم. كان ذلك ملحوظاً بوضوح، وظهر بشدة وبشكل طبيعي، إلى درجة أن الحاضرين

المحدثين، الذين لم يشفقوا عليه، قد تأثروا بها؛ وبدأ الهمس: «من هما؟».

أما جيري، المرسال، الذي تشكّلت لديه ملاحظاته الخاصة وبطريقته الخاصة، وكان مستغرقاً في امتصاص الصداً من أصابعه، فقد مدَّ رقبته لسمع من هما. ضغط الحشد من حوله ومرَّر الاستفسار إلى أقرب مرافق، ومنه ضغط ببطء أكبر ومرَّره مرة أخرى. وأخيراً وصل إلى جيري:

«شاهدان».

«مع أي جانب؟».

«ضد».

«ضد أي جانب؟».

«السيجين».

استعاد القاضي وضعه، بعد أن ذهبت عيناه في الاتجاه العام الذي ينظر إليه الحاضرون، ثم انحنى إلى الخلف في مقعده، ونظر بثباتٍ إلى الرجل الذي كانت حياته في يده؛ بينما نهض السيد المدعي العام لتدوير الجبل، وشحذ الفأس، ودق المسامير في المشنقة.

الفصل الثالث

خيبة الأمل

كان على السيد المدعي العام إبلاغ هيئة المحلفين أن السجين الذي أمامهم، رغم سنه الصغير، كان كبيرًا في ممارسات الخيانة التي تقتضي فقدان حياته. ذلك أن المراسلات مع عدو الشعب لم تكن مراسلات اليوم، أو الأمس، أو حتى العام الماضي، أو العام الذي سبقه؛ ومن المؤكد أن السجين اعتاد، لفترة أطول من ذلك، التنقل ذهابًا وإيابًا بين فرنسا وإنجلترا، في مهام سرية لم يستطع تقديم رواية صادقة عنها. هذا، وإذا كان في طبيعة طرق الخيانة أن تفلح (وهو لحسن الحظ لم يحدث قط)، لربما ظل الشر والإثم الحقيقيان في عمله غير مكتشفين. على أن العناية الإلهية ألهمت شخصًا لا يعرف الخوف والرعب أن يكتشف طبيعة مخططات السجين، وأن يكشف عنها في ذهولٍ كبير وزراء صاحب الجلالة والمجلس الاستشاري الموقر. ولسوف يمثل أمامهم هذا الوطني؛ وكان موقفه ومسلكه، في المجمل، ساميًا. لقد كان صديقًا للسجين، لكنه ما إن اكتشف عار صديقه، في ساعة ميمونة سيئة الحظ، حتى قرر في الحال التضحية بالخائن على مذبح بلاده المقدس؛ إذ لم يعد في إمكانه أن يعتز باحتضانه. وإذا صدر في بريطانيا

مرسومًا بإقامة التماثيل لفاعلي الخير في المجتمع، كما كانت الحال في اليونان وروما في العصور القديمة، فمن المؤكد أن هذا المواطن اللامع كان سيحصل على تمثال. ونظرًا إلى أن مثل هذا المرسوم لم يصدر، ربما لن يُقام له تمثال. وأن الفضيلة، كما قال الشعراء (في العديد من المقاطع التي كان يعرف جيدًا أنها ستكون، كلمة بكلمة، على أطراف ألسنة هيئة المحلفين؛ وحينئذٍ أظهرت وجوه هيئة المحلفين وعيًا مُذنبًا بأنهم لا يعرفون شيئًا عن المقاطع)، تُعتبر بشكل ما مُعدية؛ ولا سيما الفضيلة المشرقة المعروفة باسم الوطنية، أو حب الوطن. وأن المثال النبيل الذي قدمه للتاج هذا الشاهد الطاهر الذي لا يرقى إليه الشك، للإشارة إلى من لا يستحق، كان شرفًا، حيث تواصل مع خادم السجين، وولّد داخله تصميمًا مقدسًا على فحص أدرج مائدة سيده وجيوبه، وفرز أوراقه. وأنه (السيد المدعي العام) كان مستعدًا لسماع بعض محاولات الاستخفاف بهذا الخادم المثير للإعجاب؛ لكنه كان يفضل، بشكل عام، على إخوته وأخواته (أشقاء وشقيقات السيد المدعي العام)، ويكرمه أكثر من والده ووالدته (والذي السيد المدعي العام). وأنه دعا بثقة هيئة المحلفين إلى المجيء والقيام بالمثل، وأن أدلة هذين الشاهدين، إلى جانب وثائق اكتشافهما التي سيتم تقديمها، سوف تُظهر أن السجين قد تم تزويده بقوائم حول قوات جلالته الملك، وتنظيمها وإعدادها، عن طريق البحر والبر، ولا تدع مجالًا للشك في أنه اعتاد نقل هذه المعلومات إلى قوة معادية. وأنه لا يمكن إثبات أن هذه القوائم مكتوبة بخط يد السجين؛ لكن الأمران سيّان؛ وأن هذا، في الواقع، كان

أفضل للدعاء، حيث أظهر براءة السجين في احتياطاته. وأن هذا الدليل يعود إلى خمس سنوات، وسيُظهر أن السجين كان منخرطاً بالفعل في هذه المهام الخبيثة، قبل أسابيع قليلة من تاريخ أول اشتباك بين القوات البريطانية والأمريكيين. وأنه لهذه الأسباب، يجب على هيئة المحلفين، كونها هيئة محلفين مخلصه (كما كان يعرف)، وكونها هيئة محلفين مسؤولة (كما يعرفون هم)، أن تجد السجين مذنباً بالفعل، وأن تقضي عليه، سواء أعجبها ذلك أو لم يعجبها. فهم لن يتمكنوا أبداً من وضع رؤوسهم على وسائدهم؛ ولن يتمكنوا أبداً من تحمّل فكرة أن تضع زوجاتهم رؤوسهن على وسائدهن؛ ولن يتمكنوا أبداً من تحمل فكرة أن يضع أطفالهم رؤوسهم على وسائدهم؛ بايجازٍ، لا يمكن، بالنسبة إليهم أو إلى زوجاتهم وأطفالهم، وضع رؤوسهم على وسائدهم على الإطلاق، ما لم يتم قطع رأس السجين. واختتم السيد المدعي العام كلمته بمطالبتهم، باسم كل ما يمكن أن يفكر فيه بشكل مباشر أو غير مباشر، وعلى أساس اعتقاده الجازم بأنه اعتبر أن السجين ميتٌ، ورحل بالفعل.

وعندما توقف المدعي العام، ثارت ضجة في المحكمة كما لو أن سحابة من الذباب الأزرق الكبير تحوم حول السجين، توقُّعاً لما سيصبح عليه قريباً. وما إن خَفَّت حدة الضجة ثانية، حتى ظهر الشاهد الحق، الرجل الوطني، في منصة الشهود.

وعندئذٍ قام السيد مساعد المدعي العام، على خُطى رئيسه، باستجواب الرجل الوطني: جون بارساد، رجل نبيل، بالاسم. كانت

قصة روحه النقية تتطابق تمامًا ووصف السيد المدعي العام؛ ربما كانت شديدة الدقة، إن كان هناك خطأ. وبعد أن حرر صدره النبيل من عبئه، كان سينسحب بتواضع، لكن ذلك الرجل الذي يضع شعرًا مستعارًا ويحمل الأوراق أمامه، ويجلس على مقربة من السيد لوري، التمس توجيه بعض الأسئلة إلى الشاهد، بينما كان الرجل ذو الشعر المستعار الذي يجلس في الجهة المقابلة، لا يزال ينظر إلى سقف المحكمة.

هل كان هو نفسه جاسوسًا من قبل؟ لا، واحتقر التلميح الأساسي. على ماذا يعيش؟ على ممتلكاته. أين كانت ممتلكاته؟ لم يتذكر بالضبط أين كانت. ماذا كانت؟ هذا ليس من شأن أحد. هل ورثها؟ نعم، ورثها. ممن؟ علاقة بعيدة. هل بعيدة جدًا؟ إلى حدٍّ ما. هل سبق أن سُجنت؟ كلا، بالتأكيد. ألم تُسجن قطُّ في سجن المدينين؟ لا علاقة لذلك بالموضوع. ولا مرة في سجن المدينين؟ أسألك ثانية، ولا مرة؟ نعم، سُجنت. كم مرة؟ مرتين أو ثلاثًا. ليس خمسًا أو ستًا؟ ربما. من أي مهنة؟ سيد محترم. هل سبق لك أن تعرضت للركل؟ ربما. بشكلٍ متكرر؟ لا. هل سبق أن تعرضت للركل من أعلى سُلّم؟ كلا، بالتأكيد؛ تلقيت ركلة ذات مرة على قمة سُلّم، وسقط في الطابق السفلي من تلقاء نفسه. كانت الركلة في تلك المناسبة نتيجة الغش في مقامرة؟ شيء بهذا المعنى قاله الكذاب المخمور الذي ارتكب الاعتداء، لكنه لم يكن صحيحًا. أتقسم إنه لم يكن صحيحًا؟ نعم. هل سبق وكسبت عيشك بالغش في اللعب؟ مطلقًا. هل سبق لك وكسبت عيشك باللعب؟ ليس أكثر من السادة الآخرين. هل سبق أن اقترضت

مالاً من السجين؟ نعم. وهل أعدت إليه ماله؟ لا. ألم تكن هذه العلاقة الحميمة مع السجين علاقة بسيطة للغاية، في الواقع، فُرضت على السجين في الحافلات والنُّزُل وسُفن البريد؟ لا. هل من المؤكد أنه رأى هذه القوائم مع السجين؟ متأكد. ألا يعرف المزيد عن القوائم؟ لا. ألم يشترها بنفسه، على سبيل المثال؟ لا. أيتوقع الفوز بأي شيء من خلال هذا الدليل؟ لا. ألا يتوقع وظيفة حكومية وأجرًا منتظمًا، لنصب الفخاخ؟ يا إلهي، كلا. أو لفعل أي شيء؟ يا إلهي، كلا. أتقسم على ذلك؟ أقسم أكثر من مرة. ألم تكن لديك أي دوافع غير الدوافع الوطنية الخاصة؟ مطلقًا.

أسرع الخادم النزيه، روجر كلاي، إلى المحكمة ليلقي بالقسم. كان يخدم السجين، بحسن نية وبساطة، منذ أربع سنوات؛ إذ سأل السجين، وهما على متن زورق كاليه، عما إذا كان يريد رفيقًا ماهرًا، وقد وافق السجين وألحقه بالعمل. لم يطلب من السجين أن يأخذه، كرفيقٍ ماهر، على سبيل العمل الخيري؛ لم يفكر قط في شيء من هذا القبيل. وبعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، بدأ يشك في السجين، ويراقبه. وفي أثناء ترتيب ملابسه، خلال السفر، تكررت رؤيته لقوائم مماثلة لتلك الموجودة في جيوب السجين. أخذ هذه القوائم من درج مكتب السجين؛ فلم يكن هو من وضعهم هناك بداية. لقد رأى السجين يعرض هذه القوائم المتطابقة على السادة الفرنسيين في كاليه، وقوائم مماثلة على السادة الفرنسيين في كل من كاليه وبولوني. ولأنه يحب بلده، لم يستطع تحمُّل الأمر، وأبلغ السلطات بالمعلومات. لم يشتبه أحدٌ فيه قط فيما يتعلق بسرقة

إبريق شاي فضي؛ وإنما تعرّض للإهانة فيما يتعلق بوعاء الخردل، ثم اتضح أنه مجرد وعاء مطلي. وقد تعرّف على الشاهد الأخير منذ سبع أو ثمانى سنوات، وكان ذلك مجرد مصادفة. لم يسمّها مصادفة غريبة بصفة خاصة، فقد كانت معظم المصادفات غريبة، كما أنه لم يسمّها مصادفة غريبة أن تكون الوطنية الحقيقية دافعه الوحيد أيضًا، لقد كان بريطانيًا حقيقيًا، ويأمل أن يوجد الكثير مثله.

ارتفع أزيز الذباب الأزرق ثانية، ودعا السيد المدعي العام السيد جارفيس لوري.

«سيد جارفيس لوري، هل أنت موظف في بنك تيلسون؟».

«نعم».

«هل تطلّب عملك السفر، في ليلة جمعة معينة من شهر نوفمبر عام ١٧٧٥، بين لندن ودوفر في عربة البريد؟».

«نعم».

«هل ضمتّ عربة البريد ركابًا آخرين؟».

«اثنين».

«هل غادرا العربة على الطريق في أثناء الليل؟».

«نعم».

«سيد لوري، انظر إلى السجين. هل كان أحد هذين الراكبين؟».

«لا أستطيع أن أجزم بذلك».

«هل يشبه أيًا من هذين الراكبين؟».

«كان كلاهما متدثرًا بدرجة كبيرة، وكان الليل مظلمًا للغاية، وكنا جميعًا متحفظين للغاية، بحيث لا أستطيع أن أقول ذلك حتى».

«سيد لوري، انظر مرة أخرى إلى السجين. لنفترض أنه كان متدثرًا مثل هذين الراكبين، فهل هناك أي شيء في حجمه وقامته يجعل من غير المحتمل أن يكون واحدًا منهم؟».

«لا».

«لن تقسم، يا سيد لوري، إنه لم يكن واحدًا منهم؟».

«لا».

«إذن فأنت على الأقل تقول إنه ربما كان واحدًا منهم؟».

«نعم. إلا أنني أتذكر أنهما كانا - مثلي - خائفين من قطاع الطرق، والسجين لا تبدو عليه أمارات الخوف».

«هل سبق أن رأيت خوفًا مزيّفًا، يا سيد لوري؟».

«رأيت ذلك بالتأكيد».

«سيد لوري، انظر مرة أخرى إلى السجين. هل رأيته من قبل، بقدر ما يمكنك التأكيد؟».

«نعم، رأيته».

«متى؟».

«كنت عائداً من فرنسا بعد قضاء بضعة أيام؛ وفي كاليه، صعد السجين على متن سفينة الطرود^(١) التي عُدت فيها، وتشاركنا الرحلة».

«في أي ساعة صعد على متن السفينة؟».

«بعد منتصف الليل بقليل».

«في جوف الليل. هل كان هو الراكب الوحيد الذي صعد على متن السفينة في ذلك الوقت غير المناسب؟».

«تصادف أنه كان الوحيد».

«لا تهتم بـ«المصادفة»، يا سيد لوري. هل كان هو الراكب الوحيد الذي صعد على متن السفينة في جوف الليل؟».

«نعم».

«هل كنت تسافر وحدك، سيد لوري، أم كان معك أي رفيق؟».

«مع رفيقين. سيد وسيدة. وهما هنا».

«إنهما هنا. هل أجريت أي حديث مع السجين؟».

«بالكاد؛ كان الجو عاصفاً، والرحلة طويلة وشاقة، فاستلقت على أريكة من الشاطئ للشاطئ تقريباً».

«الآنسة مانيت!».

(١) «سفينة الطرود» (packet-ship): سفينة كانت تُستخدم أصلاً لنقل طرود بريد مكتب البريد من وإلى السفارات والمستعمرات والمواقع الاستيطانية البريطانية؛ وتُعتبر خدمة منتظمة في النقل البحري لنقل السلع والركاب - (المترجمة).

وقفت الشابة، التي كانت كل الأعين قد تحوّلت إليها كل من قبل، ثم تحوّلت إليها الآن مرة أخرى، حيث جلست. قام والدها معها، وأبقت يدها ممسكة بذراعه.

«آنسة مانيت، انظري إلى السجين».

كانت مواجهة مثل هذه الشفقة، ومثل هذا الشباب والجمال الفاتن، أكثر صعوبة بالنسبة إلى المتهم من مواجهة كل الحشد. وقف في مكانه بعيداً عنها وهو على حافة قبره؛ ولم يكن كل الفضول المُحدق نحوه في هذه اللحظة يمكن أن يدفعه إلى البقاء ساكناً تماماً. قامت يده اليمنى السريعة بتوزيع الأعشاب أمامه على أحواض وهمية لزهور في حديقة؛ كانت جهوده للسيطرة على تنفسه وثباته تهز الشفاه التي اندفع لونها إلى قلبه. ارتفع ثانية طنين الذباب الكبير عالياً.

«آنسة مانيت، هل رأيت السجين من قبل؟».

«نعم، سيدي».

«أين؟».

«على متن سفينة الطرود المُشار إليها للتو، سيدي، وفي المناسبة نفسها».

«أنت الشابة المُشار إليها للتو؟».

«أوه! نعم أنا، مع الأسف!».

تشابكت نبرة تعاطفها الحزينة مع صوت القاضي الأقل موسيقية، وهو يقول بعنفٍ: «أجيبني على الأسئلة المطروحة عليك، دون التعليق عليها».

«آنسة مانيت، هل أجريت أي حديث مع السجين خلال هذه الرحلة عبر القناة؟».

«نعم، يا سيدي».

«اذكريها».

في خضم سكون عميق، بدأت بصوتٍ خافتٍ: «عندما صعد الرجل على متن السفينة...».

«هل تقصدين السجين؟»، سأل القاضي وهو يعقد حاجبيه.

«نعم، يا سيدي».

«إذن قولي السجين».

«عندما صعد السجين على متن السفينة، لاحظ أن والدي»، ووجهت نظرها إليه بمحبة وهو يقف بجانبها، «كان مرهقاً جداً، وفي حالة صحية ضعيفة للغاية. كان والدي ضعيفاً إلى درجة أنني كنت أخشى إخراجه إلى الهواء، وصنعت له سريرًا على سطح السفينة بالقرب من سلال المقصورة، وجلست على سطح السفينة بجانبه لأعتني به. لم يكن هناك ركاب آخرون في تلك الليلة، كنا أربعة. كان السجين لطيفاً، واستأذني في تقديم النصح حول كيفية حماية والدي من الرياح والطقس، على نحو أفضل مما كنت أفعل. لم أكن أعرف كيف أقوم بذلك بشكل جيد، ولم أكن أعرف اتجاه هبوب الرياح عندما نخرج من الميناء. وقد قام بذلك من أجلي. وأبدى كياسة ولطفًا كبيرين لحالة والدي، وأنا على يقين أنه شعر بذلك. كانت هذه هي الطريقة التي بدأنا بها التحدث معًا».

«دعيني أقاطعك للحظة. هل صعد على متن السفينة وحده؟».

«لا».

«كم شخصًا كان معه؟».

«سيدان فرنسيان».

«هل تحدثوا معًا؟».

«تحدثوا معًا حتى اللحظة الأخيرة، عندما كان من الضروري أن يهبط السادة الفرنسيون إلى قاربهم».

«هل تبادلوا أي أوراق بينهم، على غرار هذه القوائم؟».

«تبادلوا بعض الأوراق بينهم، لكنني لا أعرف ما هي».

«مثل هذه، من حيث الشكل والحجم؟».

«ربما، لكنني في الواقع لا أعرف، على الرغم من أنهم وقفوا يتهايمسون بالقرب مني: لأنهم وقفوا أعلى سلالم المقصورة للحصول على ضوء المصباح الذي كان معلقًا هناك. كان مصباحًا باهتًا، وتحدثوا بصوتٍ منخفضٍ جدًا، ولم أسمع ما قالوه، ورأيت فقط أنهم نظروا إلى الأوراق».

«لنعد الآن إلى محادثة السجين، آنسة مانيت».

«كان السجين صريحًا في ثقته بي -التي نشأت من وضعي العاجز- بقدر ما كان لطيفًا وطيبًا ومفيدًا لوالدي. وآمل...»، وانفجرت في البكاء، «ألا أكافئه بإلحاق الأذى به اليوم».

انطلق طنين الذباب الأزرق.

«آنسة مانيت، إذا كان السجين لا يدرك تمامًا أنك تقدمين الأدلة التي من واجبك تقديمها مكرّهة -التي يجب عليك تقديمها، ولا يمكنك الهروب من تقديمها- فهو الشخص الوحيد الموجود هنا في هذا الوضع. استمري من فضلك».

«أخبرني أنه يسافر في رحلة ذات طبيعة حساسة وصعبة، قد تُسبب مشكلات للناس، ولهذا يسافر باسمٍ مستعارٍ، قال إن هذه المهمة جعلته يسافر إلى فرنسا في غضون أيام قليلة، وقد تجعله يسافر على فترات ذهابًا وإيابًا بين فرنسا وإنجلترا لفترة طويلة قادمة».

«هل قال أي شيء عن أمريكا، يا آنسة مانيت؟ كوني دقيقة».

«حاول أن يشرح لي كيف نشأ هذا الشجار، وقال إنه، بقدر ما يستطيع الحكم عليه، كان خطأً وحماسة من جانب إنجلترا. وأضاف، بطريقة مازحة، أن جورج واشنطن ربما يكتسب اسمًا عظيمًا في التاريخ مثل جورج الثالث، لكن طريقته في قول ذلك لم تكن تضم أي إساءة: قالها ضاحكًا، وإضاعة للوقت».

إن أي تعبير ملحوظ بقوة على وجه ممثل رئيسي في مشهد يتسم بأهمية كبيرة تتجه نحوه العديد من الأعين، سوف تحاكيه لا شعوريًا وجوه المشاهدين. كانت جبهتها قلقة ومُرْكْزة بشكلٍ مؤلمٍ وهي تقدم هذه الشهادة. وفي فترات التوقف، عندما توقفت ليكتب القاضي كلماتها، كانت تراقب تأثير شهادتها على المحامي المؤيد والمحامي المعارض. ساد التعبير نفسه بين الحضور في أرجاء المحكمة كافة. إلى

درجة أن الغالبية العظمى من جباه الحضور، ربما كانت مرايا تعكس الشاهدة، عندما رفع القاضي نظره عن ملاحظاته ليحدق إلى تلك الهرطقة الهائلة التي ذكرتها حول جورج واشنطن.

والآن، أشار السيد المدعي العام إلى القاضي، أنه يرى من الضروري، كإجراءٍ احترازي وشكلي، استدعاء والد الشابة، الدكتور مانيت. وقد جرى استدعاؤه بناء على ذلك.

«دكتور مانيت، انظر إلى السجين، هل رأيته من قبل؟».

«مرة واحدة، عندما زارني في مسكني في لندن، قبل قرابة ثلاث سنوات، أو ثلاث سنوات ونصف».

«هل يمكنك التعرف عليه بوصفه الراكب الذي كان زميلك على متن السفينة، أو تتحدث عن محادثته مع ابتك؟».

«سيدي، ليس في مقدوري القيام بأيٍّ منهما».

«هل هناك أي سبب معين وخاص لعدم قدرتك على القيام بأي منهما؟».

أجاب بصوتٍ منخفضٍ: «هناك سبب».

«هل كان من سوء حظك أن تخضع لسجن طويل، دون محاكمة، أو حتى اتهام، في بلدك الأصلي، دكتور مانيت؟».

أجاب بنبرة نفذت إلى كل قلب: «سجن طويل».

«هل أُطلق سراحك مؤخرًا بمناسبة هذه القضية؟».

«يقولون لي ذلك».

«ألا تتذكر المناسبة؟».

«لا أتذكر شيئًا. عقلي فارغ منذ فترة -لا أستطيع حتى أن أقول منذ متى - منذ أن شغلت نفسي، في أثناء أسري، في صنع الأحذية، إلى الوقت الذي وجدته في أعيش في لندن مع ابنتي العزيزة هنا. أصبحت ابنتي مألوفة بالنسبة إليّ، عندما أعاد الله الكريم قدراتي، لكنني غير قادر تمامًا حتى على القول كيف أصبحت مألوفة، ليس لديّ أي ذكرى للعملية».

جلس السيد المدعي العام، وجلس الأب وابنته معًا.

ثم نشأ ظرف فريد في القضية. كان الهدف المطروح في متناول اليد يكمن في إظهار أن السجين ركب، مع أحد زملائه المتآمرين الذين لم يمكن تعقبهم، في عربة بريد دوفر في ليلة الجمعة تلك في نوفمبر قبل خمس سنوات، وغادر عربة البريد ليلاً، كالأعمى، في مكان لم يبق فيه، لكنه سافر منه عائداً نحو عشرة أميال أو أكثر إلى حامية وحوض لبناء السفن، وهناك قام بجمع المعلومات. واستدعي شاهد ليثبت أنه كان، خلال الوقت المحدد المطلوب، في غرفة القهوة في فندق في تلك البلدة التي تضم الحامية وحوض بناء السفن، في انتظار شخص آخر. كان محامي السجين يستجوب هذا الشاهد دون أي نتيجة، باستثناء أنه لم يرَ السجين في أي مناسبة أخرى، عندما كتب الرجل ذو الشعر المستعار -الذي كان ينظر طوال هذا الوقت إلى سقف المحكمة- كلمة أو كلمتين على قطعة صغيرة من الورق، وكوّرها، وألقاها إليه. فتح المحامي هذه الورقة خلال الاستراحة التالية، ونظر باهتمام وفضولٍ كبيرين إلى السجين.

«هل تقول مرة أخرى إنك متأكد تمامًا من أنه كان السجين؟».

كان الشاهد متأكدًا تمامًا.

«هل سبق لك أن رأيت أي شخص يشبه السجين؟».

ليس مثله (قال الشاهد) بحيث يمكن الخلط بينهما.

«انظر جيدًا إلى ذلك الرجل، صديقي المثقف هناك»، مُشيرًا إلى الرجل الذي ألقى الورقة، «ثم انظر جيدًا إلى السجين. ماذا تقول؟ هل هما متشابهان إلى حد كبير؟»

بغض النظر عن أن مظهر صديقي المثقف كان يتسم بالإهمال والقدارة، إن لم يكن بالعربة، فقد كان تشابههما عند المقارنة بينهما كبيرًا بما يكفي لمفاجأة، ليس الشاهد فقط، وإنما جميع الحاضرين. وبعد أن التمسْتُ من السيد القاضي أن يطلب من صديقي المثقف أن يضع شعره المستعار جانبًا، وأعطى موافقته الكريمة على مضضٍ، أصبح الشبه ملحوظًا بوضوح. استفسر القاضي من السيد سترایفر (محامي السجين)، عما إذا كانوا سيحاكمون بعد ذلك السيد كارتون (اسم صديقي المثقف) بتهمة الخيانة؟ لكن السيد سترایفر أجاب القاضي بكلمة لا. بل كان يطلب من الشاهد أن يخبره ما إذا كان ما حدث مرة واحدة قد يحدث مرتين، وهل سيكون شديد الثقة إذا كان قد رأى قبل ذلك بقليل هذا التوضيح على اندفاعه، وهل سيكون شديد الثقة بعد أن يراه؛ وأكثر من ذلك مما كانت نتيجته تحطيم هذا الشاهد مثل وعاء الأواني الفخارية، وتحويل دوره في القضية إلى حطام.

كان السيد كرانشر بحلول هذا الوقت قد التهم غداء جيداً من الصداً من على أصابعه في أثناء متابعته للشهود. كان عليه الآن أن يستمع إلى السيد سترافير وهو يعرض قضية السجين على هيئة المحلفين بإحكام، مثل بدلة مُحكَّمة التفصيل؛ موضعاً لهم كيف كان الرجل الوطني، بارساد، جاسوساً وخائناً مأجوراً، ومُتاجراً بالدماء بلا خجل، وأحد أعظم الأوغاد على وجه الأرض منذ يهوذا الملعون؛ وهو يبدو مثله بالتأكيد. وكيف كان الخادم الفاضل، كلاي، صديقه وشريكه، وهو جدير بذلك؛ وكيف استقرت الأعين الساهرة لهؤلاء المزورين، الذين أقسموا كذباً، على السجين كضحية، لأن بعض شؤون الأسرة في فرنسا، كونه من أصل فرنسي، تطلبت منه القيام بهذه الرحلات عبر القناة؛ على الرغم من أن ماهية تلك الشؤون كانت تمنعه، اعتباراً لآخرين كانوا قريبين وعزيزين عليه، من الكشف عنها حتى لو كلفه هذا حياته. وكيف أن الشهادة التي جرى تشويهها وانتزاعها من السيدة الشابة، وظهرت معاناتها عند الإدلاء بها، لم تسفر عن شيء، بما في ذلك مجرد تودد ولطف بريء من المحتمل أن يحدث بين أي شاب وشابة يلتقيان معاً، باستثناء تلك الإشارة إلى جورج واشنطن، التي كانت مغالى فيها إلى حدٍّ كبير بحيث يستحيل رؤيتها في أي ضوء آخر غير مزحة صارخة. وكيف ستكون نقطة ضعف في الحكومة أن تنهار في هذه المحاولة لاكتساب شعبية عن طريق إثارة الكراهية والمخاوف الوطنية، وهو الأمر الذي أفاد منه السيد المدعي العام إلى أقصى حد؛ وكيف، مع ذلك، لم يستند إلى أي شيء باستثناء ذلك الطابع الخسيس والشائن

للسهادات التي غالباً ما يجري تشويهها في مثل هذه الحالات، التي تملأ جلسات محاكم الدولة في هذا البلد. لكن القاضي قاطعه هنا (بوجه قاسٍ، كما لو أن الكلام ليس صحيحاً) قائلاً إنه لا يستطيع الجلوس على هذا المقعد ويتحمل تلك التلميحات.

ثم استدعى السيد سترايفر شهوده القلائل، وكان على السيد كرانشر أن يسمع بعد ذلك السيد المدعي العام وهو يقلب رأساً على عقب بالكامل العرض الذي قدمه السيد سترايفر على هيئة المحلفين كبدلة مُحكّمة؛ موضّحاً كيف كان كل من بارساد وكلاي أفضل مائة مرة مما يُعتقَد عنهما، وأن السجين أسوأ مائة مرة. وأخيراً جاء دور القاضي نفسه، وأخذ يُقلّب تلك البدلة، تارة من الداخل إلى الخارج، وتارة من الخارج إلى الداخل، لكنه قام بشكل عام بالتأكيد بتشذيبها وتشكيلها ككفن للسجين.

وهنا، انصرفت هيئة المحلفين للنظر في القضية، واحتشد الذباب الكبير مرة أخرى.

وحتى في ظل هذه الإثارة، فإن السيد كارتون، الذي جلس طويلاً ينظر إلى سقف المحكمة، لم يغيّر مكانه ولا مسلكه، بينما كان صديقه المثقف، السيد سترايفر، وهو يجمع أوراقه أمامه، يهمس مع الذين يجلسون بالقرب منه، ومن وقتٍ إلى آخر ينظر بقلقٍ إلى هيئة المحلفين؛ وبينما كان جميع الحاضرين يتحركون بشكلٍ أو آخر، ويتجمعون من جديد؛ وبينما قام القاضي نفسه من مقعده، وأخذ يسير ببطء صعوداً وهبوطاً على منصّته، دون أن يغيب عنه ما يدور في أذهان الحاضرين من

شكّ بأنه يعاني قلقاً محمومًا؛ فقد جلس هذا الرجل متكئًا إلى الخلف، مع نصف ثوبه الممزق يكشف عن جسمه، وشعره المستعار مستقر على رأسه، كيفما اتفق أن يستقر بعد نزعه، ويداه في جيبيه، وعيناه على السقف كما كانتا طوال اليوم. كان هناك شيء متهور بشكلٍ خاص في سلوكه، لم يمنحه مظهرًا سيئ السمعة فحسب، بل قلّل من التشابه القوي الذي يحمله بلا شك مع السجين (الذي عزّزته حديثه اللحظية، عند مقارنتهما معًا)، إلى درجة أن العديد من الحاضرين، الذين نظروا إليه الآن، قالوا لبعضهم إنهم بالكاد ما يعتقدون أن الاثنين متشابهان إلى هذا الحد. أبدى السيد كرانشر بالملاحظة لجاره التالي، وأضاف: «أراهن بنصف جنيه أنه ليس له علاقة بأي عمل قانوني. لا يبدو مثل هذا النوع من الأشخاص الذين يحصلون على أي عمل قانوني، أليس كذلك؟».

ومع ذلك، تابع السيد كارتون تفاصيل هذا المشهد أكثر مما بدا أنه يتابعه؛ فقد كان أول من رأى الأنسة مانيت ورأسها يسقط على صدر والدها، وقال بصوت عالٍ: «أيها الضابط! انظر إلى تلك الشابة.. ساعد الرجل على إخراجها، ألا ترى أنها ستسقط!».

ساد شعورٌ بالشفقة عليها وهي تخرج، فضلًا عن التعاطف مع والدها. من الواضح أن تذكره أيام سجنه سبّب له حزنًا شديدًا. فقد أظهر انفعالًا داخليًا قويًا عند استجوابه؛ كما أن نظرة التأمل أو التفكير التي جعلته عجوزًا، ظلت منذ ذلك الحين على وجهه مثل سحابة ثقيلة. وفي أثناء مغادرته، عاد المحلفون وتوقفوا لحظة، ثم تحدث باسمهم رئيسهم.

لم يتوصّل المحلفون إلى اتفاق، ورغبوا في استراحة. أما القاضي (وربما في ذهنه جورج واشنطن)، فقد أظهر دهشته لعدم توصلهم إلى اتفاق، لكنه أبدى استحسانه لأخذهم استراحة تحت الحراسة والمراقبة، وذهب هو نفسه ليستريح. لقد استمرت المحاكمة طوال اليوم، وأضاءت المصابيح الآن في المحكمة، وبدأت تسري شائعات أن هيئة المحلفين ستتغيب فترة طويلة، وخرج جمهور الحضور لتناول المرطبات، وانسحب السجين إلى الجزء الخلفي من قفص الاتهام وجلس.

أما السيد لوري، الذي خرج عندما خرجت الشابة ووالدها، فقد ظهر الآن مرة أخرى وأوماً إلى جيري؛ الذي أمكنه، في ظل اهتمام متناقل، أن يقترب منه بسهولة.

«جيري، إذا كنت ترغب في الحصول على شيء تأكله، يمكنك ذلك، لكن عليك أن تظل قريباً. ستسمع عند وصول هيئة المحلفين. لا تتخلف عنهم للحظة، لأنني أريدك أن تعود بالحكم إلى البنك. أنت أسرع مرسال أعرفه، وسوف تصل إلى تمبل بار قبل أن أتمكن من ذلك بوقتٍ طويلٍ».

كانت جبهة جيري تكفي ليفركها بأصابعه، وقد فعل ذلك تعبيراً عن شكره لهذا التواصل ولمبلغ الشلن الذي أعطاه له. في تلك اللحظة جاء السيد كارتون، ووضع يده على ذراع السيد لوري.

«كيف حال السيدة الشابة؟».

«إنها حزينة للغاية، لكن والدها يواسيها، وهي تشعر بأنها أفضل لكونها خارج المحكمة».

«سوف أخبر السجين بذلك. فكما تعلم، ليس من المناسب لرجل مصرفي محترم مثلك أن يُشاهد وهو يتحدث إليه علناً».

احمرَّ وجه السيد لوري كأنما كان الرجل مُدْرِكاً أنه يناقش هذه النقطة في ذهنه، وشق السيد كارتون طريقه إلى الخارج. كان مخرج المحكمة يكمن في هذا الاتجاه، وتبعه جيري، وكله أعين وآذان وشعر شائك.

«السيد دارني!».

تقدم السجين مباشرة.

«من الطبيعي أن تكون متلهفًا على سماع أخبار الشاهدة، الآنسة مانيت، إنها تتحسن الآن بشكل جيد. أنت رأيته في أسوأ انفعالاتها».

«أنا آسف للغاية لأنني كنت السبب في ذلك، هل يمكن أن تخبرها بذلك من أجلي، مع تقديري الحار؟».

«نعم يمكنني. سأفعل، إذا طلبت ذلك».

كان أسلوب السيد كارتون ينم عن عدم الاكتراث، إلى درجة أنه كان وقحًا تقريبًا، فقد ولَّى السجين نصف ظهره، مسترخيًا بمرفقه على الحاجز.

«أنا أطلب ذلك، تقبَّل شكري الودي».

«ماذا»، قال كارتون وهو لا يزال يولي نصفه فقط نحو السجين، «ماذا تتوقع يا سيد دارني؟».

«الأسوأ».

«إنه الشيء الأكثر حكمة الذي يمكن توقعه، والأكثر احتمالاً، لكنني أعتقد أن خروجهم للاستراحة هو في صالحك».

ونظرًا إلى أن التسكع عند الخروج من المحكمة لم يكن مسموحًا به، فلم يتمكن جيري أن يسمع أي شيء آخر، لكنه تركهما يقفان متجاورين -متشابهين من حيث الملامح، ومختلفين من حيث الأسلوب- وتعكس المرأة فوقهما صورتيهما.

أمضى متاقلاً ساعة ونصفًا في الممرات المزدحمة باللصوص والأوغاد أدناه، على الرغم من أن فطائر لحم الضأن والبيرة ساعدته. كان المرسال غليظ الصوت يجلس بشكلٍ غير مريح على إحدى درجات السلم بعد تناوله الطعام، وسقط في غفوة، عندما حملته معهم همهمة عالية وتيار سريع من الأشخاص الذين يصعدون السلم المؤدي إلى المحكمة.

«جيري! جيري!»، كان السيد لوري يناديه بالفعل عند الباب عندما وصل إلى هناك.

«هنا يا سيدي! إنها معركة للعودة مرة أخرى. ها أنا ذا يا سيدي».
ومن خلال الحشد، أعطاه السيد لوري ورقة. «أسرع! هل تسلمتها؟».

«نعم، سيدي».

كان مكتوبًا على الورقة على عجل كلمة «براءة».

تمتم جيـري قائلاً، وهو يستدير: «لو كنت أرسلت مرة أخرى الرسالة التي ضمت عبارة «بُعْثْ إلى الحياة»، لكنت عرفت ما تعنيه هذه المرة».

لم تُتَح له الفرصة ليقول أي شيء آخر، أو يفكر فيه، إلى أن أصبح بعيداً عن أولد بيلي؛ ذلك أن الحشد أخذ يتدفق بقوة كادت تكسر ساقيه، واجتاح الشارع ضجيج عالٍ، كأن الذباب الأزرق الحائر ينتشر بحثاً عن جيفة أخرى.

الفصل الرابع

تهنئة

من ممرات المحكمة ذات الإضاءة الخافتة، أخذت تنحسر آخر بقايا الخليط البشري الذي ظل منفعلًا هناك طوال اليوم، بينما وقف الدكتور مانيت، وابنته لوسي مانيت، والسيد لوري، ومحامي الدفاع، ومستشاره السيد سترايفر، مجتمعين حول السيد تشارلز دارني -الذي أُطلق سراحه للتوّ- لتهنئته على نجاته من الموت.

كان يصعب حتى في ضوء أكثر سطوعًا التعرف في دكتور مانيت، الذي يبدو وجهه ذكيًا ويقف منتصب القامة، على صانع الأحذية في تلك العلية في باريس. ومع ذلك، لم يكن في إمكان أحد أن ينظر إليه مرتين، دون أن ينظر مرة أخرى؛ على الرغم من أن فرصة رؤيته لم تمتد إلى إيقاع صوته الحزين الخفيض، وإلى نوبات الدهول تلك التي تخيم عليه، دون أي سبب واضح. في حين أن سببًا خارجيًا واحدًا، مثل الإشارة إلى معاناته الطويلة، كان يثير دائمًا هذه الحالة من أعماق روحه -كما حدث في المحاكمة- فقد كان من طبيعة هذه الحالة أيضًا أن تثور من تلقاء نفسها، وتلقي عليه بظلال الكآبة لا يفهمها من ليسوا على دراية بقصته، كأنهم رأوا ظل الباستيل الفعلي الذي ألقته عليه شمس أحد أيام الصيف، عندما كان على بُعد ثلاثمائة ميل.

كانت ابنته فقط هي التي تمتلك قدرة كالسحر لإبعاد هذا التفكير الأسود عن ذهنه، كانت الخيط الذهبي الذي يربطه بماضٍ يتجاوز بؤسه، وبحاضرٍ يتجاوز بؤسه؛ فقد كان لرنين صوتها، وإشراق وجهها، ولمسة يدها، تأثيرٌ مفيد وقوي عليه دائماً تقريباً. ليس دائماً على الإطلاق؛ لأنها يمكن أن تتذكر بعض المناسبات التي أخفقت فيها قوتها، لكنها كانت مناسبات قليلة وبسيطة، إلى حد أنها اعتقدت أنها لن تتكرر ثانية.

قام السيد دارني بتقبيل يدها بحرارة وامتنانٍ، ثم التفت إلى السيد سترافير وشكره بحرارة. كان السيد سترافير يبلغ من العمر ما يزيد قليلاً على الثلاثين، لكنه يبدو أكبر بعشرين عاماً، كان شجاعاً، ممتلئ الجسم، عالي الصوت، أحمر البشرة، يتسم بالخداع، ويخلو من عيوب الحساسية؛ إذ كانت لديه طريقة لإقحام نفسه (معنوياً وجسدياً) في التجمعات والمحادثات، مما ساعده كثيراً على شق طريقه في الحياة.

كان لا يزال يرتدي شعره المستعار وروب المحاماة وقال، وهو يشق طريقه بقوة نحو موكله السابق، إلى درجة أنه أخرج السيد لوري المسكين من المجموعة: «أنا سعيد لأنني أخرجتك بشرفٍ يا سيد دارني، لقد كانت محاكمة سيئة السمعة، سيئة السمعة بشكلٍ صارخ؛ لكن ذلك ما كان ليقفل من احتمالات نجاحها».

قال موكله السابق وهو يمسك بيده: «لقد جعلتني مديناً لك مدى الحياة، بعد أن رددت لي الحياة».

«لقد بذلت قصارى جهدي من أجلك يا سيد دارني؛ وأعتقد أن أفضل جهدي لا يقل عن أفضل جهد أي رجل آخر».

كان من الواضح أنه يتعين على شخص ما أن يقول إنها «أفضل بكثير»، وقد قالها السيد لوري. ربما لم يقلها من باب الاهتمام، وإنما بهدف استعادة مكانه ثانية داخل المجموعة.

قال السيد سترافير: «هل تعتقد ذلك؟ حسنًا! لقد كنت حاضراً طوال اليوم، ولذا تعرف ذلك، أنت من رجال الأعمال أيضاً».

قال السيد لوري، الذي أعاده الآن المحامي الضليع في القانون إلى المجموعة، كما كان قد حمله سابقاً للخروج منها: «وبالتالي، فإنني أناشد الدكتور مانيت أن ينهي هذا التجمع، ويأمرنا جميعاً بالذهاب إلى منازلنا، كما أن الآنسة لوسي تبدو مُتعبة، والسيد دارني مرّ بيومٍ رهيب، نحن منهكون».

«تحدّث عن نفسك، سيد لوري»، قال سترافير، «لا يزال لديّ عملٌ ليلي يجب أن أقوم به، تحدث عن نفسك».

أجاب السيد لوري: «أنا أتحدث عن نفسي، وعن السيد دارني، وعن الآنسة لوسي. يا آنسة لوسي، ألا تعتقدين أن في إمكاني أن أتحدث باسمنا جميعاً؟». سألهما بوضوح، وهو ينظر نحو والدهما.

أصبح وجه الدكتور مانيت متجمداً، كما كان، وهو ينظر نظرة شديدة الغرابة إلى دارني: نظرة مقصودة، تزداد عمقاً في عبوسٍ ينم عن كراهية وعدم ثقة، ولا تخلو حتى من الخوف، ومع هذا التعبير الغريب، شردت أفكاره بعيداً.

«يا أبي»، قالت لوسي، وهي تضع يدها بهدوء على يده.

خرج من حالة الكآبة ببطء، والتفت إليها.

«هل نعود إلى المنزل يا أبي؟».

أجاب، وهو يأخذ نفسًا طويلاً: «نعم».

تفرّق أصدقاء السجين الذي نال البراءة، ولديهم انطباع -أثاره هو لديهم- بأنه لن يُطلق سراحه تلك الليلة. كانت أضواء الممرات مُطفأة كلها تقريباً، والبوابات الحديدية تُغلق في جلجلة وخشخشة، وأصبح المكان الكئيب مهجوراً حتى صباح الغد عندما يتدفق الناس المهتمون بالمشائق، وأعمدة التعذيب، وعمود الجلد، وحديد علامات الوسم. تحركت لوسي مانيت نحو الهواء الطلق، وهي تسير بين والدها والسيد دارني. استدعوا عربة تجرها الأحصنة، وغادر فيها الأب وابنته.

تركهم السيد سترافير في الممرات، ليواصل طريقه إلى غرفة أرواب الحمامة. كان هناك شخص آخر، لم ينضم إلى المجموعة أو يتبادل كلمة مع أي منهم، لكنه كان يتكئ على الحائط حيث الظل أشد حلكة، وسار بصمتٍ وراء البقية، واستمر في النظر إلى أن ابتعدت الحافلة؛ وعندئذٍ سار إلى حيث وقف السيد لوري والسيد دارني على الرصيف.

«إذن، يا سيد لوري! هل يمكن أن يتحدث رجال الأعمال إلى السيد دارني الآن؟».

لم يشكر أحد السيد كارتون لدوره في إجراءات اليوم؛ فلم يعرف أحد بذلك. لم يكن يرتدي روب الحمامة، ولم يكن ليُجعل مظهره أفضل.

«إذا كنت تعرف الصراع الذي يدور في ذهن رجل الأعمال، عندما ينقسم العقل التجاري بين الدافع الطيب والمظاهر التجارية، فسوف تستمتع يا سيد دارني».

احمرّ وجه السيد لوري، وقال بكل ودّ: «لقد ذكرت ذلك من قبل، يا سيدي. نحن رجال الأعمال نخدم مؤسساتنا، ولسنا أسياد أنفسنا، علينا أن نفكر في المؤسسة أكثر من أنفسنا».

قال السيد كارتون بلا مبالاة: «أعرف، أعرف. لا تنزعج يا سيد لوري. أنت شخص جيد مثلك مثل الآخرين، وليس لديّ شك: بل أجرؤ على القول إنك أفضل».

تابع السيد لوري، دون اهتمام به: «في الواقع، يا سيدي، أنا لا أعرف حقًا ما علاقتك بالأمر، أرجو أن تعذرني، فأنا أكبر منك سنًا لقولي ذلك، فأنا لا أعرف حقًا أن ذلك كان من عملك».

قال السيد كارتون: «عمل! بارك الله فيك، ليس لديّ عمل».

«إنه لأمر مؤسف يا سيدي».

«أنا أيضًا أعتقد ذلك».

تابع السيد لوري: «إذا كان لديك عمل، لربما كنت اهتممت به».

قال السيد كارتون: «يا إلهي، كلا! لا يمكنني».

صاح السيد لوري، غاضبًا تمامًا بسبب لا مبالاته: «حسنًا، يا سيدي! العمل شيء جيد جدًّا، وشيء محترم للغاية. ويا سيدي، إذا كانت الأعمال التجارية تفرض قيودها وصمتها وعوائقها، فإن السيد دارني،

بوصفه شابًا نبيلًا، يعرف كيف يتسامح مع ذلك الظرف. ليلة سعيدة، يا سيد دارني، بارك الله فيك يا سيدي! أتمنى أن تحتفظ بهذا اليوم من أجل حياة مزدهرة وسعيدة... نريد وسيلة نقل أيها الحمّال!».

اندفع السيد لوري إلى الكرسي، وربما كان غاضبًا قليلًا من نفسه، وكذلك من المحامي، وتوجه إلى بنك تيلسون. ضحك كارتون، الذي تفوح منه رائحة نبيذ من نوع بورت، ولم يبد أنه متزن تمامًا، ثم التفت إلى دارني:

«هذه فرصة غريبة التي تجمعني أنا وأنت معًا. لا بد أن هذه الليلة غريبة بالنسبة إليك، وأنت تقف هنا وحدك مع شبيهك على أحجار الشوارع هذه؟».

أجاب تشارلز دارني: «بالكاد يبدو لي أنني أنتمي إلى هذا العالم مرة أخرى».

«أنا لا أستغرب ذلك. لم يمضِ وقت طويل منذ أن تقدمت كثيرًا في طريقك إلى عالم آخر. أنت تتحدث بضعف».

«بدأت أعتقد أنني على وشك أن يُغمى عليّ».

«إذن لماذا، بحق الشيطان، لا تتناول عشاءك؟ أنا عن نفسي تناولت عشاءً، بينما كان أولئك الأغبياء يتشاورون في أي عالم يجب أن تنتمي إليه: هذا العالم، أم عالم آخر. دعني أريك أقرب حانة لتناول فيها عشاء جيد».

سحب ذراعه وشبكها في ذراعه، وهبط به إلى شارع لودجيت-

هيل ومنه إلى شارع فليت، ثم صعدا عبر طريق مُغطى، وصولاً إلى حانة. وهنا، أُدخلَا إلى غرفة صغيرة، حيث سرعان ما أخذ تشارلز دارني يشحذ قوته بعشاءٍ بسيط جيد ونبذ جيد؛ بينما جلس كارتون مقابله على الطاولة نفسها، مع زجاجة نبذ بورت أمامه، ويبدو عليه أسلوبه نصف المتغطرس.

«هل تشعر الآن، يا سيد دارني، أنك أصبحت تنتمي إلى هذا النظام الدنيوي مرة أخرى؟».

«أشعر بارتباكٍ مخيف فيما يتعلق بالزمان والمكان. لكنني تحسنت كثيراً الآن، بحيث أصبحت أشعر بذلك».

«لا بد أنه شعور هائل بالارتياح!».

قالها بمرارة، وملاً كأسه مرة أخرى؛ وكانت كأساً كبيرة.

«أما عن نفسي، فإن أعظم رغبة لديّ هي أن أنسى أنني أنتمي إلى هذا العالم؛ فليس لي خير فيه - باستثناء نبذ مثل هذا - وليس له خير عندي. لذلك، نحن لسنا متشابهين كثيراً في هذا الأمر على وجه الخصوص. وفي الواقع، بدأت أعتقد أننا، أنا وأنت، لسنا متشابهين كثيراً في أي شيء على وجه الخصوص».

كان تشارلز دارني في حيرة من أمره حول كيفية الإجابة؛ نظراً إلى شعوره بالارتباك نتيجة انفعالات اليوم، فضلاً عن أن شعوره بوجوده هنا مع هذا الشبيه فظ السلوك يماثل الحلم، وأخيراً، لم يُجب بأي شيء على الإطلاق.

قال كارتون: «والآن وقد أنهيتَ عشاءك، لماذا لا تشرب في صحة أحد، يا سيد دارني. لماذا لا تشرب نخبًا؟».

«أي صحة؟ وأي نخب؟».

«ماذا، إن اسمها على طرف لسانك. يجب أن يكون، لا بد أن يكون، أقسم إنه هناك».

«الآنسة مانيت، إذن!».

«الآنسة مانيت، إذن!».

وبينما كان كارتون يشرب النخب وهو ينظر إلى وجه رفيقه، ألقى بكأسه من فوق كتفه نحو الحائط، فتحطمت الكأس إلى أشلاء، ثم رنَّ الجرس، وطلب كأسًا أخرى.

«إنها شابة جميلة، تستحق مصاحبته إلى العربة في الظلام، سيد دارني!»، قال وهو يملأ كأسه الجديدة.

كانت الإجابة عبوسًا طفيفًا و«نعم» مقتضبة.

«إنها شابة جميلة، تستحق الشفقة والبكاء عليها! كيف تشعر بها؟ هل يستحق المرء أن يُحاكَم مُعرضًا حياته للخطر، ليكون موضع مثل هذا التعاطف والرحمة، سيد دارني؟».

مرة أخرى لم يرد دارني بأي كلمة.

«لقد كانت مسرورة للغاية بتلقي رسالتك، عندما أعطيتها إياها. هذا لا يعني أنها أظهرت سرورها، لكنني أفترض أنها كانت مسرورة».

كانت هذه الإشارة بمنزلة تذكير في الوقت المناسب لدارني بأن

هذا الرفيق البغيض قد ساعده، بمحض إرادته، في محنته اليوم؛ فحوّل الحوار إلى تلك النقطة، وشكره على ذلك.

أجاب بعدم اكتراث: «لا أريد أي شكر، ولا أستحق أي شكر. فمن ناحية، هذا عمل بسيط؛ ومن ناحية أخرى، لا أعرف لماذا قمت به. سيد دارني، دعني أسألك سؤالاً».

«بكل سرور، ومقابل بسيط لمساعدتك الحميدة».

«هل تعتقد أنني أحبك بشكل خاص؟».

أجاب الآخر، مرتبكاً بشكلٍ غريب: «في الواقع، يا سيد كارتون، لم أسأل نفسي هذا السؤال».

«لكن، أسأل نفسك هذا السؤال الآن».

«لقد تصرفت كأنك تحبني، لكنني لا أعتقد ذلك».

قال كارتون: «لا أعتقد أنني أحبك، لقد بدأ رأيي يصبح جيداً جداً تجاه فهمك للأمور».

«ومع ذلك»، تابع دارني، وهو ينهض لقرع الجرس، «لا يوجد ما يمنع، كما آمل، أن أدفع الحساب، وأن نفرق دون أي ضغينة من جانبي أو من جانبك».

أجاب كارتون: «لا شيء يمنع على الإطلاق!». رنّ دارني الجرس. سأله كارتون: «هل تريد دفع الحساب كله؟». وعندما رد دارني بالإيجاب، قال كارتون للنادل: «أحضر لي، إذن، نصف لتر آخر من النبيذ نفسه، مخزوناً من النبيذ، وأيقظني في العاشرة».

نهض تشارلز دارني بعد أن دفع الفاتورة، وتمنى له ليلة سعيدة.
نهض كارتون أيضًا، دون أن يرد التمني نفسه، قائلاً بأسلوبٍ فيه شيء
من التهديد بالتحدي: «كلمة أخيرة، يا سيد دارني: هل تعتقد أنني
سكران؟».

«أظن أنك كنت تشرب الخمر، يا سيد كارتون».

«تظن؟ أنت تعرف أنني كنت أشرب الخمر».

«بما أنني يجب أن أقول ذلك، فأنا أعرف».

«إذن عليك أن تعرف أيضًا لماذا أشرب. أنا رجل كادح خاب أمله،
يا سيدي. لا يهمني أي إنسان على وجه الأرض، ولا أحد على وجه
الأرض يهتم بي».

«هذا يبعث على الكثير من الأسف، كان يمكنك استخدام مواهبك
بشكل أفضل».

«ربما يكون هذا صحيحًا، يا سيد دارني، وربما لا يكون. ومع
ذلك، لا تدع وجهك الوقور يبهجك؛ فأنت لا تعرف ما قد يحدث.
تصبح على خير!».

وعندما تترك وحده، حمل هذا الكائن الغريب شمعة، وذهب إلى
مرآة معلقة على الحائط، وتفحص فيها نفسه بدقة.

أخذ يتمتم أمام صورته: «هل تحب الرجل على نحوٍ خاص؟ لماذا
يجب أن تحب، على نحو خاص، رجلًا يشبهك؟ لا يوجد شيء فيك
يعجبك. أنت تعرف ذلك. آه، يا له من ارتباك! يا له من تغيير أحدثته في

نفسك! يا له من سبب وجيه لتشبه رجلاً، فهذا يكشف لك المستوى الذي انحدرت منه، وما كان يمكن أن تكون عليه! بدّل مكانك معه، فهل كانت تلك الأعين الزرقاء ستنظر إليك كما كانت تنظر إليه، وهل كان ذلك الوجه المضطرب ليعطف عليك كما عطف عليه؟ هيا، قُلْها بكلمات واضحة! أنت تكره هذا الرجل».

لجأ إلى نصف لتر من النبيذ لمواساة نفسه، وشربه كله في بضع دقائق، ونام على ذراعيه، وشعره يتدلى على الطاولة، ويُشكل ما يتساقط من الشمعة فوقه كفنّاً طويلاً.

الفصل الخامس

ابن آوى

انتشرت عادة شُرب الخمر في تلك الأيام، حيث كان معظم الرجال يشربون بكثرة. وبالتالي، كان عظيمًا ما أحدثه الزمن من تحسُّن في مثل تلك العادات؛ حتى إن حديثًا معتدلاً حول كمية النبيذ والخمر التي قد يتلعبها رجل خلال ليلة واحدة، دون أي إضرار بسمعته كرجلٍ مهذب مثالي، تبدو في هذه الأيام مبالغة مضحكة. من المؤكد أن مهنة المحاماة لم تكن أقل من أي مهنة أخرى من حيث ميولها إلى الحفلات الصاخبة المليئة بالنبيذ. كما لم يكن السيد سترایفر، الذي يشق طريقه بسرعة بالفعل نحو عملٍ كبيرٍ ومُربح، متخلفًا عن أقرانه في هذا الخصوص، تمامًا كما لم يكن متخلفًا في فروع السباق القانوني شديدة الجفاف.

كان السيد سترایفر، الذي يحظى بالإعجاب في محكمة الجنايات، ويُطيل في الجلسات، قد بدأ يشق طريقه بحذرٍ أعلى السُّلم الذي يصعد عليه. ودأبت الآن الجلسات ومحكمة الجنايات على استدعاء الشخص المُفضل إليها، على وجه الخصوص، فاتحة أذرعها لاستقباله في شوق. وكان يمكن رؤية الوجه النضر للسيد سترایفر يوميًا، وهو يشق طريقه

نحو اللورد كبير القضاة في محكمة الملك (محكمة كينجز بنش)^(١)،
منبثقًا من شعره المستعار، مثل زهرة عباد الشمس الكبيرة التي تشق
طريقها إلى الشمس وسط صفوف حديقة مليئة برفاق متألّقين.

وقد لوحظ ذات مرة في نقابة المحامين أن السيد سترايفر، بينما
كان رجلًا فصيحًا وعديم الضمير وجاهزًا وجريئًا، لم يكن يتمتع بالقدرة
على استخراج الجوهر من كومة بيانات القضية؛ وهي القدرة التي تُعد
من بين أكثر إنجازات المحامي ضرورة ولفيًا للانتباه. لكنه حقق تحسُّنًا
ملحوظًا في هذا المجال. وكلما زادت الأعمال التي يحصل عليها،
زادت قدرته على التوصل إلى جوهر الموضوع. وعلى الرغم من أنه
جلس يشرب الخمر مع سيدني كارتون حتى وقت متأخر من الليل، فقد
كان قادرًا على الإلمام بدقائق القضية كافة في الصباح.

كان سيدني كارتون، أكثر الرجال خمولًا وأقلهم حظًا، بمنزلة
حليف عظيم لسترايفر. وربما ما كان يشربانه معًا من خمور، بين موسمي
هيلاري وميكائيلماس القضائيين^(٢)، يكفي لأن تطفو عليه إحدى
سفن الملك. لم يترافع سترايفر في أي قضية في أي مكان، إلا وكان
كارتون هناك، ويداه في جيبيه، يحدق إلى سقف المحكمة. كانا يقومان

(١) محكمة كينجز بنش (Court of King's Bench): محكمة مقعد الملك، ومعروفة رسميًا باسم
محكمة الملك، وكانت محكمة القانون العام في النظام القانوني الإنجليزي - (الترجمة).

(٢) موسمًا هيلاري وميكائيلماس القضائيين (Hilary Term and Michaelmas): نشأ
هذا المصطلح في النظام القانوني خلال العصور الوسطى، حيث تُقسَّم محاكم إنجلترا
وويلز ومحاكم أيرلندا السنة القانونية إلى أربع فترات: هيلاري، وعيد الفصح، والثالث،
وميكائيلماس - (الترجمة).

بجولاتٍ قضائيةٍ معًا، ويطيلان -حتى هناك- العريضة المعتادة إلى وقتٍ متأخرٍ من الليل، وترددت شائعات بأن كارتون شوهد في وضح النهار عائدًا إلى مهجعه خلصة ومرتفعًا، مثل قطعة عريضة. وأخيرًا، بدأ يُشاع بين المهتمين بالأمر أن سيدني كارتون، على الرغم من أنه لن يصبح أسدًا أبدًا، فقد كان ابن آوى جيدًا بشكلٍ مثيرٍ للدهشة، وأنه رغم قدراته المتواضعة، قدم خدمات كبيرة لسترايفر في المحاكم.

قال نادل الحانة، الذي كلفه بإيقاظه: «الساعة العاشرة يا سيدي، الساعة العاشرة يا سيدي».

«ماذا حدث؟».

«الساعة العاشرة يا سيدي».

«ماذا تقصد؟ العاشرة ليلًا؟».

«نعم يا سيدي، سيادتكم طلبت مني إيقاظك».

«أوه! أتذكر.. جيد جدًا، جيد جدًا».

بعد بضعة جهود بليدة للنوم مرة أخرى -قاومها الرجل ببراعة من خلال الاستمرار في تحريك النار لمدة خمس دقائق- نهض، وارتدى قبعته، وخرج متجهًا إلى تمبل. وبعد أن أنعش نفسه بالسير مرتين على أرصفة شارعَي «كينجز بنش ووك» و«بيير بيلدينجز»، اتجه نحو غرف سترايفر. كان الكاتب الذي يعمل لدى سترايفر، ولم يساعد قط في هذه اللقاءات، قد عاد إلى منزله؛ ففتح سترايفر نفسه الباب. كان يرتدي خُفًا، وجلبابًا فضفاضًا للنوم يكشف عن رقبته توخيًا لمزيد من الراحة.

وقد أحاطت بعينيه تلك العلامة الدالة على الرعونة والإجهد والذبول، التي يمكن ملاحظتها لدى جميع المستهترين في مهنته؛ من اللوحة التي تصور القاضي جيفريز^(١) ومن بعده، ويمكن تتبعها - تحت أقنعة مختلفة من الفن - في لوحات كل عصر من عصور السُّكر.

قال سترافير: «لقد تأخرت قليلاً، يا دفتر الذاكرة».

«لقد جئت في الوقت المعتاد تقريباً، ربما تأخرت ربع ساعة».

ذهباً إلى غرفة قدرة تصطف الكتب على جانبيها، وتتناثر فيها الأوراق، حيث توجد نار مشتعلة. كانت الغلاية على الموقد تنفث البخار، وفي وسط ركام الأوراق، ظهرت طاولة عليها الكثير من النبيذ، والبراندي، والروم، والسُّكر، والليمون.

«لقد حصلت على زجاجتك، كما أرى يا سيدني».

«شربت اثنتين الليلة، على ما أعتقد. فقد تناولت الطعام مع عميل اليوم، أو رأيته يتناول الطعام... ما من فرق، فهما شيء واحد!».

«كانت حالة نادرة تلك، يا سيدني، التي أثرتها حول الشبه وتحديد الهوية، من أين أتيت بها؟ متى خطرت لك؟».

«تصورت أنه كان رجلاً وسيماً إلى حدٍّ ما، وتصورت أنني لا بد أن أكون من هذا النوع نفسه من الرجال، إذا كان لديَّ أي حظ».

ضحك السيد سترافير حتى هز كرشه المتضخم قبل الأوان.

(١) جورج جيفريز (George Jeffreys, 1645-1689): قاضي إنجليزي سيء السمعة بسبب قسوته وفساده - (المترجمة).

«أنت وحظك، يا سيدني! هيا إلى العمل، هيا إلى العمل».

وبتجهمٍ شديد، فكَّ ابن آوى رداءه، وذهب إلى غرفة مجاورة، ثم عاد بإبريقٍ كبيرٍ من الماء البارد، وحوض، ومنشفة أو اثنتين. نقع المناشف في الماء، وعصرها جزئياً، وطواها على رأسه بطريقة بشعة المظهر، ثم جلس على الطاولة وقال: «أنا مستعد الآن!».

قال السيد سترایفر، بابتهاجٍ، وهو ينظر بين أوراقه: «ليس لدينا الكثير من الاختصارات التي يجب إنجازها الليلة، يا دفتر الذاكرة».

«ما حجمها؟».

«مجموعتان فقط».

«أعطني الأسوأ أولاً».

«ها هي، يا سيدني، عليك إنجازها!».

ثم فرد الأسد ظهره فوق أريكة على جانب من طاولة الشرب، بينما جلس ابن آوى على الجانب الآخر من طاولته التي تتناثر عليها الأوراق، مع الزجاجات والأكواب في متناول يده. لجأ كلاهما إلى طاولة الشرب دون توقف، وإن كان لكل منهما طريقته المختلفة. فالأسد كان يتكئ في أغلب الأحيان ويداه في حزام خصره، ينظر إلى النار، أو يداعب أحياناً بعض المستندات الأخف؛ بينما ابن آوى، ذو الحواجب المعقودة والوجه الحاد، فكان مستغرقاً بعمقٍ في مهمته، إلى درجة أن عينيه لم تتبع حتى يده التي يمدّها للإمساك بكأسه، بل كانت غالباً ما تتلمس طريقها، لدقيقة أو أكثر، قبل أن تجد الكأس وتحملها إلى شفّتيه. بدت المهمة مُعقدة للغاية،

لمرتين أو ثلاث، إلى درجة أن ابن آوى وجد من الضروري أن ينهض وينقع مناشفه من جديد. وفي أعقاب رحلات الحج هذه إلى الإبريق والحوض، كان يعود وعلى رأسه تلك الأغطية الرطبة التي يصعب أن تصف غرابتها أيُّ كلمات، وقد أصبحت أكثر هزلًا نتيجة حديثه القلقة.

وأخيرًا، تمكّن ابن آوى من تجميع وجبة متماسكة للأسد، وشرع في تقديمها له. أخذها الأسد بعناية وحذرٍ، وأجرى اختياراته منها وملاحظاته عليها، بمساعدة ابن آوى. وبعد مناقشتها بالكامل، وضع الأسد يديه في حزام خصره مرة أخرى، واستلقى في حالة تأمل. وعندئذٍ قام ابن آوى بتنشيط نفسه بجرعة كبيرة من الخمر، ومناشف جديدة على رأسه، وشرع في جمع وجبة ثانية. ولما جهزها، أعطاها للأسد بالطريقة نفسها، ولم ينتهيا إلا عندما دقت الساعة الثالثة صباحًا.

قال السيد سترافر: «والآن بعد أن انتهينا، يا سيدني، يمكنك ملء كأس وفيرة من الخمر».

أزال ابن آوى المناشف من رأسه، الذي كان البخار يتصاعد منه ثانية، وحرّك جسده، وتثاءب، وارتجف، وامتلل للأمر.

«لقد كنت بارعًا للغاية، يا سيدني، فيما يتعلق بشهود التاج هؤلاء اليوم؛ كل سؤال كان مهمًا».

«أنا بارع دائمًا. أليس كذلك؟».

«أنا لا أنكر ذلك. ما الذي أثارك لتصبح خشنًا هكذا؟ عليك ببعض الخمر لتعود إلى رقتك ثانية».

وبصوتٍ نخبيرٍ استهجانى، امثل ابن آوى مرة أخرى.

قال سترافير، وهو يومئ برأسه، مستعرضاً حياة سيدني في الحاضر والماضي: «سيدني كارتون القديم في مدرسة شروزبري القديمة، سيدني المتأرجح القديم، يصعد في دقيقة، ويهبط في الدقيقة التالية؛ الآن مبتهجٌ، والآن يائسٌ!».

أجاب الآخر متنهداً: «آه! نعم! سيدني نفسه، ويلازمه الحظ نفسه. وحتى في ذلك الحين، كنت أحل الواجب المدرسي للأولاد الآخرين، ونادراً ما قمت بحلِّ واجباتي». «ولم لا؟».

«الله أعلم، أعتقد أن هذه كانت طريقتي».

جلس ينظر إلى النار، ويداه في جيبه، وساقاه ممدودتان أمامه. «كارتون»، قال صديقه وهو ينظر نحوه مباشرة نظرة تنميرية، كأنما موقد النار هو الفرن الذي يتشكّل فيه السعي الدائم، وأن الشيء الدقيق الوحيد الذي يجب القيام به لسيدني كارتون القديم بمدرسة شروزبري القديمة هو قذفه فيه: «لقد كانت طريقتك هذه، ولا تزال، طريقة عرجاء. أنت لا تستجمع أي طاقة وأي هدف. انظر إليّ».

أجاب سيدني بضحكة خفيفة وأكثر مرحاً: «أوه، يا للإزعاج! وهل أنت تزعم التحلي بالأخلاق!».

قال سترافير: «كيف حققت ما حققته؟ وكيف أحقق ما أحققه؟». «أعتقد، جزئياً، لأنني أساعدك نظير مبلغٍ من المال، لكن الأمر لا

يستحق عناء وقتك لإخباري؛ فأنت تفعل ما تريد أن تفعله. كنت أنت دائماً في الصف الأمامي، وكنت أنا دائماً في الخلف».

«كان عليّ أن أصل إلى الصف الأمامي، لم أولد هناك، أليس كذلك؟».

قال كارتون: «لم أحضر حفل ميلادك، لكنك، في رأيي، وُلدت هناك». ثم ضحك مرة أخرى، وضحك كلاهما.

وتابع كارتون: «لقد اتَّخذت أنتَ موقعك في صفك، واتخذتُ أنا موقعي في صفي قبل شروزبري، وفي شروزبري، ومنذ شروزبري. حتى عندما كنا طالبين وزميلين في حي الطلاب في باريس، نتعلم الفرنسية والقانون الفرنسي، وغيرها من الفئات الفرنسي الذي لم نَفِد منه كثيراً، وكنت أنت دائماً في مكان ما، ولم أكن أنا دائماً في أي مكان».

«وخطأ مَنْ كان ذلك؟».

«عجباً! لستُ على يقينٍ من أنه ليس خطأك. كنتُ دائماً تقود وتندفع وتشق الطريق وتمر، إلى درجة تثير الارتباك بحيث لم يكن أمامي أي فرصة لحياتي سوى الترهل والراحة. ومع ذلك، من المحزن أن يتحدث المرء عن ماضيه، مع بزوغ النهار؛ فلتوجّه الحديث إلى اتجاه آخر قبل أن أذهب».

قال سترايفر رافعاً كأسه: «حسناً إذن! فلنشرب نخب الشاهدة الجميلة. هل توجهت بالحديث إلى اتجاه لطيف؟».

ليس على ما يبدو؛ فقد تجهَّ مرة أخرى.

وتمتم وهو ينظر إلى كأسه: «شاهدة جميلة، لقد اكتفيت من الشهود
في النهار وفي المساء، من هي شاهدتك الجميلة؟».

«الآنسة مانيت، ابنة الطبيب رائعة الجمال».

«تعتبرها جميلة؟».

«أليست كذلك؟».

«نعم».

«لماذا، يا إلهي، لقد كانت موضع إعجاب المحكمة بأكملها!».

«فليرحب إعجاب المحكمة بأكملها إلى الجحيم! مَنْ الذي جعل
من أولد بيلي حَكَمًا للجمال؟ كانت دُمِيَّة ذهبية الشعر!».

«هل تعرف، يا سيدني»، قال السيد سترافير وهو ينظر نحوه بعينين
حادّتين، مَرًّا يده ببطءٍ على وجهه المورَد: «هل تعرف أنني تصورت
حينذاك أنك تعاطفت مع الدُمِيَّة ذات الشعر الذهبي، وسارعت لمعرفة
ما حدث للدُمِيَّة ذات الشعر الذهبي؟».

«أسرعت لمعرفة ماذا حدث! إذا أُصِيبَت فتاة، سواء كانت دُمِيَّة أو
لم تكن، بالإغماء على مسافة ياردة أو ياردتين من أنف رجل، فيمكنه
رؤيتها دون منظار. سوف أشرب نخبها، لكنني لا أراها جميلة. والآن،
لن أتناول المزيد من الشراب، سأذهب إلى الفراش».

عندما تبعه مضيفه على السُّلم بشمعة، ليضيء له طريق هبوطه على
السلم، كان النهار ينظر ببرودٍ خلال النوافذ المتسخة. وعندما خرج
من المنزل، وجد الهواء باردًا وحزينًا، والسماء الباهتة ملبَّدة بالغيوم،

والنهر مظلمًا وقاتمًا، والمشهد كله يشبه صحراء لا حياة فيها. وكانت أكاليل الغبار تدور وتدور قبل انطلاق الصباح، كأنما رمال الصحراء قد ارتفعت في مكانٍ بعيدٍ، وبدأ أول رذاذ منها -وهي تتقدم- يطغى على المدينة.

وفي ظل قواه الداخلية الضائعة، وصحراء تحيط به من كل اتجاه، وقف هذا الرجل ساكنًا في طريقه عبر شرفة صامتة، ورأى للحظة سرابًا، مُلقى أمامه في البرية، سرابًا من الطموح المُشرَّف، وإنكار الذات، والمثابرة. وفي مدينة رؤياه الجميلة هذه، كانت هناك أروقة متجددة الهواء تطل عليه منها المحبة والنعم، وحدائق تتدلى فيها ناضجة ثمار الحياة، وتألقت في عينيه مياه الأمل. ثم اختفى ذلك كله بعد لحظة؛ صعد إلى غرفة عالية وسط مجموعة من البيوت، وألقى بنفسه بشيابه على سرير مُهمَل، وتبللت وسادته بدموع ضائعة.

أشرقت الشمس بحزنٍ؛ فلم تُشرق على أي مشهدٍ أكثر حزنًا من مشهد الرجل الذي يتمتع بقدرات جيدة وعواطف طيبة، وغير قادرٍ على توجيهها، وغير قادرٍ على مساعدة نفسه وتحقيق سعادته، ويشعر بالآفة التي تلحق به، ويستسلم لتركها تأكله.

الفصل السادس

مئات الأشخاص

كان المسكن الهادئ الذي يسكنه الدكتور مانيت يقع عند زاوية شارع هادئ، غير بعيدٍ عن ميدان سوهو. وفي فترة بعد الظهر يوم أحدٍ رائع، بعد أن تقلّبت أمواج أربعة أشهر على المحاكمة بتهمة الخيانة، وقذفت بها بعيداً في البحر، حيث غابت عن الاهتمام العام والذاكرة، سار السيد جارفيس لوري في الشوارع المشمسة بمنطقة كليركينويل حيث يعيش، في طريقه لتناول العشاء مع الطبيب. بعد عدة مشاغل وانغماس في مجال الأعمال، أصبح السيد لوري صديقاً للطبيب، وكان الركن الهادئ من الشارع بمنزلة الجزء المشمس من حياته.

وفي يوم الأحد الرائع هذا، سار السيد لوري نحو سوهو في وقتٍ مبكرٍ من بعد الظهر، وذلك لثلاثة أسباب مُعتادة. أولاً، لأنه كان غالباً ما يخرج في أيام الأحد الجميلة، قبل تناول العشاء مع الطبيب ولوسي. ثانياً، لأنه اعتاد، في أيام الأحد غير المواتية، أن يكون معهم كصديقٍ للعائلة، يتحدث، ويقرأ، وينظر من النافذة، ويقضي اليوم بشكلٍ عام. وثالثاً، لأنه تصادف أن لديه شكوكه الذكية الصغيرة التي يحتاج إلى حلها، وكان يعرف أن أسلوب الحياة في منزل الطبيب يشير إلى ذلك الوقت باعتباره الوقت المُحتمل لحلها.

لم يكن ممكناً العثور في لندن على زاوية أكثر غرابة من تلك التي يعيش فيها الطبيب؛ فلا يوجد طريق يتجاوزها. وكانت النوافذ الأمامية لمنزل الطبيب تطل على مشهدٍ صغيرٍ لطيفٍ لشارعٍ يشير أجواءً ملائمةً للعزلة. كما كان عدد المباني قليلاً حينذاك، شمال شارع أكسفورد، وازدهرت أشجار الغابات، ونمت الزهور البرية، وأزهرت أشجار الزعرور الشوكية في الحقول التي اختفت الآن. ونتيجة لذلك، طافت الأجواء الريفية في سوهو بحرية شديدة، بدلاً من ذبولها في الأبرشية مثل الفقراء الضالين دون استقرار. وكانت توجد العديد من الجدران الجنوبية الجيدة، على مسافة غير بعيدة، ينضج فوقها الخوخ في موسمه. يغمر ضوء الصيف الزاوية ببراعة في الجزء الأول من اليوم، وما إن تصبح الشوارع حارة، تقع الزاوية في الظل، وإن لم تكن في ظلٍّ بعيدٍ، بل يمكنك أن ترى ما وراءها في وهج من السطوع. لقد كانت بقعة رائعة، هادئة لكنها مُبهجة، مكاناً رائعاً للصدى، وميناء بعيداً عن الشوارع الهادرة.

كان لا بد من وجود زورق هادئ في مثل هذا المرفأ، وكان هناك. شغل الطبيب طابقيين من منزلٍ كبيرٍ وطيّد، حيث زُعم سماع صوت ممارسة العديد من المهارات الحرفية نهائراً، وإن لم يُسمع سوى القليل منها في أي يوم، ويتجنبها الجميع ليلاً. وفي مبنى خلفي يمكن الوصول إليه عبر فناء، حيث يُسمع حفيف شجرة الدلب بأوراقها الخضراء، يُزعم أن آلات الأرجن الموسيقية الخاصة بالكنائس تُصنع فيه، والفضة تُنقش، وبالمثل الذهب يُطرق بواسطة شيء عملاق غامض لديه ذراع

ذهبية تخرج من جدار القاعة الأمامية، كأنما طَرَقَ نفسه وحوَّلها إلى ذهب، ويهدد بتحويلٍ مماثلٍ لجميع الزوار. ولم يُسمَع أو يُرَ سوى القليل جدًّا من هذه الصنائع، أو عن نزيلٍ وحيدٍ يُشاع أنه يعيش في الطابق العلوي، أو عن صانعٍ متجهٍ يتولى تنجيد العربات التي تجرها الأحصنة، ويؤكدون أنه يحتفظ بأدواته في غرفة سفلية. ومن حين إلى آخر، كان عامل ضال يرتدي معطفًا، أو يجتاز القاعة، أو يطل شخص غريب هناك، أو يُسمع صوت قرقة بعيدة عبر الفناء، أو طريقة من العملاق الذهبي. ومع ذلك، لم تكن هذه سوى الاستثناءات المطلوبة لإثبات القاعدة القائلة إن العسافير على شجرة الدلب خلف المنزل، والأصداء في الزاوية أمامها، كانت تنطلق بطريقتها الخاصة من صباح الأحد إلى مساء السبت.

كان الدكتور مانيت يستقبل المرضى هنا، بقدر ما تجلبهم إليه سمعته القديمة، وإحيائها في همسات قصته المنتشرة. ومن ناحية أخرى، أدَّت معرفته العلمية ويقظته ومهارته في إجراء تجارب بارعة إلى زيادة الطلب عليه، وحصوله على المكسب الذي يحتاج إليه.

لم تغب هذه الأشياء عن معرفة السيد جارفيس لوري وأفكاره وملاحظته، عندما رنَّ جرس باب المنزل الهادئ في الزاوية، بعد ظهر يوم الأحد الرائع.

«هل دكتور مانيت في المنزل؟».

«متوقع وصوله».

«وهل الآنسة لوسي في المنزل؟».

«متوقع وصولها».

«وهل الآنسة بروس في المنزل؟».

ربما كانت في المنزل، لكن من المؤكد أنه يستحيل على الخادمة توقُّع نوايا الآنسة بروس؛ ما إذا كانت تريد الاعتراف بوجودها أو إنكاره. قال السيد لوري: «بما أنني في المنزل، سأصعد إلى الطابق العلوي».

على الرغم من أن ابنة الطبيب لم تكن تعرف شيئاً عن بلد مولدها، فقد بدا أنها استمدّت منه بالفطرة تلك القدرة على الإفادة بالكثير من الوسائل القليلة المتاحة؛ وهي واحدة من أكثر خصائص هذا البلد فائدة وأكثرها قبولاً. فمع بساطة الأثاث، زينتته بالعديد من الزخارف الصغيرة، التي لا قيمة لها سوى ذوقها وخيالها، إلى درجة أن تأثيرها كان ممتعاً. كان ترتيب كل شيء في الغرف، من أكبر شيء إلى أصغره -تنسيق الألوان، والتنوع الأنيق والتباين نتيجة حسن تدبير الأشياء البسيطة بأيدي رقيقة وأعين صافية وحسّ سليم - تبدو على الفور ممتعة للغاية في حدّ ذاتها، ومُعبرة جدّاً عن مُبدِعيها، إلى درجة أن السيد لوري عندما وقف ينظر حوله، بدت الكراسي والطاولات نفسها تسأله، بشيء من هذا التعبير الغريب الذي أصبح يعرفه جيداً حينذاك، ما إذا كان المشهد يعجبه؟

يضم كل طابق ثلاث غرف، والأبواب التي تتواصل الغرف من خلالها مفتوحة حتى يمر الهواء بحرية خلالها جميعاً. سار السيد لوري مبتسماً لهذا التشابه الخيالي الذي اكتشفه من حوله، من غرفة

إلى أخرى. كانت الغرفة الأولى أفضل غرفة؛ وقد ضُمَّت طيور لوسي، وزهورًا، وكتبًا، ومكتبًا، وطاولة للعمل، وعلبة ألوان مائية. وكانت الغرفة الثانية بمنزلة عيادة الطبيب، وتُستخدَم أيضًا كغرفة طعام. أما الغرفة الثالثة، التي يتخلَّلها -بشكلٍ متغيِّر- حفيفُ شجرة الدلب في الفناء، فقد كانت غرفة نوم الطبيب؛ ويوجد في أحد أركانها مقعد صانع الأحذية المهجور وصينية الأدوات، تمامًا كما كان وجودهما في الطابق الخامس من المنزل الكثيب بجوار متجر النبيذ، في ضاحية القديس أنطوان في باريس.

قال السيد لوري، وقد توقف متأملًا ما حوله: «أتعجب، كيف يحتفظ بهذه الأشياء التي تُذكره بمعاناته!».

«وما العجب في ذلك؟»، كان هذا بمنزلة السؤال المفاجئ الذي جعله يجفل.

صدر السؤال من الآنسة بروس، المرأة متوردة الوجه، المنفعلة، الثابتة، التي تعرَّف عليها أول مرة في فندق رويال جورج في دوفر، وتحسَّنت حالتها منذ ذلك الحين.

بدأ السيد لوري: «كان يجب أن أفكر....».

«ماذا! كان يجب أن تفكر!»، قالت الآنسة بروس؛ وصمت السيد لوري.

«كيف حالك؟»، سأله السيدة بعد ذلك، بحدة، ومع ذلك كأنها تُعبِّر عن أنها لا تحمل له أي ضغينة.

«أنا بخير، أشكرك»، أجاب السيد لوري بوداعة؛ «وكيف حالك؟».

قالت الآنسة بروس: «لا شيء يستحق التباهي به».

«حقاً؟».

قالت الآنسة بروس: أها! حقاً! أنا قلقة جداً بشأن عصفورتي الحبيبة».

«حقاً؟».

أجابت الآنسة بروس، التي كانت شخصيتها (المنفصلة عن هيئتها) فظة: «بالله عليك، قل شيئاً آخر إلى جانب «حقاً»، وإلا أضجرتني حتى الموت».

عدّل السيد لوري عبارته قائلاً: «فعلاً، إذن؟».

أجابت الآنسة بروس: «كلمة «فعلاً» سيئة بما يكفي، لكنها أفضل. نعم، أنا قلقة بشدة عليها».

«هل لي أن أسأل عن السبب؟».

قالت الآنسة بروس: «لا أريد أن يأتي العشرات من الأشخاص غير المناسبين لها على الإطلاق إلى هنا لرعايتها».

«وهل يأتي العشرات لهذا الغرض؟».

«المئات»، أجابت الآنسة بروس.

كانت المبالغة من سمات هذه السيدة (كما هو حال بعض الأشخاص الآخرين قبل عصرها وبعده) عند التشكيك في قولها الأصلي.

«يا إلهي!»، قال السيد لوري، كأكثر تعليقٍ آمنٍ يمكن أن يفكر فيه.

فقالت الأنسة بروس: «لقد عشت مع الحبيبة، أو عاشت الحبيبة معي، ودفعت لي مقابل ذلك؛ وما كان عليها بالتأكيد القيام بذلك؛ ولك أن تُقسم يمينًا على ذلك، لو كان في إمكاني أن أتحمّل تكاليف إعالة نفسي أو إعالتها مجانًا، منذ أن كانت في العاشرة من عمرها، لكن هذا، في الواقع، أمرٌ صعب للغاية».

ولأن السيد لوري لم يستطع أن يفهم بدقة ما كان صعبًا للغاية، فقد هز رأسه؛ مُستخدِمًا هذا الجزء المهم من نفسه كنوعٍ من عباءة سحرية تناسب أي شيء.

قالت الأنسة بروس: «يحضر دائمًا جميع أنواع الأشخاص غير الجديرين، حتى في أقل درجة، بجميلتي. وعندما بدأت أنت ذلك...». «أنا بدأت ذلك، يا آنسة بروس؟».

«ألم تكن أنت من بدأت؟ من الذي أعاد والدها إلى الحياة؟».

قال السيد لوري: «أوه! إذا كانت هذه هي البداية...».

«لم تكن النهاية، على ما أعتقد؟ أقول إنك عندما بدأت ذلك، كان الأمر صعبًا للغاية. ولا يعني ذلك أنني أجد أي خطأ مع الدكتور مانيت، باستثناء أنه غير جدير بمثل هذه الابنة، وهذا ليس بسببه؛ إذ لم يكن من المتوقع أن يوجد شخص جدير بها تحت أي ظرف. لكن الصعوبة تتضاعف حقًا عندما تأتي وراءه حشودٌ وأعدادٌ كبيرة من الناس (وإلا لكان يمكنني أن أسامحه)، ليسلبوني عواطف محبوبيتي».

يعرف السيد لوري أن الأنسة بروس غيورة جدًا، لكنه عرف أيضًا في ذلك الوقت أنها، في ظل غرابة أطوارها، كانت واحدة من تلك المخلوقات غير الأنانية -الموجودة بين النساء فقط- اللاتي، من أجل الحب والإعجاب الخالصين، سيربطن أنفسهن اختياريًا عبيدات بالشباب عندما يفقدنه، بالجمال الذي لم يتمتعن به قط، بإنجازاتٍ لم يحالفهن الحظ قط في تحقيقها، بآمالٍ مشرقة لم تشرق قط على حياتهن الكئيبة. لقد عرف من العالم ما يكفي ليدرك أنه لا يوجد فيه شيء أفضل من الخدمة الصادقة من القلب، التي تُقدّم على هذا النحو وخالية تمامًا من أي وصمة ارتزاق، وكان يكنُّ لهذه الصفة احترامًا كبيرًا، إلى درجة أنه في ترتيبات المكانة التي أقامها في ذهنه -وكلنا نقوم بمثل هذه الترتيبات، بشكلٍ أو بآخر- وضع الأنسة بروس في مكانة قريبة من الملائكة الأدنى، غير مكانة العديد من السيدات اللاتي يتفوقن عليها بما لا يُقاس بالفطرة والاكتساب، واللاتي لديهن أرصدة في بنك تيلسون.

قالت الأنسة بروس: «لم يوجد قط، ولن يوجد، سوى رجلٍ واحدٍ جدير بالعصفورة؛ وهو أخي سولومون، لو لم يُخطئ في الحياة».

وهنا أيضًا أثبتت تحقيقات السيد لوري في تاريخ الأنسة بروس الشخصي أن شقيقها سولومون كان وغداً بلا قلب؛ جرّدها من كل ما تملكه ليراهن به في المضاربات، وتركها في فقرها إلى الأبد دون أي شعورٍ بوخر الضمير. وكان إخلاص الأنسة بروس في إيمانها بسولومون (مع اقتطاع مجرد جزءٍ ضئيلٍ بسبب هذا الخطأ البسيط) يُعد أمرًا بالغ الأهمية بالنسبة إلى السيد لوري، وكان له وزنه في رأيه الجيد تجاهها.

وعندما عادا إلى صالة الاستقبال، وجلسا في جوٍّ ودي، قال: «بما أننا وحدنا الآن، وكلانا ينتمي إلى مجال الأعمال، فإنني أود أسألك عن الطبيب، ألم يشر قطُّ في حديثه مع لوسي حتى الآن إلى فترة صناعة الأحذية؟».

«مطلقاً».

«ومع ذلك يحتفظ بهذا المقعد وتلك الأدوات بجانبه؟».

أجابت الأنسة بروس، وهي تهز رأسها: «آه! لكنني لا أقول إنه لا يشير إلى ذلك بينه وبين نفسه».

«هل تعتقدين أنه يفكر في الأمر كثيراً؟».

«نعم»، قالت الأنسة بروس.

وما إن بدأ السيد لوري في سؤالها: «هل تتخيلين....»، حتى قاطعته الأنسة بروس قائلة:

«لا أتخيل أي شيء أبداً. ليس لديَّ خيال على الإطلاق».

«أعترف بأنني أخطأت. هل تفترضين... هل تصلين إلى حد الافتراض في بعض الأحيان؟».

«بين الحين والآخر»، قالت الأنسة بروس.

تابع السيد لوري حديثه، وفي عينيه المشرقتين وميضٌ ضاحكٌ، وهو ينظر إليها بلطفٍ: «هل تفترضين أن الدكتور مانيت لديه أي فكرة، حفظها طوال تلك السنوات، حول سبب تعرُّضه للظلم الشديد؛ ربما، حتى باسم ظالمه؟».

«لا أفترض أي شيء بهذا الشأن غير ما تخبرني به عصفورتي».

«وهو...؟».

«أنها تعتقد أن لديه فكرة».

«والآن، أرجو ألا تغضبي من طرحي كل هذه الأسئلة؛ فأنا مجرد رجل أعمال ممل، وأنت سيدة أعمال».

«مُمل؟»، استفسرت الآنسة بروس بهدوء.

أجاب السيد لوري، راغبًا بالأحرى في التخلص من صفته المتواضعة: «لا، لا، لا. كلا، بالتأكيد. لنعد إلى العمل: ... أليس من اللافت للنظر أن الدكتور مانيت -البريء بلا شك من أي جريمة، لأننا جميعًا متأكدون من ذلك تمامًا- لا يتطرق أبدًا إلى هذا الموضوع؟ ولا أقول يتطرق إليه معي، على الرغم من علاقاتنا التجارية معًا منذ سنوات عديدة، ونحن الآن صديقان حميمان. وإنما سأقول مع الابنة الجميلة وهو شديد التعلق بها، وهي شديدة التعلق به؟ صدّقيني، يا آنسة بروس، أنا لا أنطرق إلى هذا الموضوع معك بدافع الفضول، وإنما بدافع الاهتمام الشديد».

قالت الآنسة بروس، وقد رقت من أسلوبه الاعتذاري: «حسنًا! على حد فهمي -وقد يكون فهمي البسيط هو أفضل الخيارات، أنت ستخبرني- إنه خائف من الموضوع برمته».

«خائف؟».

«يبدو واضحًا تمامًا، كما أعتقد، سبب خوفه. إنها ذكرى مروعة».

علاوة على ذلك، فإن خسارته لنفسه نتجت عن ذلك. نظرًا إلى أنه لا يعرف كيف فقد نفسه، أو كيف استعاد نفسه، قد لا يشعر أبدًا بالثقة بأنه لن يفقد نفسه مرة أخرى. وأعتقد أن هذا وحده لن يجعل الموضوع ممتعًا.

لقد كانت تلك الملاحظة أعمق مما يبحث عنه السيد لوري. فقال: «هذا صحيح، وهو يخشى من التفكير فيه. ومع ذلك، هناك شكٌّ يكمن في ذهني، آنسة بروس، وهو ما إذا كان من الجيد أن يكتب الدكتور مانيت هذا القمع داخله دائمًا. وفي الواقع، هذا الشك وعدم الشعور بالارتياح الذي يسببه لي أحيانًا، هو ما قادني إلى ثقتنا الحالية».

قالت الآنسة بروس وهي تهز رأسها: «ما من مفرٍّ. ما إن تلمس هذا الخيط، إلا وتجده يتغير على الفور إلى الأسوأ. من الأفضل تركه وشأنه. باختصارٍ، يجب تركه لحاله، سواء أعجبنا ذلك أو لم يعجبنا. إنه يستيقظ أحيانًا في جوف الليل، ونسمعه من فوقنا يسير جيئةً وذهابًا، جيئةً وذهابًا، في غرفته. وقد أصبحت العصفورة تدرك أن ذهنه يروح ويجيء، يروح ويجيء، في سجنه القديم. تسرع إليه، ويواصلان معًا السير جيئةً وذهابًا، جيئةً وذهابًا، إلى أن يهدأ. لكنه لم يخبرها ولو بكلمة واحدة عن السبب الحقيقي لقلقه، وهي ترى أن من الأفضل عدم التلميح به له. يسيران معًا في صمتٍ جيئةً وذهابًا، معًا جيئةً وذهابًا، إلى أن يُعيده حبُّها وصُحبتهَا إلى نفسه».

وعلى الرغم من إنكار الآنسة بروس أن لديها خيالها الخاص، كانت تدرك الألم الناجم عن وجود فكرة حزينة رتيبة تطاردها عند

تكرارها لعبارة «السير جيئةً وذهاباً»، بما يشهد على امتلاكها لمثل هذا الخيال.

لقد ذُكر سابقاً أن الزاوية التي يقع عندها المنزل تُعد زاوية رائعة للأصداة؛ وها هو صدى وقع الأقدام الآتية قد بدأ يتردد بشكلٍ مدوّ، بحيث بدا كأن مجرد ذكر تلك الخطوات المرهقة جيئةً وذهاباً هو ما جعل تلك الأقدام تمضي قُدماً.

«ها هم!»، قالت الآنسة بروس، وهي تنهض لتنتهي الجلسة، «والآن، سرعان ما سيوجد لدينا مئات الأشخاص!».

كانت زاوية غريبة من حيث خصائصها الصوتية؛ يا لها من أذن غريبة للمكان، إلى درجة أن السيد لوري وقف عند النافذة المفتوحة يبحث عن الأب وابنته اللذين سمع خطواتهما، وتخيل أنهما لن يقتربا أبداً. ولم يقتصر الأمر على تلاشي الأصداة فحسب، كأنما الخطوات اختفت، بل سوف تُسمع أصداة خطوات أخرى لم تأت قط، ثم تلاشى نهائياً عندما تبدو قريبة. على أي حال، ظهر الأب وابنته أخيراً، وكانت الآنسة بروس جاهزة عند باب الشارع لاستقبالهما.

كان مشهد الآنسة بروس لطيفاً، رغم جفافها واحمرارها وتقطيعها، وهي تخلع قبعة حبيبته عندما صعدت الدرج، ولمستها بأطراف منديلها، ونفثت عنها الغبار، وتطوي عباءتها استعداداً لوضعها بجانبها، وتداعب شعرها الغزير بأكبر قدرٍ ممكن من الفخر كأنه شعرها، لو كانت أكثر النساء زهواً ووسامة. كان مشهد حبيبته لطيفاً أيضاً؛ حيث احتضنتها وشكرتها، واحتجت على تحمّلها الكثير من المتاعب من

أجلها؛ وهو ما تجرأت على فعله فقط بشكلٍ هزلي، وإلا لكانت الآنسة بروس تشعر بحرج شديد وتذهب إلى غرفتها وتبكي. كما كان مشهد الطبيب لطيفاً أيضاً؛ حيث نظر إليهما، وأخبر الآنسة بروس كيف أنها دَلَّت لوسي، وإن كانت نبرته وعينه تضحمان الكثير من التذليل مثل الآنسة بروس، وكان ليزيد تدليله إن أمكن. ومشهد السيد لوري كان لطيفاً هو الآخر؛ حيث كان مبتهجاً لكل هذا، مرتدياً باروكته الصغيرة، شاكراً نجومه على إضاءة طريقه في سنواته الأخيرة نحو هذا المنزل. ولكن، لم يأت مئات الأشخاص لرؤية هذه المشاهد، وبحث السيد لوري عبثاً عما يحقق نبوءة الآنسة بروس.

حان وقت العشاء، وحتى الآن لم يأتِ مئات من الناس. تولّت الآنسة بروس، في سياق ترتيبات الأسرة الصغيرة، مسؤولية الأجزاء السفلية، وكانت تبلي دائماً بشكلٍ رائع. كانت وجبات العشاء التي تعدها، ذات الجودة المتواضعة للغاية، تُطهى جيداً، وتُقدم جيداً، وأنيقة جداً في ابتكاراتها، نصف إنجليزية ونصف فرنسية، بحيث لا يمكن أن يوجد شيء أفضل. ونظراً إلى أن صداقة الآنسة بروس كانت من النوع العملي تماماً، فقد جابت أنحاء سوهو والمقاطعات المجاورة بحثاً عن فرنسيين فقراء، ينقلون إليها أسرار الطهي بعد إغرائهم بالشلنات وأنصاف الكراون. وقد اكتسبت من أبناء وبنات بلاد الغال قديماً مثل هذه الفنون الرائعة، إلى درجة أن المرأة والفتاة اللتين شكّلتا طاقم خدم المنازل اعتبرتاها ساحرة بحق، أو عرابة سندريلا: التي كانت تجلب طائراً، أو أرنباً، أو نوعاً أو نوعين من الخضراوات من الحديقة، وتحولها إلى أي شيء تريده.

تتناول الآنسة بروس العشاء على طاولة الطبيب في أيام الأحد، لكنها تتناول وجباتها في الأيام الأخرى في فترات غير معروفة، إما في الأجزاء السفلية، وإما في غرفتها الخاصة في الطابق الثاني: غرفة زرقاء، لم يُسمَح لأحد بدخولها سوى عصفورتها. وفي هذه المناسبة، واستجابة لوجه العصفورة اللطيف وجهودها الممتعة لإرضائها، كانت الآنسة بروس سعيدة بإفراط؛ لذلك كان العشاء ممتعاً للغاية أيضاً.

كان يوماً شديداً الحرارة؛ فاقترحت لوسي بعد العشاء نقل النبيذ إلى أسفل شجرة الدلب، والجلوس هناك في الهواء الطلق. ونظراً إلى أن كل شيء كان يدور حول لوسي، فقد خرجوا متوجهين إلى أسفل شجرة الدلب، وحملت هي كأس نبيذ السيد لوري. وكانت قد اعتبرت نفسها، منذ حين، حاملة كأس السيد لوري؛ فأبقت كأسه ممتلئة، بينما يجلسون تحت شجرة الدلب يتحدثون، وتهمس لهم شجرة الدلب بطريقة الخاصة فوق رؤوسهم.

لم يأت، حتى الآن، مئات الأشخاص. جاء السيد دارني وهم يجلسون تحت شجرة الدلب، لكنه كان شخصاً واحداً فقط.

استقبله الدكتور مانيت بلطف، وكذلك فعلت لوسي. لكن الآنسة بروس أصيبت فجأة برعشة في رأسها وجسمها، وعادت إلى المنزل. كثيراً ما كانت ضحية لهذا الاضطراب، وكانت تسميه في أحاديثها الحميمة «نوبة الارتعاشات».

كان الطبيب في أفضل حالاته، وبدأ شاباً بشكل خاص. كان التشابه بينه وبين لوسي قوياً جداً في مثل هذه الأوقات؛ فعندما يجلسان جنباً

إلى جنب، وتكئى لوسى على كتفه، ويرى ذراعه على ظهر كرسيها،
كان من اللطيف جداً تتبّع الشبه بينهما.

كان يتحدث طوال اليوم، حول العديد من الموضوعات، وبحيوية
غير عادية. وفي سياق الحديث الجارى حول الموضوع المطروح،
الذي صادف أنه المباني القديمة في لندن، قال السيد دارني: «أخبرني،
يا دكتور مانيت، هل رأيت جزءاً كبيراً من برج لندن؟».

«ذهبْتُ ولوسى إلى هناك؛ وإن كان مصادفة. ورأينا ما يكفي لنعرف
أنه مثير للاهتمام؛ بل أكثر من ذلك بقليل».

قال دارني بابتسامة، على الرغم من احمراره قليلاً غضباً: «لقد كنتُ
هناك، كما تتذكر، في شخصية أخرى، وليس في شخصية توفر تسهيلات
لرؤية الكثير منه. وقد أخبروني بشيء غريب عندما كنت هناك».
سألت لوسى: «وماذا كان؟».

«عند إجراء بعض التعديلات، صادف العمال زلزلة قديمة، كانت
مبنية ومنسية لسنوات عديدة. وكان كل حجر من جدارها الداخلي مُغطى
بنقوش نحتها السجناء: تواريخ، وأسماء، وشكاوى، وصلوات. وعلى
أحد الأحجار في زاوية من الجدار، قام أحد السجناء، ويبدو أنه أُعِدِم،
بحفر آخر أعماله: ثلاثة حروف؛ باستخدام أداة سيئة للغاية، وعلى عجلٍ،
ويبدو غير مستقرة. قُرئت تلك الحروف في البداية على أنها D. I. C. ؛
ولكن، بعد فحصها بعناية أكبر، وُجد أن الحرف الأخير هو G.. لم يكن
هناك سجل أو حكاية تخص أي سجين يبدأ اسمه بهذه الأحرف الأولى،
وظهرت العديد من التخمينات حول الاسم المتوقع، لكنها باءت بالفشل.

وفي نهاية المطاف، أشار اقتراح إلى أنها ليست الأحرف الأولى لاسم، بل كلمة كاملة: DIG [وتعني احفر]. وعندئذٍ، جرى فحص الأرضية بعناية فائقة تحت النقش، ووجدوا أسفل حجر أو بلاط، أو جزء من الرصف، رماد ورقة ممزوجة برماد علبة صغيرة من الجلد أو حقبة. ما كتبه السجين المجهول لن يُقرأ أبداً، لكنه كتب شيئاً، وأخفاه ليحفظه بعيداً عن السجان». «أبي»، صرخت لوسي، «أنت مريض!».

كان قد نهض فجأة، ويده إلى رأسه، أسلوبه ومظهره أربعهم جميعاً. «لا يا عزيزتي، لست مريضاً. تتساقط قطرات كبيرة من المطر، ولهذا نهضتُ. من الأفضل أن ندخل».

استعاد عافيته على الفور تقريباً. كان المطر يتساقط بالفعل في قطرات كبيرة، وأراهم ظهر يده وقطرات المطر عليه. لكنه لم يقل كلمة واحدة تشير إلى الاكتشاف الذي قيل. وعند دخولهم إلى المنزل، رصدت عين السيد لوري التجارية، أو تخيلت أنها رصدت، على وجه الطبيب، عندما التفت نحو تشارلز دارني، نفس النظرة الفريدة التي كانت عليه عندما التفت نحوه في ممرات المحكمة.

على أن الطبيب استعاد عافيته بسرعة كبيرة، إلى درجة أن السيد لوري تشكك في عينه التجارية. لم تكن ذراع العملاق الذهبي في القاعة أكثر ثباتاً منه، عندما توقف تحتها ليقبل لهم إنه لم يكتسب مناعة بعد في مواجهة المفاجآت الطفيفة (إن أمكنه اكتسابها على الإطلاق) والمطر قد أذهله.

حان وقت الشاي، وتولت الآنسة بروس إعداده، مع إصابتها بنوبة ارتعاشات أخرى؛ وحتى الآن لا يوجد مئات الأشخاص. كان السيد

كارتون قد جاء مثاقلاً، لكن حضوره جعل عدد الوافدين اثنين فقط.

كانت الليلة شديدة الحرارة؛ فقد غمرتهم الحرارة، على الرغم من جلوسهم مع ترك الأبواب والنوافذ مفتوحة. وعندما انتهوا من احتساء الشاي، انتقلوا جميعاً إلى إحدى النوافذ، ونظروا إلى الغسق الكثيب. جلست لوسي بجانب والدها، وجلس دارني بجانبها، وانحنى كارتون على النافذة. كانت الستائر طويلة وبيضاء، وأدت بعض العواصف الرعدية التي دارت عند الزاوية إلى رفعها نحو السقف، ولوحت بها مثل أجنحة طيافية. قال الدكتور مانيت: «لا تزال قطرات المطر تتساقط، كبيرة، وثقيلة، وقليلة. تتساقط ببطء».

قال كارتون: «تساقط بالتأكيد».

تحدثوا بصوتٍ منخفضٍ، كما يفعل غالباً الناس الذين يراقبون ويتنظرون؛ كما يفعل دائماً الناس في غرفة مظلمة، يشاهدون ويتنظرون البرق. وكانت الشوارع تشهد اندفاع الناس بسرعة بحثاً عن مأوى قبل اندلاع العاصفة. ودوّت زاوية الأصداء الرائعة بأصداء خطى تروح وتجيء، لكنهم لم يروا أي خطوة.

وبعد أن استمعوا لبعض الوقت، قال دارني: «عدد كبير من الناس، ومع ذلك عزلة!».

سألت لوسي: «ألا يشير هذا الإعجاب، يا سيد دارني؟ أجلس هنا في المساء، أحياناً، وأسترسل في الخيال... ولكن حتى ظل الخيال الأحمر يجعلني أرتجف الليلة، حيث كل شيء أسود ومهيب...».

«دعونا نرتجف نحن أيضًا. ربما نعرف ما هو».

«لن يبدو لك شيئًا؛ فمثل هذه الأهواء لا تثير الإعجاب إلا عندما نبتكرها، على ما أعتقد، ويجب عدم تناقلها. كنت أجلس وحدي هنا أحيانًا في إحدى الأمسيات، أستمع، حتى تخيلت أن هذه الأصدااء هي أصدااء كل الخطوات التي تدخل عمومًا إلى حياتنا».

قال سيدني كارتون، مُعلِّقًا بطريقته المزاجية: «إذا كان الأمر كذلك، سيدخل إلى حياتنا عدد كبير يومًا ما».

تواصلت الخطي، وزادت سرعتها أكثر فأكثر. تكررت أصدااء الزاوية مع وقع الأقدام. بدا بعضها تحت النوافذ، وبدا بعضها في الغرفة؛ البعض قادم، والبعض ذاهب، والبعض ينقطع، والبعض يتوقف تمامًا. كل ذلك في الشوارع البعيدة، ولا يوجد أي منها على مرمى البصر.

«هل كل هذه الخطوات مُقدَّر لها أن تأتي إلينا جميعًا، يا آنسة مانيت، أم أننا سنقسمها بيننا؟».

«لا أعرف يا سيد دارني. أخبرتك أنه خيال أحرق، لكنك طلبت معرفته. عندما استسلمت لهذا الخيال، كنت وحدي، ثم تخيلت أنها وقع أقدام الأشخاص الذين سيدخلون إلى حياتي، وحياة والدي».

قال كارتون: «أنا أدخلهم إلى حياتي! لا أطرح أي أسئلة ولا أقدم أي شروط. هناك حشد كبير يتقدم نحونا، يا آنسة مانيت، وأنا أراهم... بجوار البرق». أضاف الكلمات الأخيرة بعد رؤية وميض قوي، أظهره متكئًا على النافذة.

ثم أضاف مرة أخرى، بعد صوت الرعد: «أنا أسمعهم! ها هم يأتون، سريعين، وشرسين، وغاضبين!».

أسكته اندفاع المطر وهديره الذي كان يرمز إليه؛ فلا يمكن سماع صوت معه. كما هبت عاصفة لا تُنسى من الرعد والبرق، علاوة على هذا الاكتساح المائي، ولم توجد أي لحظة لفاصل زمني بين الاصطدام، والنار، والمطر، إلا بعد أن ظهر القمر في منتصف الليل.

كان الجرس الكبير لكنيسة سانت بول يدق الواحدة في الهواء الصافي، عندما انطلق السيد لوري في طريق عودته إلى كليركنويل، برفقة جيري، وهو يرتدي حذاء عالي الرقبة ويحمل فانوسًا. توجد على الطريق بين سوهو وكليركنويل رُقع منعزلة. وكان السيد لوري، الذي يخشى قطع الطرق، يستعين بجيري دائمًا لأداء هذه الخدمة: على الرغم من أن أدائها كان يتطلب ساعتين عادة قبل الموعد.

قال السيد لوري: «يا لها من ليلة! كأنها، يا جيري، ليلة يخرج فيها الموتى من قبورهم».

أجاب جيري: «أنا لم أشهد تلك الليلة بنفسي قط، يا مُعلمي، ولا أتوقع ذلك، ماذا سيجعل هذا يحدث».

قال رجل الأعمال: «تصبح على خير يا سيد كارتون، تصبح على خير يا سيد دارني، هل سنشهد مثل تلك الليلة معًا مرة أخرى!»
ربما. ربما يشهدون أيضًا حشود الناس الهائلة، باندفاعها وزئيرها، وهي تضغط عليهم.

الفصل السابع

صاحب السيادة في المدينة

أقام صاحب السيادة، وهو أحد كبار اللوردات ذوي السلطة في البلاط، حفل استقباله نصف الشهري في فندقه الكبير في باريس. كان السيد في غرفته الداخلية، حَرَم الأحرار، قدس الأقداس لجموع المصلين في جناح الغرف الخارجية. كان على وشك تناول شراب الشوكولاتة؛ وكان في مقدوره ابتلاع الكثير من الأشياء بسهولة، وزعمت بعض العقول المتبرمة أنه سرعان ما سيبتلع فرنسا، لكن شوكولاتة الصباح لم تكن لتدخل إلى حلقة دون مساعدة أربعة رجال أقوى، إلى جانب الطباخ.

نعم؛ تطلَّب الأمر أربعة رجال، يتوهجون جميعًا بزخارف رائعة، ورئيسهم لا يستطيع العيش وفي جيبه أقل من ساعتين ذهبيتين، تحاكي الطراز النبيل والعفيف الذي حدَّده صاحب السيادة، لتوصيل الشوكولاتة السعيدة إلى شفتيه. حمل أحد الخدم وعاء الشوكولاتة إلى الحضرة المقدسة؛ وأخذ الثاني يطحن الشوكولاتة ويُرغِيها بالأداة الصغيرة التي كان يحملها لهذا الغرض؛ وتولى الثالث تقديم المنديل المفضل؛ وقام الرابع (وهو صاحب الساعتين الذهبيتين) بسكب الشوكولاتة. وكان

من المستحيل أن يستغني صاحب السيادة عن أحد هؤلاء المعنيين بتقديم الشوكولاتة ثم يحتفظ بمكانته الرفيعة تحت السماء الجديرة بالإعجاب. وإذا قدم له شراب الشوكولاتة ثلاثة رجال فقط بجهل، لكانت الوصمة على شعاره عميقة؛ أما إذا كانا رجلين، لكان مات دون شك.

خرج صاحب السيادة في الليلة الماضية إلى حفل عشاء صغير، حيث قُدمت الكوميديا والأوبرا الكبرى بشكلٍ ساحر؛ وقد كان يخرج في معظم الليالي ليحضر حفلات العشاء الصغيرة هذه برفقة صُحبة رائعة. كان صاحب السيادة مهذبًا وحساسًا، إلى درجة أن تأثير «الكوميديا» و«الأوبرا الكبرى» عليه كان أكبر بكثير من البنود المُتعبة المتعلقة بشؤون الدولة وأسرارها، من احتياجات كل فرنسا. وهذا ظرف سعيد لفرنسا، كما هي الحال دومًا بالنسبة إلى جميع البلدان التي حظيت بالمثل! كما كانت إنجلترا دائمًا (على سبيل المثال)، في الأيام المأسوف عليها في عهد ستيوارت المرح الذي باعها.

كانت لدى صاحب السيادة فكرة نبيلة حقًا عن الشؤون العامة، تتمثل في ترك كل شيء يسير بطريقته؛ كما كانت لديه فكرة نبيلة أخرى حقًا عن العمل الخاص، مفادها أن كل شيء لا بد أن يسير بطريقته هو... في اتجاه سلطته وجيبه. أما عن ملذاته، العامة والخاصة، فقد كانت لديه فكرة نبيلة أخرى حقًا، وهي أن العالم قد خُلِقَ لهم. وجاء في نص أمره (الذي جرى تعديله من الأصل باستخدام ضمير فقط، وهذا ليس بالكثير): «يقول صاحب السيادة، الأرض وما عليها كله لي».

على أن صاحب السيادة أخذ يكتشف ببطء أن أموراً مُحَرَّجَةً مبتذلة تسللت إلى شؤونه، الخاصة والعامة على حدٍّ سواء؛ وتحالف مضطراً، فيما يتعلق بالفتن من شؤونه، مع جابي ضرائب. ونظراً إلى أن صاحب السيادة لا يعرف على الإطلاق ماذا يفعل بالنسبة إلى المالية العامة، فقد كان عليه أن يتركها لشخصٍ يمكنه ذلك. أما بالنسبة إلى التمويل الخاص، ولأن جباة الضرائب كانوا أغنياء، فقد كان صاحب السيادة يزداد فقراً بعد أجيال من الرفاهية والإنفاق الكبير. وبالتالي، أخرج أخته من الدير، بينما لا يزال هناك وقت لتجنب الحجاب الوشيك، وهو أرخص ثوب يمكن أن ترتديه، ومنحها جائزة لجابي ضرائب شديد الثراء وإن كان وضع النسب. كان جابي الضرائب هذا يجلس مع الرفاق في الغرف الخارجية، حاملاً عصاً مناسبة تعلوها تفاحة ذهبية، وسجدت له البشرية كثيراً من قبل؛ باستثناء البشر المتفوقين من دم صاحب السيادة، الذي نظر إليه، وكذا زوجته، بازدراءٍ شديدٍ.

كان جابي الضرائب رجلاً ثرياً؛ ضُمَّتْ إسْطِبلاته ثلاثين حصاناً، وضُمَّتْ قاعاته أربعة وعشرين خادماً من الذكور، وقامت ست نساء على خدمة زوجته. وبوصفه شخصاً يتظاهر بأنه لا يفعل شيئاً سوى السلب والنهب حيثما استطاع، كان جابي الضرائب -ومهما كانت علاقاته الزوجية تقود إلى الأخلاق الاجتماعية- أكثر صدقاً وواقعية على الأقل من بين الشخصيات التي حضرت إلى قصر صاحب السيادة في ذلك اليوم.

فعلى الرغم من جمال مشهد الغُرف الذي يلفت إليه الأنظار،

وتزيينها بكل أدوات الزخرفة التي يمكن أن يحققها ذوق ومهارة ذلك العصر، فلم تكن في الحقيقة عملاً سليماً؛ فإذا نظرنا إليها على ضوء الفزاعات التي ترتدي الخرق وطواقي النوم في أماكن أخرى (وليست بعيدة أيضاً، لكن أبراج المراقبة في نوتردام، على مسافة متساوية تقريباً من النقيضين، يمكن أن تراهما على حدٍّ سواء)، لكانت عملاً مزعجاً للغاية -لو كانت تلك النظرة يمكن أن تثير اهتمام أي شخص في منزل صاحب السيادة. كان هناك ضباط عسكريون تعوزهم المعرفة العسكرية؛ وضباط بحرية ليس لديهم فكرة عن السفن؛ وموظفون مدنيون لا يعرفون شيئاً عن الشؤون الإدارية؛ وكهنة وقحون، من أسوأ المنغمسين في الملذات الدنيوية، بأعين شهوانية، وألسنة سليطة، وحياء خليعة؛ وجميعهم غير مؤهلين على الإطلاق بمهامهم العديدة، وجميعهم يكذبون بشكلٍ فظيعٍ في التظاهر بمعرفة مهامهم، لكنهم جميعاً على صلة قريبة أو بعيدة من صاحب السيادة، وبالتالي فُرضوا على جميع الوظائف العامة التي يمكنهم الحصول منها على أي شيء؛ وكانت أعدادهم كبيرة. وهناك أشخاص لا يقلون كثرة عن تلك الفئات، لكنهم لا يرتبطون مباشرة بالسيد أو الدولة، ومع ذلك لا يرتبطون بالقدر نفسه بأي شيء حقيقي، أو بأي ظروف سابقة مرّت بهم عاشوا خلالها في طريقٍ مستقيمٍ تحقيقاً لهدفٍ صالح. هناك الأطباء الذين حققوا ثروات هائلة من علاجات لذيذة الطعم لاضطرابات خيالية لم تكن موجودة من قبل، وكانوا يتسمون لمرضاهم المهذبين في غرف الانتظار عند صاحب السيادة. وضمت قاعة الاستقبال أيضاً المُنظرّين الذين اكتشفوا

كل أنواع علاج الشرور الصغيرة التي أصابت الدولة، باستثناء علاج أداء العمل بجدية لاجتثاث خطيئة واحدة، فقد سكبوا بثر ثرائهم المُشتتة في أي آذان يمكنهم الوصول إليها. ومن بين هذا التجمع الرائع الذي جمعه السيد، كان هناك الفلاسفة غير المؤمنين، الذين يعيدون تشكيل العالم بالكلمات، ويصنعون من الورق أبراجًا، مثل بابل، يصعدون بها إلى السماء، يتحدثون مع الكيميائيين غير المؤمنين الذين يسعون إلى تحويل المعادن. أما السادة المتأنقون، الذين حصلوا على أرقى تهذيب عُرف في ذلك العصر الرائع وما تلاه بما يسفر عنه من لا مبالاة بكل موضوع طبيعي يهتم الإنسان، فقد كانوا في حالة مثالية من الإرهاق في مثوى صاحب السيادة. وقد ترك هؤلاء الوجهاء وراءهم بيوتًا مُهملة في عالم باريس الجميل، بحيث يتعذر على جواسيس صاحب السيادة المندسين بين المجتمعين -ويشكلون نصف الجماعة المهذبة- اكتشاف زوجة واحدة من بين ملائكة هذا المجال زوجة واحدة وحيدة، تبدو من حيث أخلاقها ومظهرها أنها أم. وفي الواقع، باستثناء مجرد فعل إحضار مخلوق مزعج إلى هذا العالم -وهو لا يرقى إلى تأهيل المرأة لتحمل اسم أم- لم يكن هناك شيء من هذا القبيل معروفًا كنمط. احتفظت الفلاحات بالأطفال غير النمطيين قرييين، ويربونهم، وترتدي الجذات الفاتنات في سن الستين ملابسهن ويحضرن الولايم كأنهن في سن العشرين.

لقد شوّه جذام الزيف كل مخلوق بشري حضر إلى صاحب السيادة. ضُمَّت أقصى غرفة خارجية ستة أشخاص استثنائيين ساورتهم، لوضع

سنوات، بعض المخاوف الغامضة بأن الأمور تسير بشكل عام على نحوٍ خاطئ إلى حدٍّ ما. وكطريقة واعدة لتصحيح الأمور، انضم نصفهم إلى عضوية طائفة عجيبة من المتشجنين^(١)، وكانوا يتساءلون بينهم وبين أنفسهم حينذاك ما إذا كان عليهم أن يرغوا ويزبدوا، ويغضبوا، ويزأروا، ويتحولوا إلى حالة التشنج على الفور؛ وبالتالي يشكلون إشارة واضحة للغاية لتوجيه صاحب السيادة نحو المستقبل. وإلى جانب هؤلاء الدراويش، اندفع الثلاثة الآخرون إلى طائفة أخرى، تعمل على إصلاح الأمور برطانة حول «مركز الحقيقة»؛ مُعتبرين أن الإنسان قد خرج من «مركز الحقيقة» - الذي لا يحتاج كثيرًا إلى الإثبات - لكنه لم يخرج من محيط الدائرة، ويجب منعه من الطيران خارجه، بل يجب دفعه مرة أخرى إلى المركز من خلال الصيام ورؤية الأرواح؛ وبناء على ذلك، استمرت الحوارات بينهم وبين الأرواح؛ مما أدى إلى عالم من الخير لم يظهر قطُّ.

على أن ما كان يبعث الراحة هو أن جميع الحاضرين عند صاحب السيادة في قصره الكبير كانوا يرتدون ملابس أنيقة، وإذا تأكد أن يوم القيامة هو يوم استعراض الملابس فقط، لوقف الجميع هناك على درب الصواب إلى الأبد. فمثل هذا الشعر المجعد والمساحيق اللاصقة له، ومثل هذه البشرة الرقيقة التي يجري الحفاظ عليها وإصلاحها بشكلٍ مصطنع، ومثل هذه السيوف الشجاعة الجديرة بالنظر إليها، ومثل هذا التشريف الرقيق لحاسة الشم، من شأن ذلك كله أن يُبقي أي شيء

(١) المتشجنون (Convulsionists): مجموعة من متعصي القرن الثامن عشر في فرنسا، يصابون بتشنجات تحت تأثير الانفعال الديني - (المترجمة).

مستمرًا إلى أبد الآبدين. كان السادة المتأنقون، الذين حصلوا على أرقى تهذيب، يرتدون حُلِيًّا معلقة صغيرة تتأرجح مُصدرة رنينًا وهم يتحركون ببطء. وكانت هذه الأغلال الذهبية ترن مثل أجراس صغيرة ثمينة. ومع ذلك الرنين، ومع حفيف الحرير والبروكار والكتان الفاخر، كانت هناك رفرقة في الهواء أقصت ضاحية القديس أنطوان وجوعه المفترس بعيدًا.

كان الملبس بمنزلة التعويذة والسحر الوحيد الفعال الذي يُستخدم للحفاظ على كل الأشياء في أماكنها. وكان الجميع يرتدون ملابس فاخرة، كأنهم ذاهبون إلى حفلٍ راقصٍ لن ينتهي أبدًا. من قصر التويلري، مرورًا بصاحب السيادة والبلاط بأكمله، مرورًا بالغرف، ومحاكم العدل، والمجتمع بأسره (باستثناء الفزاعات)، انحدرت الحفلة الراقصة إلى المُنفذ العام للإعدام: الذي كان مطلوبًا منه، وفقًا للتعويذة، أن يتولى الإشراف «وعلى رأسه شعرٌ مجعدٌ، ويضع المساحيق، ويرتدي معطفًا مزينًا بالذهب، وحذاءً خفيفًا، وجوارب حريرية بيضاء». عند المشنقة والعجلة -حيث كان الفأس نادرًا- كان السيد بارس -كما أطلق عليه زملاؤه جَلَادو المناطق الأخرى، مثل السيد أورليانز وغيره- يتولى الرئاسة مرتديًا هذا الزي الأنيق. ومن كان في إمكانه، من بين الحاضرين في حفل الاستقبال الذي أقامه صاحب السيادة في عام ١٧٨٠ لميلاد السيد المسيح، أن يشك في أن نظامًا متجذرًا يقوم على جلال إعدام يرتدي شعرًا مجعدًا، ويضع المساحيق، ويرتدي معطفًا مزينًا بالذهب، وحذاءً خفيفًا، وجوارب حريرية بيضاء، سيستمر حتى يرى النجوم تخبو!

بعد أن خفف صاحب السيادة عن رجاله الأربعة أعباءهم وتناول شراب الشوكولاتة، أمر بفتح أبواب قدس الأقداس وخرج. وعندئذٍ، يا لهذا الخضوع، والتذلل، والتملق، والخنوع، والإذلال الحقيق الذي حدث! أما عن السجود بالجسد والروح، فلم تترك هذه الطريقة أي شيء للسماء؛ ربما كان هذا أحد الأسباب الأخرى التي جعلت عبدة صاحب السيادة لا يزعمون السماء أبدًا.

أخذ صاحب السيادة يمنح وعدًا هنا وابتسامة هناك، همسة لعيدٍ سعيدٍ، وتلويحًا باليد لآخر، وهو يمر بمودة عبر غرفه إلى المنطقة النائية من محيط الحقيقة. وهناك استدار وعاد مرة أخرى، وهكذا، أغلق على نفسه في الوقت المناسب داخل محرابه بواسطة عفاريت الشوكولاتة، ولم يره أحد بعد ذلك.

وما إن انتهى العرض، تحوّلت رفرفة الهواء إلى عاصفة صغيرة، ودقّت الأجراس الثمينة الصغيرة في الطابق السفلي، وسرعان ما لم يتبقّ سوى شخصٍ واحدٍ من كل الحشد، سار ببطء بين المرايا في طريقه إلى الخروج، وقبعته تحت ذراعه، وعلبة النشوق في يده.

توقف هذا الشخص عند الباب الأخير في طريقه، واستدار نحو المحراب قائلاً: «أستودعك للشيطان!».

قال ذلك ثم نفّض النشوق عن أصابعه، كأنما ينفض الغبار عن قدميه، وسار بهدوء إلى الطابق السفلي.

كان الرجل يبلغ من العمر نحو ستين عامًا، أنيق الملبس، ومتغطرًا في أسلوبه، ووجهه مثل قناعٍ جميلٍ. وجه ذو شحوب شفاف، كل ملمح

فيه مُحدّد بوضوح، وعليه تعبير واحد. وكان أنفه جميل التكوين، وإن كان مضغوطاً قليلاً في الجزء العلوي من كل فتحة أنف. كانت هاتان الضغطتان، أو النقرتان، بمنزلة التغيير الصغير الوحيد الذي يُظهره الوجه على الإطلاق. كان لونهما يتغير في بعض الأحيان، وينبسطان وينقبضان أحياناً، مثل نبض خافت؛ ثم يعطيان نظرة غدرٍ وقسوة على الوجه كله. وبإلقاء نظرة فاحصة متأنية عليهما، يتضح أن قدرتهما على المساعدة في وجود هذا المظهر تكمن في شكل خط الفم، وخطوط مدارات العينين، كونها أفقية للغاية ورقيقة للغاية. ومع ذلك، ومن تأثير الوجه الناتج، كان وجهها وسيماً ورائعاً.

نزل صاحب هذا الوجه إلى الطابق السفلي ومنه إلى الفناء، وركب عربته، وانطلق بعيداً. لم يتحدث إليه الكثير من الناس في حفل الاستقبال؛ فقد وقف على مسافة قصيرة على بُعد، وكان في مقدوره أن يكون أكثر دفئاً في أسلوبه. وفي ظل هذه الظروف، بدا راضياً إلى حدٍّ ما أن يرى عامة الناس متفرقين أمام خيوله، وغالباً ما يتجنبون الدهس بالكاد. أطلق سائقه العنان للعربة، كأنما يهاجم عدواً. ولم يجلب تهور السائق الغاضب أيَّ اعتراض على وجه السيد أو شفتيه. كانت الشكوى مسموعة في بعض الأحيان، حتى في تلك المدينة الصماء، وذلك العصر الأبكم: أن العادة الأرستقراطية الشرسة، المتمثلة في القيادة باندفاعٍ في الشوارع الضيقة الخالية من الممرات، تتهدد حياة الفقراء بالخطر والإصابة بجراحٍ بطريقة بربرية. لكنَّ قليلين هم من كان يعينهم هذا الأمر، بحيث يفكرون فيه مرة ثانية. وفي هذه المسألة، كما

هي الحال في جميع الأمور الأخرى، يُترك لعموم البائسين الخروج من صعوباتهم قدر استطاعتهم.

وفي ظل جلجلة وقعقة جامحة، وتخلُّ لا إنساني عن أي اعتبار للعناية لا يسهل فهمه في هذه الأيام، اندفعت العربة في الشوارع، واجتاحت المنعطفات، مع صراخ النساء أمامها، والرجال يمسك بعضهم ببعض، ويُبعدون الأطفال عن طريقها. وأخيراً، عند انقضاها على منعطفٍ بجوار نافورة، تعرَّضت إحدى عجلاتها لاهتزازٍ طفيفٍ مثير للاشمئزاز؛ وصدرت صرخة مدوية من عددٍ من الأصوات، ورفعت الخيول أقدامها الأمامية، واندفعت إلى الأمام بعنفٍ.

ربما لم تكن العربة لتقف بسبب هذه العقبة الأخيرة؛ فمن المعروف أن العربات تسير عادة وتترك جرحاها وراءها، ولم لا؟ لكن الخادم الخائف نزل على عجلٍ، وكانت عشرون يداً على لجام الخيول.

قال السيد، وهو ينظر من داخل العربة بهدوء: «ماذا حدث؟».

التقط رجل طويل القامة، يرتدي طاقية النوم، صُرة من بين أقدام الخيول، ووضعها عند قاعدة النافورة، وهبط في الوحل والبلل، يعوي فوقها مثل حيوان بري.

في خضوع، قال رجل يرتدي ملابس رثة: «عفوًا، سيدي الماركيز! إنه طفل».

«لماذا يُصدر هذا الضجيج البغيض؟ هل هو ابنه؟».

«عفوًا، سيدي الماركيز - إنه لأمر مؤسفٍ - نعم، هذا ابنه».

كانت النافورة بعيدة قليلاً؛ إذ انفتح الشارع - حيث كانت النافورة - إلى مساحة تصل إلى نحو عشر أو اثنتي عشرة ياردة مربعة، وعندما نهض الرجل الطويل فجأة من على الأرض، وجاء راكضاً إلى العربية، وضع السيد الماركيز يده للحظة على مقبض سيفه.

«لقد قُتِلَ!»، صرخ الرجل في يأسٍ شديدٍ، ومد ذراعيه على طولهما فوق رأسه، وحدّق إليه. «مات!».

اقترب الناس ملتفتين حول السيد الماركيز وهم ينظرون إليه. لم تكشف الأعين الكثيرة التي نظرت إليه سوى اليقظة والحرص؛ لم يكن هناك تهديد أو غضب واضح، لم يقل الناس شيئاً؛ فقد لاذوا بالصمت بعد الصرخة الأولى، وظلوا صامتين. كان صوت الرجل الخاضع الذي تكلم، مسطحاً ومروّضاً، في أقصى خضوعه. مرّ السيد الماركيز عينيه عليهم جميعاً، كما لو أنهم مجرد فئران تخرج من جحورها. أخرج محفظته.

قال: «إنه لأمرٌ غريب بالنسبة إليّ، أنكم أيها الناس لا تستطيعون الاعتناء بأنفسكم وأطفالكم. دائماً يوجد واحد أو آخر منكم على الطريق، كيف أعرف ما الإصابة التي تسببت فيها لخيولي. اسمع! أعطه هذه».

ألقي عملة ذهبية إلى الخادم ليلتقطها، ارتفعت جميع الرؤوس إلى الأمام لكي تنظر إليها جميع الأعين وهي تسقط. صاح الرجل الطويل ثانية، بصرخة غريبة للغاية «مات!».

توقف عند وصول رجل آخر بسرعة، أفسح الباكون له الطريق. وعند رؤيته، سقط المخلوق البائس على كتفه وهو ينوح ويبيكي، ويشير إلى النافورة؛ حيث كانت بعض النساء تنحني فوق الصُّرة الساكنة، ويتحركن حولها برفقٍ، لكنهن، مثلهن مثل الرجال، كن صامتات.

قال الوافد الأخير: «أنا أعرف كل شيء، أعرف كل شيء، كن رجلاً شجاعاً، يا جاسبارد! من الأفضل للمسكين الصغير أن يموت هكذا، من أن يعيش، لقد مات في لحظة دون ألمٍ، هل كان يمكنه أن يعيش ساعة واحدة في مثل هذه السعادة؟».

قال الماركيز مبتسمًا: «أنت فيلسوف، يا أنت. ماذا يدعونك؟».

«يسمونني ديفارج».

«ما حرفتك؟».

«سيدي الماركيز، أنا بائع نبيذ».

قال الماركيز، وهو يلقي إليه عملة ذهبية أخرى: «التقط هذه، أيها الفيلسوف وبائع النبيذ، وأنفقها كما تريد. الخيول؛ هل هي بخير؟».

دون أن يتفضّل بالقاء نظرة إلى الجمع مرة ثانية، انحنى السيد الماركيز إلى الخلف في مقعده. وما إن تحركت به العربة، ومظهره ينم عن رجلٍ نبيلٍ حطّم شيئًا عاديًا بطريق الخطأ، ودفع ثمنه، وكان في إمكانه دفع ثمنه؛ عندما أقلقت راحته فجأة عملة معدنية طارت إلى عربته، ورنت على أرضيتها.

«توقف!»، قال السيد الماركيز، «أوقف الخيول! من ألقى ذلك؟».

نظر إلى المكان الذي كان يقف فيه ديفارج بائع النبيذ قبل لحظة. لكن الأب البائس كان يحني وجهه على الرصيف في تلك البقعة، وكانت الهيئة التي تقف بجانبه هي لامرأة بدينة داكنة، منهمكة في الحياكة.

«أيها الكلاب!»، قال الماركيز، ولكن بسلاسة ووجه لم يتغير، باستثناء النقرتين على أنفه، «يمكنني أن أدوس على أي منكم بمحض اختياري، وأبيدكم من الأرض. إذا عرفت الوغد الذي ألقاها على العربة، وإذا كان هذا اللص قريبًا بما يكفي من العربة، فيجب سحقه تحت العجلات». كانوا في حالة خوفٍ شديدٍ نتيجة تجارب طويلة وقاسية لما يمكن أن يفعله مثل هذا الرجل بهم، سواء داخل نطاق القانون أو خارجه، بحيث لم يرفع أيٌّ منهم صوته، أو يده أو حتى عينه. ولا واحد من بين الرجال. لكنَّ المرأة التي وقفت منهمكة في الحياكة، رفعت عينيها بثباتٍ، ونظرت إلى الماركيز في وجهه. لم يكن ما يتسق وكرامته أن يلاحظ ذلك. مرَّت عيناه بنظرة احتقار عليها وعلى جميع الفئران الأخرى، ثم انحنى إلى الخلف في مقعده مرة أخرى، وأمر السائق: «واصل طريقك!».

مضت به العربة، ومرَّت عربات أخرى في تتابعٍ سريعٍ؛ عربات الوزير، والمستشار، وجابي الضرائب، والطبيب، والمحامي، ورجل الدين، و«الأوبرا الكبرى»، و«الكوميديا»، والحفل الراقص الفاخر بأكمله، في تدفُّقٍ مستمرٍ مشرق. تسللت الفئران من جحورها لترى المشهد، وظلَّت تنظر لساعات. وكثيرًا ما كان يمر الجنود ورجال الشرطة بينهم وبين المشهد ويصنعون حاجزًا، يتسلل الناس خلفه

ويختلسون النظر من خلاله. كان الأب قد حمل صُرتَه منذ فترة طويلة وابتعد بها، بينما جلست النساء، اللاتي اعتنيتن بالصرة عندما كانت مستلقية عند قاعدة النافورة، يراقبن جريان الماء وتدفق عربات الحفل الفاخر؛ في حين كانت المرأة الوحيدة التي وقفت تحيك بوضوح، لا تزال تحيك برسوخ مثل القدر. جرت مياه النافورة، وجرت مياه النهر السريع، وجرى النهار ليدخل إلى المساء، وجرى الكثير من الحياة في المدينة نحو الموت وفقاً للقاعدة، ولم ينتظر الزمن والمد والجزر أي إنسان، وعادت الفئران تنام متقاربة في ثقبها المظلمة مرة أخرى، وأضيء الحفل الفاخر عند تناول العشاء، وجرت جميع الأشياء في مسارها.

الفصل الثامن

صاحب السيادة في الريف

كان منظرًا طبيعيًا جميلًا، حيث تُشرق الذرة، وإن لم تكن وفيرة. توجد رُقْع من نبات الجاودار الضعيف حيث كان يجب أن توجد الذرة، ورُقْع من البازلاء والفاصوليا الضعيفة، ورُقْع من معظم بدائل القمح من الخضراوات الخشنة. يوجد لدى الطبيعة الجامدة، كما يوجد لدى الرجال والنساء الذين زرعوها، ميلٌ سائدٌ نحو مظهر النبات على مضض؛ ميل كئيب إلى الاستسلام والذبول.

كانت عربة سفر السيد الماركيز (وربما كان يمكن أن تصبح أخف وزنًا)، التي يقودها أربعة خيول، ويمتطي سائقان اثنين منهما، تصعد تلة شديدة الانحدار. لم يكن احمرار وجه السيد الماركيز اتهامًا لتنشئته الرفيعة؛ إذ لم تكن تنبع من داخله، بل سببها ظرف خارجي يفوق سيطرته: إنه غروب الشمس.

لقد أصاب غروب الشمس -بوجهه- عربة السفر عندما وصلت إلى قمة التل، إلى درجة أن راكبها غرق في لون قرمزي. قال السيد الماركيز، وهو ينظر إلى يديه: «سوف تخبو حاليًا».

كانت الشمس، في واقع الأمر، شديدة الانخفاض، إلى درجة أنها غرقت في تلك اللحظة. وعند إحكام المكبح على العجلة وانزلاق العربة إلى أسفل التل، مع رائحة رماد وسط سحابة من الغبار، اختفى التوهج الأحمر بسرعة؛ الشمس والماركيز يهبطان معًا، ولم يتبق أي توهج بعد انتهاء السحب.

على أن ما بقي هو ريف مُحطَّم، واضح ومفتوح، قرية صغيرة في أسفل التل، امتداد واسع خلفه مرتفع، وبرج كنيسة، وطاحونة هوائية، وغابة للصيد، وصخرة فوقها قلعة تُستخدم كسجن. ومع حلول الليل، نظر الماركيز إلى كل هذه الأشياء المظلمة، وعلى وجهه سيماء شخص يقترب من المنزل.

كان بالقرية شارع فقير وحيد، يشتمل على مصنع بائس للبيرة، ومدبغة بائسة، وحانة بائسة، وفناء لإسطبل بائس لتبديل خيول البريد، ونافورة بائسة، وجميع المرافق البائسة المعتادة. وكان بالقرية شعبها الفقير أيضًا، كانوا جميعًا فقراء، يجلس الكثير منهم أمام أبوابهم، يقطعون البصل الضئيل وما شابه لطعام العشاء، بينما يتجمع الكثيرون عند النبع، يغسلون الأوراق، والأعشاب، وأي نبتة صغيرة من الأرض يمكن أن تؤكل. ولم تغب العلامات المعبرة عما جعلهم فقراء؛ فهناك ضريبة الدولة، وضريبة الكنيسة، وضريبة صاحب السيادة، والضريبة المحلية والضريبة العامة، التي يجب دفعها هنا ويجب دفعها هناك، وفقًا لقانونٍ مقدس في القرية الصغيرة، حتى أصبح من العجب وجود قرية لم تُبتلع.

كان يمكن رؤية عدد قليل فقط من الأطفال، ولم يكن هناك كلاب، أما بالنسبة إلى الرجال والنساء، فقد كان وجودهم على الأرض يتمثل في ذلك الاختيار: الحياة بأدنى الشروط التي يمكن أن تعيلهم، في القرية الصغيرة أسفل الطاحونة، أو الأسر والموت في السجن القائم فوق الصخرة.

اقترب السيد الماركيز في عربته من بوابة مكتب البريد، يُعلن عن قدومه رسولاً يتقدم العربية، وطريقة سائقي العربية بسياطهم التي كانت تلتف كالثعابين حول رؤوسهم في هواء المساء، كأنما جاء برفقة الغضب. وما إن وصل إلى النبع، توقف الفلاحون عن أعمالهم لينظروا إليه، وجّه نظره إليهم ورأى فيهم، دون أن يدرك، التدهور المؤكد البطيء للوجوه والأجسام البائسة، الذي من شأنه أن يجعل من هزال الفرنسيين خرافة إنجليزية تستمر كحقيقة خلال أفضل فترة من مائة عام.

طاف السيد الماركيز بعينه على الوجوه الخاضعة التي تدلّت أمامه، كما تدلى أمثاله أمام سيد البلاط -بينما كان الفارق الوحيد أن هذه الوجوه تدلت فقط بسبب المعاناة وليس للاسترضاء- عندما انضم إلى المجموعة مُصلح الطرق الأشيب.

قال الماركيز للمرسل: «عليك أن تأتي بهذا الرجل إلى هنا!».

جاء بالرجل وقبعة في يده، واقترب الرجال الآخرون للنظر والاستماع، على طريقة الناس في نافورة باريس.

«لقد مررت بك على الطريق؟».

«هذا صحيح، يا سيدي. كان لي شرف مرورك بي على الطريق».

«عند صعود التل، وعلى قمة التل، في المرتين؟».

«هذا صحيح، يا سيدي».

«وما الذي كنت تنظر إليه بشكل ثابت؟».

«كنت أنظر إلى الرجل، يا سيدي».

انحنى قليلاً، وقبعته الزرقاء الممزقة تشير إلى ما تحت العربة.

انحنى جميع زملائه للنظر تحت العربة.

«أي رجل، أيها الخنزير؟ ولماذا تنظر هناك؟».

«عفوًا، يا سيدي؛ كان يتأرجح من سلسلة الحذاء... بالمكبح».

«من؟»، سأل المسافر.

«الرجل، يا سيدي».

«فليخلصنا الشيطان من هؤلاء الحمقى! ما اسم هذا الرجل؟ أنت

تعرف كل الرجال في هذا الجزء من الريف، من هو؟».

«رحمتك يا سيدي! ليس من هذا الجزء من الريف؛ لم أراه قطُّ

طوال أي يوم من أيام حياتي».

«يتأرجح بالسلسلة؟ لكي يختنق؟».

«بعد إذنك الكريم، يا صاحب السيادة، هذا هو الشيء العجيب،

رأسه معلق؛ هكذا!».

استدار جانبياً نحو العربية، وانحنى إلى الوراء، ووجهه مرفوع إلى السماء، ورأسه يتدلى، ثم اعتدل، وتحسس قبعته، وانحنى.
«كيف كان شكله؟».

«كان، يا سيدي، أكثر بياضاً من الطحان، ومُغَطَّى كلية بالغبار، أبيض كشبح، طويل كشبح!».
أحدثت الصورة ضجة هائلة بين الحشد الصغير، لكن كل الأعين، دون ملاحظة الأعين الأخرى، نظرت إلى السيد الماركيز، ربما لمعرفة ما إذا كان ثمة شبح في ضميره.

قال الماركيز، مدرّكاً بسعادة أن مثل هذه الحشرات لم تكن تزعجه:
«حقاً، لقد أبليت بلاء حسناً لرؤية لص يرافق عربتي، ولم تفتح فمك الكبير هذا. هراء! نح الرجل جانباً، يا سيد جابيل!».

كان السيد جابيل مدير مكتب البريد، وأحد جبابة الضرائب في الوقت نفسه، وقد خرج بخضوع كبير للمساعدة في هذا التحقيق، وأمسك الرجل من عباءة ذراعه بطريقة رسمية.

قال السيد جابيل: «تَبّاً! تنحّ جانباً!»

«ضع يديك على هذا الغريب، يا جابيل، إذا كان يسعى إلى الإقامة في قريتك الليلة، وتأكد أنه صادق في عمله».

«سيدي، يسعدني أن أمتثل لأوامرك».

«هل هرب، أيها الرجل؟ أين هذا الملعون؟».

كان الملعون بالفعل تحت العربة مع ستة أصدقاء محددين، يشير

إلى السلسلة بقبعته الزرقاء. وعلى الفور تولى ستة أصدقاء محددون آخرون إخراجه على الفور، وأحضروه لاهثًا إلى السيد الماركيز.

«هل هرب الرجل، أيها الأحمق، عندما توقعنا لكبح العجلات؟».

«لقد ألقى نفسه من فوق جانب التل، يا سيدي؛ برأسه أولاً، مثل

شخص يغتسل في النهر».

«انظر في الأمر، يا جابيل.. هيا!».

كان الرجال الستة الذين يحدقون إلى السلسلة لا يزالون بين العجلات، مثل الأغنام. دارت العجلات فجأة، بحيث حالفهم الحظ بإنقاذ جلودهم وعظامهم؛ لم يكن لديهم غير ذلك سوى القليل جدًا لإنقاذه، وإلا لما كانوا محظوظين إلى هذا الحد.

سرعان ما أدى انحدار التل إلى كبج جماع الاندفاع الذي بدأت به العربة حركتها خروجًا من القرية، وصعودًا إلى ما بعدها. تباطأت حركة العربة تدريجيًا، إلى أن أصبحت تماثل وتيرة السير على الأقدام، متأرجحة ومتمايلة بثاقلٍ وهي تصعد بين العديد من الروائح الحلوة ليلية صيفية. قام السائقان بهدوء، تدور حولهما ألف بعوضة خيطية حلّت محل آلهة الانتقام، بإصلاح مداخل أهداب سياطهم. سار الخادم بجانب الخيول. كان صوت الساعي مسموعًا، وهو يهرول إلى الأمام في المسافة الباهتة.

عند أكثر نقاط التل انحدارًا، كانت توجد مقبرة صغيرة، وصليب، وتمثال كبير جديد للسيد المسيح. كان تمثالًا خشبيًا فقيرًا، نفّذه نحات

ريفي عديم الخبرة، لكنه نفّذه من واقع الحياة -حياته الخاصة، ربما- لأنه كان هزياً ونحيفاً بشكلٍ مخيف.

ركعت امرأة أمام هذا الرمز المؤلم لبؤسٍ كبيرٍ يزداد سوءاً منذ فترة طويلة، ولم يصل إلى أسوأ حالاته بعد. أدارت المرأة رأسها عندما اقتربت العربة منها، ونهضت بسرعة، وتقدمت إلى باب العربة.

«إنه أنت، يا سيدي! سيدي، لديّ التماس».

نظر إليها صاحب السيادة، مع صيحة تعجّب تنم عن نفاد الصبر، وإنما بوجهه الذي لا يتغيّر.

«ماذا إذن! ما هذا؟ دائماً التماسات!».

«سيدي، استحلفك بمحبة الله العظيم! زوجي، الحطّاب».

«ماذا عن زوجك الحطّاب؟ دائماً نفس الشيء معكم أيها الناس.. هناك شيء لا يستطيع سداده؟».

«لقد سدد كل شيء، يا سيدي، إنه ميت».

«حسنًا! إنه في طمأنينة، هل يمكنني إعادته إليك؟».

«لا، للأسف، سيدي! لكنه يرقد تحت كومة صغيرة من العشب الرديء».

«حسنًا؟».

«سيدي، هناك الكثير من أكوام العشب الرديء؟».

«مرة أخرى، حسنًا؟».

بدأت امرأة عجوز، لكنها كانت شابة. وكان أسلوبها يتسم بحزن عميق. شبكت يديها، بعروقهما البارزة والمتنفخة، معاً بطاقة جامحة، ووضعت كلاً منهما على التناوب على باب العربة؛ بحنان ولطف، كأنما العربة صدرٌ بشريٌّ من المتوقع أن تشعر باللمسة المستغيثة.

«سيدي، اسمعني! سيدي، اسمع التماسي! مات زوجي من العوز، ويموت الكثيرون من العوز، وسيموت كثيرون آخرون من العوز».

«مرة أخرى، حسناً؟ هل يمكنني إطعامهم؟».

«يعلم الله، سيدي، لكنني لا أطلب ذلك. التماسي هو وضع قطعة من الحجر أو الخشب، عليها اسم زوجي، فوق قبره لإظهار مكان دفنه؛ وإلا سرعان ما يلحق النسيان بالمكان، ولن يعثر عليه أحد أبداً عندما أموت بالعلّة نفسها، وسوف أوضع تحت كومة أخرى من العشب الرديء. سيدي، أكوام العشب كثيرة جداً، تزداد بسرعة كبيرة؛ فالعوز كثير جداً، سيدي! سيدي!».

أبعدها الخادم عن الباب، وانطلقت العربة في هرولة سريعة، وأسرع السائقان الوتيرة تاركين المرأة في الخلف بعيداً. أخذت المسافة التي بقيت بين السيد وقصره تقلص، ترافقه آلهة الانتقام مرة أخرى.

تصاعدت من حوله روائح ليلة الصيف الحلوة، وتصاعدت مع سقوط المطر، دون تمييز، على مجموعة البشر المتربة والثرثرة والمنهكة عند النبع غير البعيد. كان مُصلح الطرق، بمساعدة القبة الزرقاء التي دونها لم يكن شيئاً، لا يزال يتوسع في الحديث عن الرجل مثل شبح، ما دام الجمع مستعداً لتحمل مواصلة الاستماع إليه. وتدرجياً، بدؤوا في

الابتعاد عنه، عندما لم يتمكنوا من تحمّل المزيد، وتألقت الأضواء في نوافذ صغيرة. يبدو أن تلك أضواء، مع إظلام النوافذ وظهور المزيد من النجوم، ترتفع إلى السماء بدلاً من أن تنطفئ.

كان ظل منزل كبير ذي سقف مرتفع، والعديد من الأشجار المتدلية، يقع على السيد الماركيز في ذلك الوقت. وحيث توقفت عربته، أخذ ضوء المشاعل يحل محل الظل، وفُتح له الباب الكبير لدخول قصره. «السيد تشارلز، الذي أتوقع حضوره، هل وصل من إنجلترا؟».

«ليس بعد، سيدي».

الفصل التاسع

رأس الجورجونة

كان قصر السيد الماركيز كتلة ثقيلة من المباني، أمامها فناء حجري كبير، وسُلَّمان حجريان يلتقيان عند شرفة حجرية أمام الباب الرئيسي. كيان حجري تمامًا، حيث تتناثر في كل اتجاه درابزينات حجرية ثقيلة، وجرار حجرية، وزهور حجرية، ووجوه حجرية لرجال، ورؤوس حجرية لأسود، كما لو أن رأس الجورجونة^(١) قد أطلت عليه بعد انتهاء بنائه قبل قرنين من الزمان.

خرج السيد الماركيز من عربته، يسبقه المُشعل، وأخذ يصعد درجات السُّلم العريضة الضحلة؛ مما أزعج ظلام الليل بما يكفي لإثارة احتجاج عالٍ من بومة على سطح كومة كبيرة من مبنى الإسطبل بعيدًا بين الأشجار. كان كل شيء آخر هادئًا تمامًا، إلى درجة أن لهب المُشعل الذي يسبقه على السلم، ولهب المُشعل الآخر المُعلق عند الباب الكبير، كانا يضيئان كأنهما في غرفة مغلقة من الغرف الخاصة، وليس في هواء الليل المفتوح. لم يكن هناك صوت آخر غير صوت البومة، باستثناء

(١) الجورجونة في الأساطير الإغريقية هي واحدة من ثلاث شقيقات، شعرهن من ثعابين ومظهرهن مربع، ومن ينظر إليهن يتحول إلى حجر - (الترجمة).

سقوط مياه النافورة في حوضها الحجري؛ فقد كانت واحدة من تلك الليالي المظلمة التي تحبس أنفاسها معًا طوال ساعة، ثم تطلق تنهيدة طويلة منخفضة، وتعود لتحبس أنفاسها مرة أخرى.

أصدر الباب الكبير رنينًا خلفه، وعبر السيد الماركيز قاعة قاتمة تضم بعض الأدوات القديمة من رماح الخنازير والسيوف وسكاكين المطاردة. وزادت الكآبة مع بعض القضبان الثقيلة لركوب الخيل، فضلًا عن سياط الخيول التي شعر العديد من الفلاحين، بثقلها وهم يموتون، عندما يغضب صاحب السيادة.

تجنّب السيد الماركيز الغرف الكبيرة، التي كانت مظلمة وسريعة التجهيز نظرًا إلى هبوط الليل، وصعد السلم، يسبقه حامل المشعل، إلى باب في ممر. فُتِح الباب، ودخل إلى شقته الخاصة المكونة من ثلاث غرف: غرفة نومه، وغرفتان أخريان؛ غرف مقببة عالية، ذات أرضيات باردة غير مغطاة بالسجاد، وأحجار كبيرة على المواعد لحرق الأخشاب في فصل الشتاء، وجميع الكماليات التي تليق بحالة الماركيز في عصرٍ وبلدٍ مترفين. كان الطراز في عهد لويس الأخير، باستثناء عهد واحد، من الخط الذي لم ينقطع قط - لويس الرابع عشر - واضحًا في أثاثهم الغني. لكنه شهد تنوعًا من خلال العديد من الأشياء، التي كانت رسومًا توضيحية للصفحات القديمة في تاريخ فرنسا.

أُعدت مائدة عشاء لشخصين، في الغرفة الثالثة؛ غرفة مستديرة، في أحد أبراج القصر الأربعة التي تعلوها مظفأة. غرفة صغيرة فاخرة، نافذتها مفتوحة على مصراعيها، وستائر الخشبية مغلقة، بحيث

لا تظهر الليلة المظلمة إلا في خطوط أفقية طفيفة من اللون الأسود،
بالتناوب مع خطوطها العريضة من اللون الحجري.

قال الماركيز، وهو يلقي نظرة خاطفة على استعدادات العشاء:
«قالوا إن ابن أخي لم يصل».

«لم يصل؛ وإنما من المتوقع أن يصل مع صاحب السيادة».

«آه! ليس من المحتمل أن يصل الليلة، ومع ذلك، اترك المائدة كما
هي؛ سأكون جاهزاً في غضون ربع ساعة».

وفي غضون ربع ساعة، كان الماركيز جاهزاً، وجلس وحده لتناول
عشاءه الفخم والمُختار. كان كرسيه في مقابل النافذة. كان قد تناول
حساءه، وبدأ يرفع كأسه من نبيذ بوردو إلى شفثيه، لكنه أعاده إلى المائدة.
«ما هذا؟»، سأل بهدوء، وهو ينظر باهتمامٍ إلى الخطوط الأفقية
ذات اللونين الأسود والحجري.

«هذا؟ يا سيدي؟».

«خارج الستائر، افتحوا الستائر».

فُتحت الستائر.

«حسنًا؟».

«ما من شيء، سيدي، لا يوجد سوى الأشجار والليل».

كان الخادم الذي تحدث قد فتح الستائر على مصراعيها، ونظر
إلى الظلام الفارغ، ووقف وذلك الفراغ خلفه، يتطلع حوله منتظراً
التعليمات.

«جيد»، قال الماركيز الهادي: «أغلقها مرة أخرى».

أُغلقت الستائر، وواصل الماركيز عشاءه. توقف ثانية وكأسه في يده، ما إن وصل إلى منتصف عشاءه، حتى سمع صوت عجلات، أقبلت بسرعة، ووصلت إلى مقدمة القصر.

«سَل من وصل».

كان ابن شقيق الماركيز، فقد تأخر بعدة فراسخ قليلة عنه، في وقتٍ مبكرٍ من بعد الظهر، وقطع المسافة بسرعة، ولكن ليس بالسرعة التي تمكّنه من اللحاق به على الطريق، وقد سمع في مكاتب البريد عن أن صاحب السيادة مرَّ قبله.

يجب إبلاغه (قال الماركيز) إن العشاء ينتظره الآن وهنا، وأنه كان يدعو له أن يتمكن من الحضور. جاء بعد قليل، وكان معروفًا في إنجلترا باسم تشارلز دارني.

استقبله الماركيز بلطفٍ، لكنهما لم يتصافحا.

قال للماركيز، وهو يتخذ مقعده على المائدة: «هل غادرت باريس بالأمس، يا سيدي؟».

«أمس، وأنت؟».

«أنا جئت مباشرة».

«من لندن؟».

«نعم».

«لقد استغرقت وقتًا طويلاً»، قال الماركيز بابتسامة.

«على العكس؛ لقد جئت مباشرة».

«عفوًا! لا أعني وقتًا طويلًا في الرحلة؛ وإنما استغرقت وقتًا طويلًا كي تنوي القيام بالرحلة».

«عطلتني...» -توقف ابن الأخ لحظة قبل أن يجيب- «أعمال مختلفة».

«بلا شك»، قال العم المهذب.

لم يتبادلا أي كلمات أخرى، نظرًا إلى وجود الخادم، وعندما أصبحا وحدهما، بعد تقديم القهوة، نظر ابن الأخ إلى العم والتقى بعيني الوجه التي كانت مثل قناع ناعم، ثم بدأ في الحديث.

«لقد عدت، يا سيدي، كما توقعت، سعيًا لمتابعة الشيء الذي أبعدني، لقد قادني إلى خطر كبير وغير متوقع، لكنه شيء مقدس؛ ولو قادني إلى الموت، أتمنى أن يكون قد أعانني».

قال العم: «ليس إلى الموت، ليس من الضروري أن نقول، إلى الموت».

أجاب ابن الأخ: «أشك يا سيدي أنك كنت لتهتم بإيقافي هناك، إذا ما كان قادني إلى أقصى حافة الموت».

وعندئذ توجهت علامات الأنف العميقة، والخطوط الطويلة المستقيمة الدقيقة، في الوجه القاسي. أوماً العم بإيماء احتجاج لطيفة، كانت بوضوح شكلاً بسيطاً من أشكال التربية الرفيعة، بحيث لم تبعث على الاطمئنان.

واصل ابن الأخ: «في الواقع، يا سيدي، وفيما يتعلق بأي شيء أعرفه، ربما أنك كنت تعمل بوضوح من أجل إضفاء مظهر أكثر رية على الظروف التي أحاطت بي وتكتنفها الشبهات».

«لا، لا، لا»، قال العم بدمائة.

استأنف ابن الأخ، وهو ينظر إليه بعدم ثقة عميق: «لكن، أيًا ما كان، أنا أعرف أن دبلوماسيتك ستوقضي بأي وسيلة، ولن تتردد فيما يتعلق بالوسائل».

قال العم، والنقرتان تنبضان برفق: «يا صديقي، لقد أخبرتك بذلك. قدم لي معروفًا بأن تتذكر أنني أخبرتك بذلك منذ فترة طويلة».

«أتذكر ذلك».

قال الماركيز بلطفٍ شديدٍ: «شكرًا لك».

بقي جرس صوته في الهواء، تقريبًا مثل نغمة آلة موسيقية.

«في الواقع، يا سيدي»، تابع ابن أخيه، «أعتقد أنه سوء حظك، وحسن حظي، في الوقت نفسه، هو ما أبقاني خارج السجن هنا في فرنسا».

أجاب العم، وهو يحتسي قهوته: «أنا لا أفهم تمامًا، هل يمكنني أن أتجرأ وأطلب منك أن تشرح؟».

«أعتقد أنك لو لم تكن مذموماً لدى البلاط، ولم تلق عليك تلك السحابة بظلالها لسنوات ماضية، لكان أمر ملكي مختوم قد أرسلني إلى قلعة ما إلى أجل غير مسمى».

قال العم بهدوء شديد: «هذا ممكن، فمن أجل شرف العائلة، يمكنني حتى أن أقرر مضايقتك إلى هذا الحد، أرجو أن تعذرني!». قال ابن الأخ: «أعتقد، بكل سرور، أن حفل الاستقبال أول أمس، كان باردًا كالعادة».

أجاب العم، بأدبٍ رفيع: «لن أقول بكل سرور، يا صديقي، فلست متأكدًا من ذلك، ففرصة جيدة لإمعان النظر، محاطة بمزايا العزلة، قد تؤثر في مصيرك وتقودك إلى ميزة أكبر بكثير مما تؤثر فيه بنفسك، وإنما ما من جدوى لمناقشة هذه المسألة. أنا، كما تقول، في وضع غير موات، وأدوات التأديب الصغيرة هذه، فضلًا عن المساعدات اللطيفة لسلطة العائلات وشرفها، هذه الخدمات الطفيفة التي قد تضايقتك، لا يمكن الحصول عليها الآن إلا عن طريق المصلحة والإلحاح. يسعى الكثيرون إليها، ولا تُمنح إلا إلى عددٍ قليلٍ جدًّا (نسبيًّا)! لم يكن الوضع على هذا النحو، لكن فرنسا تغيرت إلى الأسوأ في كل هذه الأشياء. كان أسلافنا غير البعيدين يحتفظون بحق الحياة والموت على المحيطين الغوغاء، لقد خرج من هذه الغرفة العديد من هؤلاء الكلاب إلى المشنقة، وفي الغرفة المجاورة (غرفة نومي)، طُعِن على الفور رجل بالخنجر، على حد علمنا، لأنه تحدث عن بعض تصرفات وقحة تخص ابنته... ابنته؟ لقد فقدنا العديد من الامتيازات، وأصبحت فلسفة جديدة نمطًا، والتأكيد على مكانتنا في هذه الأيام، قد يسبب لنا متاعبَ حقيقية (وأننا لا أذهب إلى أبعد من ذلك وأقول إنها ستسبب متاعب بالفعل، وإنما أقول: قد). كل شيء سيء للغاية، سيء جدًّا!».

تناول الماركيز قدرًا صغيرًا ناعمًا من النشوق، وهز رأسه؛ بقدر ما يمكن أن يشعر به من يأسٍ رقيقٍ من بلدٍ لا يزال يحتويه، تلك الوسيلة العظيمة للتجديد.

قال ابن الأخ بكآبة: «لقد أكدنا مكانتنا، سواء في الزمن القديم أو في العصر الحديث أيضًا، إلى درجة أنني أعتقد أن اسمنا أصبح مكروهًا أكثر من أي اسم آخر في فرنسا».

قال العم: «دعنا نأمل ذلك؛ فكراهيةِ عليهِ القوم هو إجلال لا إرادي لأسافل القوم».

تابع ابن الأخ، بنبرته السابقة: «لا يوجد وجه يمكنني النظر إليه، في أنحاء هذا البلد حولنا كافة، ولا يُنظر نحوي بأي احترام سوى الاحترام الكئيب القائم على الخوف والعبودية».

قال الماركيز: «هذا إطراء لعظمة الأسرة، تستحقها بالطريقة التي حافظت بها الأسرة على عظمتها، هاها!». وأخذ رشفة صغيرة ناعمة أخرى من النشوق، ووضع رجلًا على رجل برفق.

لكنه، عندما اتكأ ابن أخيه بمرفقه على المائدة، وغطى عينيه بيده بعمقٍ واكتئاب، نظر إليه القناع الجميل من الجانب بتركيز من الحدة والتشدد والكراهية، أكثر مما يتوافق وافتراس مرتديه اللامبالاة.

قال الماركيز: «القمع هو الفلسفة الوحيدة الدائمة. إن الاحترام الكئيب القائم على الخوف والعبودية، يا صديقي، سيُقتي الكلاب مُطبعة للوسط، ما دام هذا السقف»، واصل ناظرًا إليه، «يحجب السماء».

قد لا يدوم ذلك طويلاً، كما افترض الماركيز. إذا كان من الممكن أن تُعرَض عليه في تلك الليلة صورة القصر كما سيصبح بعد سنوات قليلة جداً، وصور خمسين قصر مثله كما ستصبح أيضاً بعد سنوات قليلة جداً، فربما كان في حيرة من أمره وغير قادر على تمييز قصره بين الانقراض المروعة المتفحمة والمنهوبة والمحطمة. أما السقف الذي تباهى به، فربما وجد أنه يحجب السماء بطريقة جديدة؛ إلى الأبد، عن أعين الأجساد التي أُطلق عليها الرصاص من فوهات مائة ألف بندقية.

قال الماركيز: «في هذه الأثناء، سأحافظ على شرف العائلة وراحتها، إذا لم تفعل أنت ذلك. لكنك لا بد أن تكون مُرهقاً. هل ننهي اجتماعنا الليلة؟».

«لحظة أخرى».

«بل ساعة، إذا رغبت».

قال ابن الأخ: «سيدي، لقد أخطأنا، ونجني ثمار الخطأ».

«لقد أخطأنا؟»، كرر الماركيز، بابتسامة استفسارية، وأشار بلطفٍ، إلى ابن أخيه أولاً، ثم إلى نفسه.

«عائلتنا، عائلتنا الكريمة التي يُعتبر شرفها ذا قيمة كبيرة لكلينا، وإن كان كلُّ منا بطريقته. حتى في زمن والدي، ارتكبنا أخطاء جسيمة، وجرحنا كل مخلوق بشري حال بيننا وبين متعتنا، مهما كان. ولماذا أحتاج إلى التحدث عن زمن والدي، بينما هو زمنك بالقدر نفسه؟ هل يمكنني فصل الأخ التوئم لوالدي، وشريكه في الميراث وخليفته، عن نفسه؟

قال الماركيز: «لقد فعل الموت ذلك!».

أجاب ابن الأخ: «وتركتني مرتبطاً بنظام مخيفٍ بالنسبة إليّ، ومسؤول عنه، لكنني عاجز داخله؛ أسعي لتنفيذ آخر طلب صدر من شفتي أُمي العزيزة، وأطيع النظرة الأخيرة لعيني أُمي العزيزة، التي ناشدتنني أن أتوخّى الرحمة والتعويض عن الضرر؛ ويعذبني التماس المساعدة والقوة دون جدوى».

قال الماركيز، وهو يلمسه على صدره بسبابته، حيث يقفان الآن بجانب الموقد: «كن على يقين أنك ستسعى إليهما عبثاً، إذا سعيت إلى الحصول عليهما مني يا ابن أخي».

كان كل خط مستقيم دقيق، في بياض وجهه الصافي، مضغوطاً بقسوة وبراعة ضغطاً شديداً، بينما يقف ناظراً بهدوء إلى ابن أخيه، وعلبة النشوق في يده. لمس صدره مرة أخرى، كما لو أن إصبعه بمنزلة سن سيف صغير رفيع، يمرّره ببراعة دقيقة على الجسد، وقال:

«سأموت، يا صديقي، مُخلداً النظام الذي عشت في ظله».

وبعد أن قال ذلك، أخذ رشقة كبيرة من النشوق، ووضع علبته في جيبه.

ثم أضاف، بعد أن قرع جرساً صغيراً على المائدة: «من الأفضل أن تكون مخلوقاً عقلاً، وتقبل مصيرك الطبيعي، لكنك ضائع، يا سيد تشارلز، كما أرى».

قال ابن الأخ، بحزنٍ: «لقد ضاعت هذه الممتلكات، وضاعت فرنسا، بالنسبة إليّ، إنني أتخلى عنهما».

«هل كلاهما ملكك لتتخلى عنهما؟ ربما فرنسا، ولكن هل الممتلكات لك؟ إنها لا تستحق الذكر، لكن، هل هي أصبحت لك الآن؟».

«لم أقصد، بالكلمات التي استخدمتها، أنني أطالب بها الآن، أعني إذا انتقلت إليّ منك، في غد...».

«لديّ من الغرور ما يجعلني آمل أنه أمر غير مُحتمَل».

«... أو بعد عشرين عامًا...».

قال الماركيز: «إنك تُضيفي عليّ شرفاً كبيراً، ومع ذلك، أفضل هذا الافتراض».

«... سأتخلى عنها، وأعيش بطريقة أخرى وفي مكان آخر، إنه قدر ضئيل يمكن التخلي عنه. ليس سوى صحراء من البؤس والخراب!».

«هاه!»، قال الماركيز، وهو يلقي نظرة خاطفة على الغرفة الفاخرة.

«هذه الممتلكات تراها العين هنا جميلة؛ وإنما بالنظر إلى مدى سلامتها، تحت السماء وفي وضوح النهار، فهي برج مُحطم من النفايات، وسوء الإدارة، والابتزاز، والديون، والرهن العقاري، والقمع، والجوع، والعري، والمعاناة».

«هاه!»، قال الماركيز مرة أخرى، بطريقة تنم عن الرضا.

«إذا أصبحت ملكي في يوم ما، سوف أعهد بها إلى أيّد أكثر كفاءة لتحريرها ببطء (إذا أمكن ذلك) من الثقل الذي يسحبها إلى أسفل، بحيث يتمكن البائسون الذين لا يستطيعون تركها، والذين طال انتظارهم يعانون

حتى آخر قدرة على التحمل، يمكنهم في جيل آخر أن تقل معاناتهم؛ لكنها ليست ملكي، لقد أصابتها لعنة، وأصابت البلد كلها».

قال العم: «وأنت؟ اغفر لي فضولي؛ هل تنوي، في ظل فلسفتك الجديدة، أن تعيش على نحو كريم؟».

«يجب أن أفعل ذلك، لأعيش، ما قد يتعين على الآخرين من أبناء بلدي، حتى مع من كان يحمل منهم شارة النبالة سابقاً، القيام به يوماً ما.... العمل».

«في إنجلترا، على سبيل المثال؟».

«نعم. شرف العائلة، يا سيدي، في مآمن مني في هذا البلد. اسم العائلة لا يمكن أن يُعاني مني في أي بلد آخر، لأنني لا أحمله في أي مكان آخر».

تسبب رنين الجرس في إضاءة غرفة النوم المجاورة، أشرقت الآن ببهاء، من خلال باب الاتصال. نظر الماركيز في ذلك الاتجاه، واستمع إلى خطوة انسحاب خادمه.

ثم قال، محولاً وجهه الهادئ إلى ابن أخيه بابتسامة: «إنجلترا جذابة جداً بالنسبة إليك، مع رؤية كيف ازدهرت هناك وأنت تعيش بلا مبالاة».

«لقد قلت بالفعل، أنني قد أكون مدينًا لك، يا سيدي، فيما يتعلق بازدهاري هناك، أما بالنسبة إلى الباقي، فهو ملاذي».

«يقولون، هؤلاء الإنجليز المتبحرون، إنها ملجأ الكثيرين. هل تعرف مواطنًا وجد ملجأ هناك؟ طيبًا؟».

«نعم».

«مع ابنته؟».

«نعم».

«نعم»، قال الماركيز، «أنت متعب، تصبح على خير!».

وبينما كان يحني رأسه بلطفٍ شديدٍ، بدا على وجهه المبتسم أنه يخفي سرًّا، ونقل جَوًّا من الغموض إلى تلك الكلمات، التي أذهلت بقوة عيني وأذني ابن أخيه، وفي الوقت نفسه، كانت الخطوط المستقيمة الرفيعة لوضع العينين، والشفاه المستقيمة الرفيعة، والعلامات في الأنف، ملتوية بسخرية بدت شيطانية بأريحية. شكل رائع.

«نعم»، كرر الماركيز، «طبيب مع ابنة، نعم، هكذا تبدأ الفلسفة الجديدة! أنت مُتعب.. تصبح على خير!».

كان استجواب أي وجه حجري خارج القصر أكثر فائدة من استجواب وجهه. نظر إليه ابن الأخ، عبثًا، وهو يتجه نحو الباب.

قال العم: «تصبح على خير! أطلع إلى أن أسعد برؤيتك مرة أخرى في الصباح، أتمنى أن تنعم براحة جيدة! أشعل الضوء للسيد ابن أخي حتى يصل إلى غرفته هناك! (وأحرق السيد ابن أخي في سريره، إن صح التعبير)»، هذا ما أضافه لنفسه، قبل أن يقرع جرسه الصغير مرة أخرى، ويستدعي خادمه إلى غرفة نومه.

جاء الخادم وذهب، وأخذ السيد الماركيز يسير جيئةً وذهابًا في رداء نومه الفضفاض، إعدادًا لنفسه بلطفٍ للنوم في تلك الليلة الساكنة

الحارة. كان يتجول في أرجاء الغرفة، ولم تصدر عن نعليه الخفيفتين الزلقتين أي ضوضاء على الأرض، وتحرك مثل نمر مُرَوَّض. بدا كأنه ماركيز مسحور من نوعٍ شريرٍ لا يندم، كما في الحكايات، حيث تغيُّره الدوري إلى شكل نمر إما حدث بالفعل وإما على وشك الحدوث.

انتقل من أقصى غرفة نومه المترفة إلى نهايتها، متذكراً مرة أخرى رحلة اليوم وصورها التي توافدت إلى ذهنه دون دعوة: الصعود المُجهد البطيء أعلى التل عند غروب الشمس، وغروب الشمس، والهبوط، والطاحونة، والسجن على الصخرة، والقرية الصغيرة في الجوف، والفلاحون عند النبع، ومُصلِح الطرق بقبعته الزرقاء التي تشير إلى السلسلة تحت العربة. ذكَّره ذلك النبع بنافورة باريس، والصُّرة الصغيرة الملقاة عند قاعدتها، والنساء ينحنين فوقها، والرجل الطويل الذي يرفع ذراعيه صارخاً «مات!».

قال السيد الماركيز: «أنا هادئ الآن، ويمكنني أن أذهب إلى الفراش».

وهكذا، لم يترك سوى مشعل واحد يحترق على الموقد الكبير، وأسدل ستائره الشاشية الرقيقة من حوله، وسمع الليل يكسر صمته بتنهيدة طويلة وهو يستعد للنوم.

ثلاث ساعات ثقيلة، حدقت الوجوه الحجرية على الجدران الخارجية تحديقاً أعمى في الليل الأسود؛ وثلاث ساعات ثقيلة، ظلت الخيول تهتز في الإسطبلات أمام أرفف علفها: ونبحت الكلاب، وأحدثت البومة ضوضاء لا تشبه -سوى قليلٍ- الضوضاء التي ينسبها

الشعراء الرجال تقليديًا للبومة، لكنها تلك العادة العنيدة لدى هذه المخلوقات التي لا تقول أبدًا ما المحدّد لها.

لثلاث ساعات ثقيلة، حذقت الوجوه الحجرية إلى القصر، الأسد والإنسان، تحديدًا أعمى إلى الليل. خيم ظلام دامس على جميع المناظر الطبيعية، أضاف صمته الخاص إلى الغبار الخافت فوق جميع الطرق. كان مكان الدفن قد وصل إلى وضع صعب، بحيث لم يعد من الممكن التمييز بين أكوامه الصغيرة من العشب البائس. وربما وقع التمثال الموجود على الصليب؛ إذ لا يُرى أي شيء منه. وفي القرية، كان جباة الضرائب والمكلفون بسدادها مستغرقين في النوم، ربما يحلمون بالمآدب، كما يحدث للجائعين عادة؛ أو باليسر والراحة والراحة، كما يحدث للبعد المساق والثور الرازح تحت النير. يستغرق سكان القرية النحيفون في النوم، ويحلمون بأنهم يتحررون ويحصلون على الطعام. تدفقت مياه نبع القرية غير مرئية ولا مسموعة، وتساقطت قطرات النافورة في القصر غير مرئية ولا مسموعة - كلاهما يذوب، مثل الدقائق التي تتساقط من ربيع الزمن - خلال ثلاث ساعات مظلمة. ثم بدأت المياه الرمادية لكليهما تتحول إلى شبح في الضوء، وفُتحت أعين الوجوه الحجرية في القصر.

تدفق الضوء شيئًا فشيئًا، حتى لمست الشمس أخيرًا قمم الأشجار الساكنة، وسكبت إشراقها على التل. وفي هذا التوهج، بدا أن مياه نافورة القصر تتحوّل إلى دم، وتتخذ الوجوه الحجرية اللون القرمزي. ارتفع غناء الطيور عاليًا. وعلى عتبة النافذة الكبيرة، المتهاكة بفعل

الطقس، لغرفة نوم السيد الماركيز، غنى طائر صغير أجمل أغانيه بكل قوته، وعندئذٍ، بدا أقرب وجه حجري مندهشاً؛ وبفمٍ مفتوحٍ متدلٍّ تحت فكّه، بدا مذهولاً.

اكتمل صعود الشمس الآن، وبدأت الحركة في القرية؛ فُتحت النوافذ، ورُفع حديد الأبواب الواهنة، وخرج الناس يرتجفون؛ لا يزالون يشعرون ببرودة الهواء العليل الجديد. ثم بدأ الكدح اليومي، الذي يندر أن يخف عبؤه على سكان القرية. توجّه بعضهم إلى النبع؛ وتوجه البعض الآخر إلى الحقول؛ وهنا الرجال والنساء يحفرون ويعزقون؛ وهناك الرجال والنساء لرعاية الماشية الهزيلة، ويقودون الأبقار بارزة العظام إلى تلك المراعي التي يمكن العثور عليها على جانب الطريق. وفي الكنيسة وعند الصليب، ركع شخص أو اثنان؛ وشهدت البقرة المُقادة تلك الصلوات الأخيرة، خلال محاولتها لتناول وجبة الإفطار بين الأعشاب عند قدميها.

استيقظ القصر في وقتٍ لاحقٍ، كالعادة، لكنه استيقظ تدريجياً وبشباتٍ. احمرّت، بداية، رماح الخنازير وسكاكين المطاردة البائسة، كما كانت الحال منذ القدم؛ ثم لمعت بحدة في شمس الصباح. والآن، فُتحت الأبواب والنوافذ، ونظرت الخيول في إسطبلاتها حولها من فوق أكتافها إلى الضوء والنضارة المتدفقين عند المداخل، وأوراق الشجر التي تتلألأ وتصدر حفيفاً عند النوافذ ذات القضبان الحديدية، والكلاب التي تشد سلاسلها بقوة، وتشب متلهفة على فكّها.

تُشكّل كل هذه الأحداث البسيطة روتين الحياة، وعودة الصباح.

على أن الأمر ليس كذلك بالتأكيد بالنسبة إلى قرع الجرس الكبير في القصر، ولا الركض صعودًا وهبوطًا على السلم، ولا الشخصيات المسرعة على الشرفة، ولا الركل والدوس هنا وهناك وفي كل مكان، ولا سرج الخيول السريع والانطلاق بها؟

أي ريح تلك التي نقلت هذه العجلة إلى مُصلِح الطرق الأشيب، الذي يعمل بالفعل فوق قمة التل خارج القرية، ووجبة يومه الرئيسية (خفيفة الحمل) لمقاة في حزمة - لا تثير اهتمام أي غراب لينقرها - على كومة من الحجارة؟ هل أسقطت الطيور، التي تحمل بعض الحبوب لمسافة بعيدة، واحدة فوقه وهي تزرع بذور الصُدفَة؟ وسواء كان ذلك أو لم يكن، ركض مُصلِح الطرق، في هذا الصباح القائن، كما لو كان ينقذ حياته، إلى أسفل التل، والتراب يصل إلى ركبتيه، ولم يتوقف قط حتى وصل إلى النبع.

احتشد جميع سكان القرية عند النبع، يلتفون حوله بطريقتهم المكتئبة، ويهمسون بصوتٍ منخفضٍ، لكن دون أن يُظهروا أي مشاعر أخرى سوى الفضول والدهشة المتجهمين. كانت الأبقار المُقادة، التي جرى إحضارها على عجل وربطها بأي شيء من شأنه أن يمسكها، تنظر بغباء، أو تستلقي تمضغ ما اجتريته من غذاء التقطته خلال سيرها المتقطع، ولم يكن يوازي تعبها. كان بعض سكان القصر، وبعض العاملين في مكتب البريد، وجميع جباة الضرائب، مسلحين بشكلٍ أو بآخر، ويحتشدون على الجانب الآخر من الشارع الصغير دون هدف، مشحونين باللاشيء. اخترق مُصلِح الطرق الحشد بالفعل، ودخل

وسط مجموعة تضم خمسين صديقًا بعينهم، وأخذ يضرب صدره بقبعته الزرقاء. علام يدل هذا كله، وعلام يدل رفع السيد جايليل بسرعة خلف خادم على ظهر حصان، وإبعاد جايليل المذكور (على الرغم من أن الحصان كان يحمل حمولة مزدوجة)، بسرعة هائلة، مثل صيغة جديدة لأغنية ليونورا الألمانية؟

كان يدل على أن الوجوه الحجرية الكثيرة في القصر قد زادت واحدًا.

قامت الجورجونة بفحص المبنى ثانية في الليل، وأضافت الوجه الحجري الوحيد الذي ينقصها؛ الوجه الحجري الذي انتظرته منذ قرابة مائتي عام.

كان مستلقيًا على وسادة السيد الماركيز. كان مثل قناع جميل، أصابه ذهول مفاجئ، وغضب، وتحجر. انغرس سكين في قلب الجسم الحجري، والتفَّ حول مقبضه شريط من الورق، كتب عليه:

«أسرعوا به إلى قبره.. هذا من جاك».

الفصل العاشر

وعدان

مرّت أشهر أخرى، وصلت إلى اثني عشر شهرًا، وعُيّن السيد تشارلز دارني في إنجلترا مُعلّمًا أعلى للغة الفرنسية؛ حيث كان مُلمًّا بالأدب الفرنسي. في عصرنا هذا، كان في إمكانه أن يصبح أستاذًا؛ أما في ذلك العصر، فقد كان مُعلّمًا. كان يقرأ مع الشباب الذين يمكنهم إيجاد وقت فراغ واهتمام لدراسة لغة حية يجري التحدث بها في جميع أنحاء العالم، وغرس لديهم تذوقًا لمخزونها من المعرفة والخيال. علاوة على ذلك، كان يمكنه الكتابة عن ذلك المخزون بلغة إنجليزية سليمة، ويطرحها إلى لغة إنجليزية سليمة. لم يكن يسهل العثور على مثل هؤلاء المعلمين في ذلك الوقت؛ فلم تتضمن فئة المعلمين من كانوا أمراء في السابق، ومن سيصبحون ملوكًا في وقت لاحق، ولم يتسرّب أي من النبلاء المفلسين من دفاتر بنك تيلسون، ليتحولوا إلى طهاة ونجارين. وسرعان ما أصبح السيد دارني الشاب معروفًا ويحظى بالتشجيع؛ بوصفه معلمًا، جعلت معارفه طريق الطلاب ممتعًا ومفيدًا على نحوٍ فائقٍ للعادة، وبوصفه مترجمًا ممتازًا يضيف إلى عمله شيئًا إلى جانب مجرد المعرفة القاموسية. علاوة على ذلك، كان على دراية

تامة بظروف بلده؛ تلك الظروف التي تحظى باهتمام متزايد باستمرار؛ ولذلك، حقق ازدهاراً، في ظل مثابرة دؤوبة وعمل لا يعرف الكلل.

في لندن، لم يكن يتوقع أن يمشي على أرصفة من الذهب، ولا أن يستلقي على أسرة من الورود، ولو كان لديه أي توقُّع فخم من هذا القبيل، لما ازدهر. لقد توقع العمل، ووجهه، ومارسه، واستفاد منه على أفضل وجه؛ ومن هذه الأمور تشكَّل ازدهاره.

قضى جزءاً معيناً من وقته في كيمبريدج يقرأ مع الطلاب الجامعيين، كأنه أحد أنواع المُهرِّبين الذين يجري التفاوضي عنهم، يمارس تجارة محظورة تتمثل في نقل اللغات الأوروبية، بدلاً من نقل اليونانية واللاتينية عبر الجمارك. هذا، بينما قضى بقية وقته في لندن.

والآن، من الأيام التي كان فيها الصيف دائماً في جنة عدن، إلى تلك الأيام التي يغلب عليها سقوط الشتاء على خطوط العرض، كان عالم الرجل يذهب دائماً في اتجاه واحد: اتجاه تشارلز دارني، اتجاه حب المرأة. لقد أحب لوسي مانيت منذ لحظة تهُدُّه بالخطر. لم يسمع قطُّ صوتاً عذباً وعزيزاً مثل صوتها الرحيم؛ لم يسبق له أن رأى وجهاً جميلاً برقة، مثل وجهها عندما جابه وجهه على حافة القبر الذي حُفِرَ له، لكنه لم يتحدث إليها بعدُ حول هذا الموضوع؛ فحادثة الاغتيال في ذلك القصر المهجور القائم بعيداً وراء المياه المتلاطمة والطرق الطويلة والطويلة المتربة - القصر الحجري الصلب الذي أصبح في حد ذاته مجرد ضباب حلم - قد وقعت منذ عام، ولم يكشف لها قط عن حالة قلبه، ولو بكلمة واحدة.

وهناك أسباب لذلك، يعرفها جيداً، كان يوماً من أيام الصيف أيضاً، بعدما عاد مؤخراً إلى لندن بعد انتهاء تدريسه الجامعي، عندما اتجه إلى ذلك الركن الهادئ في سوهو، عازماً على اقتناص أي فرصة ليُفانح الدكتور مانيت بما يدور في ذهنه، كان ذلك في نهاية اليوم الصيفي، ويعرف أن لوسي ستخرج مع الأنسة بروس.

وجد الطبيب يقرأ على كرسيه عند النافذة. استعاد تدريجياً تلك الطاقة التي دعمته في أثناء معاناته القديمة وفاقمت من حدتها في الوقت نفسه. لقد أصبح الآن رجلاً نشيطاً للغاية بحق، يتمتع بفسوخ الهدف، وقوة القرار، والحيوية في العمل. وعلى الرغم من استعادة طاقته، كان يشعر في بعض الأحيان بالتشتت والمفاجأة بعض الشيء، كما كان في البداية عند ممارسة مَلَكَاته الأخرى المستعادة. على أن ذلك لم يكن ملحوظاً قطُّ بشكلٍ متكررٍ، وشيئاً فشيئاً أصبح حدوثه أكثر ندرة.

درس كثيراً، ونام قليلاً، وتحمل -بسعة صدر- قدراً كبيراً من التعب، وفضلاً عن شعوره بالابتهاج على قدم المساواة. دخل عليه الآن تشارلز دارني، وعندما رآه، وضع كتابه جانباً ومد يده.

«تشارلز دارني! أنا سعيد لرؤيتك. كنا نتوقع عودتك خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة الماضية. كان كل من السيد سترافير وسيدني كارتون هنا بالأمس، وقال كلاهما إنك تأخرت في العودة».

«أنا مدين لهما لاهتمامهما»، أجاب، ببرودٍ قليلاً تجاههما، ثم بحرارة شديدة تجاه الطبيب: «والآنسة مانيت».

«إنها بخير»، قال الطبيب، عندما وجده يتوقف قليلاً، «وعودتك

ستسعدنا جميعاً. لقد خرجت لقضاء بعض الأمور المنزلية، لكنها ستعود قريباً».

«دكتور مانيت، كنت أعرف أنها ليست في المنزل، وانتهزت فرصة غيابها، لأستأذنك في التحدث إليك».

ساد صمتٌ تام.

«نعم؟»، قال الطبيب، بارتباكٍ واضحٍ: «أحضِرْ مقعدك إلى هنا، وتحدث».

امثل لكلامه فيما يتعلق بالمقعد، وإنما بدا أنه يجد التحدث أقل سهولة.

بدأ حديثه بمقدمة مطولة «لقد أسعدني، دكتور مانيت، مدى استقبالي بحميمة هنا لمدة عام ونصف تقريباً، وآمل ألا يكون الموضوع الذي أنا على وشك التطرق إليه...».

سكت عندما مد الطبيب يده لإيقافه، ظلَّت يد الطبيب مرفوعة فترة قصيرة، ثم قال، وهو يسحبها:

«هل لوسي هي الموضوع؟».

«نعم».

«أجد من الصعوبة أن أتحدث عنها في أي وقت، وأجد من الصعوبة الشديدة أن أسمع أحداً يتحدث عنها بنبرة صوتك هذه، تشارلز دارني».

قال باحترام: «إنها نبرة الإعجاب الشديد، والتقدير الحقيقي، والحب العميق، دكتور مانيت!».

ساد صمتٌ تامٌّ آخر قبل أن يرد والدها مرة أخرى:

«أنا أصدق ذلك، وأوفيك حقك. أنا أصدق ذلك».

كان ارتباكُه واضحًا بجلاء؛ واضحًا بجلاء أيضًا أنه ناتج عن عدم الرغبة في تناول هذا الموضوع، إلى درجة أن تشارلز دارني تردد.

«هل أواصل يا سيدي؟».

صمت آخر.

«نعم، أكمل».

«ربما تتوقع ما سأقوله، لكنك لا تستطيع أن تعرف مدى جديتي في قوله، ومدى الجدية التي أشعر بها، دون أن تعرف مكنون قلبي، والآمال والمخاوف ومشاعر القلق التي تثقله منذ فترة طويلة. عزيزي الدكتور مانيت، أنا أحب ابتك بولع، وإعزاز، وبنزاهة، وبتفانٍ. إذا كان هناك حب في العالم، فأنا أحبها. لقد أحببتها أنت نفسك؛ دع حبك القديم يتحدث عني!».

أشاح الطبيب بوجهه وهو جالس، وعيناه ملتصقتان بالأرض. وبسرعة مد يده ثانية، بعد تلك الكلمات الأخيرة، وصاح:

«لا تقل ذلك، يا سيدي! فليكن! أتوسل إليك لا تذكر ذلك!».

كانت صيحته أشبه بصرخة ألمٍ فعلي، إلى درجة أنها ظلت ترن في أذني تشارلز دارني بعد فترة طويلة من توقفه. أشار بيده التي مدّها، وبدأ أنها إشارة إلى دارني كي يتوقف. هكذا استقبلها دارني، وظل صامتًا.

وبعد لحظاتٍ، قال الطبيب بنبرة خافتة: «أرجو أن تعذرني، أنا لا

أشك في حبك للوسي، عليك أن تطمئن من ذلك».

التفت نحوه، وهو جالس على كرسیه، لكن دون أن ينظر إليه، أو يرفع عينیه. وضع ذفته على يده، وغطى شعره الأبيض وجهه:

«هل تحدثت إلى لوسي؟».

«لا».

«ولا كتبت لها؟».

«مطلقاً».

«من الوقاحة أن أنظاھر بعدم معرفتي أن إنكارك لذاتك يرجع إلى احترامك لوالدها، ووالدها يشكرک».

مد يده؛ لكن عينیه لم تمتد معها.

قال دارني باحترام: «أعرف، يا دكتور مانيت، كيف لي ألا أعرف، وأنا الذي كنت أراکما معاً من يوم لآخر، أن بينک وبين الأنسة مانيت عاطفة غير عادية على الإطلاق، ومؤثرة للغاية، وترتبط بالظروف التي نشأت فيها، بحيث تقل أوجه التشابه -حتى في الحنان- بين أب وطفله. أعرف يا دكتور مانيت -كيف لي ألا أعرف- أن في قلبها تجاهك كل حب الطفولة والاتكال، ممزوجة بعاطفة وواجب ابنة أصبحت امرأة. أعرف أنها افتقدت الأب في طفولتها، ولذلك تُكرس سنواتها الحالية وشخصيتها لك الآن بكل إخلاص وحماس، مقترنة بالثقة والتعلق في الأيام الأولى التي فقدتک فيها. وأعرف جيداً أنك إذا كنت قد عدت إليها من عالم ما بعد هذه الحياة، فمن الصعب أن تكون في نظرها

شخصية أكثر قداسة من تلك التي تكون فيها معها دائماً. أعرف أنها عندما تحتضنك، فإن أيدي الطفلة والفتاة والمرأة، الكل في واحد، تلتف حول رقبتك. أعلم أنها في حبها لك، ترى والدتها وتحبها وهي في مثل سنها، وتراك وتحبك وأنت في سني، وتحب والدتها منكسرة القلب، وتحبك خلال محتك المروعة وفي استعادتك المباركة. لقد عرفت ذلك، ليلاً ونهاراً، منذ أن عرفت في منزلك».

جلس والدها صامتاً ووجهه منحني. تسارع تنفسه قليلاً، لكنه قمع كل علامات الإثارة الأخرى.

«عزيزي دكتور مانيت، مع معرفتي الدائمة هذه، ورؤيتي لكما دائماً وهذا النور المقدس يحيط بكما، احتملت واحتملت، بقدر ما كان من طبيعة الإنسان أن يحتمل. لقد شعرت، وما زلت أشعر حتى الآن، أن إدخال حبي -وحتى نفسي- بينكما، هو مساس لتاريخكما بشيء لا يضاهي هذا التاريخ بشيء جيد مثله. لكنني أحبها. وتشهد السماء على حبي لها!».

أجاب والدها بحزن: «أعتقد ذلك. فكرت في ذلك قبل الآن، أنا أصدق ذلك».

قال دارني، وقد أثار الصوت الحزين في أذنه نبرة عتاب: «لكن، عليك ألا تعتقد أنني إذا أسعدني حظي على هذا النحو، بحيث أصبحت زوجتي في يوم من الأيام، فإنني سأفصل في أي وقت بينها وبينك، وإن لم أكن واثقاً بذلك، ما كان في مقدوري أن أقول أو أتنفس أي كلمة مما أقوله الآن. وأعرف، علاوة على ذلك، أنه شيء متعذر، بل وشيء حقير.

وإذا كان لديّ أي احتمال من هذا القبيل، حتى بعد سنوات طوال، مختبأً في أفكاري، ومختبأً في قلبي - إذا وُجد في أي وقت، وإذا كان يمكن أن يوجد - لما استطعت الآن لمس هذه اليد الكريمة».

وضع يده عليها وهو يتكلم.

«لا، يا عزيزي دكتور مانيت. أنا مثلك، منفي طوعاً من فرنسا، أنا مثلك، خرجت منها من جراء الانحرافات، والاضطهاد، والبؤس. أنا مثلك، أسعى جاهداً للعيش بعيداً عنها بجهودِي الخاصة، وأثق بمستقبل أكثر سعادة. وأنا لا أطلع إلا لمشاركتك حظك، ومشاركة حياتك ومنزلك، وأن أكون مخلصاً لك حتى الموت. لا أسعى إلى مقاسمة لوسي امتيازها كطفلتك ورفيقتك وصديقتك؛ وإنما أعاونها في ذلك، وأوثق علاقتها بك، إذا كان الأمر ممكناً».

لا تزال لمستّه باقية على يد والدها. أجاب والدها على اللمسة للحظة، ولكن ليس ببرودٍ، ووضع يديه على ذراعي كرسيه، ثم نظر إلى أعلى لأول مرة منذ بداية اللقاء. بدت على وجهه بوضوح علامات صراع؛ صراع مشوب بتلك النظرة المتقطعة التي تميل إلى ظلام الشك والرغبة.

«أنت تتحدث بشعور ورجولة، تشارلز دارني، إلى درجة أنني أشكرك من كل قلبي، وسوف أفصح لك عن مكنون قلبي كله، أو تقريباً كله. هل لديك أسباب للاعتقاد بأن لوسي تحبك؟».

«لا. حتى الآن، لا شيء».

«وهل هدفك المباشر من هذه الثقة أن تتمكّن من التأكد من ذلك على الفور، بحكم معرفتي؟».

«ولا هذا حتى. ربما لم يكن لديّ الأمل للقيام بذلك منذ أسابيع، وقد يكون لديّ هذا الأمل (مخطئًا أو غير مخطئ) في الغد».

«هل تطلب مني أي توجيه؟».

«أنا لا أطلب شيئًا يا سيدي، لكنني اعتقدت أن في إمكانك إعطائي بعض التوجيه، إذا رأيت أن ذلك من الصواب».

«هل تطلب مني أي وعد؟».

«أنا أسعى إلى ذلك».

«وما هو؟».

أنا أدرك جيدًا أنني من دونك لا يوجد لديّ أمل. وأدرك جيدًا أن الأنسة مانيت، حتى لو كان لديّ مكان الآن في قلبها البريء -ولا أعتقد أن لديّ الجرأة على افتراض الكثير- فلا يمكنني الاحتفاظ بهذا المكان ضد حبها لوالدها».

«إذا كان الأمر كذلك، فهل ترى من ناحية أخرى، ماذا ينطوي عليه ذلك؟».

«أنا أدرك جيدًا بالقدر نفسه، أن كلمة من والدها لصالح أي خاطب، سيكون لها الأرجحية عليها وعلى العالم بأسره. لهذا السبب، دكتور مانيت...»، قال دارني، بتواضعٍ وإنما بحزمٍ، «لن أطلب منك هذه الكلمة، لإنقاذ حياتي».

«أنا متأكد من ذلك، تشارلز دارني؛ فالألغاز تنشأ من الحب الوثيق، وكذلك من الانقسام الواسع. في الحالة الأولى، تجدها خفية وحساسة، ويصعب اختراقها. ابتني لوسي، في هذا الصدد، مثل هذا اللغز بالنسبة إليّ، لا أستطيع أن أخمن حالة قلبها».

«هل لي أن أسألك، يا سيدي، إذا كنت تعتقد أنها...»، تردد، فأكمل والدها بقية الجملة.

«أن هناك خاطبًا آخر يطلب يدها؟».

«هذا ما قصدت قوله».

فكر والدها قليلًا قبل أن يجيب:

«لقد رأيت بنفسك السيد كارتون هنا، والسيد سترافير يأتي أيضًا، من حين إلى آخر. فإذا كان الأمر صحيح على الإطلاق، فلا يمكن إلا من خلال واحد منهما».

«أو كليهما»، قال دارني.

«لم أفكر في كليهما، ولا ينبغي أن أفكر أيضًا، على الأرجح. أنت تريد وعدًا مني، قل لي ما هو».

«الوعد الذي أطلبه، هو إذا حدثتك الآنسة مانيت من جانبها، بمثل هذه الثقة التي غامرت وتحدثت بها إليك، أن تشهد على ما قلته لك، وعلى إيمانك به. وآمل أن تقدر على التفكير بي بشكل جيد، بما لا يؤثر ضدي. لا أقول شيئًا أكثر من حظي في هذا المجال. هذا ما أطلبه. أما الشرط الذي أبني عليه طلبي، والذي لديك حق لا شك فيه في طلبه، سأحترمه على الفور».

قال الطبيب: «أنا أعطي الوعد دون أي شرط. أعتقد أن هدفك بريئاً وصادقاً، كما ذكرته. وأعتقد أن نيتك هي إدامة، وليس إضعاف، الروابط بيني وبين ذاتي الأخرى العزيزة. وإذا أخبرني ابنتي في أي يوم أنها ستجد سعادتها الكاملة معك، فسوف أعطيها لك. وإذا كان هناك... تشارلز دارني، إذا كان هناك...».

أمسك الشاب بيده بامتنان، تشابكت يدهما، بينما تحدث الطبيب: «... أي أوهام، أي أسباب، أي مخاوف، أي شيء على الإطلاق، جديد أو قديم، ضد الرجل الذي أحبته ابنتي حقاً - وكانت مسؤولية ذلك المباشرة لا تقع على كاهله - يجب محوها جميعاً من أجلها. إنها كل شيء بالنسبة إليّ؛ أكثر من المعاناة، أكثر من الخطأ، أكثر... حسناً! هذا كلام فارغ».

كانت طريقة تحوله إلى الصمت غريبة جداً، كما كانت نظره الثابتة عندما توقف عن الكلام غريبة جداً، إلى درجة أن دارني شعر أن يده تبرد في يد الطبيب التي أفلتها ببطء وأنزلها.

قال الدكتور مانيت، مبتسماً: «لقد قلت لي شيئاً، ماذا قلت؟».

كان في حيرة من أمره، كيف يجيب، حتى تذكر إنه تحدث عن شرط. شعر بالارتياح عندما استعاد ذهنه الموضوع، فأجاب:

«يجب أن أقابل ثقتك بي بثقة كاملة من جانبي تجاهك. إن اسمي الحالي، على الرغم من اختلافه قليلاً عن اسم والدتي، ليس اسمي، كما سوف تتذكر. وأود أن أخبرك به، ولماذا أنا في إنجلترا».

«توقف!»، قال طبيب مدينة بوفيه.

«أود أن أخبرك، حتى أكون جديرًا بثقتك على نحوٍ أفضل، وألا أخفي عنك أي سر».

«توقف!».

وضع الطبيب يديه على أذنيه للحظة؛ ثم وضعهما على شفتي دارني للحظة أخرى.

«يمكنك أن تخبرني عندما أسألك، ليس الآن. إذا نجحت في طلبك لخطبة ابنتي، إذا أحببتك لوسي، فسوف تخبرني في صباح يوم زواجك. هل تعدني؟».

«بكل سرور».

«أعطني يدك. ستعود لوسي إلى البيت مباشرة، ومن الأفضل ألا ترانا معًا هذه الليلة، اذهب! بارك الله فيك!».

كان الظلام قد حل عندما غادر تشارلز دارني. عادت لوسي إلى المنزل بعد مرور ساعة وزيادة عتمة الظلام. سارعت إلى الغرفة وحدها -لأن الأنسة بروس صعدت السلم مباشرة- وفوجئت عندما وجدت كرسي القراءة الخاص بوالدها فارغًا.

«يا أبي!»، نادته، «والدي العزيز!».

لم تتلقَ أي إجابة، لكنها سمعت صوت طرقٍ منخفضٍ في غرفة نومه. مرّت بخفة عبر الغرفة المتوسطة، نظرت إلى بابه، وعادت راکضة خائفة، تبكي في نفسها، وترتجف. «ماذا أفعل! ماذا أفعل!».

لم تَدُم حيرتها أكثر من لحظة، عادت مسرعة، نقرت على بابه،
ونادته بهدوء. توقف الضجيج عندما سمع صوتها، وخرج إليها الآن،
وسارا معًا ذهابًا وإيابًا فترة طويلة.

غادرت سريرها لتتنظر إليه في أثناء نومه في تلك الليلة، كان نومه
عميقًا، وكانت صينية أدواته لصنع الأحذية وعمله القديم غير المكتمل،
في مكانهما كالمعتاد.

الفصل (الحادي عشر

صورة رفيق

قال السيد سترایفر، في تلك الليلة نفسها، أو في الصباح، لابن آوى: «سيدني، اخلط وعاءً آخر من شراب البنش؛ لديّ ما أقوله لك».

كان سيدني يعمل ضعف عمله المعتاد في تلك الليلة، واللييلة السابقة، واللييلة التي سبقتها، والعديد من الليالي على التوالي، لإجراء تصفية كبيرة من بين أوراق السيد سترایفر قبل بدء العطلة الطويلة. انتهت التصفية أخيراً؛ وأمكن جمع ديون سترایفر المتأخرة ببراعة، والتخلص من كل شيء إلى أن يأتي نوفمبر بضباب جوه، والضباب القانوني، ويجلب الطحين إلى الطاحونة مرة أخرى.

لم يكن سيدني هو الأكثر حيوية ولا الأكثر هدوءاً لأداء كل هذه المهام، لقد تطلّب الأمر قدرًا إضافيًا من المناشف الرطبة ليستمر في عمله طوال الليل؛ كما سبقت المناشف كمية إضافية من النبيذ. كان في حالة سيئة للغاية، حيث خلع عمامته الآن وألقاها في الحوض الذي غمرها فيه على فترات خلال الساعات الست الماضية.

«هل تخلط وعاء آخر من شراب البنش؟»، قال سترافير البدين،
ويدهاه في حزام خصره، وهو يلقي نظرة خاطفة حوله من على الأريكة
التي يرقد عليها.

«نعم».

«والآن، انظر هنا! سأخبرك بشيء سيفاجئك إلى حدٍّ ما، وربما
يجعلك تعتقد أنني لست داهية تمامًا كما تظنني عادة، أنا أنوي الزواج».
«هل تنوي بالفعل؟».

«نعم، وليس من أجل المال. ماذا تقول الآن؟».

«لا أشعر برغبة في قول الكثير. من هي؟».

«خَمَّن».

«هل أعرفها؟».

«خَمَّن».

«لن أخمَّن، في الساعة الخامسة صباحًا، وعقلي يغلي ويفرقع في
رأسي. إذا كنت تريدني أن أخمَّن، يجب أن تدعوني إلى العشاء».

قال سترافير، وهو يتخذ وضعية الجلوس ببطء: «حسنًا، سأخبرك.
سيدني، أنا بالأحرى يائس من أن أجعل نفسي مفهومًا لك، لأنك كلب
عديم الإحساس».

أجاب سيدني، وهو مشغول بتحضير شراب البنش: «وأنت، يا لك
من روح حساسة وشاعرية...».

«تعال!»، قال سترافير، وهو يضحك بتفاخرٍ، «على الرغم من أنني لا أفضل الادعاء بأنني روح الرومانسية (لأنني آمل أن أعرف أفضل)، فأنا ما زلت زميلًا أكثر رقة منك».

«أنت أكثر حظًا، إذا كنت تقصد ذلك».

«أنا لا أقصد ذلك. أعني أنني رجل أكثر... أكثر...».

اقترح كارتون: «قل الكياسة، فأنت على وشك قول ذلك».

قال سترافير، مضخمًا نفسه أمام صديقه الذي يُعد شراب البنش: «حسنًا! سأقول الكياسة. ما أعنيه هو أنني رجل يهتم أكثر منك بأن يكون مقبولًا، ويعرف بشكل أفضل كيف يكون مقبولًا، في مجتمع المرأة».

قال سيدني كارتون: «استمر».

قال سترافير، وهو يهز رأسه بطريقته المتممة: «كلا؛ ولكن قبل أن أستمّر، سأناقش هذا معك. أنت زرت منزل الدكتور مانيت بقدر ما زرتة أنا، أو حتى أكثر. لماذا، كنتُ أخجل من كآبتك هناك! كانت أخلاقك من ذلك النوع الصامت والمتجهّم والذليل، إلى درجة أنني، وأقسم لك بحياتي وروحي، شعرت بالخجل منك يا سيدني!».

أجاب سيدني: «يجب أن يكون من المفيد جدًا لرجل في مهنتك، المحاماة، أن يخجل من أي شيء، ويجب أن تكون ممتنًا لي كثيرًا».

قال سترافير، متحملاً الرد عليه: «لا يجوز أن تفلت بهذه الطريقة. لا، يا سيدني، من واجبي أن أخبرك -ولمصلحتك أقول لك في وجهك-

إنك زميل سيئ الطباع، ولا تتكيف في هذا النوع من المجتمع، أنت زميلٌ بغيضٌ».

شرب سيدني كمية كبيرة من شراب البنش الذي أعده، وضحك.
قال سترایفر، مستديرًا ليوأجه زميله: «انظر إليّ! أنا أقلُّ احتياجًا منك إلى أن أجعل نفسي مقبولًا؛ ذلك أنني أكثر استقلالية من حيث ظروفي. فلماذا أفعل ذلك؟».

تمتم كارتون: «لم أرك تفعل ذلك بعد».
«أفعل ذلك لأنه من الحكمة. أفعل ذلك من حيث المبدأ. وانظر إليّ! أنا أتقدم».

أجاب كارتون، بنبرة لامبالاة: «أنت لا تتفق وقولك عن نواياك الزوجية. أتمنى أن تحافظ على ذلك. بالنسبة إليّ، ألن تفهم أبدًا أنني غير قابل للإصلاح؟».

طرح السؤال بشيء من الازدراء.
«ليس من حقك أن تكون غير قابل للإصلاح»، كانت إجابة صديقه، التي لم تكن بنبرة هادئة على الإطلاق.

قال سيدني كارتون: «أنا لا أعرف على الإطلاق لماذا ليس من حقي. من هي السيدة؟».

قال السيد سترایفر، وهو يهيئه في تودّد ظاهر للكشف الذي على وشك البوح به: «الآن، لا تدع إعلاني عن الاسم يُشعرك بعدم الراحة، يا سيدني، لأنني أعلم أنك لا تعني نصف ما تقوله؛ وإذا كنت تعنيه كله،

فلن يكون له أهمية. وأنا أبدأ بهذه المقدمة الصغيرة، لأنك ذكرت لي ذات مرة الشابة بعبارات مُهينة».

«أنا فعلت ذلك؟».

«بالتأكيد؛ وفي هذا المكان».

نظر سيدني كارتون إلى شراب البنش أمامه، ثم نظر إلى صديقه المتودد. احتسى شرابه ونظر إلى صديقه المتودد.

«لقد ذكرت الشابة كُدُمِيَّة ذات شعر ذهبي. الشابة هي الأنسة مانيت. إذا كنتَ زميلًا يتمتع بأي حساسية أو رقة في المشاعر بهذه الطريقة، يا سيدني، لربما أساءني قليلًا استخدامك لمثل هذا الوصف، لكنك لست كذلك. أنت تريد هذا المعنى تمامًا، ولذلك، عندما أفكر في هذا التعبير، أجدّه لا يضايقني بأكثر مما يضايقني رأي رجل في صورة من صوري، وهو لا يملك عينًا فنية للصور، أو رأي رجل في قطعة موسيقية من مقطوعاتي، وهو لا يملك أذنًا موسيقية».

شرب سيدني كارتون البنش بسرعة كبيرة، شربه جرعة واحدة وهو ينظر إلى صديقه.

قال السيد سترايفر: «أنت تعرف الآن كل شيء عن هذا الموضوع، يا سيدني. لا تهمني الثروة: إنها مخلوقة ساحرة، وقد قررت إسعاد نفسي؛ وعلى العموم، أعتقد أنني أستطيع إسعاد نفسي. وهي سوف تجدني رجلًا ميسور الحال بالفعل، رجلًا سريع الصعود، ورجلًا متميزًا إلى حدٍّ ما؛ وهذا من حسن حظها، لكنها تستحق حظًا سعيدًا. هل أنت مندهش؟».

رد كارتون، وهو لا يزال يحتسي مشروب البنش: «ولماذا
أندھش؟».

«هل توافق؟».

ردّ كارتون، وهو لا يزال يحتسي مشروب البنش: «لماذا لا أوافق؟».
«حسنًا!»، قال صديقه سترایفر، «أنت تأخذ الأمر بسهولة أكبر مما
كنت أتصور، وأنت أقل ارتزاقًا مما كنت أعتقد، ومع ذلك، من المؤكد
أنك تعرف جيدًا بما يكفي، بحلول هذا الوقت، أن صديقك القديم هو
رجل يتمتع بإرادة قوية جدًا. نعم، يا سيدني، لقد اكتفيت من نمط الحياة
هذا، الذي لا يتغير. وأشعر أنه من الممتع أن يوجد للرجل منزلٌ عندما
يشعر بميلٍ إلى الذهاب إليه (وعندما لا يشعر بذلك، يمكنه البقاء بعيدًا).
كما أشعر أن الأنسة مانيت سترك أثرًا جيدًا في أي مكان، وسوف تعود
عليّ بالفضل دائمًا؛ لذلك اتخذت قراري. والآن، يا سيدني، أيها الفتى
العجوز، أريد أن أقول لك كلمة عن مستقبلك. أنت في حالة سيئة، كما
تعلم، أنت حقًا في حالة سيئة، أنت لا تعرف قيمة المال، وتعيش حياة
صعبة؛ ستجد نفسك في يوم ما مريضًا وفقيرًا، عليك التفكير حقًا فيمن
يرعاك».

إن نبرة الرعاية التي قالها بها، جعلته يبدو أكبر من حجمه بمقدار
الضعف، وأكثر عدوانية بمقدار أربعة أضعاف.

تابع سترایفر: «والآن، دعني أوصيك أن تواجه الأمر مباشرة.
لقد واجهته أنا مباشرة، وإن كانت طريقتي مختلفة. واجه أنت الأمر،
بطريقتك المختلفة. تزوج، عليك أن تجد من يعتني بك، لا تهتم بعدم

استمتعك بمجتمع النساء، ولا فهمك له، ولا لباقتك فيه. اكتشف امرأة،
ابحث عن امرأة محترمة لديها القليل من الممتلكات؛ امرأة مالكة فندق
مثلاً، أو مالكة لغرف تؤجرها، وتزوجها لتقي نفسك في يوم ممطر، هذا
هو نوع الشيء المناسب لك، فكر في الأمر الآن، يا سيدني». «سأفكر في الأمر»، قال سيدني.

الفصل الثاني عشر

الزميل الرقيق

بعد أن اتخذ السيد سترافير قراره بهذا الإنعام السخي للحظ السعيد على ابنة الطبيب، قرر أن يخبرها بمنحه لها هذه السعادة قبل أن يغادر المدينة لقضاء عطلة طويلة. وقد توصَّل، بعد تفكير حول هذه النقطة، إلى استنتاج مفاده أن من الأفضل أيضًا الانتهاء من جميع المقدمات التمهيديّة، حيث يمكنهما بعدها الترتيب على مهلٍ ما إذا كان يطلب يدها قبل أسبوع أو أسبوعين من الموسم القضائي مايكلماس، أو في عطلة عيد الميلاد الصغيرة بين الموسمين القضائيين مايكلماس وهيلاري.

أما عن مدى قوة قضيته، فلم يكن لديه أي شك، بل رأى بوضوح طريقه إلى الحُكم. عرض حججه أمام هيئة المحلفين على أسس دنيوية مادية - الأسباب الوحيدة الجديرة بالأخذ في الاعتبار - وكانت قضية واضحة، لا تشوبها نقطة ضعف. اتخذ وضعيّة المُدعي، ولم تُهزَم أدلته، وألقى محامي المُدعى عليه مرافعته، ولم تهتم هيئة المحلفين حتى بالنظر فيها، وبعد هذه التجربة، اقتنع سترافير، سي. جيّه، بأنه لا يمكن أن توجد قضية أكثر وضوحًا من قضيته.

وبناء على ذلك، استهلَّ السيد سترايفر الإجازة الطويلة باقتراح رسمي لاصطحاب الأنسة مانيت إلى حدائق فوكسهول؛ وإذا أخفق هذا الاقتراح، فإلى رانيل؛ وإذا أخفق هذا أيضًا لأسبابٍ غير معروفة، فعليه أن يتوجه إلى سوهو، ويعلن هناك عن غرضه النبيل.

وهكذا، شقَّ السيد سترايفر طريقه من تمبل بار نحو سوهو، بينما كان بريق بداية العطلة الطويلة لا يزال باديًا عليه. كل من رآه يبرز نفسه متجهًا إلى سوهو بينما لا يزال على جانب القديس دونستان من تمبل بار، مندفعًا في طريقه على طول الرصيف، مزاحمًا جميع الضعفاء، ربما رأى مدى شعوره بالثقة والقوة.

كان طريقه يمر به عبر بنك تيلسون؛ ونظرًا إلى أنه يتعامل مع هذا البنك ويعرف السيد لوري كصديقٍ حميمٍ لعائلة مانيت، فقد خطر في ذهن السيد سترايفر أن يدخل البنك ويكشف للسيد لوري عن الإشراف الذي يلوح على أفق سوهو. وهكذا، فتح الباب ذا الصرير الضعيف، وتعثَّر في الدرجتين، ثم واصل متجاوزًا الصرافين العجوزين، ودفع نفسه داخل الغرفة الخلفية المتعفنة، حيث جلس السيد لوري أمام دفاتر ضخمة ذات تسطير يتعلق بالأرقام، وقضبان حديدية متعامدة على نافذته كأنها ذات تسطير يخص الأرقام أيضًا، وكل شيء تحت الغيوم كان حاصل الجمع.

قال السيد سترايفر: «مرحبًا! كيف حالك؟ أتمنى أن تكون بخير!». كانت أكبر خصائص سترايفر أنه يبدو دائمًا أضخم مما يتسع له أي مكان أو مساحة. كان من الضخامة بالنسبة إلى بنك تيلسون، إلى

درجة أن قدامى الموظفين في الزوايا البعيدة كانوا ينظرون إليه نظرات احتياج، كما لو أنه يحشرهم عند الحائط. وحتى مدير البنك نفسه، الذي جلس يقرأ الصحيفة بعظمة في موقعٍ بعيدٍ، انحنى في استياء، كأن رأس سترایفر قد نطح صدريته الحامية.

قال السيد لوري الحذر، بنبرة صوتٍ نموذجية يوصى بها في ظل هذه الظروف، «كيف حالك يا سيد سترایفر؟ كيف حالك يا سيدي؟» وتضافحاً. كانت هناك خصوصية في طريقة مصافحته، ويمكن رؤيتها دائماً لدى أي موظف في بنك تيلسون عند مصافحة أحد العملاء عندما تغلب روح البنك. صافحه بطريقة تنم عن إنكار الذات، كأنما يضافحه نيابة عن بنك تيلسون وشركاه.

سأل السيد لوري، بأسلوب رجل الأعمال: «هل يمكنني أن أفعل أي شيء من أجلك، سيد سترایفر؟».

«ماذا، لا، شكرًا لك. هذه زيارة خاصة لك، سيد لوري، لقد جئتُ لأتحدث إليك على انفراد».

«أوه حقًا!»، قال السيد لوري، وهو يحني أذنه، بينما تتجه عيناه نحو مدير البنك الذي يجلس بعيدًا.

قال السيد سترایفر، وهو يتكئ بذراعيه في ثقة على المكتب، الذي بدا نصف مكتب لا يتسع لهما على الرغم من أنه كان مزدوجًا وكبيرًا: «أنا ذاهب، سيد لوري، لأقدم عرضًا للزواج من صديقتك الصغيرة اللطيفة، الأنسة مانيت».

«أوه، عجباً!» صاح السيد لوري، وهو يفرك ذقنه وينظر إلى زائره بريبة.

كرر سترایفر، متراجعاً: «أوه، عجباً، يا سيدي؟ أوه، لماذا تتعجب، يا سيدي؟ ماذا تعني بذلك، يا سيد لوري؟».

أجاب رجل الأعمال: «ما أعنيه، بالطبع، هو الود والتقدير، وأنه يمنحك شرفاً كبيراً؛ وباختصارٍ، ما أعنيه هو كل ما يمكن أن ترغب فيه. لكنك - كما تعلم بالفعل، سيد سترایفر...»، توقف السيد لوري وهز رأسه تجاهه بأكثر الطرق غرابة، كما لو أنه مُرغمًا على أن يضيف، بينه وبين نفسه، «أنت تعرف أنك تمنح نفسك أهمية أكثر مما تستحق!».

قال سترایفر، وهو يضرب المكتب بيده المتوترة، ويفتح عينيه على اتساعهما، ويأخذ نفسًا طويلاً: «حسنًا، إذا فهمتك، يا سيد لوري، أكون جديرًا بالشنق!».

عدّل السيد لوري باروكتة الصغيرة عند أذنيه، كوسيلة لتحقيق هذه الغاية، وعض ريشة القلم.

قال سترایفر وهو يحدق إليه: «اللعنة، سيدي! هل أنا غير مؤهل؟».

قال السيد لوري: «أوه، نعم! نعم. أوه، نعم، أنت مؤهل، إذا قلت إنك مؤهل، فأنت مؤهل».

سأل سترایفر: «أأست ثريًا؟».

أجاب السيد لوري: «أوه! إذا نظرنا من ناحية الثراء، فأنت ثري».

«وأشق طريقي للتقدم؟».

قال السيد لوري، مسرورًا لتمكنه من تقديم اعتراف آخر: «إذا تحدثنا عن مدى تقدمك، فأنت تعرف، لا يمكن لأحد أن يشك في ذلك».

وهنا سأله سترايفر، متوجسًا بشكل ملحوظ: «لتخبرني إذن، بحق السماء، ما معنى كلامك يا سيد لوري؟».

سأله السيد لوري: «حسنًا! أنا... هل كنت ذاهبًا إلى هناك الآن؟».

«على الفور!»، قال سترايفر، ضاربًا المكتب بقبضته.

«لو كنت مكانك، لما ذهبت».

قال سترايفر: «لماذا؟ سوف أضعك في موقف حرج الآن»، وهز سبابته في وجهه، «أنت رجل أعمال ولا بد أن لديك سببًا، قل سببك، لماذا لم تكن لتذهب؟».

قال السيد لوري: «لأنني لا أحب مواصلة مثل هذا الشيء دون أن يكون لدي سبب للاعتقاد بأنني سأنجح».

صرخ سترايفر: «اللعنة! لكن هذا يفوق كل ما قلته».

نظر السيد لوري إلى المدير الجالس بعيدًا، ثم نظر إلى سترايفر الغاضب.

قال سترايفر: «هذا رجل أعمال - رجل عاش سنوات، رجل ذو خبرة- في أحد البنوك. وبعد أن عرضت أمامه ثلاثة أسباب رئيسية تضمن النجاح الكامل، يقول إنه لا يوجد سبب على الإطلاق! يقولها ورأسه في مكانه!». علق السيد سترايفر على هذه العبارة الغريبة، كأنما

كانت لتصبح أقل غرابة بلا حدود إذا أنهاها بقوله «ورأسه مقطوع».

قال السيد لوري، وهو ينقر برفقٍ على ذراع سترافير: «عندما أتحدث عن النجاح، فإنني أتحدث عن النجاح مع السيدة الشابة، وعندما أتحدث عن الأسباب والمسببات التي تجعل النجاح محتملاً، فإنني أتحدث عن الأسباب والمسببات التي ستخبرنا بذلك مع السيدة الشابة. السيدة الشابة، سيدي الفاضل، السيدة الشابة، السيدة الشابة قبل كل شيء».

قال سترافير وهو يعقد مرفقيه: «إذن، أنت تعني أن تخبرني، سيد لوري، أن رأيك المقصود هو أن الشابة المعنية في الوقت الحالي حمقاء متكبرة؟».

«ليس بالضبط. أعني أن أقول لك، سيد سترافير»، قال السيد لوري، وقد احمرَّ وجهه، «أنني لن أسمع أي كلمة مُهينة عن تلك السيدة الشابة من أي شفاه. وإذا عرفت أن أي رجل - وهو ما أمل ألا أعرفه - كان ذوقه فظاً للغاية، ومزاجه متقلباً للغاية، إلى درجة أنه لم يستطع كبح جماح نفسه عن التحدث عن تلك الشابة في هذا المكتب بشكل مُهين، فلن تمنعني حتى حُرمة بنك تيلسون من أن أسمع ما لا يرضيه».

كانت ضرورة التعبير عن الغضب بنبرة مكبوتة قد تركت الأوعية الدموية للسيد سترافير في حالة خطيرة عندما حان دوره ليغضب. ولم تكن عروق السيد لوري، رغم انتظام دوران الدم فيها عادة، في حالة أفضل عندما حان دوره.

قال السيد لوري: «هذا ما أقصد أن أقوله لك، يا سيدي. وأرجو ألا تسيء فهمي».

أخذ السيد سترايفر يمص طرف المسطرة لفترة قصيرة، ثم وقف ليُصدر بها نغمة من أسنانه، وربما هذا ما يسبب له ألم الأسنان. ثم كسر الصمت المُحرج بقوله:

«هذا شيء جديد بالنسبة إليّ، سيد لوري. هل تنصحني بعد تفكير ألا أذهب إلى سوهو، وتقديم نفسي: أنا، سترايفر المحامي في محكمة الملك؟».

«هل تطلب نصيحتي، سيد سترايفر؟».

«نعم أطلبها».

«جيد جدًا. إذن فقد أعطيتها لك، وقد كررتها أنت بشكل صحيح».

ضحك سترايفر ضحكة غاضبة، قائلاً: «وكل ما يمكنني قوله هو أن هذا... هاها، هاها... يتفوق على كل شيء في الماضي، والحاضر، والمستقبل».

تابع السيد لوري: «والآن، افهمني. بصفتي رجل أعمال، ليس لديّ ما يبرر قول أي شيء في هذا الموضوع؛ ذلك أنني، كرجل أعمال، لا أعرف عنه شيئًا. لكنني تحدثت بصفتي رجلًا عجوزًا، حمل الأنسة مانيت بين ذراعيه، وصديقًا موثوقًا به لدى الأنسة مانيت ولوالدها أيضًا، ويكنُّ مودة كبيرة لكليهما. أنني لم أسع إلى هذه الثقة، أتذكر. والآن، هل تعتقد أنني ربما لست على حق؟».

«لست أنا الذي يعتقد ذلك!»، قال سترايفر وهو يُصَفِّر، «لا يمكنني التعهّد بالعثور على أطرافٍ ثالثة تتمتع بالفطرة السليمة، لا يمكنني

العثور عليها إلا لنفسى، إننى أعتقد فى وجود منطقٍ لدى بعض الأوساط؛ وأنت تعتقد أن سُبُل العيش مجرد هراء، هذا جديد بالنسبة إليّ، لكننى أجرؤ على القول إنك على حقّ».

قال السيد لورى، وقد احمرَّ وجهه سريعاً مرة أخرى: «ما أعتقد، سيد سترایفر، ما أدّعى أن أصف به نفسى... وافهمنى يا سيدي. أنا لن أسمح -ولا حتى فى بنك تيلسون- بأن يصفه لى أى إنسان على الإطلاق».

«هو ذا! أستمحك عذراً!»، قال سترایفر.

«طلب مقبول. شكرًا لك. حسنًا، سيد سترایفر، كنت على وشك أن أقول: ... قد يؤلمك أن تجد نفسك مخطئًا، وقد يؤلم الدكتور مانيت أن يجد نفسه مضطّرًا إلى التحدث إليك بصراحة، وقد يؤلم الآنسة مانيت جدًّا أن تتحدث إليك بصراحة. أنت تعرف المنزل الذى تشرفنى ويسعدنى أننى أنالها عند العائلة. وإذا سمحت لى -دون أى التزام من جانبك بأي شكل من الأشكال، ودون أن أمثلك بأي شكل من الأشكال- سوف أتعهد بتصحيح نصيحتى، من خلال ممارسة القليل من الملاحظة والحكم الجديدين، تتعلّق صراحة بهذا الموضوع. وإذا لم تشعر بالرضا تجاه النتيجة التى سأصل إليها، يمكنك اختبار سلامتها بنفسك. ومن ناحية أخرى، إذا شعرت بالرضا عنها، ووجدتها ما قلته لك الآن، تكون قد جنبت جميع الأطراف ما يُفضّل تجنبه. ما رأيك؟».

«إلى متى ستُبقينى فى المدينة؟».

«أوه! إنها مجرد بضع ساعات. يمكننى الذهاب إلى سوهو فى المساء، ثم المجيء إلى غرفتك بعد ذلك».

قال سترایفر: «إذن أقول نعم، لن أتوجه إلى هناك الآن، فلست متحمسًا إلى هذا الحد. أقول نعم، وأتوقع أن أراك الليلة. طاب صباحك».

وعندئذ استدار السيد سترایفر واندفع خارج البنك، متسببًا في ارتجاجٍ شديدٍ في الهواء في أثناء مروره، إلى درجة أن الموظفين العجوزين المنحنيين فوق طاولتيهما احتاجا إلى أقصى قوة متبقية لديهما للصدود. كان الجمهور يرى هذين الشخصين الموقرين والضعيفين في وضع الانحناء دائمًا، وكان من المُعتقد، على نطاقٍ واسعٍ، أنهما عندما ينحنيان لأحد العملاء، يستمران في الانحناء في المكتب الفارغ إلى أن ينحنيا لعميلٍ آخر.

كان المحامي ذكيًا بما يكفي ليتوقع أن المصّر في لم يكن ليتماذى إلى هذا الحد في التعبير عن رأيه لو لم يكن مبنياً أي أساس صلب من اليقين. لكنه ابتلع ما قيل، رغم عدم استعداده لابتلاعه. «والآن»، قال السيد سترایفر، وهو يهز سبابته القضائية في تمبل بار بشكلٍ عام، بعد أن انتهى من الابتلاع، «طريقي للخلاص من هذا، هو أن أضعكم جميعًا في موقع المخطئ».

كان ذلك نوعًا من فنون مناوّر ماهر من أولد بيلي، وجد فيه راحة كبيرة. قال السيد سترایفر: «لا تضعيني في موضع المُخطئ، أيتها الشابة، بل أنا الذي سأضعك فيه».

وبناء على ذلك، عندما اتصل السيد لوري في وقتٍ متأخرٍ من تلك الليلة، نحو الساعة العاشرة، بدا أن السيد سترایفر -وهو وسط كمية من

الكتب والأوراق المتناثرة خصيصاً لهذا الغرض - لم يوجد في ذهنه شيء أقل من موضوع الصباح. بل أظهر دهشته حتى عندما رأى السيد لوري، كأنه في حالة ذهولٍ وانشغالٍ تام.

«حسنًا!»، قال ذلك المبعوث اللطيف، بعد نصف ساعة كاملة من المحاولات الفاشلة، لإثارة الموضوع، «لقد ذهبت إلى سوهو».

«إلى سوهو؟»، كرر السيد سترايفر ببرود، «أوه، للتأكد! فيما أفكر فيه!».

قال السيد لوري: «وليس لديّ شك في أنني كنت على حق في المحادثة التي أجريناها. رأيي مؤكّد، وأكرر نصيحتي».

رد السيد سترايفر بطريقة ودية: «أؤكد لك أنني آسف لذلك من أجلك، وآسف من أجل الأب المسكين. أعرف أن هذا الموضوع سوف يشير الألم لدى العائلة. دعنا لا نقلُ المزيد عنه».

«أنا لا أفهمك»، قال السيد لوري.

أجاب سترايفر، وهو يوميء برأسه بطريقة مُلَطَّفَة ختامية: «لا يمكنني القول، لا يهم، لا يهم».

قال السيد لوري بالحاح: «لكن الأمر مهم».

«لا، ليس مُهمًّا؛ أؤكد لك أنه ليس مُهمًّا. بعد أن افترضت وجود منطق حيث لا يوجد منطق، وطموح جدير بالثناء حيث لا يوجد طموح جدير بالثناء، فقد تجاوزت خطئي، ولم يحدث أي ضرر. لقد ارتكبت الفتيات حماقات مماثلة كثيرة من قبل وندمن عنها، حيث تركتهن في فقر وغموض في كثير من الأحيان من قبل. وبالنظر إلى الأمر من زاوية

غير أنانية، أنا آسف لإسقاط هذه الفكرة؛ لأنها كانت ستشكّل شيئاً سيئاً بالنسبة إليّ من وجهة نظر مادية. ومن نافلة القول إنني لم أكن لأكسب شيئاً من ذلك. لم يحدث أي ضرر على الإطلاق. لم أتقدم لخطبة السيدة الشابة. وبينني وبينك، لست متأكداً بأي حالٍ من الأحوال، عند التفكير في الأمر، من أنني كان ينبغي أن ألزم نفسي إلى هذا الحد. سيد لوري، لا يمكنك السيطرة على غرور وتكبر وطيش الفتيات فارغات الرؤوس. يجب ألا تتوقع القيام بذلك، وإلا ستُصاب دائماً بخيبة أمل. والآن، أرجو ألا تقلّ المزيد عن ذلك الموضوع. أقول لك، إنني نادم على ذلك من أجل الآخرين، لكنني راضٍ عن نفسي. وأنا حقاً ممتن لك جداً لأنك سمحت لي أن أسمعك، وأن تعطيني نصيحتك. أنت تعرف السيدة الشابة أفضل مني. أنت كنت على حق، لم يكن ذلك ليحدث قطُّ.

ذهل السيد لوري من هول المفاجأة، إلى درجة أنه نظر بغباءٍ شديدٍ إلى السيد سترافير وهو يدفعه نحو الباب، مُغدقاً على رأسه الأثم مظهر الكرم والتسامح وحسن النية. قال سترافير: «استفد من ذلك، سيدي العزيز، ولا تقلّ المزيد عن ذلك. أشكرك مرة أخرى على سماحك لي بسماع صوتك. طاب مساؤك!».

خرج السيد لوري، وقد هبط الليل، قبل أن يعرف أين هو. وكان السيد سترافير مستلقياً على أريكته، ناظراً إلى سقفه وهو يرمش بعينه. يغمز في اتجاه سقفه.

الفصل الثالث عشر

الزميل الفظ

إذا كان سيدني كارتون قد تألق في أي مكان، فمن المؤكد أنه لم يتألق قط في منزل الدكتور مانيت. فقد ذهب إلى هناك كثيرًا، خلال عام كامل، وكان دائمًا نفس المتسكع الكئيب متقلّب المزاج. وعندما يهتم بالتحدّث، يتحدث جيدًا؛ لكن سحابة عدم الاهتمام بأي شيء، التي طغت عليه بظلام قاتلٍ، نادرًا ما اخترقها النور الذي بداخله.

ومع ذلك، كان يهتم بعض الشيء بالشوارع المحيطة بذلك المنزل، وبالحجارة فاقدة الإحساس التي تشكّل أرصفتها. كان يتجول هناك في ليالٍ كثيرة على نحوٍ هائمٍ وحزين، عندما لا يجلب له النبيذ أيّ سعادة عابرة؛ وكثيرًا ما كشف الفجر الكئيب عن شخصيته المنعزلة المتسكعة هناك، وتظل متسكعة حتى تجلب أشعة الشمس الأولى شعورًا قويًا بالارتياح، وتزيل جمال العمارة في أبراج الكنائس والمباني الشاهقة، إذ ربما كانت فترة الهدوء تثير في ذهنه إحساسًا بأشياء أفضل، وغيرها من الأشياء المنسية وتلك بعيدة المنال. في الآونة الأخيرة، كان سريره المُهمل في تمبل كورت نادرًا ما يراه، أكثر من أي وقت مضى. ففي كثير من الأحيان، كان يلقي بنفسه عليه لمدة لا تزيد على بضع دقائق، ثم ينهض مرة أخرى ليذهب إلى ذلك الحي.

في يوم من أيام شهر أغسطس، عندما حمل السيد سترافير طعامه الشهي إلى ديفونشاير (بعد أن أبلغ ابن آوى أنه «فكر بشكل أفضل في مسألة الزواج هذه»)، وعندما حمل مشهد الزهور ورائحتها بين طياته في شوارع المدينة بعض الخير لأسوأ الناس، والصحة لأكثرهم مرضًا، والشباب لكبار السن، كانت أقدام سيدني لا تزال تطأ تلك الحجارة. وبعد أن كانت قدماء تسيران بتردد وبلا هدف، أخذتا تتحركان بقصدٍ معين، وتحقيقًا لهذا المقصد، توجهتا إلى باب الطبيب.

دُعي إلى الطابق العلوي، ووجد لوسي وحدها منهمكة في عملها. لم تكن على راحتها قطُّ معه، واستقبلته ببعض الإحراج عندما جلس بالقرب من طاولتها، لكنها لاحظت تغييرًا في وجهه، عندما نظرت إلى وجهه وهما يتبادلان الكلمات القليلة المعتادة الأولى.

«أخشى أنك لستَ على ما يرام، يا سيد كارتون!».

«كلا، لكن الحياة التي أعيشها، آنسة مانيت، لا تُفضي إلى الصحة. ماذا يمكن توقعه من هؤلاء الماجنين، أو عن طريقهم؟».

«أليس... لا تؤاخذني؛ لقد بدأت بالسؤال الذي على شفتي... أليس من المؤسف ألا تعيش حياة أفضل؟».

«يعلم الله، أنه عار!».

«إذن، لماذا لا تغيره؟».

فوجئت عندما نظرت إليه بلطفٍ مرة أخرى، وحزنت، لرؤية الدموع في عينيه. وكانت الدموع في صوته أيضًا، وهو يجيب:

«لقد فات الأوان لذلك، لن أكون أبدًا أفضل مما أنا عليه. سوف أنحدر إلى أسفل، وأصبح أسوأ».

اتكأ بمرفقه على طاولتها، وغطى عينيه بيده. ارتجفت الطاولة في الصمت الذي أعقب ذلك.

لم يسبق لها قط أن رآته ضعيفًا، وشعرت بحزنٍ شديدٍ. عرف أنها حزينة، دون أن ينظر إليها، وقال:

«أرجو أن تسامحيني، يا آنسة مانيت، إنني أنهار بسبب معرفتي ما أريد أن أقوله لك. هل ستسمعينني؟».

«إذا كان هذا سيفيدك، يا سيد كارتون، إذا كان سيجعلك أكثر سعادة، فسوف يسعدني جدًا!».

«بارك الله فيك، على تعاطفك الجميل!».

كشف عن وجهه، بعد فترة قصيرة، وتحدث بثبات:

«لا تخافي من سماعي، لا تضيقني من أي شيء أقوله، أنا مثل شخص مات شابًا، ربما كانت حياتي كلها على هذا النحو».

«لا يا سيد كارتون. أنا متأكدة من أن أفضل جزء من حياتك لا يزال أمامك. كما أنني متأكدة من أنك قد تكون جديرًا بنفسك أكثر بكثير».

«رأيتك هذا، يا آنسة مانيت -على الرغم من معرفتي بنفسي أفضل، وعلى الرغم من معرفتي لغز قلبي البائس أفضل - لن أنساه أبدًا».

كانت شاحبة وترتجف، حاول التخفيف عنها وهو يائس تمامًا من نفسه، مما جعل المقابلة لا تختلف عن أي مقابلة أخرى يمكن أن تجري بينهما.

«لو أمكن، يا آنسة مانيت، أن تبادلني الرجل الذي تريه أمامك حباً بحبّ -وهو كما تعرفين مخلوق ضعيف، وضائع، وسكير- لأدرك في هذا اليوم والساعة، على الرغم من سعادته، أنه سيجلب لك البؤس، ويجلب لك الحزن والندم، ويؤذيكَ، ويخزيكَ، ويسحبك معه إلى أسفل. أعلم جيداً أنك قد لا تشعرين بأي حنان تجاهي، أنا لا أطلب شيئاً، بل أنا شاكر حتى لعدم إمكانية ذلك».

«ألا يمكنني إنقاذك يا سيد كارتون، من دون ذلك؟ ألا يمكنني إعادتك -عذراً، مرة أخرى!- إلى مسارٍ أفضل؟ ألا يمكنني، بأي حالٍ، أن أقابل ثقتك بالمثل؟ أعرف أن هذه ثقة»، قالت بتواضع، بعد قليل من التردد وبدموع مخلصة، «أعرف أنك لن تخبر هذا لأي شخص آخر. ألا يمكنني أن أفيدك بأي شيء، يا سيد كارتون؟».

هز رأسه.

«لا شيء. كلا، آنسة مانيت، لا شيء. إذا أردتِ الاستماع إليّ فترة أطول قليلاً، تكوينين قد قمت بكل ما يمكنك القيام به من أجلي. أتمنى أن تعرفي أنك كنت آخر حلم لديّ، لم أكن مُنحطاً بدرجة كبيرة في فترة انحطاطي؛ لكن مشهدك مع والدك، وهذا المنزل الذي صنعتهُ أنتِ، قد أثار ظلالاً قديمة كنت أعتقد أنها انتهت داخلي. منذ أن عرفتكَ، يزعجني الندم الذي اعتقدتُ أنه لن يوبّخني مرة أخرى، وأسمع همسات لأصوات قديمة تدفعني إلى الصعود إلى أعلى، وكنت أظن أنها صمتت إلى الأبد. لقد راودتني أفكار عديمة الشكل عن السعي من جديد، والبدء من جديد، والتخلص من الكسل والشهوانية، وخوض

معركة مهجورة. حلم، كلها حلم ينتهي إلى لا شيء، ويترك النائم حيث يرقد، لكنني أود أن تعرفني أنك من ألهمة».

«ألم يبق أي شيء منه؟ أوه، يا سيد كارتون، فكر مرة أخرى! حاول مرة أخرى!».

«لا، يا آنسة مانيت. كنت أعرف، طوال تلك الفترة، أنني لا أستحق ذلك على الإطلاق. ومع ذلك، كنت أعاني، وما زلت، من ضعف لأن أخبرك بشعور السيطرة المفاجئ الذي أشعلته داخلي - أن تشعلي داخلي، أنا، كومة الرماد، النار - وإن تكن نارًا لا تنفصل طبيعتها عني، لا تُسرّع شيئًا، ولا تضيء شيئًا، ولا تقدّم أي خدمة، بل تحترق مكتوفة الأيدي».

«بما أنه من سوء حظي، سيد كارتون، أنني جعلتك أكثر تعاسة مما كنت عليه قبل أن تعرفني...».

«لا تقولي ذلك، آنسة مانيت، لأنك كنت ستُعيدني إلى نفسي، إن كان يمكن، ولن تكوني السبب في تدهور حالتي».

«بما أن حالتك الذهنية التي تصفها تُعزّي، في جميع الأحوال، إلى بعض تأثيري - وهذا ما أعنيه، إذا كان في إمكاني توضيح الأمر - ألا يمكنني استخدام هذا التأثير لخدمتك؟ أليس لديّ قوة على الإطلاق، لعمل الخير معك؟».

«أقصى قدر من الخير الذي أقدر عليه الآن، آنسة مانيت، جئت إلى هنا لتحقيقه. دعيني أحمل طوال بقية حياتي التي أخطأت فيها الطريق،

ذكرى أنك آخر شخص في العالم فتحت له قلبي؛ وأنه قد بقي شيء في داخلي، في هذا الوقت، يمكنك أن تأسفي عليه وتشفقي عليه».

«ما رجوتك، مرارًا وتكرارًا وبحرارة شديدة من كل قلبي، أن تؤمن به هو أنك قادر على القيام بأشياء أفضل، سيد كارتون!».

«لا ترجوني أن أصدق ذلك بعد الآن، يا آنسة مانيت. لقد عرفت نفسي، وأنا أعرف أفضل، إنني أثير حزنك؛ ولذا سوف أنهي حديثي بسرعة. هل تسمحين لي أن أصدق، عندما أتذكر هذا اليوم، أن آخر سر في حياتي وضعته في صدرك الطاهر البريء، وأنه يكمن هناك وحده، ولن يشاركه أحد؟».

«لك ما تريد، إذا كان في ذلك عزاء لك».

«ولا حتى من جانب أعز من تعرفين؟».

أجابت، بعد توقُّفٍ مضطرب: «سيد كارتون، السر يخصك ولا يخصني، وأعدك باحترامه».

«شكرًا لك، ومرة أخرى، بارك الله فيك».

وضع يدها على شفثيه، ثم تحرك نحو الباب.

«لا تخشي، يا آنسة مانيت، من أن أستأنف هذه المحادثة بأي قدر، ولو بكلمة عابرة؛ لن أشير إليها أبدًا مرة أخرى، ولن يكون موتي أكثر ضمانًا لذلك، من الآن فصاعدًا. وفي ساعة موتي، سوف أقدم الذكرى الطيبة الوحيدة -وأشكرك وأباركك عليها- وهي أن اعترافي الأخير عن نفسي قدمته لك، وأن اسمي وأخطائي وتعاساتي قد حملها قلبك

بلطفٍ، عسى أن يكون قلبك، فيما عدا ذلك، مرحًا وسعيدًا!».

كان مختلفًا تمامًا عما كان يُظهره عن نفسه من قبل، وكان من المحزن للغاية التفكير في مقدار ما أهدره، وكم كان ينحرف ويضل كل يوم إلى درجة أن لوسي مانيت بكت بحزنٍ من أجله وهو يقف ناظرًا إليها.

قال: «كوني مرتاحة! فأنا لا أستحق هذا الشعور، يا آنسة مانيت. وبعد ساعة أو ساعتين، سيجعلني الرفاق الوضيعون والعادات الوضيعة التي أحقرها، لكنني أستسلم لها، أقل قيمة من مثل هذه الدموع، من أي بئس يتسلل في الشوارع. كوني مرتاحة! لكنني، في داخلي، سأظل دائمًا تجاهك ما أنا عليه الآن، وإن بقيت خارجيًا ما رأيتني عليه حتى الآن. ورجائي قبل الأخير الذي أطلبه منك، هو أنك تصدقي كلامي هذا».

«سوف أصدقك، سيد كارتون».

«أما رجائي الأخير فهو هذا، وبه سأريحك من زائرٍ أعرف جيدًا أنك لا تنسجمين معه، وبينه وبينك مساحة لا يمكن عبورها. أعرف أنه لا جدوى من قول ذلك، لكنه ينبع من روحي. فمن أجلك، ومن أجل أي عزيز عليك، سأفعل أي شيء، لو كانت مسيرتي المهنية من نوع أفضل، الذي يضم أي فرصة أو قدرة على التضحية، لأقبلت على أي تضحية من أجلك، ومن أجل أولئك الأعزاء عليك. حاولي أن تذكريني، في بعض الأوقات الهادئة، متحمسًا وصادقًا في هذا الشيء الوحيد. سيأتي الوقت، ولن يتأخر كثيرًا، عندما تتشكّل روابط جديدة حولك -روابط

تربطك بحنانٍ وقوة أكبر بالمنزل الذي تزينينه - أعز الروابط التي تزيدك
رقة وسعادة. آه، يا آنسة مانيت، عندما تبدو الصورة الصغيرة لوجه والد
سعيد في وجهك، وعندما تشاهدين جمالك المشرق ينبثق من جديدٍ
عند قدميك، فكري بين الحين والآخر أن هناك رجلاً على استعدادٍ أن
يضحي بحياته للحفاظ على حياة تحيينها بجانبك!».

قال: «وداعاً!»، ثم قال أخيراً: «بارك الله فيك!»، وتركها.

الفصل الرابع عشر

التاجر الأمين

كانت عينا السيد جيريمايا كرانشر، الذي يجلس على مقعده في شارع فليت وقنفذه المروع بجانبه، تشهد كل يوم عددًا كبيرًا ومتنوعًا من الأشياء المتحركة. من ذا الذي يستطيع أن يجلس على أي شيء في شارع فليت خلال ساعات النهار المزدحمة، ولا يصاب بالذهول والصمم أمام موكبين ضخمين، يميل أحدهما غربًا مع الشمس، ويميل الآخر شرقًا من الشمس، وكلاهما يميل دومًا إلى السهول خارج نطاق اللونين الأحمر والأرجواني حيث تغرب الشمس!

جلس السيد كرانشر، وفي فمه قشته، يراقب النهرين، مثل الريفي الوثني الذي ظل لعدة قرون في الخدمة يراقب نهرًا واحدًا؛ باستثناء أن جيري لم يكن يتوقع أن يجف النهران على الإطلاق. كما أنه لم يكن توقعًا من النوع المفعم بالأمل؛ ذلك أن جزءًا صغيرًا من دخله كان مُستمدًا من إرشاد النساء الخجولات (معظمهن في كامل زينتهن، وتجاوزن منتصف العمر) من شاطئ تيلسون إلى الشاطئ المقابل. وعلى الرغم من قصر هذه الصحبة في كل حالة على حدة، لم يخفق السيد كرانشر قط في إبداء الاهتمام بالسيدة، إلى درجة التعبير عن رغبته

القوية في نيل شرف شرب كأس في صحتها الجيدة جدًا. ومن الهدايا الممنوحة له، لتحقيق هذا الغرض الخيري، كان يجمع أمواله، كما لوحظ للتو.

لقد مضى زمن، عندما كان الشاعر يجلس على مقعدٍ في مكان عام، يتأمل ويفكر أمام مشهد حركة الناس، لكن السيد كرانشر، الذي جلس على مقعده في مكان عام، لم يكن شاعرًا، ولم يتأمل أو يفكر إلا بأقل قدرٍ ممكن، ويتطلع حوله.

وقد تصادف أنه كان في موسم يقل خلاله الازدحام، وتقل النساء المتأخرات، في فترة لم تزدهر خلالها شؤونونه بشكل عام، إلى درجة أنه أيقظ شكًا قويًا في صدره بأن السيدة كرانشر لا بد أنها «تسجد» بطريقتها المعهودة، عندما جذب انتباهه تدفق زحام غير عادي في شارع فليت غربًا. نظر السيد كرانشر في هذا الاتجاه، ورأى جنازة من نوعٍ ما قادمة، وأن هناك اعتراضًا شعبيًا على هذه الجنازة، مما أثار ضجة.

التفت السيد كرانشر إلى ابنه قائلاً: «يا جيري الصغير، إنها جنازة».

صاح جيري الصغير: «يا مرحى، يا أبي!».

أطلق السيد الشاب هذا الصوت المبتهج بطريقة تتسم بدلالة غامضة. أخذ السيد الأكبر هذه الصيحة على محملٍ سيئٍ للغاية، إلى درجة أنه تحيّن الفرصة وضرب السيد الشاب على أذنه.

قال السيد كرانشر، وهو يتفحصه: «ماذا تعني؟ ما الذي يجعلك تهلل هكذا؟ ماذا تريد أن تخذع والدك، أيها الشاب الأحمق؟ لقد

ضقت ذرعًا بهذا الصبي! هو وصيحاته! لا أريد أن أسمع المزيد منك، وإلا ستشعر بالمزيد مني. هل تسمع؟».

احتجَّ جيري الشاب، وفرك خده قائلاً: «أنا لم أُنسَب في أي أذى». قال السيد كرانشر: «كُف إذن عن تلك الصيحات. لا أريد أي شيء من أعمالك غير المؤذية. قف فوق هذا المقعد هناك، وانظر إلى الحشد».

أطاع الابن والده. اقترب الجمع؛ كانوا يصيحون ويهسهسون حول نعشٍ قذرٍ وعربة موتى قدرة. لم يكن بالعربة سوى مُشيع واحد يرتدي ملابس قدرة، تعتبر ضرورية لوقار الموقف. على أن الموقف لم يكن يرضيه، بأي حال من الأحوال، مع تزايد الرعاع الذين أحاطوا بالعربة وأخذوا يسخرون منه، ويكشرون في وجهه، ولا يكفون عن التأوه والصياح: «يااه! جواسيس! تبًا! جواسيس!»، وغير ذلك من المجاملات العديدة التي لا يمكن تكرارها.

كان للجنازات، في جميع الأوقات، جاذبية ملحوظة لدى السيد كرانشر؛ فأَي جنازة تمر أمام بنك تيلسون، دائمًا ما تستثير حواسه، ويتقد حماسًا. ولذلك أثارته كثيرًا، بطبيعة الحال، جنازة بهذا الحضور غير المألوف، وسأل أول رجل ركض في اتجاهه:

«ما هذا يا أخي؟ ما الأمر؟».

«لا أعرف»، قال الرجل، «جواسيس! يااها! تبًا! جواسيس!».

سأل رجلًا آخر: «من هذا؟».

[illegible]

وأخيرًا، عثر على شخص على معرفة أفضل بحقيقة الموضوع، وعرف منه أنها جنازة شخص اسمه روجر كلاي.

سأله السيد کرانشر: «هل كان جاسوسًا؟».

«جاسوس أولد بيلي»، أجاب الرجل. «جاسوس أولد بيلي! يااها!
تَبَّ! يااه! جوااااايسس أولد بيلي!».

صاح جيري، متذكراً المحاكمة التي ساعد فيها: «أوووه، هذا صحيح! لقد رأيته. إنه ميت، أليس كذلك؟».

رد الآخر: «جثة هامدة، لا يمكن أن يموت أكثر من ذلك. اسحبوهم، إلى هناك! الجواسيس! اسحبوهم إلى الخارج، إلى هناك! جواسيس!».

كانت الفكرة مقبولة تمامًا في ظل الغياب السائد لأي فكرة، إلى درجة أن الحشد التقطها بشغفٍ، وأخذوا يكررون بصوتٍ عالٍ اقتراح إخراجهم وسحبهم، وهاجموا العربتين من كَشٍ إلى درجة أنهما توقفتا. وما إن فتح الحشد أبواب العربَة حتى اندفع المسيح الوحيد خارجها، وأصبح في أيديهم للحظة؛ لكنه كان يقظاً للغاية، واستغل وقته جيداً، بحيث أصبح في لحظة أخرى يجوب بعيداً في شارع جانبي، بعد أن تخلص من عباءته، وقبعته، ورباطها الطويل، ومنديل الجيب الأبيض، وغيرها من الدموع الرمزية.

مزَّق الناس هذه الأشياء إلى أشلاء، وتفرقوا في كل مكان بسرورٍ كبيرٍ، بينما أغلق التجار متاجرهم على عجلٍ؛ ذلك أن أي حشد في تلك الأزمنة لم يكن يوقفه أي شيء، وكان وحشًا مخيفًا للغاية. كان لديهم بالفعل الوقت اللازم لفتح العربّة وإخراج النعش، عندما اقترح عبقرى أكثر ذكاءً أن يقوموا، بدلًا من ذلك، بمرافقة العربّة إلى وجهتها وسط ابتهاجٍ عام. ونظرًا إلى حاجتهم الماسّة إلى اقتراحاتٍ عملية، فقد استقبلوا هذا الاقتراح أيضًا بالترحاب، وامتلأت العربّة على الفور بثمانية أشخاص داخلها وعشرات خارجها، بينما صعد أكبر عددٍ ممكن من الأشخاص إلى سطح العربّة والتصقوا به كأنهم يمارسون تمرينًا للبراعة. وكان جيرى كرانشر نفسه من أوائل هؤلاء المتطوعين، وقد أخفى رأسه الشائك بشكلٍ متواضعٍ في الزاوية الأخرى من عربّة الموتى، خشية أن تراه جماعة بنك تيلسون.

احتجّ متعهدو دفن الموتى على هذا التغيير في الطقوس، على أن قُرب النهر بشكلٍ ينذر بالخطر، مع ارتفاع العديد من الأصوات التي تشير إلى فاعلية الغمر البارد في إعادة أعضاء المهنة المحتجين إلى رشدهم، أدى إلى قصر الاحتجاج وخفوته. انطلق الموكب بعد إعادة تشكيله، ومُنظف المداخن يقود عربّة نقل الموتى، يرشده سائقها المعتاد -الذي جلس بجانبه، تحت مراقبة شديدة لهذا الغرض- وتولى صانع فطائر قيادة عربّة الحداد، بحضور وزير حكومته أيضًا. وأُجبر مُرقّص الدبّة، وكان شخصية شعبية في الشارع في ذلك الوقت، على المشاركة كزينة إضافية، قبل أن يهبط الموكب بعيدًا إلى شارع ستراند؛ وأسبغ

دبه، الذي كان أسود اللون وشديد القذارة، لمسة جنائزية تمامًا على ذلك الجزء من الموكب الذي سار فيه.

وهكذا، مع احتساء البيرة، وتدخين الغليون، وصخب الأغاني، وإظهار الحزن بطرقٍ كاريكاتورية لانهائية، سار الموكب غير المنضبط في طريقه، حاشدًا الناس في كل خطوة، وأغلقت جميع المتاجر أبوابها أمامه. كانت وجهته كنيسة القديس بانكراس القديمة، التي تقع بعيدًا في الحقول. وبمرور الوقت، وصل الموكب إلى هناك، وأصر على التدفق نحو المقبرة. وأخيرًا، انتهى الموكب، بطريقته الخاصة وبما يرضيه تمامًا، من دفن المُتوفَّى روجر كلاي.

بعد التخلص من الرجل الميت، كان من الضروري أن يجد الحشد بعضَ وسائل الترفيه الأخرى لنفسه؛ لذا، اقترح عبقري آخر أكثر ذكاءً (أو ربما العبقري السابق نفسه) روح الدعابة المتمثلة في اتهام عابري السبيل بأنهم جواسيس لأولد بيلي، والانتقام منهم. وتحقيقاً لهذه الرغبة، أخذوا يطاردون عشرات من الأشخاص المسالمين الذين لم يسبق لهم الوجود بالقرب من أولد بيلي في حياتهم، ويدفعونهم بخشونة ويسبئون معاملتهم. أما الانتقال إلى رياضة كسر النوافذ، ومن ثمَّ إلى نهب الدور العامة، فقد كان سهلاً وطبيعياً. وأخيراً، بعد عدة ساعات، وهدم المنازل الصيفية المختلفة، ونزع بعض حواجز المنطقة لتسليح الأرواح الأكثر عدوانية، انتشرت شائعة حول قدوم الحرس. وكان الحشد قد بدأ يتقلص تدريجياً قبل سريان هذه الإشاعة. ربما جاء الحرس، وربما لم يأتوا قط؛ على أي حال، كان هذا هو مسار الغوغاء المعتاد.

لم يساعد السيد كرانشر في تلك الألعاب الرياضية الختامية؛ بل بقي في فناء الكنيسة، ليتشاور مع الحانوتية ويواسيهم. كان للمكان تأثيرٌ مهديٍّ عليه. اشترى غليوناً من متجرٍ عام مجاور، وأخذ يدخنه، وهو ينظر إلى الأسوار ويتأمل المكان باهتمامٍ.

قال السيد كرانشر، مخاطباً نفسه بطريقة المعتادة: «جيري، أنت رأيت كلاي في ذلك اليوم، ورأيت بعينك أنه كان شاباً ورجلاً مستقيماً».

وبعد أن دخن غليونه، وأطال التأمل قليلاً، استدار عائداً، حتى يُثبت وجوده في موقع عمله أمام بنك تيلسون، قبل ساعة إغلاق البنك. وسواء كانت تأملاته حول الوفيات قد لمست كبده، أو كانت صحته العامة سيئة أصلاً من قبل، أو كان يرغب في إظهار القليل من الاهتمام لرجلٍ بارزٍ، فلم يكن ذلك هو الغرض بقدر ما كان إجراء زيارة قصيرة لمستشاره الطبي -وهو جراح مرموق- في طريق عودته.

أراح جيري الشاب والده بأن أطاعه بإخلاصٍ، وحلَّ محله في عمله، وأبلغه بعدم وجود أي مهمة مطلوبة في غيابه. أُغلق البنك، وخرج الموظفون الشيوخ، وضُبطت الساعة المعتادة، وذهب السيد كرانشر وابنه إلى المنزل لتناول الشاي.

قال السيد كرانشر لزوجه عند دخوله المنزل: «أود الآن أن أخبرك بشيء. إذا لم تثمر جهودي الليلة، بصفتي تاجرًا أمينًا، فسوف أتأكد من أنك كنت تصلين ضدي مرة أخرى، ولن أسمح معك تمامًا كما لو أنني رأيتك تفعلين ذلك».

هزّت السيدة كرانشر المكتئبة رأسها.

قال السيد كرانشر، وعلى وجهه علامات الخوف الغاضب: «ماذا، أنت تتعمّدين القيام بذلك أمامي!». «أنا لم أقل أي شيء».

«حسنًا، إذن؛ لا تمارسين التأمل في أي شيء. قد تسجدين أيضًا بما يماثل التأمل. كما يمكنك الدعاء ضدي مرة أخرى بطريقة أخرى. دعك من الأمر برمته».

«نعم، جيري».

«نعم، جيري»، كرر السيد كرانشر وهو جالس لتناول الشاي، «آه! نعم يا جيري. هذا كل ما في الأمر. يمكنك قول نعم، جيري».

لم يكن السيد كرانشر يقصد معنى معين بهذه التأكيدات العابسة؛ لكنه استخدمها، كما يفعل الناس في كثير من الأحيان، للتعبير بسخرية عن الاستياء.

قال السيد كرانشر، وهو يتناول قضمة من خبزه المدهون زبدة، ويبدو أنه يساعد على ابتلاعها بمحارٍ كبيرٍ غير مرئي في صحنه: «أنتِ وعبارتك نعم يا جيري. آه! أعتقد ذلك. أنا أصدقك».

وعند تناوله قضمة أخرى، سألته زوجته اللطيفة: «هل ستخرج الليلة؟».

«نعم، سأخرج».

سأله ابنه بحيوية: «هل يمكنني مرافقتك، يا أبي؟».

«كلا، لا يمكنك. أنا ذاهب، كما تعلم والدتك، لصيد السمك. هذا هو المكان الذي سأذهب إليه. ذاهب لصيد السمك».

«لقد صدئت صنارتك لصيد السمك. أليس كذلك يا أبي؟»

«لا يهم».

«هل ستحضر أي أسماك إلى المنزل يا أبي؟».

أجاب الرجل، وهو يهز رأسه: «إذا لم أفعل، سيقصر طعامك غدًا على حصص الإعاشة. تكفيك هذه الأسئلة؛ أنا لن أخرج إلا بعد أن تنام بفترة طويلة».

كرس نفسه، خلال الفترة المتبقية من المساء، لمراقبة السيدة كرانشر بأقصى درجات اليقظة، ودخل معها بتجهم في محادثة تستهدف منعها من ممارسة أي تأمل وعبادة في غير صالحه. وعلى هذا المنوال، حث ابنه على التحدث إليها أيضًا، وأذاق المرأة البائسة حياة قاسية بالإسهاب في أي أسباب للشكوى يمكن أن يقدمها ضدها، بدلًا من تركها للحظة لتأملاتها وعبادتها. لم يكن في مقدور أكثر الأشخاص تدينًا أن يشيد بفاعلية الصلاة الصادقة أكثر مما فعل في عدم الثقة هذا في زوجته. بدا الأمر كما لو أن الشخص الذي يعلن إيمانه بالأشباح، يجب أن يخاف من قصة شبح.

قال السيد كرانشر: «ودعيني أذكرك! لا ألعاب غدًا! إذا نجحت، بصفتي تاجرًا أمينًا، في توفير قطعة من اللحم أو قطعتين، فلا تتركه وتمسكي بالخبز، وإذا تمكنت، بصفتي تاجرًا أمينًا، من توفير القليل من

البيرة، فلا تعلنين أنك تكتفين بالماء. وعندما تذهبين إلى روما، تصرفي كما يتصرف الناس في روما، وإذا لم تفعلي ذلك، ستكون روما قبيحة بالنسبة إليك، وأنا روما الخاصة بك، كما تعرفين».

ثم بدأ يتذمر مرة أخرى:

«إنك تعارضين طعامك وشرابك! لا أعرف مدى ندرة قدرتك على صنْع الطعام والشراب هنا، من خلال دعائك الماكر وسلوكك الخالي من الشعور. انظري إلى وَلَدِكَ: إنه ابنك، أليس كذلك؟ إنه نحيف مثل لوح خشبي. هل تسمين نفسك أمّا، ولا تعرفين أن واجب الأم الأول هو تسمين ولدها؟».

تأثر جيري الصغير كثيرًا بهذا الكلام؛ فأخذ يحث والدته على أداء واجبها الأول، وأن تشدّد بوجه خاص، قبل أي شيء - مهما كان ما فعلته أو أهملته - على أداء وظيفة الأمومة التي أشار إليها والده بكثيرٍ من الحنان والرقّة.

وهكذا أمضت عائلة كرانشر المساء، إلى أن أمر الأب ابنه جيري الصغير أن يأوي إلى فراشه، وأطاعت الوالدة؛ إذ صدرت لها تعليمات مماثلة. تحايل السيد كرانشر على ساعات الليل الأولى وهو يدخن غليونيه وحيدًا، ولم يبدأ رحلته حتى الساعة الواحدة تقريبًا بعد منتصف الليل. وقرب ساعة السحر المبكرة تلك، نهض من كرسیه وأخرج مفتاحًا من جيبه، وفتح خزانة مغلقة وأخرج كيسًا، وعتلة بحجم مناسب، وحبلاً، وسلسلة، وأدوات صيد أخرى من هذا النوع، تقلّد تلك الأدوات بطريقة ماهرة، ومنح السيدة كرانشر نظرة وداع، وأطفأ النور، وخرج.

لم يَقمُ جيري الصغير إلا بخلع ملابسه عندما إلى الفراش، ليتبع والده قبل مُضي وقت طويل. غادر الغرفة وتبعه تحت جناح الظلام، وتبعه عند هبوطه السلم، وتبعه إلى الساحة، وتبعه إلى الشارع، لم يشعر بأي قلق تجاه دخوله المنزل مرة أخرى؛ لأنه مليء بالنزلاء، والباب يظل مواربًا طوال الليل.

مدفوعًا بطموحٍ جديرٍ بالثناء لدراسة فن ولغز حرفة والده الشريفة، ظل جيري الصغير قريبًا من واجهات المنازل والجدران والمداخل، حيث كانت عيناه قريبتين من بعضهما، وأبقى نظره على والده المحترم. لم يكن الوالد المحترم، الذي يتجه شمالًا، قد ابتعد عندما انضم إليه مريدٌ آخر من مريدي إسحق والتون^(١)، وسار الاثنان معًا.

وفي غضون نصف ساعة من بداية الانطلاق، كانا قد تجاوزا المصاييح الوامضة والحُرّاس المتبهِين، ووصلا إلى طريقٍ منعزلٍ. وهنا انضم إليهما صياد آخر؛ انضم بصمتٍ شديدٍ، إلى درجة أن جيري الصغير، إن كان يؤمن بالخرافات، لربما افترض أن التابع الثاني لهذه الحرفة اللطيفة قد قسم نفسه فجأة إلى اثنين.

واصل الثلاثة سيرهم، وواصل جيري الصغير أيضًا، إلى أن توقف الثلاثة تحت حافة معلقة على الطريق، يوجد على جزئها العلوي جدارٌ منخفض من الطوب، يعلوه سياج حديدي. وتحت ظل الحافة والجدار، انعطفت الثلاثة خارج الطريق، وصعدوا إلى ممرٍ مسدود، يُشكّل الجدار

(١) إسحق والتون (Izaak Walton, 1593-1683): كاتب بريطاني اشتهر بتأليف كتاب «الصيد الكامل» (Complete Angler) - (المترجمة).

-الذي يصل ارتفاعه إلى نحو ثماني أو عشر أقدام- جانبًا واحدًا منه. كان الشيء التالي الذي رآه جيري الصغير، وهو رابض في رُكن ويختلس النظر إلى الممر، هو شكل والده المحترم، الذي كان واضح الملامح في ضوء قمر ضعيف وغائم، يتسلق برشاقة بوابة حديدية. سرعان ما انتهى من تسلق البوابة، ثم تبعه الصياد الثاني، وبعده الثالث. قفزوا جميعًا بهدوء إلى الأرض خلف البوابة، واستلقوا هناك قليلًا؛ ربما للاستماع، ثم ابتعدوا زاحفين على أيديهم وركبهم.

حان الآن دور جيري الصغير ليقترّب من البوابة؛ وهو ما فعله وهو يحبس أنفاسه. جثم مرة أخرى عند زاوية هناك، وعندما نظر، رأى الصيادين الثلاثة يزحفون خلال بعض الأعشاب اليابسة! وكانت جميع شواهد القبور في فناء الكنيسة -وهو فناء كبير- تبدو كأشباح ترتدي أثوابًا بيضاء، بينما بدا برج الكنيسة نفسه مثل شبحٍ عملاقٍ وحشي. لم يزحفوا بعيدًا، قبل أن يتوقفوا ويقفوا منتصبين، ثم بدؤوا في الصيد.

استخدموا المجرفة بداية في الصيد، أما الآن، يبدو أن الوالد المحترم يُجري تعديلاً ببعض الأدوات، مثل البريمة الكبيرة. كانوا يعملون بجِد، أيًا كانت الأدوات التي يستخدمونها، إلى أن أرعبت الدقات الرهيبة لساعة الكنيسة جيري الصغير، إلى درجة أنه ولى هاربًا وشعره متصلبٌ مثل شعر والده.

على أن رغبته التي تراوده منذ فترة طويلة لمعرفة المزيد عن هذه الأمور، لم تمنعه من الهروب فحسب، بل أغرته بالعودة ثانية. كانوا يزلون يصطادون بمثابة، عندما اختلس النظر عند البوابة للمرة الثانية؛

لكن ما يبدو الآن هو فوزهم بصيد. صدر صوت شد وتذمر في الأسفل، وبدأت أجسامهم المنحنية مُجهدة، كما لو كانت تحت وطأة ثقل. وبيطء تدريجي، شق الثقل الأرض التي كانت فوقه، وظهر على السطح. كان جيري الصغير يعرف جيداً ما هو هذا الثقل، لكنه، ما إن رآه ورأى والده المحترم على وشك أن يمزقه ليفتحه، شعر بخوفٍ شديد، كون المشهد جديداً عليه، إلى درجة أنه انطلق هارباً مرة أخرى، ولم يتوقف قطُّ إلى أن قطع مسافة ميل أو أكثر.

لم يكن ليتوقف حينها لأي شيء أقل أهمية من التنفس؛ فقد كان يركض في سباق شعبي النوع، يرغب المرء بشدة الوصول إلى نهايته. تكوّنت لديه فكرة قوية أن التابوت الذي رآه كان يركض وراءه؛ وتصوره يقفز خلفه، قائماً عند نهايته الضيقة، ودائماً على وشك أن يلحق به ويقفز إلى جانبه -ربما يمسك بذراعه- كانه مُطارداً يجب تجنبه. كان أيضاً شيطاناً متقلّباً وموجوداً في كل مكان؛ إذ بينما كان يجعل الليل كله خلفه مُروّعا، كان يندفع إلى الطريق لتجنب الأزقة المظلمة، خوفاً من أن يقفز منها كطائرة ورقية منتفخة لصبي، ليس بها ذيل وأجنحة. كان يختبئ في المداخل أيضاً، ويفرك كتفيه الرهيبتين على الأبواب، ويرفعها إلى أذنيه، كأنه يضحك. ويدخل في الظلال على الطريق، ويرقد بمكرٍ على ظهرها ليعرقها. وطوال هذا الوقت، كان يقفز خلفه باستمرار ويتجاوزها، ولذلك عندما وصل الصبي إلى باب بيته، كان لديه سببٌ لكونه نصف ميت. وحتى عندئذٍ لم يتركه، بل تبعه إلى الطابق العلوي، مصطدماً به على كل درجة من درجات السلم، وهرع معه إلى السرير، وسقط ميتاً وثقيلاً على صدره عندما نام.

استيقظ جيري الصغير في حجرته من نومه المرهق، بعد الفجر وقبل شروق الشمس، على وجود والده في غرفة العائلة. حدث خطب ما معه؛ هذا ما استنتجه جيري الصغير، على الأقل من رؤيته ممسكاً بأذني السيدة كرانشر، وضارباً مؤخرة رأسها باللوح الأمامي للسريـر.

«قلت لك أنني سأفعل، وقد فعلت»، قال السيد كرانشر.

توسّلت زوجته: «جيري، جيري، جيري!».

قال جيري: «أنت تضرين نفسك في مجال ربح العمل التجاري، وأنا وشركائي نعاني. كان عليك أن تحترميني وتطيعيني. لماذا، بحق الشيطان، لا تفعلين ذلك؟».

احتجت المرأة المسكينة، والدموع تنهمر من عينيها: «أحاول أن أكون زوجة صالحة، يا جيري».

«هل كونك زوجة صالحة معناه الوقوف ضد أعمال زوجك؟ هل احترام زوجك يعني الإساءة إلى عمله؟ هل إطاعة زوجك تعني أن تعصيه في موضوع عمله؟».

«إذن، أنت لم تمارس هذا العمل المروع، يا جيري».

أجاب السيد كرانشر: «يكفيك أن تكوني زوجة تاجر أمين، ولا تشغلي عقلك الأنثوي بالحسابات عندما يمارس تجارتـه أو لا يمارسها، الزوجة المحترمة والمطبعة عليها أن تبتعد تمامًا عن تجارتـه. هل تعتبرين نفسك امرأة متدينة؟ إذا كنت امرأة متدينة، فأنا أريد امرأة غير متدينة! إنك تفتقرين إلى الشعور الطبيعي بالواجب بقدر ما يفتقر

نهر التايمز الشعور بالدعامة التي أُلقيت في قاعه، وبالمثل يجب إلقاء القاروك فيه». جرت المشادة بنبرة صوت منخفضة، وانتهت بأن نزع التاجر الأمين حذاءه المتسخ بالطين، واستلقى بطوله على أرضية الغرفة. وبعد أن ألقى عليه ابنه نظرة خجولة وهو مستلقٍ على ظهره، ويداه الصدئتان تحت رأسه كوسادة، استلقى هو الآخر ونام ثانية.

لم يكن هناك سمك لوجبة الإفطار، وليس الكثير من أي شيء آخر. كان السيد كرانشر منقبض الصدر ومعتل المزاج، ويحتفظ بغطاء وعاء حديدي بجانبه كأداة لتأديب السيدة كرانشر في حال لاحظ أي عرض من أعراض تلاوة صلاة قصيرة. استحمَّ وسرح شعره في الساعة المعتادة، ثم انطلق مع ابنه لمتابعة مهمته الظاهرية.

كان جيرى الصغير، الذي يسير والمقعد تحت ذراعه إلى جانب والده على طول شارع فليت الشمس والمزدحم، مختلفاً تماماً عن جيرى الصغير في الليلة السابقة، حيث كان يركض إلى المنزل في الظلام والعزلة من مُطارده الكئيب. تجدد دهاؤه مع طلوع النهار، وتبددت مخاوفه مع انتهاء الليل؛ وهي حالة ليس من غير المحتمل أن يشاركه في تفاصيلها أقران في شارع فليت ومدينة لندن، في ذلك الصباح الجميل.

«يا أبي»، قال جيرى الصغير خلال سيرهما، مع حرصه على البقاء على بُعد ذراع من والده، وأن يحول الكرسي بينهما بشكل جيد: «ما معنى سارق الجثث؟».

توقف السيد كرانشر على الرصيف قبل أن يجيب: «كيف لي أن أعرف؟».

«اعتقدتُ أنك تعرف كل شيء، يا أبي»، قال الصبي الساذج.
«همم! حسنًا»، أجاب السيد كرانشر، مستأنفًا سيره، ورافعًا قبعته
ليطلق العنان لشعره الشائك: «إنه تاجر».

فسأله جيري الشاب بحيوية: «وما بضاعته يا أبي؟».
قال السيد كرانشر، بعد أن قلبَّ الأمر في ذهنه: «بضاعته هي فرع
من السلع العلمية».

«أجساد الأشخاص، أليس كذلك يا أبي؟»، سأله الصبي المفعم
بالحيوية.

قال السيد كرانشر: «أعتقد أنه شيء من هذا النوع».
«أوه، يا أبي، أود أن أكون سارق جثث عندما أكبر بما يكفي
تمامًا!».

هدأ السيد كرانشر، لكنه هز رأسه بطريقة مريبة وأخلاقية. «يعتمد
الأمر على كيفية تطوير مواهبك، كن حريصًا على تنمية مواهبك، ولا
تقل أبدًا أكثر مما يمكنك أن تساعد به أي شخص، ولا نعرف في الوقت
الحالي ما الذي قد لا تصلح له فيما بعد». تشجع جيري الصغير بهذا
الحديث، فتقدم عدة ياردات لوضع المقعد الخفيض في ظل تمبل بار.
أضاف السيد كرانشر بينه وبين نفسه: «جيري، أيها التاجر الأمين، هناك
أمل أن يصبح هذا الصبي نعمة لك، وتعويضًا لك عن والدته!».

الفصل الخامس عشر

الحياكة

بدأ الشُّرب في وقت أبكر من المعتاد في متجر نبيذ السيد ديفارج. فمنذ الساعة السادسة صباحًا، كانت الوجوه الشاحبة التي تختلس النظر من قضبان النوافذ تضم داخلها وجوهًا أخرى منحنية على كؤوس النبيذ. يبيع السيد ديفارج نبيذًا خفيفًا جدًّا في أفضل الأوقات، لكن النبيذ الذي كان يبيعه في ذلك الوقت كان يبدو خفيفًا على نحوٍ غير معتاد. علاوة على ذلك، كان النبيذ حامضًا، أو مُحَمَضًا؛ إذ يترك تأثيرًا كئيبيًا على مزاج شاربيه. لم يقفز أي لهب باخوسي^(١) مفعم بالحيوية من أعناب السيد ديفارج المعصورة: بل كانت هناك نار مشتعلة، مُخبأة في بقاياها، وتتقد في الظلام.

كان هذا هو الصباح الثالث على التوالي، حيث بدأ الشُّرب مبكرًا في متجر نبيذ السيد ديفارج. لقد بدأ يوم الاثنين، وها قد أتى يوم الأربعاء. كان التفكير أكثر تبكيّرًا من الشُّرب؛ ذلك أن العديد من الرجال كانوا يستمعون ويتهامسون ويتسللون هناك منذ فتح الباب، ولم يكن في

(١) اللهب الباخوسي، نسبة إلى باخوس (Bacchus) وهو إله النبيذ، واللهب الباخوسي يعني الانتشاء الصاخب أو الاحتفالي - (الترجمة).

وسعهم وضع قطعة من المال على المنضدة لإنقاذ أرواحهم. ومع ذلك، كانوا في غاية الاهتمام بالمكان، كأنهم يستطيعون طلب براميل كاملة من النبيذ؛ وأخذوا ينتقلون من مقعد إلى مقعد، ومن ركن إلى ركن، مبتلعين الكلام بدلاً من الشراب، بنظرات جشعة.

على الرغم من تدفق الرفاق غير العادي، لم يكن صاحب متجر النبيذ مرئياً، لم يفتقده أحد؛ فلم يبحث عنه أحد ممن مروا عبر العتبة، ولم يسأل عنه أحد، ولم يتعجب أحد لرؤية السيدة ديفارج فقط في مقعدها، تشرف على توزيع النبيذ، وأمامها وعاء من عملات معدنية صغيرة مُهترئة، بقدر ما تشوهت وتلاشى طابعها الأصلي، مثل العملات الصغيرة التي أتت من جيوب البشر الممزقة.

ربما كان توقف الاهتمام وسيادة غياب العقل مُلاحظاً من جانب الجواسيس، الذين ينظرون إلى متجر النبيذ، وإلى كل مكان، مرتفع ومنخفض، من قصر الملك إلى سجن المجرمين. كانت ألعاب الورق فاترة الهمّة، ولاعبو الدومينو في حالة تأمل وهم يننون بها أبراجاً، ويرسم الشاربون أشكالا على الطاولات بقطرات النبيذ المنسكب، وأخذت حتى السيدة ديفارج تلتقط النقش على كمها بعود أسنانها، ورأت وسمعت شيئاً غير مسموع وغير مرئي بعيداً جداً.

وهكذا، ظلت سيماء الخمر تسود ضاحية القديس أنطوان حتى منتصف النهار. كان وقت الظهيرة في أوجه، عندما مرّ رجلان يغطيها التراب في شوارعهم وتحت مصابيحهم المتأرجحة: كان أحدهما السيد ديفارج؛ وكان الآخر هو مُصلح طرق يرتدي قبعة زرقاء. دخل الاثنان

متجر النيذ، يكسوهما التراب ويشعران بالعطش. أشعل وصولهما نوعًا من النار في صدر القديس أنطوان، وسرعان ما انتشرت مع مرورهما، مشتعلة وتومض في لهيب الوجوه عند معظم الأبواب والنوافذ. ومع ذلك، لم يتبعهما أحد، ولم يتكلم أحد عند دخولهما متجر النيذ، على الرغم من أن عيني كل رجل هناك كانت موجهة نحوهما.

حيّا السيد السيد ديفارج رواد متجره قائلاً: «طاب يومكم، أيها السادة!».

ربما كانت إشارة لتخفيف عقدة الألسنة بشكل عام؛ فقد أثارت ردًا جماعيًا: «طاب يومك!».

قال ديفارج وهو يهز رأسه: «يا له من طقس سيئ، أيها السادة».

وعندئذٍ نظر كل رجل إلى جاره، ثم خفضوا أبصارهم وجلسوا صامتين، باستثناء رجل واحد قام وغادر المكان.

قال ديفارج بصوت عالٍ، مخاطبًا السيدة ديفارج: «لقد سافرت، يا زوجتي، عدة فراسخ مع مُصلِح الطرق الجيد هذا، واسمه جاك. التقيت به مصادفة في رحلة يوم ونصف خارج باريس. إنه طفل جيد، مُصلِح الطرق هذا، واسمه جاك. أعطيه شيئًا يشربه، يا زوجتي!».

نهض رجل ثانٍ وخرج. وضعت السيدة ديفارج النيذ أمام مُصلِح الطرق المُسمى جاك، وقد خلع قبعته الزرقاء تحية للمجموعة، وشرب. كان يحمل في صدر قميصه بعض الخبز الأسود الخشن، يأكل منه بين الحين والآخر، وجلس يمضغ ويشرب بالقرب من طاولة السيدة ديفارج. نهض رجل ثالث وخرج.

أنعش ديفارج نفسه بجرعة من النبيذ - لكنه شرب أقل مما أُعطي للرجل الغريب؛ ذلك أنه هو نفسه لم يعتد أن يشرب النبيذ - ووقف ينتظر حتى ينتهي الرجل الريفي من فطوره. لم ينظر إلى أي من الموجودين، ولم ينظر إليه أحد الآن؛ ولا حتى السيدة ديفارج، التي أخذت في الحياكة، وانشغلت في العمل.

سأله ديفارج في الوقت المناسب: «هل انتهيت من وجبتك يا صديقي؟».

«نعم، شكرًا لك».

«تعال، إذن! لترى الشقة التي أخبرتك أن في إمكانك شغلها، سوف تناسبك إلى حدٍّ مدهش».

غادرا متجر النبيذ إلى الشارع، ومن الشارع إلى الساحة، ومن الساحة إلى سُلّم شديد الانحدار، ومن السُلّم إلى عِلْيَةٍ - إنها العلية التي سبق أن جلس فيها رجل أبيض الشعر على مقعد منخفض، وهو ينحني إلى الأمام ومنشغل للغاية، يصنع الأحذية.

لم يكن هناك رجل أبيض الشعر الآن؛ وإنما كان هناك الرجال الثلاثة الذين خرجوا من متجر النبيذ منفردين. كان بينهم وبين الرجل أبيض الشعر الأبيض الذي يسكن بعيدًا الآن، رابطٌ صغيرٌ وحيد: إنهم نظروا إليها ذات مرة من خلال شقوق الجدار.

أغلق ديفارج الباب بعناية، وتحدث بصوت خافت:

«جاك واحد، جاك اثنين، جاك ثلاثة! وهذا هو جاك أربعة، الشاهد

الذي قابلته أنا بناء على موعد. سوف يخبركم بكل شيء. تكلم يا جاك خمسة!».

قام مُصلح الطرق، وفي يده قبعة زرقاء مسح بها جبينه الأسمر، وقال: «من أين أبداً يا سيدي؟».

أجاب السيد ديفارج إجابة لم تكن غير منطقية: «فلتبدأ من البداية». بدأ مُصلح الطرق: «لقد رأيته إذن، أيها السادة قبل عام من هذا الصيف الجاري، تحت عربة الماركيز، مُعلّقاً بالسلسلة، انظروا كيف كان الوضع؛ غادرت عملي على الطريق، والشمس في طريقها إلى النوم، وعربة الماركيز تصعد التل ببطء، وهو معلق بالسلسلة... هكذا». أدى مُصلح الطريق المشهد كله مرة أخرى؛ وقد برع في الأداء حينذاك، حيث كان المصدر المعصوم من الخطأ وبعد أن ظل يؤديه لقرينته كترفيه لا غنى عنه طوال عام كامل.

قاطعته جاك واحد، وسأله عما إذا كان قد رأى الرجل من قبل؟ «مطلقاً»، أجاب مُصلح الطرق، وهو يستعيد وقوفه.

سأله جاك ثلاثة كيف تعرّف عليه بعد ذلك؟

قال مُصلح الطرق بهدوء، وبإصبعه على أنفه: «من قامته الطويلة، وعندما سألني السيد الماركيز في ذلك المساء «قل لي، كيف يبدو؟» أجبت: «طويل القامة كشبح»».

علّق جاك اثنين: «كان يجب أن تقول: قصير مثل قزم».

«لكن، من أين لي أن أعرف؟ لم يكن الفعل قد أُنجِز حينذاك،

كما أنه لم يأتمني على شيء. ضع في حسابك! أنني، حتى في ظل تلك الظروف، لا أقدم شهادتي. يشير السيد الماركيز نحوي بإصبعه، وهو يقف بالقرب من نبعا الصغير، ويقول: «أحضروه! أحضروا هذا الوغد!». وأقسم لكم، أيها السادة، أنني لا أقدم شيئاً.

تمتم ديفارج لمن قاطعه: «ما قاله صحيح، جاك. واصل حديثك!». «جيد!»، قال مصلح الطرق في جوٍّ من الغموض: «الرجل الطويل مفقود، ويبحثون عنه... منذ كم شهراً؟ تسعة، عشرة، أحد عشر؟». قال ديفارج: «العدد ليس مهماً، إنه مخفي جيداً، لكنهم، لسوء الحظ، عثروا عليه في النهاية، استمر».

«أنا في عملي، مرة أخرى، على جانب التل، والشمس على وشك الذهاب إلى النوم مرة أخرى، أجمع أدواتي لأهبط إلى كوكبي في القرية أدناه، حيث حل الظلام بالفعل، عندما أرفع عيني، وأرى ستة جنود قادمين من فوق التل. في وسطهم رجل طويل القامة وذراعا مقيدتان، مربوطتان بجانبيه... هكذا!».

بمساعدة قبعته التي لا غنى عنها، قام بأداء تمثيلي لرجل بمرفقيه مقيدان بقوة إلى وركيه بجبالٍ معقودة خلفه.

«أقف جانباً، يا سادتي، بجانب كومة الحجارة، لأرى الجنود وسجينهم يمرون (لأنه طريق منعزل، وأي مشهد فيه يستحق النظر إليه). وفي البداية، عندما أخذوا يقتربون، لا أرى أكثر من أنهم ستة جنود مع رجل طويل القامة ومُقيّد، وأنهم سود تقريباً في عيني، باستثناء

جانب الشمس الذهاب إلى النوم، حيث لديهم حافة حمراء، يا سادتي. أرى أيضًا أن ظلالهم الطويلة تقع على الحافة المجوفة على الجانب الآخر من الطريق، وعلى التل الذي فوقه، مثل ظلال العمالقة. أرى أيضًا أنهم مغطون بالتراب، وأن الغبار يتحرك معهم وهم يتقدمون بخطوات عسكرية! وعندما يتقدمون بالقرب مني، أتعرف على الرجل الطويل، ويتعرف عليّ. آه، لكنه كان سيتمنى أن يلقي بنفسه على جانب التل مرة أخرى، كما حدث في المساء الذي التقينا فيه أول مرة، بالقرب من المكان نفسه!».

لقد وصف المشهد كما حدث هناك تمامًا، ويبدو جليًا أنه رآه بوضوح؛ ربما لم ير الكثير في حياته.

«أنا لم أظهِر للجنود أنني تعرفت على الرجل الطويل؛ ولم يُظهر هو للجنود أنه تعرّف عليّ، تعرّف كلُّ منا على الآخر، وعرفنا ذلك، بنظرات أعيننا». قال قائد تلك المجموعة، مُشيرًا إلى القرية: «هيا! أحضروه سريعًا إلى قبره!» وأسرعوا بإحضاره. وأنا أتابعهم. كانت ذراعاه متورمتين بسبب تقييده بإحكامٍ شديد، وكان حذاؤه الخشبي كبيرًا وسخيفًا، وهو أعرج. ولأنه أعرج، وبالتالي بطيء، كانوا يدفعونه ببنادقهم... هكذا!».

وقام بتقليد حركة الرجل الذي دفعته إلى الأمام أعقاب البنادق. «وبينما كانوا يهبطون التل كالمجانين الذين يركضون في سباق، يسقط الرجل. يضحكون ويُنهضونه على قدميه مرة أخرى. وجهه ينزف ومغطى بالتراب، لكنه لا يستطيع لمسّه؛ وعندئذٍ يضحكون

ثانية. أحضروه إلى القرية. تركض القرية كلها لتشاهد. يمرون به عبر الطاحونة ومنها إلى السجن. كل القرية ترى بوابة السجن مفتوحة في ظلام الليل، وتبتلعه... هكذا!».

فتح فمه على اتساعه قدر استطاعته، وأغلقه بصوت عالٍ ناتج عن إطباق فكيه. قال ديفارج، نظرًا إلى عدم رغبته في إفساد التأثير بفتح فمه ثانية، «استمر يا جاك».

واصل مصلح الطرق، وهو يقف على أطراف أصابعه، وبصوت منخفض: «تسحب القرية كلها، وتتهامس القرية كلها بجانب النبع. تنام القرية كلها، تحلم القرية كلها بذلك التعيس، داخل أقفال وقضبان السجن فوق الصخرة، ولن يخرج منه أبدًا، إلا لهلاكه. وفي الصباح، وأنا أضع أدواتي على كتفي، وأتناول لقمة الخبز الأسمر وأنا في طريقي إلى عملي، مشيت بجوار السجن. وهناك في أعلى، خلف قضبان قفص حديدي شاهق، أراه؛ مُغطى بالدماء والتراب كما في الليلة الماضية، ينظر من خلال القضبان، ليس لديه يد غير مقيدة ليلوح لي بها. لا أجرؤ على مناداته. ينظر نحوي كأنه رجل ميت».

نظر ديفارج والثلاثة إلى بعضهم نظرة سوداوية. كانت نظراتهم جميعًا سوداوية، ومكبوتة، وانتقامية، وهم يستمعون إلى قصة الرجل الريفي. وعلى الرغم من أن أسلوب كل منهم كان مستترًا، فقد كان سلطويًا أيضًا. بدا عليهم جو محكمة قاسية؛ حيث جلس جاك الأول وجاهك الثاني على سرير خشبي قديم، وكل منهما يسند ذقنه على يده، وعينهان مركزتان على مصلح الطريق. وجلس جاك الثالث، بنفس القدر

من التركيز، على ركبة واحدة خلفهم، ويده المضطربة تنزلق دائمًا على شبكة الأعصاب الدقيقة حول فمه وأنفه. وكان ديفارج يقف بينهم وبين الراوي -الذي كان قد أجلسه في ضوء النافذة- وأخذ ينقل بصره بالتناوب منه إليهم، ومنهم إليه.

قال ديفارج: «أكمل، يا جاك».

«يستمر باقيًا هناك في قفصه الحديدي لبعض أيام، والقرية تختلس النظر إليه، لأنها خائفة، لكنها تنظر دائمًا، من مسافة بعيدة، إلى السجن القائم فوق الصخرة. وفي المساء، بعد إنجاز عمل اليوم، تتجمع القرية عند النبع للثرثرة، وتتجه جميع الوجوه نحو السجن. كانت أنظارهم تتجه في السابق نحو مكتب البريد؛ أما الآن، فهي تتجه نحو السجن. يتهامسون عند النبع أن الرجل لن يُعدم، على الرغم من صدور الحكم عليه بالإعدام؛ ويقولون إن التماسات قُدمت في باريس، توضح أنه غضب وفقد عقله بسبب وفاة ابنه؛ ويتحدثون عن التماس قُدم إلى الملك نفسه. كيف لي أن أعرف؟ هذا ممكن. ربما نعم، وربما لا».

تدخل الشخص الأول الذي يحمل هذا الاسم، قائلاً بصرامة: «اسمع إذن، يا جاك، نعرف عن تقديم التماس إلى الملك والملكة؛ كلنا هنا، باستثناءك، رأينا الملك يتسلمها وهو جالس بجوار الملكة في عربته خلال سيرها في الشارع. إنه ديفارج، الذي تراه هنا، هو الذي خاطر بحياته وانطلق أمام الخيول، والالتماس في يده».

«ومرة أخرى اسمع يا جاك!»، قال جاك ثلاثة الرাকع، وأصابعه تتجول مرارًا وتكرارًا فوق تلك الأعصاب الدقيقة بنبرة جشع لافت

للنظر، كأنه يشتهي شيئاً ما ليس طعاماً أو شرباً: «أحاط الحرس،
المُشاة وراكبو الخيل، بالرجل الذي قدّم الالتماس وأوسعوه ضرباً. هل
تسمع؟».

«أسمع، أيها السادة».

قال ديفارج: «تابع إذن».

استأنف الريفي كلامه: «ومره ثانية، من ناحية أخرى، أخذوا
يتهامسون عند النبع، قائلين إنه أُحْضِرَ إلى قريتنا ليُعدم على الفور،
وسوف يُعدم بالتأكيد. بل ويتهامسون أنه قتل صاحب السيادة، الذي
كان بمنزلة الأب لمستأجريه -الأقنان، أو ما شئت- فسوف يُعدم
بوصفه قاتل أبيه. ويقول رجل عجوز عند النبع، إن يده اليمنى التي
تسلحت بالسكين سوف تُحرق أمام وجهه؛ وسوف يُسكب الزيت
المغلي، والرصاص المُذاب، والراتنج الساخن، والشمع، والكبريت،
في الجروح التي ستحدث في ذراعيه وصدره وساقيه؛ وأخيراً، سوف
تُمزق أطرافه باستخدام أربعة خيول قوية. هذا ما يقوله ذلك الرجل
العجوز؛ فكل هذا حدث بالفعل لسجين قام بمحاولة اغتيال الملك
الراحل لويس الخامس عشر، لكن، كيف أعرف أنه يكذب؟ أنا لست
عالمًا».

قال الرجل ذو اليد المضطربة، الذي بدا مشتتاً شيئاً ما: «إذن،
اسمع مرة أخرى، يا جاك! كان اسم ذلك السجين داميان، وحدث
ذلك كله في وضع النهار، في الشوارع المفتوحة لمدينة باريس هذه.
ولم يلفت النظر شيء في الجمع الغفير الذي شهد ذلك أكثر من حشد

السيدات ذوات الحسب النبيل والأزياء الراقية، اللاتي امتلأن بالاهتمام المتلهف حتى النهاية - حتى النهاية، يا جاك، أي طوال استمرار المشهد حتى حلول الظلام، عندما فقد ساقيه وإحدى ذراعيه، وما زال يتنفس! لقد فعلن ذلك - كيف لا تعرف، كم عمرك؟».

«خمسة وثلاثون»، قال مصلح الطرق، الذي بدا في الستين.

«لقد حدث ذلك عندما كان عمرك أكثر من عشر سنوات؛ ربما تكون قد رأيته».

قال ديفارج بنفاد صبر متجهم: «كفى! يعيش الشيطان! تابع كلامك».

«حسنًا! يتهامس البعض بهذا، ويتهامس البعض بذاك، لا يتحدثون عن أي شيء آخر. حتى مياه النبع، يبدو أنها تتساقط وفق هذا اللحن. وأخيرًا، في ليلة الأحد والقرية كلها نائمة، يأتي الجنود، هابطين من السجن، وبنادقهم تدوي فوق حجارة الشارع الصغير. عمال يحفرون، عمال يطرَقون، وجنود يضحكون ويغنون، وفي الصباح، بجانب النبع، تقف مشنقة عالية بارتفاع أربعين قدم، فتُسَمِّم مياه النبع».

أمعن مصلح الطرق النظر خلال السقف المنخفض وليس نحوه، وأشار كأنما يرى المشنقة في مكان ما في السماء.

«توقفت الأعمال كلها، واحتشد الجميع هناك، وظلت الأبقار مع البقية، ولم يَقم أحد بإخراجها. وفي منتصف النهار، قُرعت الطبول. دخل الجنود السجن ليلاً، وهو وسط العديد منهم، ومُقيّد كما كان من

قبل، وفي فمه كمّامة مربوطة بخيط مشدود، ما يجعله يبدو تقريباً كأنه يضحك». وقد أوحى بذلك من خلال تجعيد وجهه بإبهاميه، من زوايا فمه إلى أذنيه. «وكان مُثبتاً في الجزء العلوي من المشنقة سكين، نصّله إلى أعلى وطرفه في الهواء. لقد شُنق هناك على ارتفاع أربعين قدماً، وثُرك معلقاً، يُسمّم الماء».

نظروا إلى بعضهم، وهو يستخدم قبعته الزرقاء لمسح وجهه، الذي بدأ يتصبّب عرقاً من جديد وهو يتذكر المشهد.

«إنه أمر مخيف، أيها السادة. كيف يمكن للنساء والأطفال سحب الماء! من يمكنه أن يثرثر في أي أمسية، تحت هذا الظل! هل قلت تحته؟ عندما غادرت القرية مساء الاثنين، والشمس في طريقها إلى النوم، ونظرت خلفي من التل، بدا أن الظل يغطي الكنيسة، ويغطي الطاحونة، ويغطي السجن؛ بدا كأنه ينتشر عبر الأرض، أيها السادة، إلى حيث تستقر عليها السماء!».

قضم الرجل الجائع إحدى أصابعه وهو ينظر إلى الثلاثة الآخر، وارتعشت إصبعه من شدة الشهوة التي تعتريه.

«هذا كل شيء، أيها السادة، غادرتُ عند غروب الشمس (كما جرى تحذيري أن أفعل ذلك)، ومشيت طوال تلك الليلة ونصف اليوم التالي، حتى قابلت (كما جرى تحذيري أنني يجب أن أقابله) هذا الرفيق، وجئت معه، راكباً أحياناً وسائراً أحياناً، خلال بقية الأمس وخلال الليلة الماضية، وها أنتم ترونني!».

بعد صمتٍ كئيبٍ، قال جاك واحد: «جيد! لقد تصرفت ورويت بأمانة، هل تنتظرنا قليلاً، خارج الباب؟».

«عن طيب خاطر»، قال مصلح الطرق، ورافقه ديفارج إلى أعلى السلم، وتركه جالساً هناك، وعاد إليهم.

عندما عاد إلى العلية، كان الثلاثة قد نهضوا، يتشاورون.

سأل رقم واحد: «ماذا تقول يا جاك؟ أن نُسجل أسماءهم في القائمة؟».

أجاب ديفارج: «أن يجري تسجيلهم باعتبارهم محكوماً عليهم بالهلاك».

صاح الرجل ذو الشهوة: «رائع!».

استفسر الأول: «القصر، والسلالة كلها؟».

أجاب ديفارج: «القصر والسلالة كلها، إبادة».

كرر الرجل الجائع، بصوت نعيق مفعم بالحيوية: «رائع!»، وبدأ يقضم إصبعاً أخرى.

سأل جاك الثاني ديفارج: «هل أنت متأكد من أن طريقتنا في الاحتفاظ بالسّجل لن تتسبب في أي إحراج؟ لا شك أنها طريقة مأمونة؛ فلا يمكن لأحدٍ غيرنا فك شفرتها. لكن، هل سنكون قادرين دائماً على فك شفرتها ... أو، يجب أن أقول، هل ستمكن هي من ذلك؟».

أجاب ديفارج، وهو يستجمع قواه: «جاك، إذا تعهدت السيدة زوجتي بالاحتفاظ بالسجل في ذاكرتها وحدها، فلن تفقد كلمة واحدة

منه، ولا مقطعاً لفظياً منه. ولأنها ستحيكه بغرزها ورموزها الخاصة، سيكون واضحاً دائماً لها مثل الشمس، ثق بالسيدة ديفارج؛ قد يصبح من الأسهل على أضعف جبان في قيد الحياة أن يمحو نفسه من الوجود، من أن يمحو حرفاً واحداً من اسمه أو جرائمه من السجل الذي تحيكه السيدة ديفارج».

سادت غمغمة من الثقة والموافقة، ثم سأل الرجل الجائع: «هل نُعيد هذا الريفى قريباً؟ أتمنى ذلك، إنه شخص بسيط جداً؛ ألا يشكل خطراً بعض الشيء؟».

قال ديفارج: «إنه لا يعرف شيئاً، على الأقل لا شيء أكثر من رفع نفسه بسهولة إلى مشنقة من نفس الارتفاع. أنا أتكفل به؛ دعوه يبقى معي؛ سأعتني به وأريه طريقه، إنه يرغب في رؤية العالم الجميل... الملك، والملكة، والبلاط. دعوه يراهم يوم الأحد».

«ماذا؟»، صاح الرجل الجائع مُحدِّقاً: «هل هذه علامة جيدة، أنه يرغب في رؤية الملوك والنبلاء؟».

«جاك»، قال ديفارج، «أظهر الحليب للقطعة بحكمة، إذا كنت ترغب في أن تتعطش إليه، وأظهر للكلب فريسته الطبيعية بحكمة، إذا كنت ترغب في أن يطاح به يوماً ما».

لم يُقل أي شيء آخر. ونُصح مصلح الطرق -الذي وجدوه يغفو بالفعل أعلى السلم- بالاستلقاء على السرير الخشبي، وأخذ قسطٍ من الراحة، لم يكن في حاجة إلى الإقناع، وسرعان ما نام.

كان يسهّل العثور في باريس على مكان أسوأ من متجر ديفارج للنبيذ، لعبدٍ ريفي من تلك الطبقة. باستثناء خوفه الغامض -الذي يطارده باستمرار- كانت حياته جديدة وممتعة جدًا. لكن السيدة كانت تجلس طوال اليوم أمام منضدتها، غير واعية بوجوده على الإطلاق، ومُصمّمة بشكلٍ خاص على عدم إدراك أن وجوده هناك له أي صلة بأي شيء تحت السطح، إلى درجة أنه كان يهز حذاءه الخشبي كلما وقعت عيناه عليها. ولأنه أكد لنفسه استحالة التنبؤ بما قد تتظاهر به تلك السيدة بعد ذلك، وتأكد أنها إذا ما دار برأسها، المزخرف بألوان زاهية، أن تتظاهر بأنها رأتَه يرتكب جريمة قتل وبعدها يسلم الضحية، فإنها ستمضي في ذلك دون أدنى خطأ حتى تنتهي المسرحية.

ولذلك، عندما جاء يوم الأحد، لم يكن مصلح الطرق سعيدًا (على الرغم من قوله إنه كان سعيدًا) عندما عرف أن السيدة سوف ترافقه هو والسيد إلى فرساي. علاوة على ذلك، أقلقته أيضًا أن تستمر السيدة في الحياكة على طول الطريق، في وسيلة نقل عامة، كما أقلقته أن تواصل السيدة الحياكة وسط الحشد بعد الظهر، بينما ينتظرون لرؤية عربة الملك والملكة.

قال رجل بالقرب منها: «أنتِ تعملين جدًّا يا سيدتي».

«نعم»، أجابت السيدة ديفارج، «لديّ الكثير من العمل».

«ماذا تصنعين، سيدتي؟».

«العديد من الأشياء».

«على سبيل المثال....».

أجابت السيدة ديفارج، برباطة جأش: «على سبيل المثال، الأكفان». ابتعد الرجل قليلاً، بأسرع ما يستطيع، وأخذ مُصلح الطرق يُرَوِّح نفسه بقبعته الزرقاء؛ شاعراً بمدى قربها وقسوتها. إذا احتاج إلى ملك ومملكة لاستعادة نفسه، فمن حسن حظه أن علاجه في متناول اليد؛ إذ سرعان ما وصل الملك ذو الوجه العريض والملكة ذات الوجه الجميل في عربتهما الذهبية، محاطين بجمهرة لامعة من رجال البلاط، وحشد متألق من السيدات الضاحكات واللوردات الرائعين. انتشى مُصلح الطرق عند رؤية الجواهر، والحرير، والمساحيق، والأُبَّهة، والشخصيات الأنيقة المتكبرة، والوجوه الوسيمة المترفعة من الجنسين؛ انتشى في سكرة مؤقتة، إلى درجة أنه صاح «يعيش الملك، تعيش الملكة، يعيش الجميع وكل شيء!» كأنه لم يسمع قطُّ عن جاك الموجود في كل مكان في عصره. ثم شاهد حداثق، وساحات، وشرفات، ونافورات، ومساحات خضراء، والملك والملكة ثانية، ومزیداً من رجال الحاشية، ومزیداً من اللوردات والسيدات؛ كرر هتافه يعيش كل شيء! حتى بكى تماماً من فرط الانفعال. وطوال هذا المشهد كله، الذي استمر ثلاث ساعات تقريباً، استمر في الصياح والبكاء والصُّحبة العاطفية. وطوال هذا المشهد كله، أمسكه ديفارج من ياقته، كما لو كان يمنعه من الطيران نحو الأشخاص الذين يخلص لهم لفترة قصيرة ثم يمزقهم إلى أشلاء.

«برافو!»، قال ديفارج، وهو يربت على ظهره عندما انتهى، مثل الراعي: «أنت ولد طيب!».

كان مصلح الطرق يستعيد نفسه الآن، وغير متأكد إن كان ارتكب خطأ في مظاهرته الأخيرة؛ لكن لا.

همس ديفارج في أذنه: «أنت الزميل الذي نريده، أنت تجعل هؤلاء الحمقى يعتقدون أنهم سيستمرون إلى الأبد، هم الأكثر طغياناً، والأقرب إلى النهاية».

«مهلاً!»، صاح مصلح الطرق، وهو يفكر متأملاً: «هذا صحيح».

«هؤلاء الحمقى لا يعرفون شيئاً، ففي حين يحتقرون أنفاسك، وعلى استعدادٍ لإيقافها إلى الأبد في صدرك أو في صدور مائة مثلك، على ألا يوقفوها في صدر أحد خيولهم أو كلابهم، فإنهم لا يعرفون سوى ما تخبرهم به أنفاسك، دعها تخذعهم، إذن، فترة أطول قليلاً؛ فلا يمكنها أن تخذعهم كثيراً».

نظرت السيدة ديفارج باستعلاء إلى الزبون، وأومات برأسها للتأكيد.

قالت: «أما أنت، فإنك تصرخ وتذرف الدموع على أي شيء، إذا كان عرضاً وضحيّاً. تكلم! أليس كذلك؟».

«حقاً، سيدتي، أعتقد ذلك، في الوقت الحالي».

«إذا عرضت عليك كومة كبيرة من الدُّمى، وفُرض عليك تمزيقها إلى أشلاء ونهبها لمصلحتك، فتختار أغناها وأبهجها. تكلم! أليس كذلك؟».

«حقاً، نعم، سيدتي».

«نعم، وإذا عُرِضَ عليك سِرْبٌ من الطيور غير قادر على الطيران،
وفُرضَ عليك نزع ريشها لمصلحتك، فستختار أجود الطيور ريشًا،
أليس كذلك؟».

«هذا صحيح، سيدتي».

«لقد رأيت اليوم كلاً من الدمى والطيور»، قالت السيدة ديفارج،
ملوحة بيدها نحو المكان الذي ظهرت فيه تلك المشاهد للمرة الأخيرة؛
«الآن، اذهب إلى المنزل!».

الفصل السادس عشر

لا تزال الحياكة مستمرة

عادت السيدة ديفارج والسيد زوجها بأمان إلى حضن القديس أنطوان، بينما كانت نقطة ترتدي قبعة زرقاء تكدح في الظلام خلال التراب، وتهبط على جانب الشارع أميال الطريق المُرّهقة، ومتجهة ببطء نحو تلك النقطة من البوصلة حيث يقع قصر السيد الماركيز، الذي يستمع في قبره الآن إلى الأشجار الهامسة. كان لدى الوجوه الحجرية وقت فراغ الآن للاستماع إلى الأشجار والنافورة، إلى درجة أن القلائل من فزاعات القرية التي تتسكع أمام الفناء الحجري الكبير وسُلم الشرفة - بحثًا عن أعشاب للأكل وأعواد يابسة يحرقونها - كانوا يتوهمون بخيالهم الجائع أن تعبير الوجوه قد تغير. انتشرت للتو شائعة في القرية - شائعة باهتة وجرداء مثل أهل القرية - مفادها أن السكين عندما اقتحم البيت، تغيرت الوجوه، من وجوه الكبرياء إلى وجوه الغضب والألم. وأيضًا، عندما سُحِب هذا الجسد المتدلي على ارتفاع أربعين قدمًا فوق النبع، تغيرت الوجوه مرة أخرى، وحملت نظرة الانتقام القاسية التي ستحملها من الآن فصاعدًا إلى الأبد. وفي الوجه الحجري، فوق النافذة الكبيرة لغرفة النوم التي حدث فيها القتل، ظهرت

نقرتان جميلتان في الأنف المنحوت، رآهما الجميع، ولم يكن أحد قد شاهدهما قديمًا. وفي المرات النادرة التي خرج فيها من الجمع فلاحان أو ثلاثة من الفلاحين ذوي الثياب الرثة لإلقاء نظرة خاطفة على السيد الماركيز المتحجر، لم يكن أي إصبع نحيفة تشير إليه لمدة دقيقة، قبل أن ينطلقوا جميعًا إلى حيث الطحالب وأوراق الشجر، مثل الأرناب البرية المحظوظة التي يمكن أن تجد رزقها هناك.

كان يقع تحت سماء الليل، مُرَكَّزًا في خطٍّ باهتٍ بعرض شعرة، القصر والكوخ، والوجه الحجري والجسم المتدلي، والبقعة الحمراء على الأرضية الحجرية، والمياه النقية في بئر القرية، آلاف الأفدنة من الأرض، مقاطعة كاملة من فرنسا، بل فرنسا نفسها برمتها، وكذلك العالم كله، بكل عظمته وضعفه، يكمن في نجم متألئ. وبما أن مجرد المعرفة البشرية يمكنها أن تقسم شعاعًا من الضوء، وتحلل طريقة تكوينه، كذلك يمكن للعقول السامية أن تقرأ في تألُّق أرضنا هذه الضعيف كل فكر وفعل، وكل رذيلة وفضيلة كل مخلوق عليها يتولى مسؤولية.

أقبل الزوجان ديفارج، الزوج والزوجة، متناقلين تحت ضوء النجوم، في العربة العامة التي استقلَّوها، إلى بوابة باريس التي كانت رحلتها تتجه إليها بشكلٍ طبيعي. توقفت العربة كالمتعاد عند حاجز الحراسة، وجاءت الفوانيس المعتادة لإلقاء نظرة خاطفة بهدف الفحص والاستفسار المعتادين. ترجَّل السيد ديفارج؛ لأنه كان يعرف واحدًا أو اثنين من الجنود هناك، وواحدًا من الشرطة. وكان صديقًا حميمًا لهذا الأخير، فاحتضنه بمودة.

عندما أحاط القديس أنطوان الزوجين ديفارج مرة أخرى بجناحيه الداكنين، وبعد أن نزلا أخيراً بالقرب من حدوده، شقاً طريقهما سيراً على الأقدام عبر الوحل الأسود ومخلفات شوارع، تحدثت السيدة ديفارج إلى زوجها:

«أخبرني، إذن، يا صديقي، ماذا قال لك جاك الشرطي؟».

«القليل جداً هذه الليلة، لكنه أخبرني بكل ما يعرفه؛ لقد كُلف جاسوس آخر لحينا، ربما يوجد الكثيرون، لكنه لا يعرف سوى واحد».

«إييه، حسناً!»، قالت السيدة ديفارج، ورفعت حاجبيها بطريقة تجارية باردة، «من الضروري تسجيله، ما اسم هذا الرجل؟».

«إنه إنجليزي».

«هذا أفضل بكثير، ما اسمه؟».

«بارساد»، قال ديفارج، ونطق الاسم بلكنة فرنسية، لكنه كان شديداً الحرص على نقله إليها بدقة، حتى إنه تهجأ الاسم بعد ذلك على نحو صحيح تماماً.

«بارساد»، كررت السيدة، «جيد، اسم مسيحي؟».

«جون».

«جون بارساد»، كررت السيدة الاسم، بعد أن تمتت به مرة واحدة بينها وبين نفسها، «جيد. وشكله، هل هو معروف؟».

«في نحو الأربعين من عمره؛ طوله نحو خمس أقدام وتسعة إنشات؛ شعره أسود؛ بشرته داكنة؛ عموماً، وسيم الطلعة إلى حد ما؛

عيناه داكتان، ووجهه رفيع وطويل وشاحب؛ أنفه مائل، لكنه ليس مستقيماً، مع ميلٍ غريبٍ نحو الخد الأيسر؛ ولذا، فإن تعبيرات وجهه شريفة».

قالت السيدة ضاحكة: «هه، يا إلهي، إنها لوحة فنية! سوف يُسجل اسمه غداً».

توجَّها إلى متجر النبيذ، الذي كان مغلقاً (لأن الوقت كان منتصف الليل)، واتخذت السيدة ديفارج على الفور موقعها على مكتبها، وبدأت في عد القطع النقدية الصغيرة التي أخذت في أثناء غيابها، وفحصت المخزون، وراجعت عمليات القيد في الدفتر، ودوّنت إدخالات أخرى خاصة بها، وراجعت حسابات الخادم بكل الطرق الممكنة، وأخيراً صرفته ليذهب إلى فراشه. ثم أخرجت محتويات وعاء النقود للمرة الثانية، وبدأت في عقدها في منديلها، في سلسلة من العقد المنفصلة، لحفظها في أمان طوال الليل. وطوال هذا الوقت، كان ديفارج، وجليونه في فمه، يسير ذهاباً وإياباً، مُعجباً راضياً، لكنه لم يتدخل على الإطلاق؛ ففي هذه الحالة، وفي واقع الأمر فيما يتعلق بالعمل وشؤون المنزل، كان يسير ذهاباً وإياباً في الحياة.

كانت الليلة حارة، وكان المتجر مُغلقاً ومُحاطاً بحبي كريحه للغاية، ورائحته كريهة. لم تكن حاسة الشم لدى السيد ديفارج مرهفة بأي حال، لكن رائحة مخزون النبيذ كانت أقوى بكثيرٍ من أي وقتٍ مضى، وكذلك مخزون الروم والبراندي وبذر اليانسون. نفخ لإبعاد مُرْكَب الروائح، وهو يضع جليونه الذي انتهى تدخينه جانباً.

قالت السيدة، وهي ترفع بصرها وهي تعقد المال: «أنت متعب، لا توجد سوى الروائح المعتادة».

أقر زوجها: «أنا متعب قليلاً».

«أنت مكتئب قليلاً أيضاً»، قالت السيدة، التي لم تكن عيناها السريعتان مهتمتين، عازمة على الحسابات إلى هذا الحد من قبل، لكنها وجَّهت إليه نظرة أو نظرتين. «أوه، الرجال، الرجال!».

«لكن يا عزيزتي!»، بدأ ديفارج.

«لكن يا عزيزتي!»، كررت السيدة، وهي تومئ برأسها بحزم. «لكن يا عزيزتي! قلبك ضعيف هذه الليلة، يا عزيزي!».

«حسنًا، إذن»، قال ديفارج، كأن فكرة انتزعت من صدره، «لقد طال الوقت».

«لقد طال الوقت»، كررت زوجته، «ومتى لم يكن وقتًا طويلاً؟ الانتقام والعقاب يتطلبان وقتًا طويلاً، هذه هي القاعدة».

قال ديفارج: «لا يستغرق الأمر وقتًا طويلاً ليصعق البرق رجلاً».

سألته السيدة في هدوء: «ما المدة التي يستغرقها صُنع البرق وتخزينه؟ أخبرني».

رفع ديفارج رأسه وهو يفكر، كما لو أن الأمر يستدعي التفكير أيضاً.

قالت السيدة: «لا يستغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى يتلع زلزال مدينة، هه، حسنًا! أخبرني ما المدة التي يستغرقها إعداد الزلزال؟».

«وقتًا طويلاً، كما أعتقد»، قال ديفارج.

«لكن الزلزال يقع بمجرد أن يصبح جاهزاً، ويسحق كل شيء أمامه. وفي غضون ذلك، يستعد دائماً، على الرغم من أنه لا يرى أو يُسمع، وهذا عزاءك، تذكره».

ربطت عقدة بأعين وامضة، كأنما تخنق عدواً.

قالت السيدة وهي تمد يدها اليمنى للتأكيد: «أقول لك إنه على الطريق وآتٍ، على الرغم من طول الوقت الذي يستغرقه الطريق. وأقول لك إنه لا يتراجع أبداً، ولا يتوقف أبداً. وأقول لك إنه يتقدم دائماً. انظر حولك وتأمل حياة كل من نعرفه، وتأمل وجوه كل من نعرفهم، وتأمل الغضب والسخط اللذين يخاطب بهما الجاكسون^(١) أنفسهم بيقين متزايد كل ساعة. هل يمكن أن تستمر مثل هذه الأشياء؟ هه! أنا أسخر منك».

ردّ ديفارج، وهو يقف أمامها ورأسه منحني قليلاً، ويدها متشابكتان خلف ظهره مثل تلميذ مطيع ويقظ أمام مُعلّم التعاليم المسيحية: «زوجتي الشجاعة، أنا لا أشكك في هذا كله. لكن الأمر طال أمده، ومن الممكن - كما تعرفين جيداً يا زوجتي، من الممكن - ألا يتحقق خلال حياتنا».

«إييه، حسناً! وماذا في ذلك؟»، تساءلت السيدة، وربطت عقدة

(١) جاكيري (Jacquerie): تمرد الفلاحين ضد النبلاء في شمال شرق فرنسا عام ١٣٥٨؛ وقد سُمي بهذا الاسم نسبة إلى عادة النبلاء في الإشارة بازدراء إلى أي فلاح باسم جاك، أو جاك بونيهوم - (المترجمة).

أخرى، كأنما هناك عدو آخر مخنوق.

«حسنًا!»، قال ديفارج، بنصف تدمير ونصف اعتذار، «لن نرى النصر».

أجابت السيدة، ويدها ممدودة في حركة قوية: «نكون قد ساعدنا على تحقيقه، لا شيء مما نقوم به يذهب عبثًا. أعتقد، بكل روحي، أننا سنرى النصر، وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، حتى لو كنت أعرف بالتأكيد أنه لن يتحقق، أرني رقبة أرستقراطي وطاغية، وسوف...».

ثم ربطت السيدة، بأسنانها، عقدة رهيبية للغاية بالفعل. صاح ديفارج، وقد احمرَّ وجهه قليلًا كأنما شعر بأنه متهم بالجبن: «كفى! أنا أيضًا، يا عزيزتي، لن يوقفني أي شيء».

«نعم! لكن نقطة ضعفك أنك تحتاج أحيانًا رؤية ضحيتك وفرصتك، لتشعر بالدعم. عليك أن تدعم نفسك من دون ذلك. وعندما يحين الوقت، أطلق سراح نمرٍ وشیطانٍ؛ على أن تبقىهما خلال انتظارك مقيدتين بالسلاسل -ومخفيين- ومع ذلك جاهزين دائمًا».

أكدت السيدة خلاصة هذه النصيحة بأن ضربت طاولتها الصغيرة بسلسلة نقودها، كأنما تضرب رأسها، ثم طوت المنديل الثقيل تحت ذراعها بهدوء، حيث لاحظت أن الوقت قد حان للذهاب إلى الفراش. شهدت ظهيرة اليوم التالي المرأة المثيرة للإعجاب وقد اتخذت مكانها المعتاد في متجر النبيذ، وهي تُحيك باجتهاد. وكانت تنظر بين الحين والآخر إلى وردة ملقاة بجانبها، دون أن يغيّر ذلك من

مظهرها المشغول المعتاد. انتشر في المكان عدد قليل من الزبائن، يشربون أو لا يشربون، يقفون أو يجلسون. ونظرًا إلى شدة حرارة اليوم، أدى سعي أكوام الذباب لإشباع فضولها ومغامراتها داخل الكؤوس الصغيرة اللزجة بالقرب من السيدة، إلى سقوطها ميتة في القاع. ولم يؤثر موتها في الذباب الآخر الذي يتنزه بالخارج، ونظر إليهم ببرودٍ شديدٍ (كما لو كانوا هم أنفسهم أفيالًا، أو شيئًا آخر)، حتى لقوا المصير نفسه. من الغريب أن نفكر في مدى غفلة الذباب! ربما كانوا يفكرون بالطريقة نفسها في المحكمة، في ذلك اليوم الصيفي المشمس.

ألقي شخص يدخل عند الباب ظله على السيدة ديفارج، التي شعرت أنه شخص جديد. وضعت الحياكة جانبًا، وبدأت في تثبيت وردتها في غطاء رأسها قبل أن تنظر إلى شكل الوافد الجديد.

كان الوضع مثيرًا للفضول. ففي اللحظة التي تناولت فيها السيدة ديفارج الوردة، توقف الزبائن عن الكلام، وبدأوا تدريجيًا في الانسحاب من متجر النييد.

قال الوافد الجديد: «طاب يومك، سيدتي».

«طاب يومك، سيدي».

قالت ذلك بصوتٍ عالٍ، لكنها أضافت بينها وبين نفسها، وهي تستأنف الحياكة: «هاه! طاب اليوم، في نحو الأربعين من عمره؛ طوله نحو خمس أقدام وتسعة إنشات؛ شعره أسود؛ بشرته داكنة؛ عمومًا، وسيم الطلعة إلى حد ما؛ عيناه داكنتان، ووجهه رفيع وطويل وشاحب؛

أنفه مائل، لكنه ليس مستقيماً، مع ميل غريب نحو الخد الأيسر؛ ولذا، فإن تعبيرات وجهه شريرة. طاب اليوم للجميع!».

«من فضلك، أريد كأساً صغيرة من الكونياك القديم، وجرعة من الماء العذب البارد، سيدتي».

امتثلت السيدة بأسلوبٍ مهذبٍ.

«كونياك رائع هذا، سيدتي!».

كانت هذه هي المرة الأولى على الإطلاق التي يحظى فيها المشروب بالثناء. كانت معرفة السيدة ديفارج أفضل، لأنها تعرف ما يكفي من أنواع المشروب السابقة. ومع ذلك، قالت إن الكونياك ممتن لهذا الإطراء، وعادت لحياكتها. راقب الزائر أصابعها بضع لحظات، وانتهاز الفرصة لمراقبة المكان بشكل عام.

«أنت تحيكين بمهارة كبيرة، سيدتي».

«اعتدتُ ذلك».

«والتصميم جميل أيضاً!».

«هل تعتقد ذلك؟»، قالت السيدة وهي تنظر إليه بابتسامة.

«بلا جدال. هل يمكن للمرء أن يسأل ما الغرض منه؟».

«للتسلية»، قالت السيدة وهي لا تزال تنظر إليه بابتسامة، بينما

تتحرك أصابعها برشاقة.

«ليس للاستخدام؟».

«هذا يعتمد؛ فقد أجد له فائدة في يوم من الأيام. إذا حدث ذلك»،
قالت السيدة وهي تسحب نفساً وتومئ برأسها بنوعٍ من الدلال المتجهم،
«حسنًا، سأستخدمه!».

كان المشهد ملفتًا للنظر؛ وإنما يبدو أن ذوق القديس أنطوان يتعارض تمامًا ووجود وردة على غطاء رأس السيدة ديفارج. فقد دخل رجلان منفردين، وكانا على وشك طلب مشروب عندما شاهدا ذلك المشهد الجديد؛ تعثرا، وتظاهرا بأنهما ينظران بحثًا عن صديق لم يكن هناك، ثم انصرفا. لم يبق أحد ممن كانوا هناك عندما دخل هذا الزائر. انصرفوا جميعًا. أبقى الجاسوس عينيه مفتوحتين، لكنه لم يتمكن من اكتشاف أي علامة. كانوا يتسكعون بطريقة عرضية، تنم عن الفقر، وبلا هدف، وطبيعية تمامًا لا يرقى إليها الشك.

فكرت السيدة، وهي تتفحص عملها، بينما كانت أصابعها تحيك، وعيناها تنظران إلى الغريب، «جون، ابق طويلاً بما يكفي، وسوف أحيك كلمة «بارساد» قبل أن تذهب».

«ألديك زوج، سيدتي؟».

«لدي».

«وأطفال؟».

«ليس لدي أطفال».

«يبدو العمل سيئًا؟».

«العمل سيئ للغاية؛ الناس فقراء جدًا».

«آه، الناس تعساء وبائسون! ومظلومون جدًا أيضًا... كما تقولين».

«كما تقول أنت»، أجابت السيدة، مُصححة كلامه، وأضافت بحياكتها ببراعة شيئًا على اسمه لا يبشر بالخير له.

«عفوًا؛ بالتأكيد أنا من قال ذلك، لكنك بالطبع تعتقدين ذلك أيضًا بطبيعة الحال».

«أعتقد؟»، أجابت السيدة بصوتٍ عالٍ، «أنا وزوجي لدينا ما يكفي من العمل لإبقاء متجر النبيذ هذا مفتوحًا، دون تفكير. كل ما نفكر فيه هنا هو كيف نعيش، هذا هو الموضوع الذي نفكر فيه، وهو يعطينا، من الصباح إلى الليل، ما يكفي للتفكير فيه، دون إزعاج رؤوسنا فيما يتعلق بالآخرين. أنا أفكر في الآخرين؟ لا، لا».

الجاسوس، الذي كان هناك لالتقاط أي فتات يمكن أن يجدها أو يصنعها، لم يسمح لحالته الحائرة بالتعبير عن نفسها في وجهه الشرير؛ لكنه وقف بطريقة الاستطراف بالثرثرة، متكئًا بمرفقه على الطاولة الصغيرة أمام السيدة ديفارج، ويحتسي الكونياك بين الحين والآخر.

«يا له من أمر سيئ هذا، يا سيدتي، إعدام جاسبارد. آه! جاسبارد المسكين!»، مع تنهيدة مليئة بالشفقة.

ردّت السيدة ببرودٍ وخفة: «يا إلهي! إذا استخدم الناس السكاكين لمثل هذه الأغراض، فعليهم أن يدفعوا الثمن. كان يعرف مسبقًا ثمن فعلته، وقد دفع الثمن».

«أعتقد»، قال الجاسوس وهو يخفض صوته الناعم إلى نبرة تدعو

إلى الثقة، وتُعبّر كل عضلة من وجهه الشرير عن مشاعر ثورية جريئة،
«أعتقد أن هناك الكثير من الشفقة والغضب في هذه الضاحية تجاه
الرجل المسكين؟ نحن نتحدث فيما بيننا».

«أتظن ذلك؟»، سألت السيدة ببرودٍ.

«أليس هذا صحيحًا؟».

«...ها هو زوجي!»، قالت السيدة ديفارج.

عندما دخل صاحب متجر النيذ من الباب، لمس الجاسوس قبعته
تحية له، وقال بابتسامة جذابة: «طاب يومك، يا جاك!». توقف ديفارج
قليلاً، وحدّق إليه.

«طاب يومك، يا جاك!»، كرر الجاسوس؛ وإن كان بثقة أقل، أو
ابتسامة يسيرة للغاية في ظل التحديق.

أجاب صاحب متجر النيذ: «أنت تخدع نفسك، يا سيدي، أنت
تخلط بيني وبين شخص آخر. هذا ليس اسمي، أنا إرنست ديفارج».
قال الجاسوس بمرحٍ، وإن كان بارتباكٍ أيضاً: «الأمران سيّان، طاب
يومك!».

أجاب ديفارج بجفاف: «طاب يومك!».

كنت أقول للسيدة، التي كان من دواعي سروري الدردشة معها
عندما دخلت، إنهم أخبروني أن هناك -ولا عجب!- الكثير من
التعاطف والغضب في ضاحية القديس أنطوان، يتعلق بالمصير التعيس
لجاسبارد المسكين».

«لم يخبرني أحد بذلك»، قال ديفارج وهو يهز رأسه، «لا أعرف شيئاً عن ذلك».

وبعد قوله هذا، سار خلف الطاولة الصغيرة، ووقف ويده على ظهر كرسي زوجته ونظر من فوق هذا الحاجز إلى الشخص الذي يقف أمامهما، وكان أي منهما يود -بأقصى قدر من الرضا- أن يطلق النار عليه.

لم يغيّر الجاسوس، الذي اعتاد عمله جيداً، من موقفه اللاواعي، لكنه استنزف كأسه الصغيرة من الكونياك، وأخذ رشقة من الماء العذب، وطلب كأساً أخرى من الكونياك. ملأت السيدة ديفارج كأسه، ثم عادت ثانية إلى حياكتها وهي تدندن بأغنية صغيرة.

قال ديفارج مُعلّقاً: «يبدو أنك تعرف هذه الضاحية جيداً؛ بل تعرفها أفضل مني؟».

«كلا على الإطلاق، لكنني آمل أن أعرفها بشكل أفضل. أنا شديد الاهتمام بسكانها البائسين».

تمتم ديفارج: «هاه!».

تابع الجاسوس: «إن متعة التحدث معك، سيد ديفارج، تُدْكَرني بأنني أحظى بشرف الاعتزاز ببعض الذكريات المثيرة للاهتمام وترتبط باسمك».

«حقاً!»، قال ديفارج بكثير من اللامبالاة.

«نعم، بالفعل. عندما أُطلق سراح الدكتور مانيت، توليت أنت -

خادمه القديم - مسؤوليته، أنا أعرف ذلك، لقد تم تسليمه لك. ألا ترى أنني على علم بالظروف؟».

«هذه هي الحقيقة، بالتأكيد»، قال ديفارج. وكانت زوجته قد أوعزت إليه، بلمسة عابرة من مرفقها وهي تحيك وتتغنى، أن يبذل قصارى جهده للإجابة، لكن بإيجازٍ دائماً.

قال الجاسوس: «لقد جاءت ابنته إليك؛ ومن رعايتك أخذته برفقة سيد أسمر أنيق. ما اسمه؟ يرتدي باروكة صغيرة... اسمه لوري، من بنك تيلسون وشركاه، إلى إنجلترا».

«هذه هي الحقيقة»، كرر ديفارج.

قال الجاسوس: «ذكريات مثيرة جداً للاهتمام! لقد عرفت الدكتور مانيت وابنته في إنجلترا».

«حقاً؟»، قال ديفارج.

«أنت لا تسمع الكثير عنهما الآن؟»، قال الجاسوس.

«لا»، قال ديفارج.

تدخّلت السيدة وهي ترفع بصرها عن عملها وأغنيتها الصغيرة، قائلة: «في واقع الأمر، نحن لا نسمع عنهما أبداً، تلقينا نبأ وصولهما سالمين، وربما رسالة أخرى، أو ربما رسالتان، لكنهما، منذ ذلك الحين، سلكا طريقهما تدريجياً في الحياة... وسلكننا نحن طريقنا... ولم نعد نتبادل المراسلات».

أجاب الجاسوس: «تماماً، سيدتي. سوف تتزوج».

«سوف؟»، رددت السيدة، «كانت جميلة بما يكفي لتتزوج منذ فترة طويلة. أنتم الإنجليز باردون، كما يبدو لي».

«أوه! تعرفين أنني إنجليزي».

أجابت السيدة: «ألاحظ أن لسانك إنجليزي؛ وكما يكون اللسان، يكون الإنسان».

لم يأخذ تحديد هويته على أنه مجاملة؛ لكنه حقق أقصى استفادة منه، وأعرض عنه ضاحكًا. وبعد احتساء الكونياك حتى النهاية، أضاف: «نعم، الآنسة مانيت ستتزوج، ولكن ليس رجلًا إنجليزيًا، وإنما رجلًا فرنسي المولد مثلها. وبالحديث عن جاسبار (آه، جاسبار المسكين! كان وضعه قاسيًا، قاسيًا!)، من الغريب أنها ستتزوج ابن شقيق السيد الماركيز، الذي رُفِعَ جاسبار من أجله إلى مشنقة بهذا الارتفاع الذي يبلغ العديد من الأقدام؛ وبعبارة أخرى، الماركيز الحالي. لكنه يعيش مجهولًا في إنجلترا، فهو ليس ماركيزًا هناك، إنه السيد تشارلز دارني، أما دولنيه فهو اسم عائلة والدته».

كانت السيدة ديفارج مستمرة في الحياكة، لكن الخبر كان له تأثير واضح في زوجها؛ حاول إخفاء اضطرابه وهو يقف خلف الطاولة الصغيرة، بإشعال عود ثقاب لإشعال غليونه، ولم تكن يده متماسكة. ولو فشل الجاسوس في رؤية ذلك أو تسجيله في ذهنه، لما كان جاسوسًا.

وبعد أن حقق، على الأقل، هذا النجاح الوحيد، مهما كانت قيمته،

ولم يأت أي زبائن لمساعدته كي يحقق نجاحًا آخر، دفع السيد بارساد ثمن ما شربه، متتهزًا الفرصة قبل مغادرته ليقول بطريقة لطيفة إنه يتطلع إلى أن يسعد برؤية السيد والسيدة ديفارج مرة أخرى. ظل الزوج والزوجة، لبضع دقائق بعد خروجه إلى ضاحية القديس أنطوان، كما تركهما بالضبط، خشية أن يعود.

قال ديفارج بصوتٍ منخفضٍ، وهو ينظر إلى زوجته، ويقف يدخن، ويده على ظهر كرسيها: «هل يمكن أن يكون ما قاله عن الأنسة مانيت صحيحًا؟».

ردّت السيدة، وهي ترفع حاجبيها قليلًا: «من المحتمل أن ما قاله غير صحيح بالطريقة التي قاله بها؛ لكنه قد يكون صحيحًا».

«إذا كان الأمر كذلك...» بدأ ديفارج، ثم توقف.

كررت زوجته: «إذا كان الأمر كذلك؟».

«... وإذا حدث وكنا أحياء ونرى النصر... آمل، من أجلها، أن يبقى القدر زوجها خارج فرنسا».

قالت السيدة ديفارج، برباطة جأشها المعتادة: «مصير زوجها سيأخذه إلى حيث سيذهب، وسيقوده إلى النهاية التي ينتهي بها أجله، هذا كل ما أعرفه».

قال ديفارج، مناشدًا زوجته لحثّها على أن تقر بكلامه: «لكن الأمر غريب جدًا... الآن، على الأقل، أليس غريبًا جدًا، أننا بعد كل تعاطفنا مع السيد والدها ومعها، علينا إدراج اسم زوجها في السجل الذي لديك

في هذه اللحظة، إلى جانب اسم ذلك الكلب الجهنمي الذي تركنا للتو؟».

أجابت السيدة: «ستقع أشياء أغرب من ذلك عندما يحين الوقت. دَوّنت اسميهما هنا، بالتأكيد. وكلاهما جدير بذلك، هذا يكفي».

طوت حياكتها عندما قالت هذه الكلمات، وأخرجت الوردة الآن من المنديل الذي كان ملفوفاً حول رأسها. وسواء شعر سكان ضاحية القديس أنطوان غريزياً باختفاء تلك الحلية البغيضة، أو كانوا يترقبون اختفاءها؛ فقد استجمعوا شجاعتهم بعد وقت قصير جداً، واستعاد متجر النبيذ مظهره المعتاد.

في مساء ذلك الموسم، من بين كل الفصول الأخرى، يتحول سكان ضاحية القديس أنطوان من الداخل إلى الخارج؛ يجلسون على عتبات الأبواب وحواف النوافذ، ويذهبون إلى أركان الشوارع والساحات الحقيبة التماساً لنسمة هواء. واعتادت السيدة ديفارج، وحياكتها في يدها، الانتقال من مكان إلى آخر ومن مجموعة إلى أخرى: داعية - وهناك كثيرون مثلها- إلى أن العالم سيُحسن صنعاً بآلا يتوالد ثانية أبداً. كانت جميع النساء تنشغل بالحياكة؛ حياكة أشياء لا قيمة لها. لكن العمل الميكانيكي كان بديلاً ميكانيكياً عن الأكل والشرب؛ فقد كانت الأيدي تتحرك بديلاً عن الفكين والجهاز الهضمي: فلو توقفت الأصابع العظمية، لزداد شعور المعدة بألم الجوع.

ولكن، كما كانت الأصابع تتحرك، كانت الأعين والأفكار تتحرك. ومع انتقال السيدة ديفارج من مجموعة إلى أخرى، كانت الأصابع

والأعين والأفكار تتحرك على نحوٍ أسرع وأكثر شراسة بين كل مجموعة صغيرة من النساء اللاتي تحدثن إليهن، وتركتهن خلفها.

كان زوجها يدخل عند باب متجره، ناظرًا إليها بإعجاب. قال: «امرأة رائعة، امرأة قوية، امرأة عظيمة، امرأة عظيمة بشكلٍ مخيفٍ!».

أطبق الظلام حولهم، وعندئذٍ جاء رنين أجراس الكنائس وقرع الطبول العسكرية عن بُعد في فناء القصر، بينما جلست النساء تحيك، وتحيك. أحاط بهن الظلام. وكان ظلام آخر يقترب بالتأكيد؛ عندما تنصهر أجراس الكنائس -التي تدق الآن بعدوبة في العديد من أبراجها الشاهقة فوق فرنسا- متحولة إلى مدافع مدوية؛ وعندما تقرع الطبول العسكرية لتخمد صوتًا بائسًا، كان في تلك الليلة قوياً مثل صوت «القوة والوفرة» و«الحرية والحياة». كان الظلام يقترب من النساء اللاتي جلسن يحكن ويحكن، إلى درجة أنهن أنفسهن أخذن يتقاربن ملتفاتٍ حول هيكَل لم يُبْنَ بعد، حيث كان مُقدَّرًا أن يجلسن يحكن ويحكن، ويحصين الرؤوس المتساقطة.

الفصل السابع عشر

ذات ليلة

لم تغرب الشمس قطُّ في هالة أكثر إشراقًا، في ذلك الركن الهادئ في سوهو، من تلك الأمسية التي لا تُنسى؛ عندما جلس الطبيب وابنته تحت شجرة الدلب معًا. ولم يرتفع القمر قطُّ بإشراقٍ أكثر لطفًا فوق لندن العظيمة، مما كان عليه في تلك الليلة، التي وجدتهما لا يزالان جالسين تحت الشجرة، ويشرق على وجهيهما من خلال أوراقها.

كان من المقرر أن تتزوج لوسي في الغد، وقد خصصت هذا المساء الأخير لوالدها، وجلسا وحدهما تحت شجرة الدلب.

«هل أنت سعيد، يا أبي العزيز؟».

«تمامًا، يا صغيرتي».

لم يتحدثا سوى قليل، على الرغم من بقائهما هناك فترة طويلة. عندما كان الضوء لا يزال كافيًا للعمل والقراءة، لم تكن قد شغلت نفسها بعملها المعتاد، ولم تقرأ له. لقد شغلت نفسها بالمُهمتين، بجانبه تحت الشجرة، مرات ومرات كثيرة؛ لكن هذه المرة لم تكن مثل أي مرة أخرى، ولا شيء يمكن أن يجعلها كذلك.

«وأنا سعيدة جدًا الليلة، يا أبي العزيز. أنا سعيدة للغاية بالحب الذي باركته السماء: حبي لشارلز، وحب تشارلز لي. لكن حياتي، إذا لم تكن لا تزال مكرسة لك، أو إذا كانت تربيّات زواجي سوف تفرق بيننا، حتى بطول عدد قليل من هذه الشوارع، لكنك الآن أكثر تعاسة وتوبيخًا للذات مما يمكنني إخبارك به. وحتى لو كان الأمر كذلك...».

حتى لو كان الأمر كذلك، لم تستطع التحكم في صوتها.

وفي ضوء القمر الحزين، عانقته من رقبته، ووضعت وجهها على صدره. في ضوء القمر الحزين دائمًا، مثل ضوء الشمس نفسه - مثل الضوء الذي يُسمى حياة الإنسان - عند مجيئه وذهابه.

«يا أعز الأعزاء! هل يمكنك أن تخبرني، هذه المرة الأخيرة، أنك تشعر بثقة أكيدة تمامًا أن عواطفني الجديدة وواجباتي الجديدة لن تحوّل بيننا؟ أنا أعرف ذلك جيدًا، لكن، هل تعرف أنت ذلك؟ هل يشعر قلبك باليقين التام؟».

أجاب والدها، بثقة مقتنعة بثقة مبهتجة، كان يندر أن يتظاهر بها: «بالتأكيد، يا حبيبي! والأكثر من ذلك»، أضاف، وهو يقبلها بحنان، «إن مستقبلي يبدو مُشرقًا، يا لوسي، بالنظر إليه من خلال زواجك، أكثر مما كان ممكنًا - كلا، أكثر من أي وقت مضى - من دونه».

«إذا أمكنني أن آمل ذلك، يا والدي!...».

«صدقيني، يا حبيبي! هذا صحيح بالفعل. تأملي مدى طبيعية ووضوح الأمر على هذا النحو، يا عزيزتي. أنت، أيتها المُخلصة الشابة،

لا يمكنك أن تُقدري تمامًا مدى ما شعرت به من قلق بأن تضيع حياتك هباء...».

حركت يدها نحو شفتيه، لكنه أخذها في يده، وكرر الكلمة.

«...تضيع هباء، يا صغيرتي... يجب ألا تضيع هباء، وتبتعد عن النظام الطبيعي للأشياء... من أجلي. إن نكرانك لذاتك لا يستطيع أن يدرك تمامًا مدى تفكيري في هذا الأمر؛ لكن عليك فقط أن تسألي، كيف يمكن أن تكتمل سعادتي، بينما سعادتك غير مكتملة؟».

«لو لم أر تشارلز، يا والدي، لكنت سعيدة جدًا معك».

ابتسم لإقرارها اللاواعي بأنها لم تكن لتسعد من دون تشارلز، بعد أن رآته؛ وأجاب:

«يا صغيرتي، لقد رأيته، وهو تشارلز. ولو لم يكن تشارلز، لكان غيره. أو، لو لم يكن غيره، لكنت أنا السبب، وعندئذٍ كان الجزء المظلم من حياتي سيلقي بظلاله لا عليّ فحسب، وإنما عليك أيضًا».

كانت هذه هي المرة الأولى، باستثناء يوم المحاكمة، التي تسمعه فيها يشير إلى فترة معاناته. أعطاه إحساسًا غريبًا وجديدًا، وكلماته في أذنيها. وظلت تتذكر هذا الشعور وقتًا طويلًا بعد ذلك.

«انظري!»، قال طبيب بوفيه، وهو يرفع يده نحو القمر، «لقد شاهدته من نافذة السجن، وعندها لم أستطع تحمُّل ضوئه. نظرت إليه عندما كان عذابًا بالنسبة إليّ أن أفكر في أنه يلمع على ما فقدته، إلى درجة أنني ضربت رأسي بجدران السجن. نظرت إليه وأنا في حالة مملّة وخاملة

للغاية، إلى درجة أنني لم أفكر في شيء سوى عدد الخطوط الأفقية التي يمكنني رسمها خلاله بالكامل، وعدد الخطوط العمودية التي يمكنني رسمها بحيث تتقاطع معها». وأضاف بطريقته الداخلية المتأمل، وهو ينظر إلى القمر، «كانوا عشرين خطأً في الحاليتين، على ما أتذكر، وكان من الصعب إقحام الخط العشرين».

التشويق الغريب الذي استمعت إليه به وهو يعود إلى ذلك الوقت، كان يزداد عمقاً كلما استرسل في الحديث عنه؛ ومع ذلك، لم يكن هناك ما يصدمها في طريقة إشارته. بدا فقط أنه يقارن بهجته وسعادته الحاليتين بقدرته على تحمّل المعاناة الرهيبة التي انتهت.

«لقد نظرت إليه، وتأملت آلاف المرات الطفل الذي لم يُولد بعد، وأبعدوني عنه. هل لا يزال في قيد الحياة، هل وُلد حيّاً، أم أن صدمة الأم المسكينة قد قتلتها. هل كان صبيّاً وسينتقم يوماً ما لوالده. (لقد مرّت بي فترة في سجنّي، كانت رغبتني في الانتقام لا تطاق). هل كان ابناً لن يعرف قصة والده أبداً؛ بل ربما يعيش حتى ليزن، بإرادته وتصرفه، احتمال اختفاء والده. وهل كانت ابنة، ستكبر لتصبح امرأة».

اقتربت منه وقبّلت خده ويده.

«لقد تصورت ابنتي، لنفسني، كأنها نسيّتني تماماً؛ أو بالأحرى، جاهلة عني تماماً، وغير واعية بي. كنت أحسب سنوات عمرها، عاماً بعد عام. رأيته متزوجة من رجل لا يعرف شيئاً عن مصيري. كانت ذكراي ميتة كلية في أذهان الأحياء، وكان مكاني فارغاً في الجيل التالي».

«يا أبي! مجرد سماعي أن مثل هذه الأفكار كانت لديك عن ابنة لم توجد قطّ، يدمي قلبي كما لو كنت أنا تلك الطفلة».

«أنت يا لوسي؟ من المواساة والشفاء اللذين جلبتهما لي، تنطلق هذه الذكريات، وتمر بيننا وبين القمر في هذه الليلة الأخيرة... ماذا قلتُ للتو؟».

«لم تكن تعرف شيئاً عنك، ولم تهتم بك».

«هكذا! لكن في الليالي المقمرة الأخرى، عندما كان الحزن والصمت يلمسانني بطريقة مختلفة - يؤثران فيّ بشيء يشبه شعوراً حزيناً بالسلام، مثل أي عاطفة اشتمل أساسها على الألم - تخيلتها تأتي إليّ في زنزاتي، وتقودني إلى الحرية خارج القلعة. وكثيراً ما رأيت صورتها في ضوء القمر، كما أراك الآن؛ إلا أنني لم أضمها بين ذراعي؛ فقد كانت تقف بين النافذة الصغيرة، ذات القضبان الحديدية، والباب. لكنك تدرकिन أن هذا لم يكن الطفل الذي أتحدث عنه؟».

«لم يكن الشكل؛ كانت... كانت... الصورة؛ الخيال؟».

«كلا. كان هذا شيئاً آخر. وقف الشكل أمام حاسة البصر المضطربة، لكنه لم يتحرك قطّ. فالخيال الذي لاحقه عقلي، كان طفلاً آخر وأكثر واقعية. لم أكن أعرف عن مظهرها الخارجي أكثر من أنها كانت مثل والدتها. وكان للآخر هذا التشابه أيضاً - مثلك أنت - لكنه لم يكن هو نفسه. هل يمكنك متابعتي يا لوسي؟ بالكاد، على ما أعتقد؟ لا شك أن فهم هذه الفروق المُحيرة، يتطلب أن تكوني قد تعرضت لسجن انفرادي».

لم يستطع أسلوبه المتزن والهادئ منع تجمد الدم في عروقها، وهو يحاول شرح حالته القديمة بهذه الطريقة.

في تلك الحالة الأكثر هدوءًا، تخيلتها، في ضوء القمر، تأتي إليّ وتأخذني إلى الخارج لتُريني أن بيت حياتها الزوجية يمتلئ بذكرائها المُحبة لوالدها المفقود. كانت صورتني في غرفتها، وكنت في صلواتها. كانت حياتها نشطة، ومبهجة، ومفيدة؛ لكن تاريخي السيئ تخلل كل شيء».

«أنا كنت تلك الطفلة، يا والدي، لم أكن بنفس الطيبة، لكنني كنت أنا في شعوري بالحب».

قال الطبيب القادم من بوفيه: «وأرتني أطفالها، وقد سمعوا عني، وتعلموا أن يشفقوا عليّ. وعندما يمرون بأحد سجون الدولة، يتعدون عن جدرانها العابسة، وينظرون إلى قضبانه، وتحدثوا همسًا. لم تستطع إنقاذي قط؛ تخيلت أنها تُعيدني دائمًا بعد أن تريني تلك الأشياء. على أنني عندئذٍ، وبعد أن أراحني انهيار الدموع، جثوت على ركبتي وباركتها».

«أنا تلك الطفلة، آمل، يا والدي. أوه، يا عزيزي، يا عزيزي، هل تباركني بمثل هذه الحرارة غدًا؟».

«لوسي، إنني أتذكر هذه المشكلات القديمة في هذه الليلة، لأعبر لك عن أنني أحبك أكثر مما يمكن أن تعبر عنه الكلمات، ولأشكر الله على سعادتي العظيمة. عندما كانت أفكارني في أكثر حالاتها جموحًا، لم تقترب قط من السعادة التي عرفتتها معك، ونراها أمانًا».

احتضنها، ودعا الله أن يحفظها، وشكر الله بتواضع لأنه أنعم عليه بها. وعادا إلى البيت بعد فترة قصيرة.

لم يُدع أحد إلى حضور الزواج سوى السيد لوري؛ ولم توجد حتى وصيفة للعروس سوى الآنسة بروس النحيفة. لم يكن الزواج ليُحدث أي تغيير في مكان إقامتهم؛ فقد تمكّنوا من توسيعه، بأن أخذوا لنفسيهما الغرف العلوية التي كانت تنتمي سابقاً إلى الساكن الخرافي غير المرئي، ولم يرغب في أي شيء أكثر من ذلك.

كان الدكتور مانيت مبهتجاً للغاية في أثناء العشاء الصغير. كانوا ثلاثة فقط على الطاولة، بمن فيهم الآنسة، وقد أعرب عن أسفه لعدم وجود تشارلز؛ وكان ميالاً إلى حدٍّ كبيرٍ إلى الاعتراض على المؤامرة الصغيرة المحببة التي أبعدته عنهم؛ وشرب نخباً له بمودة.

وهكذا، حان الوقت ليوذع لوسي ويتمنى لها ليلة سعيدة، وافترقا. على أن لوسي نزلت إلى الطابق السفلي مرة أخرى، في سكون الساعة الثالثة صباحاً، وتسلمت إلى غرفته؛ إذ لم تكن تخلو من المخاوف السابقة المبهمة.

ومع ذلك، كانت جميع الأشياء في أماكنها؛ وكل شيء هادئ؛ وهو يرقد نائماً، وشعره الأبيض الجميل ينسدل على الوسادة الساكنة، ويدها مستلقيتان بهدوء على الغطاء. وضعت شمعتهما غير الضرورية على مسافة في الظل، وتسلمت إلى سريريه، ووضعت شفتيها على شفتيه؛ ثم انحنت عليه وهي تنظر إليه.

كانت دموع الأسر المريرة قد تركت أثرها في وجهه الوسيم؛ لكنه طمس آثارها بعزيمة قوية، إلى درجة أنه يسيطر عليها حتى في أثناء نومه. لم يكن هناك وجه أكثر روعة في صراعه الهادئ والحازم والحذر مع مهاجم غير مرئي، لم يكن من الممكن رؤيته في عوالم النوم الواسعة في تلك الليلة.

وضعت يدها بخجلٍ على صدره العزيز، وتلت دعاء أن تظل دائماً صديقة معه بقدر ما يطمح حبها، وبقدر ما تستحقه أحزانه. ثم سحبت يدها، وقبّلت شفّتيه مرة أخرى، وانصرفت. وها قد أشرقت الشمس، وتحركت ظلال أوراق شجرة الدلب على وجهه، بمثل رقة حركة شفّتيها في الدعاء له.

الفصل الثامن عشر

تسعة أيام

كان يوم الزواج زاهياً مشرقاً، وكانوا على أهبة الاستعداد خارج باب غرفة الطبيب المغلق، حيث كان يتحدث مع تشارلز دارني. كانوا جاهزين للذهاب إلى الكنيسة: العروس الجميلة، والسيد لوري، والآنسة بروس؛ التي كان الحدث، من خلال عملية تصالح تدريجية مع المحتوم، بمنزلة سعادة مطلقة، لولا الاعتبار الذي لا يزال باقياً أن شقيقها سولومون كان يجب أن يكون هو العريس.

«وهكذا»، قال السيد لوري، الذي كان إعجابه بالعروس لا حد له، وكان يتحرك حولها ليتأمل كل نقطة في فستانها الهادئ الجميل: «وهكذا، لهذا الحدث، عزيزتي لوسي، أتيت بك عبر القناة، يا لك من طفلة! فليباركني الرب! لم أفكر سوى قليل فيما كنت أفعله! ويا لقد استخفاني بواجبي الذي منحته لصديقي السيد تشارلز!».

قالت الآنسة بروس، ذات العقلية العملية: «أنت لم تقصد ذلك، وبالتالي كيف يمكنك معرفته؟ هراء!».

قال السيد لوري اللطيف: «حقاً؟ حسناً؛ ولكن، لا تبكي».

قالت الآنسة بروس: «أنا لا أبكي، أنت الذي تبكي».

«أنا، يا بروس؟» (كان السيد لوري، في ذلك الوقت، يتجراً على التعامل معها بلطفٍ، في بعض الأحيان).

قالت الآنسة بروس: «أنت كنت تبكي، الآن، للتوّ. رأيّتك تبكي، ولا أتعجب من ذلك. فهذه الهدية من طقم المائدة التي أرسلتها، تكفي لجلب الدموع إلى أعين أي شخص. لا توجد شوكة أو ملعقة في المجموعة لم أبك عليها، الليلة الماضية بعد أن وصل الصندوق، بحيث لم أستطع حتى رؤيته».

قال السيد لوري: «أنا ممتن للغاية، على الرغم من أنني لم أكن أقصد، وأقسم بشرفي، إخفاء تلك الأشياء التذكارية التافهة عن أعين أي شخص. يا إلهي! هذه مناسبة تجعل الرجل يتأمل كل ما فقده. وأسفاه، وأسفاه، وأسفاه! تجعله يفكر بأنه ربما كانت هناك السيدة لوري، في أي وقت خلال تلك السنوات الخمسين تقريباً!».

قالت الآنسة بروس: «كلا، على الإطلاق!».

«هل تعتقدين أنه ربما لم تكن هناك السيدة لوري على الإطلاق؟»، سأل الرجل الذي يحمل هذا الاسم.

أجابت الآنسة بروس: «أوووه!، كنت عازباً في مهدك».

«حسناً!»، قال السيد لوري، وهو يعدل باروكته الصغيرة، «يبدو ذلك محتملاً أيضاً».

تابعت الآنسة بروس: «أنت خُلِقت أعزب قبل أن توضع في مهدك».

قال السيد لوري: «أعتقد، إذن، أن التعامل معي لم يكن لائقًا إلى حدٍّ كبيرٍ، وكان يجب أن يكون لي رأي في اختيار نمطي. هذا يكفي! والآن، يا عزيزتي لوسي»، وهو يلف ذراعه بهدوء حول خصرها: «أسمعهم يتحركون في الغرفة المجاورة، ونحرص أنا والآنسة بروس، بصفتنا شخصين رسميين في مجال الأعمال، على عدم فقدان الفرصة الأخيرة لنقول لك شيئًا ترغبين في سماعه. أنت تتركين والدك الطيب، يا عزيزتي، في أيِّ مخلصمة ومُحبة مثل يديك، سوف يُحاط بكل رعاية يمكنك تصورها خلال الأسبوعين المقبلين، في أثناء وجودك في وارويكشاير وما حولها، حتى إنني قد أُهمل (نسبيًا) عملي في بنك تيلسون من أجله إذا تطلب الأمر. وعند نهاية الأسبوعين، سوف ينضم إليك وإلى زوجك الحبيب في رحلتك الأخرى إلى ويلز لمدة أسبوعين، ستقولين إننا أرسلناه إليك في أفضل صحة وأسعد حال. والآن، أسمع خطوة شخص قادم إلى الباب، دعيني أُقبِّل فتاتي العزيزة، بمباركة عازب من الطراز القديم، قبل أن يأتي شخص للمطالبة بك لنفسه».

أبعد الوجه الجميل عنه لحظة، لينظر إلى التعبير الذي يتذكره جيدًا على جبينها، ثم وضع شعرها الذهبي اللامع على شعره المستعار البني الصغير، بحنانٍ ورقة حقيقيين، وإن كانت مثل هذه الأشياء عتيقة الطراز، فهي قديمة قدم آدم.

فُتِحَ باب غرفة الطبيب، وخرج مع تشارلز دارني. كان شاحبًا شحوب الموتى - ولم يكن كذلك عندما دخلا معًا - بحيث لم يكن ممكنًا رؤية أي أثر للون على وجهه. لكن رزاقته لم تتغير، إلا أن نظرة

السيد لوري الذكية كشف عن مؤشر غامض على أن جو التجنب والرغبة القديم قد خيم عليه مؤخرًا، مثل ريح باردة.

أعطى ذراعه لابنته، وهبط معها السلم، متجهين إلى العربة التي استأجرها السيد لوري تكريمًا لهذا اليوم. تبعهم الباقون في عربة أخرى. وسرعان ما تزوج تشارلز دارني ولوسي مانيت بسعادة، في كنيسة مجاورة، حيث لم يشهد الاحتفال أي أعين غريبة.

وإلى جانب الدموع الخاطفة التي لمعت بين ابتسامات تلك المجموعة الصغيرة عندما انتهى الزفاف، تألقت على يد العروس بعض قطع الألباس، اللامعة والمتألثة للغاية؛ التي خرجت حديثًا من الغموض المظلم لأحد جيوب السيد لوري. عادوا إلى المنزل لتناول الفطور، وسارت الأمور على ما يرام. وفي الوقت المناسب، كان الشعر الذهبي الذي اختلط من قبل بالخصلات البيضاء لصانع الأحذية المسكين في علية باريس، يختلط بها مرة أخرى في ضوء شمس الصباح، على عتبة الباب عند الفراق.

كان فراقًا صعبًا، رغم أنه لم يكن لفترة طويلة، لكن والدها طيب خاطرها وقال أخيرًا، وهو يفصل نفسه بلطف عن ذراعيها، «خذها يا تشارلز! إنها لك!».

لَوَّحت لهم بيدها المضطربة من نافذة العربة، وغادرت.

ولما كانت الزاوية بعيدة عن طريق العاطلين والفضوليين، وكانت الاستعدادات بسيطة للغاية وقليلة، أصبح الطبيب والسيد لوري والأنسة بروس وحدهم. عندما دخلوا إلى الظل المحبب للقاعة القديمة الباردة،

لاحظ السيد لوري تغييرًا كبيرًا على الطبيب؛ كأنما الذراع الذهبية المرفوعة هناك، قد وجهت إليه ضربة مسمومة.

كان من الطبيعي أنه كتم الكثير، وربما من المتوقع أن يشعر ببعض التغيير عندما زالت أسباب الكبت، لكن نظرة الضياع القديمة الخائفة هي التي أزعجت السيد لوري. ومن خلال طريقة شروذ ذهنه والإمساك برأسه والتجول بحزنٍ في غرفته الخاصة، عندما صعدوا السلم، تذكر السيد لوري السيد ديفارج، صاحب متجر النيذ، والرحلة تحت ضوء النجوم.

همس للآنسة بروس، بعد تفكير مشوب بالقلق: «أعتقد... أعتقد من الأفضل ألا نتحدث إليه الآن، أو نزعجه على الإطلاق. يجب أن ألقي نظرة على بنك تيلسون؛ لذلك سأذهب إلى هناك في الحال وأعود بعد قليل. وبعد ذلك، سنأخذه في جولة إلى الريف، ونتناول العشاء هناك، وسيصبح كل شيء على ما يرام».

كان دخول السيد لوري إلى بنك تيلسون أسهل من الخروج منه؛ فقد ظل محتجزًا هناك لمدة ساعتين، وعندما عاد، صعد السلم القديم وحده، دون أن يسأل عن الخادمة، وتوجه إلى غرف الطبيب، حيث استوقفه صوت طرق منخفض.

«يا إلهي!»، قال في اندهاش، «ما هذا؟».

كانت الآنسة بروس تقف بوجه مرعوب عند أذنه، تصيح وهي تفرك يديها: «يا للمصيبة، يا للمصيبة! لقد ضاع كل شيء! ماذا أقول لعصفورتي؟ إنه لا يعرفني، ويعمل في صنّع أحذية!».

قال السيد لوري ما في وسعه لتهدئتها، وذهب بنفسه إلى غرفة الطبيب.
وجد المقعد موجهًا نحو الضوء، كما كان الوضع عندما رأى صانع الأحذية
يعمل من قبل، وكان رأسه منحنيًا، كما كان مشغولًا للغاية.

«دكتور مانيت.. صديقي العزيز، دكتور مانيت!».

نظر إليه الطبيب لحظة -نم عن الاستفسار، كما تشير إلى أنه كأنما
غضب من أن يتحدث إليه أحد- ثم انحنى على عمله مرة أخرى.

كان قد وضع معطفه وصدريته جانبًا، وكان قميصه مفتوحًا من عند
الحلق، مثلما كانت الحال عندما قام بهذا العمل، وحتى ملامح وجهه
القديم المنهك الباهت قد عادت إليه. لقد عمل بجدٍّ -وفي عجل- كما
لو أن هناك من قاطعه، بمعنى ما، في أثناء تأدية عمله.

نظر السيد لوري إلى ما في يده، ولاحظ أنه حذاء من الحجم
والشكل القديمين؛ فتناول آخر كان بجانبه، وسأله عنه.

تمتم، دون أن ينظر إلى أعلى: «هذا حذاء للمشي، خاص بسيدة
شابة. كان يجب الانتهاء منه منذ فترة طويلة. فليكن».

«لكن، دكتور مانيت.. انظر إليَّ!».

أطاع، بطريقة الاستسلام الآلي القديمة، دون أن يتوقف عن عمله.
«هل تعرفني، يا صديقي العزيز؟ فكر مرة أخرى. هذه ليست مهنتك
المناسبة. فكر، يا صديقي العزيز!».

ما من شيء سيحدثه على التحدث أكثر من ذلك. نظر إلى أعلى،
للحظة في كل مرة، عندما طُلب منه ذلك؛ لكن ما من وسيلة إقناع كانت

ستستخرج منه كلمة. كان يعمل، ويعمل، ويعمل في صمت؛ وسقطت الكلمات عليه كأنها تسقط على جدار بلا صدى، أو على الهواء. كان بصيص الأمل الوحيد الذي استطاع السيد لوري اكتشافه هو أنه كان ينظر أحياناً إلى أعلى خلصة، دون أن يُطلب منه ذلك؛ فقد بدا في ذلك تعبيراً خافتاً عن الفضول أو الحيرة؛ كأنما يحاول التوفيق بين بعض الشكوك التي تدور في ذهنه.

ترك شيثان، في وقت واحد، أثراً في السيد لوري، بالقدر نفسه من الأهمية قبل أي شيء آخر: أولهما، ضرورة أن يبقى هذا سرّاً عن لوسي؛ وثانيهما، ضرورة أن يبقى سرّاً عن كل من عرفه. واتخذ، بالاشتراك مع الآنسة بروس، خطوات فورية نحو الاحتياط الثاني؛ وذلك بالإعلان عن أن الطبيب ليس على ما يرام، ويحتاج إلى بضعة أيام من الراحة الكاملة. وللمساعدة في الخدعة البريئة التي يجب ممارستها على ابنته، كان على الآنسة بروس أن تكتب رسالة توضح استدعائه بصفته المهنية، وتشير إلى رسالة وهمية من سطرين أو ثلاثة مكتوبة بخط يده على عجل، باعتبارها موجهة إليها من البريد نفسه.

اتخذ السيد لوري هذه التدابير، التي من المستحسن اتخاذها على أي حال، على أمل أن يعود الطبيب إلى نفسه، وإذا تحقق ذلك بسرعة، سوف يلجأ من باب الاحتياط إلى مسار آخر؛ وهو الحصول على رأي معين، يعتقد أنه الأفضل، حول حالة الطبيب.

وعلى أمل شفائه، وإمكانية اللجوء عملياً إلى هذا المسار الثالث، قرر السيد لوري أن يراقبه باهتمام، دون أن يظهر بقدر الإمكان أنه يفعل

ذلك. ولهذا، اتخذ الترتيبات اللازمة للتغيب عن بنك تيلسون، لأول مرة في حياته؛ واتخذ موقعه بجوار النافذة في الغرفة نفسها.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ ليكتشف أن التحدث إليه ليس فقط دون جدوى، بل أسوأ لأنه يصبح قلقاً عند الضغط عليه. فتخلى عن تلك المحاولة في اليوم الأول، وقرر أن يقتصر على البقاء أمامه دائماً، كاحتجاجٍ صامتٍ على الوهم الذي سقط أو يسقط فيه. ولذلك بقي في مقعده بالقرب من النافذة، يقرأ ويكتب، ويُعبّر بأكبر عدد ممكن من الطرق الممتعة والطبيعية التي تخطر على باله أنه مكان يتمتع فيه بالحرية.

تناول الدكتور مانيت ما أُعطي له ليأكل ويشرب، وواصل عمله في ذلك اليوم الأول، حتى أصبح الظلام شديداً ويحول دون الرؤية، لكنه واصل العمل لمدة نصف ساعة بعد عجز السيد لوري عن القراءة أو الكتابة بأي قدر. عندما وضع أدواته جانباً، بوصفها أصبحت عديمة الفائدة، حتى الصباح، نهض السيد لوري وقال له:

«هل ستخرج؟».

نظر إلى الأرض على جانبه بالطريقة القديمة، ونظر إلى أعلى بالطريقة القديمة، وكرر قائلاً بصوتٍ منخفضٍ قديم:

«أخرج؟».

«نعم؛ للنزهة معي، لم لا؟».

لم يبذل أي جهد ليوضح لماذا لا يخرج، ولم يقل كلمة واحدة.

لكن السيد لوري ظن -وهو يميل إلى الأمام على مقعده في الغسق، ومرفقاه على ركبتيه ورأسه في يديه- أنه كان يسأل نفسه بطريقة ضبابية، «لم لا؟». أدركت حكمة رجل الأعمال وجود ميزة هنا، وعقد العزم على الإفادة منها.

اتفق مع الأنسة بروس على تقسيم الليل إلى فترتي حراسة، وراقباه على فترات من الغرفة المجاورة. كان يسير ذهابًا وإيابًا فترة طويلة قبل أن يستلقي، لكنه نام، بعد أن استلقى أخيرًا. استيقظ مبكرًا في الصباح، وتوجه مباشرة إلى مقعده للعمل.

وفي هذا اليوم الثاني، حيّاه السيد لوري بمرحٍ باسمه، وتحدث إليه حول موضوعات كانت مألوفة لهما مؤخرًا. لم يرد عليه، لكن الواضح أنه سمع ما قيل وفكر فيه، وإن كان مرتبكًا. شجّع هذا السيد لوري على إشراك الأنسة بروس، بما لديها من عمل، عدة مرات خلال اليوم. تحدثا بهدوء، في تلك الأوقات، عن لوسي وعن والدها المائل أمامهما، كأبي حديث معتاد بالضبط، كما لو لم يكن هناك شيء خاطئ. قاما بذلك دون أي مبالغة، وليس لفترة طويلة بما يكفي، أو أحيانًا بما يكفي لمضايقته. وقد أسعد قلب السيد لوري الودود اعتقاده بأن الطبيب كان ينظر إلى أعلى كثيرًا، وبدا متأثرًا ببعض التصورات المتناقضة المحيطة به.

وعندما حلَّ الظلام مرة أخرى، سأله السيد لوري كما سبق:

«عزيزي الطبيب، هل ستخرج؟».

«أخرج؟»، كرر الطبيب كما سبق.

«نعم؛ للنزهة معي. لم لا؟».

تظاهر السيد لوري بالخروج هذه المرة، عندما لم يستطع انتزاع إجابة منه. وبعد أن غاب لمدة ساعة، عاد. في غضون ذلك، انتقل الطبيب إلى المقعد المجاور للنافذة، وجلس هناك ينظر إلى شجرة الدلب. وما إن عاد السيد لوري، حتى انسل إلى مقعده.

مرَّ الوقت ببطءٍ شديدٍ، وتضاءل أمل السيد لوري، وأصبح قلبه ثقیلاً مرة أخرى، وأصبح أثقل وأثقل كل يوم. جاء اليوم الثالث ومضى، وجاء الرابع والخامس. خمسة أيام، ستة أيام، سبعة أيام، ثمانية أيام، تسعة أيام.

أمضى السيد لوري تلك الفترة القلقة والأمل يزداد قتامة، وقلبه يزداد ثقلاً دائماً. أمكن الاحتفاظ بالسر جيداً، وكانت لوسي سعيدة ولم تعرف شيئاً. لكن السيد لوري لم تفته ملاحظة أن صانع الأحذية، الذي كانت يده ضعيفة في البداية، أصبح ماهراً بدرجة مخيفة، وأنه لم يكن قطُّ بهذا القدر من الانكباب على عمله، وأن يديه لم تكن قطُّ ذكية وخبيرة مثلما كانتا في غسق المساء التاسع.

الفصل التاسع عشر

استشارة

نام السيد لوري في مكانه، بعد أن أنهكته المراقبة القليلة. وفي صباح اليوم العاشر من ترقُّبه القلق، فوجئ بسطوع الشمس في الغرفة التي غلبه فيها سبات ثقيل عندما حل الظلام في الليل.

فرك عينيه وأيقظ نفسه؛ لكنه تشكك، عندما فعل ذلك، فيما إذا كان لا يزال نائمًا؛ ذلك أنه عندما ذهب إلى باب غرفة الطبيب ونظر إلى الداخل، لاحظ أن طاولة صانع الأحذية وأدواته قد وُضعت جانبًا مرة أخرى، وأن الطبيب نفسه كان جالسًا يقرأ بالقرب من النافذة. كان يرتدي ملابسه الصباحية المعتادة، وكان وجهه (الذي استطاع السيد لوري رؤيته بوضوح) مجتهدًا ويقظًا بهدوء، على الرغم من أنه لا يزال شاحبًا للغاية.

وحتى بعد أن اطمأن السيد لوري بأنه مستيقظ، انتابه شعورٌ بالدوار لبضع لحظات من عدم تأكده عما إذا كان ما رآه مؤخرًا من صنع الأحذية ليس سوى حلم مضطرب من أحلامه؛ ألم ترى عيناه صديقه أمامه في ملابسه ومظهره المعتاد، ويعمل كالمعتاد؛ وهل هناك أي علامة في نطاق بصره تدل على أن التغيير ترك في ذهنه انطباعًا قويًا قد حدث بالفعل؟

لم يكن ذلك سوى استفسار عن حيرته ودهشته الأولى، وكان الجواب واضحًا. إذا لم يكن الانطباع ناتجًا عن سبب حقيقي مُناظر وكافٍ، فكيف جاء هو، جارفيس لوري، إلى هناك؟ كيف نام بملابسه على الأريكة في غرفة استشارات الدكتور مانيت، ويناقش هذه النقاط خارج باب غرفة نوم الطبيب في هذا الصباح الباكر؟

وفي غضون بضع دقائق، وقفت الأنسة بروس بجانبه هامسة. لو كان لديه أي ذرة من الشك، لكان حديثها قد حلها بالضرورة. لكن ذهنه، في ذلك الوقت، كان صافيًا، ولم يكن لديه أي شك. اقترح عليها أن يتركا الوقت يمر حتى ساعة الإفطار المعتادة، ثم يقابلان الطبيب كأن شيئًا غير عادي لم يحدث. وإذا بدا أنه في حالته الذهنية المعتادة، فسوف يشرع السيد لوري بحذرٍ في التماس التوجيه والإرشاد من الاستشارة التي كان في ظل قلقه متلهفًا على الحصول عليها.

استسلمت الأنسة بروس لقراره، ووضعت الخطة بعناية. ونظرًا إلى أن السيد لوري كان لديه متسع من الوقت لأداء طقوس تبرجه اليومي المعتاد، فقد أتى في ساعة الإفطار مرتديًا ملابسه الكتانية البيضاء المعتادة، وبنطاله الأنيق المعتاد. وجرى استدعاء الطبيب بالطريقة المعتادة، وجاء لتناول الإفطار.

ونظرًا إلى قدر ما كان يمكن فهمه دون تجاوز المقدمات الدقيقة والتدرجية، التي شعر السيد لوري أنها السبيل الآمن الوحيد للتقدم، فقد افترض في البداية أن زواج ابنته قد حدث بالأمس. أُلقيت عمدًا إشارة عرضية إلى هذا اليوم من الأسبوع ومن الشهر، جعلته يُفكر

ويحسب، ومن الواضح أنها جعلته يشعر بعدم الارتياح. أما في جميع النواحي الأخرى، كان هادئًا على طبيعته، إلى درجة أن السيد لوري صمم الحصول على العون الذي كان يسعى إليه، وكان ذلك العون يخصه.

ولذلك، عندما انتهى الفطور وُرفِعَ عن المائدة، وبقي هو والطبيب معًا، قال السيد لوري في تأثُّر:

«عزيزتي مانيت، أتوق إلى معرفة رأيك، بشكل سري، في قضية غريبة للغاية تثير اهتمامي بشدة؛ بمعنى أنها غريبة جدًا بالنسبة إليّ. وربما تكون أقل غرابة بالنسبة إليك، نظرًا إلى ما لديك من معلومات أفضل».

نظر الطبيب إلى يديه، اللتين تغيَّرَ لونها بسبب عمله الأخير، وبدأ مضطربًا، وأنصت بانتباه. وكان قد نظر إلى يديه بالفعل أكثر من مرة.

«دكتور مانيت»، قال السيد لوري، وهو يلمس ذراعه بمودة: «هذه الحالة تخص صديقًا عزيزًا على وجه الخصوص، أرجو أن تفكر في الأمر، وتعطني نصيحة جيدة من أجله؛ وقبل كل شيء، من أجل ابنته... ابنته، عزيزتي مانيت».

قال الطبيب بنبرة خافتة: «إذا كنت قد فهمت، هل هي صدمة عقلية...؟».

«نعم!».

قال الطبيب: «كن صريحًا، لا تترك أي تفاصيل».

رأى السيد لوري أنهما يفهمان بعضهما، فتابع حديثه:

«عزيزي مانيت، إنها حالة صدمة قديمة متطاولة، شديدة الحدة والقسوة على العواطف والمشاعر و... و...، كما تُعبرون عنه، والعقل. العقل. إنها حالة صدمة تحمّلها المُصاب فترة لا يمكن للمرء تحديد مدتها، لأنني أعتقد أنه لا يستطيع حساب الوقت بنفسه، ولا توجد أي وسيلة أخرى لمعرفة الوقت. إنها حالة صدمة تعافى منها المُصاب من خلال عملية لا يستطيع تتبعها بنفسه؛ كما سمعته ذات مرة يرويها علناً بطريقة ملفتة للنظر. إنها حالة صدمة تعافى منها، كاملاً، حتى عاد رجلاً ذكياً للغاية، قادراً على إعمال العقل بثقة، وبذل جهداً بدنياً كبيراً، والاستمرار في زيادة مخزونه من المعرفة -الذي كان كبيراً جداً بالفعل - بإضافات جديدة. لكنه، لسوء الحظ، تعرّض..»، توقف مؤقتاً وأخذ نفساً عميقاً، «لاتتكاسة طفيفة».

سأل الطبيب بصوت منخفض: «كم كانت مدتها؟».

«تسعة أيام وليال».

ألقى نظرة خاطفة على يديه مرة أخرى، وسأل: «كيف تجلّت؟ أتصور أنها تجلّت في استئناف عمل قديم ما، مرتبط بالصدمة؟».

«هذه هي الحقيقة».

سأل الطبيب بوضوح وهذوء، وإن كان بالصوت المنخفض نفسه: «والآن، هل سبق ورأيتَه منصرفاً في هذا العمل أصلاً؟».

«مرة واحدة».

«وعندما أصابته الانتكاسة، هل كانت في معظم النواحي -أو في جميع النواحي - كما كان في ذلك الوقت؟».

«أعتقد في جميع النواحي».

«لقد تحدثت عن ابنته، هل تعرف ابنته بالانتكاسة؟».

«لا، لقد أخفي الأمر عنها، وآمل أن يظل مخفيًا عنها دائمًا. لا أحد يعرف سواي، وشخص آخر جدير بالثقة».

أمسك الطبيب بيده، وتمتم قائلاً: «كان ذلك لطيفًا جدًا. كان تصرفًا حكيماً للغاية!». أمسك السيد لوري بيده، في المقابل، وصمت كلاهما فترة قصيرة.

«والآن، عزيزي مانيت»، استرسل السيد لوري بأسلوبه وطريقته الأكثر مراعاة وحناناً، «أنا مجرد رجل أعمال، وغير مؤهل للتعامل مع مثل هذه الأمور المعقدة والصعبة، ولا أملك هذا النوع من المعلومات اللازمة، ولا هذا النوع من الذكاء؛ وأحتاج إلى توجيه. ولا يوجد رجل في هذا العالم يمكنني الاعتماد عليه في التوجيه الصحيح، مثلك. قل لي، كيف تحدثت هذه الانتكاسة؟ هل هناك خطر من حدوث انتكاسة أخرى؟ هل يمكن منع تكرارها؟ كيف يجب علاجها إذا تكررت؟ وكيف يحدث ذلك على الإطلاق؟ ماذا يمكنني أن أفعل لصديقي؟ لا يمكن لأي إنسان أن يكون أكثر رغبة في قلبه لخدمة صديق أكثر من رغبتي في خدمة صديقي، لو كنت أعرف كيف».

«لكنني لا أعرف ماذا أفعل في مثل هذه الحالة. إذا كانت حكمتك

ومعرفتك وخبرتك يمكن أن تضعني على المسار الصحيح، فقد أكون قادرًا على القيام بالكثير، أما وأنا غير مستنير وغير موجّه، فلا يمكنني سوى القيام بالقليل جدًا. أرجو مناقشة الأمر معي؛ وأرجو أن تمكّنني من رؤية الأمر على نحوٍ أكثر وضوحًا، وتُعلمني كيف أكون أكثر فائدة». جلس الدكتور مانيت في حالة تأمل بعد هذه الكلمات الصادقة، ولم يضغط عليه السيد لوري.

قال الطبيب، كاسرًا الصمت بجهدٍ: «أعتقد أنه من المحتمل أن الانتكاسة التي وصفتها، يا صديقي العزيز، لم تكن غير متوقعة تمامًا من جانب المُصاب».

«هل كان يخشاها؟»، غامر السيد لوري بالسؤال.

«كثيرًا». قالها بقشعريرة لا إرادية.

«ليس لديك أي فكرة عن كيفية تأثير مثل هذا الخوف في عقل المُصاب، ومدى صعوبة -وتقريبًا شبه استحالة- أن يجبر نفسه على نطق كلمة واحدة حول الموضوع الذي يعاني منه».

سأله السيد لوري: «هل سيشعر بالارتياح إلى حدٍّ معقول إذا استطاع إقناع نفسه نقل هذا التفكير الخفي، عندما يراوده، إلى أي شخص؟».

«أعتقد ذلك. لكنه شيء، كما قلت لك، أقرب إلى المستحيل. حتى إنني أعتقد أنه مستحيل تمامًا، في بعض الحالات».

وبعد صمتٍ قصيرٍ، قال السيد لوري، ووضع يده بلطفٍ على ذراع الطبيب مرة أخرى: «والآن، إلى ماذا تُرجع هذه النوبة؟».

أجاب الدكتور مانيت: «أعتقد كان هناك إحياء قوي وغير عادي لقطار الفكر والتذكر لما كان السبب الأول للمرض. أعتقد أنه تذكر بوضوح بعض الارتباطات الشديدة ذات الطبيعة المؤلمة للغاية. من المحتمل أنه كان هناك فزع كامن في ذهنه منذ فترة طويلة يتمثل في أن تلك الارتباطات سوف تُستدعى، مثلاً، في ظل ظروف معينة؛ مثلاً، في مناسبة معينة. وقد حاول أن يُهيئ نفسه لذلك، دون جدوى. وربما أدى الجهد الذي يبذله لتهيئة نفسه إلى جعله أقل قدرة على تحمّله».

سأل السيد لوري، بترددٍ طبيعي: «وهل سيتذكر ماذا حدث في تلك الانتكاسة؟».

نظر الطبيب حول الغرفة بحزنٍ، وهزّ رأسه، ثم أجاب بصوتٍ منخفضٍ: «كلا، على الإطلاق».

«والآن، بالنسبة إلى المستقبل»، ألمح السيد لوري.

«بالنسبة إلى المستقبل»، قال الطبيب، مستعيداً حزمه، «يجب أن يكون لديّ أمل كبير. وبما أن السماء شاءت برحمتها أن يتعافى بسرعة، يجب أن يكون لديّ أمل كبير. لقد استسلم تحت ضغط شيء معقد، لطالما خافه منذ فترة طويلة، وتوقعه بغموضٍ، وقاومه منذ فترة طويلة، ثم تعافى بعد أن انقشعت السحابة ومرت، ولذا آمل أن يكون الأسوأ قد انتهى».

قال السيد لوري: «حسنًا، حسنًا! هذا شعور طيب بالارتياح. أنا شاكر لك!».

كرر الطبيب، وهو يحني رأسه بإجلال: «أنا شاكر لك!». قال السيد لوري: «بقيت نقطتان، أتوق إلى تلقي توجيهك بشأنهما. هل يمكنني المتابعة؟». «لن يمكنك تقديم خدمة أفضل من هذه لصديقك». أعطاه الطبيب يده.

«النقطة الأولى، إذن، إنه مولع بالدراسة ويتمتع بحيوية غير عادية؛ ويكرس نفسه بحماس كبير لاكتساب المعرفة المهنية، وإجراء التجارب، وأشياء أخرى كثيرة. والآن، أليس هذا جهداً كبيراً؟». «لا أعتقد، قد تكون هذه هي طبيعة عقله؛ أن يظل دائماً في حاجة ماسة إلى الانشغال. وقد يكون جزء منه طبعياً بالنسبة إليه؛ وجزء منه نتيجة للمحنة. كلما قلَّ انشغاله بالأشياء الصحية، زاد خطر التحول في الاتجاه غير الصحي. وربما راقب نفسه، واكتشف ذلك». «هل أنت متأكد من أنه ليس تحت ضغط كبير؟».

«أعتقد أنني متأكد تماماً».

«عزيزي مانيت، إذا كان يعمل فوق طاقته الآن...»

«يا عزيزي لوري، أشك في إمكانية حدوث ذلك بسهولة. لقد تعرّض لضغطٍ عنيفٍ في اتجاه واحد، ويحتاج إلى ثقل موازن». «أرجو أن تعذر إلحاحي كرجل أعمال. لنفترض للحظة أنه كان يعمل فوق طاقته؛ فهل سيظهر ذلك على شكل تجدد لهذا الاضطراب؟». «لا أعتقد ذلك». قال الدكتور مانيت بثقة الاقتناع الذاتي: «لا أعتقد

أن أي شيء يمكن أن يجده سوى قطار تداعي الذكريات. وأعتقد أنه، من الآن فصاعدًا، لا شيء يمكن أن يجده سوى بعض الاهتزازات الاستثنائية لهذا الوتر. بعد ما حدث، وبعد تعافيه، أجد صعوبة في تخيل أي صوتٍ عنيفٍ مماثل يمكن أن يصدر مرة أخرى عن هذا الوتر. وأنا على ثقة، بل أكاد أومن، أن الظروف التي من المحتمل أن تجده قد استُنفدت».

لقد تحدث بخجلٍ رجلٍ يعرف أن شيئًا تافهًا يمكن أن يززع التنظيم الدقيق للعقل، ومع ذلك تحدث بثقة رجل كسب شيئًا فشيئًا يقينه من التحمُّل الشخصي والضيق. لم يكن لصديقه أن يقلل من تلك الثقة. وأعرب عن ارتياحه وتشجيعه أكثر مما كان يشعر بالفعل، وانتقل إلى نقطته الثانية والأخيرة. شعر أنها أصعب شيء على الإطلاق؛ لكنه أدرك ضرورة مواجهتها، عندما تذكر حديثه السابق صباح الأحد مع الآنسة بروس، وتذكر ما رآه في الأيام التسعة الماضية.

قال السيد لوري وهو يتنحرج: «إن المهنة التي استأنفها تحت تأثير هذا البلاء العابر، الذي تعافى منه لحسن الحظ، سنسميها أعمال الحدادة، عمل الحدَّاد. سنقول، بهدف عرض القضية وللتوضيح، إنه اعتاد في أوقاته السيئة العمل في دكان حدادة صغير، وسنقول إنه وُجد بشكل غير متوقع في دكان الحدادة مرة أخرى. أليس من المؤسف أن يحتفظ بالأدوات إلى جانبه؟».

حجب الطبيب جبهته بيده، وضرب بقدمه الأرض بعصبية.

قال السيد لوري، ناظرًا إلى صديقه بقلقٍ: «لقد احتفظ بها دائمًا، أليس من الأفضل الآن أن يتخلص منها؟».

يبد أن الطبيب أخذ يضرب بقدمه الأرض بعصبية، وهو يحجب
جبهته.

قال السيد لوري: «ألا تجد من السهل أن تنصحني؟ أنا أدرك تمامًا
أنه سؤال دقيق. ومع ذلك، أعتقد...»، وهنا هز رأسه، وتوقف.

قال الدكتور مانيت، ملتفتًا إليه بعد صمتٍ مضطربٍ: «يصعب
للغاية أن أشرح، على نحوٍ منهجي، النشاط الداخلي العميق في عقل
هذا الرجل المسكين. لقد تاق ذات يوم إلى تلك الحرفة بدرجة رهيبة،
وكانت موضع ترحيب كبير عندما تحققت. فما من شك أنها خففت من
آلامه كثيرًا. وكلما أصبح أكثر ممارسة، كانت حيرة الأصابع تحل محل
حيرة الدماغ، وبراعة اليدين تحل محل براعة التعذيب العقلي، بحيث
لم يستطع قطُّ تحمُّل فكرة وضعها بعيدًا عن متناول يده. وحتى الآن،
عندما أتصور أنه أكثر تفاؤلاً بنفسه مما كان عليه في أي وقتٍ مضى،
بل ويتحدث عن نفسه بنوعٍ من الثقة، فإن فكرة أنه قد يحتاج إلى هذا
العمل القديم ولا يجده، تبعث في نفسه إحساسًا مفاجئًا بالرعب؛ مثل
ذلك الإحساس الذي يمكن أن يتخيل المرء أنه يصيب قلب طفل تائه». رفع
عينيه إلى وجه السيد لوري، وبدا شبيهًا بالطفل الذي ضرب به

المثل التوضيحي.

«لكنني أرجو ألا تمنع! أنا أسعى إلى المعرفة بوصفي رجل
أعمال مثابرًا، لا يتعامل إلا مع أشياء مادية - مثل الجنيهات، والشلنات،
والأوراق النقدية - ألا يجوز أن ينطوي الاحتفاظ بالأدوات على
الاحتفاظ بالفكرة؟ فإذا اختفت الأدوات، يا عزيزي مانيت، ألا يمكن

أن يختفي معها الخوف؟ باختصارٍ، أليس الاحتفاظ بأدوات الحداثة استسلامًا للهواجس؟».

ساد صمتٌ آخر.

قال الطبيب مرتجفًا: «كما ترى أيضًا، أدوات الحداثة رفيقٌ قديمٌ».

قال السيد لوري وهو يهز رأسه؛ لأنه اكتسب حزمًا عندما رأى الطبيب مضطربًا: «لم أكن لأحتفظ بالأدوات، كنت سأوصيه بالتضحية بها، أريد فقط تفويضك. أنا متأكد من أن تلك الأدوات غير مفيدة. هيا! أعطني تفويضك، مثل رجل صالح عزيز. من أجل ابنته، عزيزتي مانيت!».

غريب جدًا رؤية الصراع الذي يعتمل داخله!

«باسمها، إذن، فليكن ذلك؛ أعطيك موافقتي. لكنني ما كنت أبعد تلك الأدوات وهو موجود. سوف أخفيها عندما لا يكون موجودًا، دعه يفتقد رفيقه القديم بعد غياب».

كان السيد لوري على أتم استعداد لإنجاز الأمر، وهكذا انتهى حديثهما. أمضيا اليوم في الريف، وتعافى الطبيب تمامًا. ظل بصحة جيدة في الأيام الثلاثة التالية، وسافر في اليوم الرابع عشر ليلحق بلوسي وزوجها. وكان السيد لوري قد شرح له الاحتياطات التي اتخذت لتبرير صمته، وأنه كتب إلى لوسي بناء على ذلك، ولم تخامرهما أي شكوك.

وفي ليلة اليوم الذي غادر فيه الطبيب المنزل، ذهب السيد لوري إلى غرفته ومعه ساطور، ومنشار، وإزميل، ومطرقة، وبرفقه الأنسة

بروس تحمل ضوءاً. هناك، وفي ظل أبواب مغلقة وبطريقة غامضة وإجرامية، قام السيد لوري بتحطيم طاولة صانع الأحذية إلى أشلاء، بينما كانت الأنسة بروس تحمل الشمعة كأنها تساعد في جريمة قتل؛ وهو الوصف الذي يتلاءم، في الواقع، مع تجهمها. بدأ حرق الجثة (التي سبق تحطيمها إلى قطع مناسبة لهذا الغرض) دون تأخير وسط نار المطبخ؛ ودُفنت الأدوات، والأحذية، والجلود، في الحديقة. ولما كانت العقول الصادقة تعتبر التدمير والسرية أعمالاً شريرة، فقد شعر السيد لوري والأنسة بروس وظهرا تقريباً - في أثناء مشاركتهما في ارتكاب فعلهما وإزالة آثاره - كأنهما متواطئان في جريمة مروعة.

الفصل العشرون

توسُّل

عندما عاد الزوجان حديثا الزواج إلى المنزل، كان سيدني كارتون أول شخص وصل لتقديم تهانيه، لم يكن قد مضى على وجودهما في المنزل ساعات طويلة، عندما جاء. لم تتحسن عاداته، أو مظهره، أو سلوكه؛ وإنما أحاط به جوٌّ معين فظُّ من الإخلاص، كان جديدًا على تشارلز دارني.

وقد انتهز فرصة مواتية لينتحي بدارني جانبًا بجوار النافذة، للتحدث إليه دون أن يسمعه أحد.

قال كارتون: «سيد دارني، أتمنى أن نصبح صديقين».

«نحن صديقان بالفعل، كما آمل».

«لطيف منك أن تقول ذلك على سبيل المجاملة؛ لكنني لا أقصد حديث المجاملات. ففي الواقع، عندما أقول إنني أتمنى أن نكون صديقين، فإنني أيضًا لا أعني ذلك تمامًا».

وكان من الطبيعي أن يسأله تشارلز دارني، بكل روح الدعابة والزمالة الطيبة، عما يعنيه؟

قال كارتون مبتسمًا: «أقسم بحياتي إنني أجد أن فهم ذلك في ذهني أسهل من نقله إلى ذهنك. ومع ذلك، دعني أحاول. هل تتذكر مناسبة معينة مشهورة، كنت أنا فيها ثملًا أكثر من المعتاد؟».

«أتذكر مناسبة شهيرة معينة، عندما أجبرتني على الاعتراف بأنك كنت تشرب».

«أتذكرها أيضًا. لعنة تلك المناسبات ثقيلة عليّ، لأنني أتذكرها دائمًا، وآمل أن يؤخذ ذلك في الاعتبار يومًا ما، عندما تنتهي أيامي كلها! لا تنزعج؛ لا أنوي أن أعظ».

«أنا لست منزعجًا على الإطلاق. جدتيك قد تكون أي شيء بالنسبة إليّ، إلا أن تثير انزعاجي».

قال كارتون، ملوحًا بيده بلامبالاة، كأنما يبعد ذلك عنه: «آه! في تلك المناسبة، عندما كنت مخمورًا (وهي واحدة من مناسبات عديدة، كما تعلم)، أثقلت عليك، بشكل لا يُطاق، حول إعجابي بك وعدم إعجابي بك، أتمنى أن تنسى ذلك».

«لقد نسيته منذ فترة طويلة».

«أسلوب المجاملة مرة أخرى! لكن النسيان، يا سيد دارني، ليس سهلًا بالنسبة إليّ، بمثل ما تتصوره لنفسك. أنا لم أنس بأي حال، والإجابة التلقائية لا تساعدني على النسيان».

أجاب دارني: «إذا كانت إجابة تلقائية، فإنني أستمحك عذرًا. لم يكن لدي أي هدف آخر سوى أن أنحي جانبًا أمرًا بسيطًا يبدو، لدهشتي، أنه

يزعجك كثيرًا. أعلن لك، بإيمان رجلٍ محترمٍ، أنني أبعدته عن ذهني منذ فترة طويلة. يا إلهي، ماذا كان هناك لأبعده عن ذهني! ألم يكن لديَّ شيء أكثر أهمية لتذكره، في الخدمة العظيمة التي قدمتها لي في ذلك اليوم؟».

قال كارتون: «أما بالنسبة إلى الخدمة العظيمة؛ فلا بد أن أعترف لك، عندما تتحدث عنها بهذه الطريقة، أنها كانت مجرد هراء مهني، ولا أعرف أنني اهتممت بما سيحدث لك، عندما قدمتها. أقول عندما قدمتها ... فأنا أتحدث عن الماضي».

أجاب دارني: «أنت تنتقص من هذا الفضل، لكنني لن أجادل إجابتك المخففة».

«ثق بي، يا سيد دارني، إنها الحقيقة الصادقة! لقد انحرفت عن هدفي. كنت أتحدث عن كوننا صديقين. والآن، أنت تعرفني؛ تعرف أنني عاجز عن كل ارتقاء أعلى وأفضل يقوم به الرجال. وإذا كنت تشك في ذلك، يمكنك أن تسأل سترايفر، وسيخبرك بذلك».

«أنا أفضل تكوين رأيي الخاص، دون مساعدة منه».

«حسنًا! على أي حال، أنت تعرفني ككلبٍ فاسقٍ، لم يفعل أي خير قطُّ، ولن يفعله أبدًا».

«لا أعرف أنك «لن تفعله أبدًا»».

«لكنني أعرف، ويجب أن تأخذ كلامي على محمل الجد. حسنًا! إذا كان في وسعك أن تتحمل أن يزورك رجل مثل هذا الذي لا قيمة له، وله هذه السمعة غير المبالية، ويأتي ويذهب في أوقات غريبة، فإنني

أطلب منك السماح لي بالمجيء والذهاب كشخصٍ متميزٍ هنا؛ وأن أُعتبر قطعة أثاث عديمة الفائدة (وأود أن أضيف -إن لم يكن للتشابه الذي اكتشفته بيني وبينك- قطعة أثاث غير مزخرفة)، تُحتَمَل لخدمتها القديمة، دون أن يُلفت إليها. أشكُّ أنني سوف أُسيء استخدام هذا الإذن. إنها نسبة مائة إلى واحد إذا أفدت منه أربع مرات في السنة. وأجرؤ على القول إنه سيرضيني أن أعرف أنني حصلت عليه».

«هل تود أن تجرب؟».

«هذه طريقة أخرى للقول إنني وضعت في المكانة التي أشرتُ إليها، أشكرك يا دارني. وهل يمكنني استخدام هذه الحرية فيما يتعلق باسمك؟».

«أعتقد ذلك الآن، يا كارتون».

تصافحا على هذا الأساس، وانصرف سيدني. وفي غضون دقيقة بعد ذلك، أصبح من حيث المظهر الخارجي، غير مستقر كما كان دائماً. بعد أن رحل، وفي أثناء أمسية مع الآنسة بروس والطبيب والسيد لوري، أشار تشارلز دارني إلى هذه المحادثة بعبارات عامة، وتحدث عن سيدني كارتون بوصفه مشكلة إهمال وتهور، تحدث عنه باختصار، ليس بمراة أو بقصد أن يقسو عليه، وإنما كما قد يراه أي شخص كلما ظهر. لم يكن يخطر بباله أن هذا الحديث يمكن أن يستقر في ذهن زوجته الشابة الجميلة. لكنه، عندما التحق بها بعد ذلك في غرفهم الخاصة، وجدها تنتظره وهي ترفع جبهتها بوضوحٍ شديدٍ تلك الرفعة الجميلة القديمة.

قال دارني وهو يطوقها بذراعه: «نحن نكثر من التفكير هذه الليلة!». .

«نعم، تشارلز العزيز»، قالت ويدها على صدره، وتعبيرات الاستفسار والاهتمام مُثبتة عليه: «نحن نكثر من التفكير إلى حدٍّ ما الليلة، لأن لدينا شيئاً في أذهاننا هذه الليلة».

«ما هو، يا لوسي؟».

«هل تعدني بالآ تلح عليّ بأي سؤال، إذا رجوتك ألا تسأله؟».

«هل أعدك؟ وما من شيء لا أعد به حبيتي؟».

نعم، ما من شيء لا يعدها به في الواقع، ويده تزيح الشعر الذهبي عن الخد، ويده الأخرى على القلب الذي ينبض له!

«تشارلز، أعتقد أن السيد كارتون المسكين يستحق من الاهتمام والاحترام أكثر مما عبّرت عنه الليلة».

«حقاً، حبيتي؟ ولم ذلك؟».

«هذا ما يجب ألا تسألني عنه. لكنني أعتقد -وأنا أعرف- أنه يستحق ذلك».

«إذا كنت تعرفين، فهذا يكفي. ماذا تريدين مني أن أفعل، يا حياتي؟».

«أود أن أطلب منك، يا عزيزي، أن تكون كريماً جداً معه دائماً، ومتساهلاً جداً تجاه أخطائه في حال عدم وجوده. وأود أن أطلب منك أن تصدق أنه يتمتع بقلبٍ نادراً ما يكشف عنه، وأنه ينطوي على جروح عميقة. يا عزيزي، لقد رأيته ينزف».

قال تشارلز دارني، وهو مندهش تمامًا: «يؤلمني التفكير في أنني قد أكون أسأت إليه. لم أفكر قط في هذا الأمر».

«هذا هو الوضع، يا زوجي. أخشى ألا يمكن إنقاذه. نادرًا ما يوجد أمل في إمكانية استعادة أي شيء في شخصيته أو حظوظه الآن. لكنني على ثقة بأنه قادر على أشياء جيدة، وأشياء لطيفة، وحتى أشياء تتسم بالشهامة».

بدأت جميلة جدًا في نقاء إيمانها بهذا الرجل الضائع، إلى درجة أن زوجها كان يمكنه أن يظل ناظرًا إليها على حالتها تلك لساعات.

«ويا حبيبي!»، قالت بالحاح، متشبثة به، ووضعت رأسها على صدره، ورفعت عينيها نحو عينيه، «تذكر كم نحن أقوياء في سعادتنا، وكم هو ضعيف في يؤسه!».

لمس هذا التوسل قلبه. «سأذكر ذلك دائمًا، يا حبيبة القلب! سأذكره ما حييت».

انحنى على الرأس الذهبي، ووضع الشفتين الورديتين على شفثيه، وضمَّها بين ذراعيه. لو استطاع متجول بائس، يتجول في الشوارع المظلمة، أن يسمع بوحها البريء، ويرى قطرات الشفقة التي أبعدتها زوجها بقبلاته عن العينين الزرقاوين الناعمتين المحبتين لذلك الزوج، لربما صاح مخاطبًا الليل... ولم تكن الكلمات قد فارقت شفثيه لأول مرة...

«فليباركها الله لتعاطفها العذب!».

الفصل الحادي والعشرون

صدي وقع الأقدام

كانت تلك الزاوية التي عاش فيها الطبيب، كما سبق الذكر، موقعًا حافلًا بالأصدقاء. وفي تلك الزاوية الرنانة الهادئة، جلست لوسي في المنزل الهادئ تستمع إلى حُطى السنين، وهي منشغلة دائمًا في نسج الخيط الذهبي الذي يربطها وزوجها ووالدها ومديرة المنزل رفيقتها العجوز، في حياة من النعيم الهادئ.

وعلى الرغم من أنها كانت زوجة شابة سعيدة تمامًا، مرّت أوقات في البداية يقع خلالها عملها ببطء من يديها، وتصبح عيناها باهتتين؛ ذلك لأن هناك شيئًا قادمًا في الأصدقاء، شيئًا خفيفًا، بعيدًا ولا يزال بالكاد مسموعًا، يثير قلبها كثيرًا. انقسم صدرها بين آمال وشكوك مرفرفة: آمال، حب لا تعرفه بعد؛ وشكوك حول بقائها على الأرض للاستمتاع بتلك البهجة الجديدة. ومن بين تلك الأصدقاء التي تردّدت حينذاك، سيظهر صوت خطوات عند قبرها المبكر؛ وتورمت عيناها، وانكسرت كالأمواج، بأفكار عن الزوج الذي سيترك بائسًا للغاية وسيحزن عليها كثيرًا.

انقضى ذلك الوقت، وها هي تضم صغيرتها لوسي في حضنها. وحينذاك، كان وقع قدميها الصغيرتين وصوت كلماتها الثرثرة من بين الأصدقاء الآتية. دع الأصدقاء الأكبر تدوي كما تشاء، فالأم الشابة الجالسة بجوار المهد يمكنها دائماً سماع تلك الأصدقاء القادمة. أقبلت تلك الأصدقاء، وكان البيت الظليل مُشمساً بضحكة طفلة. وبدا أن صديق الأطفال الإلهي، الذي ائتمنه على أسرار محنتها، يضم طفلتها بين ذراعيه، كما ضم الطفلة القديمة سابقاً، ويجعل طفلتها بهجة مقدسة لها.

وفي انشغالها الدائم بلف الخيط الذهبي الذي يربطهم جميعاً معاً، وحياسة تأثيرها السعيد خلال أنسجة حياتهم جميعاً دون تفرقة، لم تسمع لوسي في أصدقاء السنين سوى أصوات ودودة مطمئنة. كانت خُطى زوجها قوية ومزدهرة بين تلك الأصدقاء، وكانت خُطى والدها ثابتة ومتساوية. وها هي الآنسة بروس مشدودة في الخيط، توقظ الأصدقاء كما يوقظها جواد جامح يؤدبه السوط، يزمجر ويضرب الأرض تحت شجرة الدلب في الحديقة!

وحتى عند وجود أصوات حزن بين بقية الأصوات، لم تكن عنيفة ولا قاسية. حتى عندما كان الشعر الذهبي، مثل شعرها، يتدلى مثل هالة على وسادة حول وجه مهترئ لصبي صغير، وقال بابتسامة مشرقة: «العزيزان بابا وماما، أنا آسف جداً لترككما، وترك أختي الجميلة؛ لكنني دُعيت، ويجب أن ألبى الدعوة وأذهب!»، لم تكن تلك دموع كل العذاب الذي بلّل خد والدته الشابة، عند مغادرة الروح لحضنها الذي عُهد إليها. «دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوه؛ لأن لمثل هؤلاء

ملكوت السماوات»^(١). أيها الأب، مباركة كلماتك!

وهكذا، امتزج حفيف أجنحة الملاك بالأصدااء الأخرى، ولم تكن كلها من الأرض، وإنما كانت فيها تلك النسمة من السماء. وامتزجت أيضًا تنهدات الرياح التي هبَّت على قبرٍ في حديقة صغيرة، وكان كلاهما مسموعًا للوسي، في همهمة خافتة - مثل أنفاس بحر صيفي نائم على شاطئٍ رملي - بينما كانت لوسي الصغيرة تجتهد بشكلٍ هزلي في مهمة الصباح، أو في إلباس دمية عند مسند قدمي والدتها، وهي تثرثر بلسان المدينتين اللتين امتزجتا في حياتها.

نادرًا ما استجابت الأصدااء لخطي سيدني كارتون الفعلية، كان يزعم نحو ست مرات في السنة، على الأكثر، أنه يتمتع بميزة الحضور دون دعوة، ويجلس بينهم طوال المساء، كما كان يفعل كثيرًا من قبل. لم يأت قطُّ ثملًا. وهناك شيء آخر يخصُّه كانت تهمس به الأصدااء، همست به جميع الأصدااء الحقيقية على مر العصور والأزمنة.

ما من رجل أحب امرأة حقًا، وفقدها، وعرفها بعقلٍ خالٍ من اللوم وظل دون تغيير، عندما كانت زوجة وأُمًّا، إلا وتعاطف معه أطفالها بشكلٍ غريبٍ، برقة غريزية من الشفقة عليه. أما عن الحساسيات الخفية الدقيقة، الملموسة في مثل هذه الحالة، فلا نخبرنا عنها أي أصدااء؛ لكن الأمر كذلك، وكان على هذا النحو هنا. كان كارتون أول شخص غريب تمد إليه لوسي الصغيرة ذراعيها الممتلئتين، وظل كارتون محتفظًا

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح ١٩: ١٤ - (الترجمة).

بمكاته معها خلال فترات نموها، وتحدث عنه الصبي الصغير، في آخر لحظة تقريباً، «كارتون المسكين! قلبه من أجلي!».

شق السيد سترافير طريقه عبر رجال القانون، مثل سفينة بخارية ضخمة تقحم نفسها إلى المياه العكرة، وتجرح صديقه المفيد في أعقابها، مثل قارب تقطره مؤخرة السفينة. ونظرًا إلى أن القارب المفضل عادة ما يعاني محنة قاسية، ومعظمها تحت الماء، فقد عاش سيدني حياة غارقة فيه. لكن العادة السهلة والقوية -التي كانت، لسوء الحظ، أكثر سهولة وقوة لديه من أي إحساس مثير بالاستحقاق أو فقدان التقدير- جعلها الحياة التي عليه أن يعيشها؛ ولم يعد يفكر في الخروج من حالة ابن آوى التابع للأسد، أكثر مما يُفترض أن يفكر أي ابن آوى حقيقي في الارتقاء ليصبح أسدًا. كان سترافير غنيًا؛ تزوج من أرملة مبهرجة، لديها ممتلكات وثلاثة أولاد ليس لديهم أي شيء لامتاع بوجه خاص سوى الشعر المسترسل فوق رؤوسهم التي تشبه فطائر الزلاية.

كانت جميع مسام السيد سترافير تنضح بأجود أنواع الرعاية العدوانية تجاه هؤلاء السادة الشباب الثلاثة، الذين ساروا أمامه مثل ثلاثة خراف إلى تلك الزاوية الهادئة في سوهو، وقدمهم كتلاميذ لزوج لوسي، قائلاً بلطفٍ: «مرحبًا! إليك ثلاث كتل من الخبز والجبن تستعين بها في نزعتك الزوجية، يا دارني!». أثار الرفض المهذب لكتل الخبز والجبن الثلاث سخط السيد سترافير الذي استشاط غضبًا، لكنه أفاد منه بعد ذلك في تدريب السادة الشباب، بتوجيههم إلى توخي الحذر من كبرياء المتسولين، مثل ذلك الزميل المُعلّم. اعتاد أيضًا أن يتحدث

مع السيدة سترافير، وهو يحتمي نبذه الثقيل، عن الفنون التي مارستها السيدة دارني ذات مرة من أجل «اصطياده»، وعلى فنون «لا يقطع الألماس سوى الألماس»^(١)، سيدتي، التي «حالت دون اصطياده». وقد عذره بعض معارفه في محكمة الملك، الذين كانوا أطرافاً أحياناً في النبذ الثقيل والكذب، على كذبه الأخيرة بقولهم إنه حكاها كثيراً إلى درجة أنه صدق نفسه؛ وهنا بالتأكيد تفاقم على نحوٍ يتعذر إصلاحه لجريمة سيئة في الأصل، بما يبرر نقل أي مجرم من هذا القبيل إلى بقعة مناسبة معزولة، وشنقه هناك بعيداً عن الطريق.

كانت هذه من بين الأصدقاء التي استمعت إليها لوسي في ركن الصدى، وهي متأملة أحياناً، وضاحكة في أحيان أخرى، حتى بلغت ابنتها الصغيرة ست سنوات. وما من حاجة إلى الحديث عن مدى اقتراب أصدقاء حُطى طفلتها من قلبها، وأصدقاء والدها العزيز، الذي كان دائماً نشطاً وهادئاً، وأصدقاء زوجها العزيز. وما من حاجة إلى الحديث عن كيف كان أخف صدى لبيتهم الموحد -الذي أدارته بنفسها بمثل هذا التدبير الحكيم واللطيف، إلى درجة أنه كان أكثر وفرة من أي إسراف- كان بمنزلة موسيقى بالنسبة إليها. وما من حاجة أيضاً إلى الحديث عن الأصدقاء التي كانت حولها حلوة في أذنيها، في المرات العديدة التي أخبرها فيها والدها أنه وجدها أكثر إخلاصاً له وهي متزوجة (إن كان ذلك ممكناً) مما كانت عزباء، ومن المرات العديدة التي أخبرها فيها

(١) عبارة «لا يقطع الألماس سوى الألماس»: مقولة قديمة تعني أن الشخص الذي يتمتع بمهارة كبيرة لا يهزمه سوى شخص يتمتع بمهارة مساوية له أو أكبر - (المترجمة).

زوجها أنه لا توجد مهام وواجبات تبدو أنها تخفف حبتها له أو مساعدتها له، وسألها: «ما السر السحري، يا حبيبتي، في كونك كل شيء بالنسبة إلينا جميعاً، كما لو كنّا شخصاً واحداً فقط، ومع ذلك لا يبدو عليك أبداً أنك في عجلة، أو لديك الكثير لتفعله؟».

على أن هناك أصداً أخرى، كانت قادمة من مسافة بعيدة، تدوي بشكلٍ خطيرٍ في تلك الزاوية طوال هذه الفترة الزمنية. والآن، مع اقتراب عيد ميلاد لوسي الصغيرة السادس، بدأ صوتٌ فظيغٌ يصدر عن تلك الأصداً، مثل عاصفة كبيرة في فرنسا مع ارتفاعٍ مخيفٍ في البحر.

وفي ليلة من ليالي منتصف يوليو عام ١٧٨٩، وصل السيد لوري متأخراً من بنك تيلسون، وجلس بجانب لوسي وزوجها عند النافذة المظلمة. كانت ليلة حارة وموحشة، ذكّرتهم جميعاً بليلة الأحد القديمة، عندما كانوا ينظرون إلى البرق من المكان نفسه.

قال السيد لوري، وهو يدفع شعره المستعار البني إلى الخلف، «بدأت أفكر في أنني يجب أن أمضي الليل في بنك تيلسون. كنا مشغولين بالعمل طوال اليوم، إلى درجة أننا لم نعرف ماذا نفعل أولاً، أو إلى أي طريق نتجه. هناك قدرٌ كبيرٌ من القلق في باريس، إلى درجة أننا نفقد الثقة بأنفسنا! يبدو أن عملاءنا هناك غير قادرين على أن يعهدوا لنا بممتلكاتهم بسرعة كافية. هناك هوسٌ إيجابي بين بعضهم لإرسالها إلى إنجلترا».

قال دارني: «هذا مظهر سيء...».

«تقول مظهر سيء، عزيزي دارني؟ نعم، لكننا لا نعرف سببه. الناس غير معقولين على الإطلاق! البعض منا في تيلسون يتقدم بهم العمر، ولا يمكننا بالفعل أن نخرج عن المسار العادي دون مناسبة».

قال دارني: «ومع ذلك، أنت تعرف مدى كآبة السماء وتهديدها».

«أنا أعرف ذلك، بالتأكيد»، وافق السيد لوري، محاولاً إقناع نفسه بأن مزاجه اللطيف قد تعكر، وأنه تدمر، «لكنني مصمم على أن أكون عصبياً بعد عناء يومي الطويل. أين مانيت؟».

«ها هو»، قال الطبيب، وهو يدخل الغرفة المظلمة في تلك اللحظة.

«أنا سعيد للغاية بوجودك في البيت؛ لأن هذا التسارع ونذر الشؤم التي أحاطت بي طوال اليوم أصابتنني بتوترٍ دون سبب. أنت لن تخرج، أمل ذلك؟».

قال الطبيب: «لا. سألعب طاولة معك، إذا أردت».

«لا أعتقد أنني أريد، إذا جاز لي التعبير عن رأيي. أنا لست لائقاً لأكون ضدك هذه الليلة. هل مائدة الشاي لا تزال موجودة يا لوسي؟ لا أراها».

«بالطبع، احتفظنا بها من أجلك».

«شكراً لك، يا عزيزتي. الطفلة الغالية آمنة في سريرها؟».

«ومستغرقة في النوم».

«هذا صحيح؛ كل شيء آمن وجيد! لا أعرف لم لا يكون أي شيء آمن وجيد هنا، حمداً لله. لكنني كنت منزعباً طوال اليوم، وأنا لست

شابًا كما كنت! الشاي يا عزيزتي! شكرًا لك. والآن، تعالي وخذي مكانك في الدائرة، ولنجلس هادئين، ونسمع الأصدقاء التي لديك نظريتك عنها».

«ليست نظرية؛ وإنما مجرد خيال».

«خيال، إذن، يا صغيرتي الحكيمة»، قال السيد لوري وهو يربت على يدها، «صدى الأصوات كثيرة جدًا وصاخبة للغاية، أليس كذلك؟ اسمعهم فقط!».

وبينما كانت الدائرة الصغيرة تجلس بجوار نافذة لندن المظلمة، كانت حُطى متهورة ومجنونة وخطيرة تشق طريقها إلى حياة أي شخص؛ حُطى لا يمكن تنظيف وقعها بسهولة ثانية إذا تلطخت باللون الأحمر، حُطى مستعرة في ضاحية القديس أنطوان بعيدًا.

كان ضاحية القديس أنطوان، في ذلك الصباح، عبارة عن كتلة داكنة هائلة من الفزاعات التي تتأرجح ذهابًا وإيابًا، مع ومضات متكررة من الضوء فوق الرؤوس العاصفة، حيث تلمع الشفرات الفولاذية والحِراب في الشمس. انطلق زئير عارم من حلق القديس أنطوان، وتصارعت غابة من الأسلحة العارية في الهواء، مثل أغصان الأشجار الذابلة في ربح الشتاء: تشبثت الأصابع في تشنج بكل سلاح أو شبه سلاح يُقذف إلى أعلى من الأعماق في الأسفل، بغض النظر عن مدى بُعد المسافة.

من الذي قذف تلك الأسلحة، ومن أين أتت آخر مرة، ومن أين بدأت، وبأي وسيلة كانت عشرات منهم ترتجف وتهتز ملتوية في كل مرة فوق رؤوس الحشد، مثل نوع من البرق؛ لم يكن في وسع أي عين

في الحشد أن تعرف. لكن البنادق كانت تُوزَّع؛ وكذلك الخراطيش، والبارود، والرصاص، وقضبان الحديد والخشب، والسكاكين، والفؤوس، والجِراب، وكل سلاح يمكن أن تكتشفه أو تبتكره فطنة المتمردين رغم تشتتهم. أما أولئك الذين لم يتمكنوا من الحصول على أي شيء، فقد أخذوا ينتزعون الحجارة والطوب من أماكنها في الجدران بأيدي نازفة. كان كل نبض وقلب في القديس أنطوان في حالة من التوتر والحرارة الحماسيين، وكل كائن حي هناك اعتبر الحياة لا قيمة لها، وعلى استعدادٍ بجنون عاطفي للتضحية بها.

ومثلما توجد نقطة مركزية لدوامه المياه المغلية، تمركز كل هذا الغضب حول متجر ديفارج للنبيذ، وكانت كل قطرة بشرية في الرجل تميل إلى الانجراف نحو الدوامه، حيث كان ديفارج نفسه -ملوثًا بالبارود والعرق- يُصدر الأوامر، ويوزع الأسلحة، يدفع هذا الرجل إلى الوراء، ويجر هذا الرجل إلى الأمام، وينزع سلاح رجل لتسليح آخر؛ مناضلاً ومكافحاً وسط ضجة عارمة.

صاح ديفارج: «جاك ثلاثة، ابق بالقرب مني. وأنتما، جاك واحد واثنين، عليكم أن تنفصلا ويضع كل منكما نفسه على رأس أكبر عدد ممكن من هؤلاء الوطنيين. أين زوجتي؟».

«إيه، حسناً! تراني هنا!»، قالت السيدة، بهدوء كعادتها، وإنما بلا حياكة اليوم. فقد كانت يدها اليمنى الحازمة مشغولة بفأس، حلَّ محل الأدوات الأكثر ليونة المعتادة، وفي حزامها مسدس وسكين قاس.

«إلى أين تذهبين يا زوجتي؟».

قالت السيدة: «أذهب معك الآن. وسوف تراني على رأس النساء، وداعاً».

صاح ديفارج بصوتٍ مدوّ: «هيا إذن! أيها الوطنيون والأصدقاء، نحن مستعدون! إلى الباستيل!».

وبهدير دوى كأنما كل نفس في فرنسا قد تشكل في تلك الكلمة البغيضة، ارتفع البحر البشري، موجة بعد موجة، وعمقاً بعد عمق، وغمر المدينة متجهًا إلى تلك النقطة. أجراس الإنذار تدق، والطبول تقرع، والبحر البشري مستعر ويرعد على شاطئه الجديد، وبدأ الهجوم. خنادق عميقة، جسر متحرك مزدوج، جدران حجرية ضخمة، ثمانية أبراج كبيرة، مدفع، بندق، نار ودخان. من خلال النار ومن خلال الدخان - في النار وفي الدخان، لأن البحر ألقاه على مدفع، وفي اللحظة التي أصبح فيها مدفعًا - عمل ديفارج، صاحب متجر النبيذ، مثل جندي شجاع، طوال ساعتين شرستين.

خندق عميق، جسر متحرك واحد، جدران حجرية ضخمة، ثمانية أبراج كبيرة، مدفع، بندق، نار ودخان. سقط جسر متحرك واحد! «اعملوا، أيها الرفاق جميعًا، اعملوا! اعملوا، جاك واحد، جاك اثنين، جاك ألف، جاك ألفين، جاك خمسة وعشرين ألفًا؛ باسم كل الملائكة أو الشياطين - أيهما تفضل - اعملوا!». هكذا كان ديفارج صاحب متجر النبيذ، وهو لا يزال يحمل بندقيته، التي زادت حرارتها منذ فترة طويلة.

صاحت السيدة زوجته: «إليَّ يا نساء! ماذا! يمكننا أن نقتل مثل الرجال عند الاستيلاء على المكان!». بصيحة عطش حادة، تدافعت

النساء نحوها مسلحات بأسلحة مختلفة، لكنهن جميعاً مسلحات
بسلاحٍ واحدٍ، سلاح الجوع والانتقام.

المدفع، البنادق، والنار والدخان. لكن الخندق العميق، والجسر
المتحرك الوحيد، والجدران الحجرية الضخمة، والأبراج الثمانية
الكبرى، لا تزال قائمة. أدى سقوط جرحى إلى حالات نزوح طفيفة
للبحر الهائج. أسلحة وامضة، ومشاعل متوهجة، ودخان حمولات
عربات القش المبلل، وعمل شاق عند المتاريس المجاورة في جميع
الاتجاهات، وصراخ، وطلقات النارية، ولعنات، وشجاعة دون حدود،
ودوي تحطم وحشرجة، وصوت البحر البشري الغاضب للبحر؛
لكن الخندق العميق، والجسر المتحرك الوحيد، والجدران الحجرية
الضخمة، والأبراج الثمانية العظيمة، لا تزال قائمة؛ ولا يزال ديفارج،
صاحب متجر النيذ حاملاً بندقيته، التي تضاعفت حرارتها نتيجة
استخدامها طوال أربع ساعات شرسة.

علم أبيض يرتفع من داخل القلعة، ومفاوضات -محسوسة بشكلٍ
خافتٍ خلال العاصفة الهوجاء، لم يُسمع منها أي شيء- وفجأة ارتفع
البحر على نطاقٍ أوسع وأعلى بما لا يقاس، واجتاح ديفارج صاحب
متجر النيذ فوق الجسر المتحرك المتداعي، مروراً بالجدران الخارجية
الحجرية الضخمة، ليصل به بين الأبراج الثمانية العظيمة المستسلمة!

كانت قوة المحيط التي تحمله لا تُقاوم، حتى إن النقاط أنفاسه أو
إدارة رأسه كان غير ممكناً، كأنما يصارع الأمواج في بحر الجنوب،
حتى هبط في الفناء الخارجي للباستيل. وهناك، عند زاوية جدار، كافح

ليتمكن من النظر حوله. كان جاك ثلاثة إلى جانبه تقريباً؛ وكانت السيدة ديفارج، التي لا تزال ترأس بعض نساءها، مرئية من مسافة داخلية، وسكينها في يدها. في كل مكان ساد اضطراب، وابتهاج، وحيرة مهووسة تصم الآذان، وضوضاء مذهلة؛ إلا أنه كان عرضاً غيباً غاضباً.

«السجناء!».

«السجلات!».

«الزنازين السرية!».

«أدوات التعذيب!».

«السجناء!».

من بين كل هذه الصيحات، وعشرة آلاف غيرها متنافرة، كانت «السجناء!» أكثر الصيحات تردداً في اندفاع البحر البشري، كأنما توجد أبدية للبشرية، كما توجد للزمان والمكان. وعندما تدرجت الموجات العاتية المتقدمة، حاملة معها ضباط السجن، مع تهديدهم جميعاً بالقتل الفوري إذا بقيت أي زاوية سرية غير مكشوفة، وضع ديفارج يده القوية على صدر أحد هؤلاء الرجال - رجل أشيب الرأس، يحمل شعلة مضاءة في يده - وفصله عن الباقيين، وحصره بينه وبين الجدار.

«أرني البرج الشمالي!»، قال ديفارج، «أسرع!».

أجابه الرجل: «سأفعل ذلك بإخلاص، إذا أتيت معي. لكن، ما من أحد هناك».

سأله ديفارج: «ما معنى مائة وخمسة، البرج الشمالي؟ أسرع!».

«المعنى، يا سيدي؟».

«هل يعني أسيرًا، أم مكانًا للأسر؟ أم تعني أن أضربك حتى الموت؟».

اقترب منه جاك ثلاثة، صائحًا: «اقتله!».

«سيدي، إنها زنزانة».

«أرني إياها!».

«فلنمض، إذن، من هذا الطريق».

من الواضح أن جاك ثلاثة، بشغفه المعتاد، كان محببًا من الحوار الذي اتخذ مجرى لا يعد بسفك الدماء، فأمسك بذراع ديفارج، كما أمسك بذراع السجان. تقاربت رؤوسهم الثلاثة خلال هذا الحوار القصير، بقدر ما يمكنهم سماع بعضهم، حتى في ذلك الحين: كان هدير المحيط البشري هائلًا في اقتحامه القلعة، وغمره للساحات والممرات والسلالم. وفي كل مكان في الخارج أيضًا، أخذ يطرق الجدران بهدير عميق أجش، تندلع منه، من حين لآخر، صيحات مضطربة جزئية، تقفز في الهواء مثل الرذاذ.

أسرع ديفارج والسجان وجاك ثلاثة بأقصى ما يمكنهم، متشابكي الأذرع، خلال أقبية قاتمة حيث لم يسطع ضوء النهار قط، مرورًا بأبواب بشعة لأوكار وأقفاص مظلمة، وهبوطًا على درجات كهفية ملتوية، ثم صعود شديد الانحدار من الحجر والطوب، أشبه بشلالات جافة منه إلى سلالم. هنا وهناك، ولا سيما في البداية، تدفق الفيضان عليهم واجتاحهم. لكنهم أصبحوا وحدهم بعد أن انتهوا من هبوط السلم، وأخذوا يلتفون ويتسلقون برجًا. تناهت العاصفة داخل القلعة وخارجها

إلى سمعهم على نحو باهت وخافت، كأنما دمرت الضوضاء التي أتوا منها حاسة السمع لديهم تقريباً؛ ذلك أن الجدران والأقواس هائلة السُمك كانت تحيط بهم.

توقف السجان عند باب منخفض، وأدخل مفتاحاً في قفل متصدع، وفتح الباب ببطء. قال، بينما يحنون رؤوسهم جميعاً ويدخلون: «مائة وخمسة، البرج الشمالي!».

توجد في أعلى الجدار نافذة صغيرة بلا زجاج وذات قضبان حديدية ثقيلة، وأمامها حاجز حجري، بحيث لا يمكن رؤية السماء إلا بالانحناء والنظر إلى الأعلى. وعلى بُعد بضعة أقدام من الباب، تقف مدخنة صغيرة محاطة بقضبان حديدية متعارضة وثقيلة. وعلى الموقد، كومة من رماد الحطب القديم أشبه بالريش. وهناك مقعد بلا مساند للظهر أو الذراعين، وطاولة، وسرير من القش. وبالطبع هناك أربعة جدران مسودة، وحلقة حديدية صدئة في أحدها.

قال ديفارج للسجان: «مرر تلك الشعلة ببطء على طول هذه الجدران، حتى أراها».

أطاعه الرجل، وتبع ديفارج الضوء من كذب بعينه. «توقف! ... انظر هنا، يا جاك!».

«ألف. ميم.» صرخ جاك ثلاثة، وهو يقرأ بنهم.

«ألكسندر مانيت»، قال ديفارج في أذنه، وهو يتتبع الحروف بسبابته السمراء، الملطخة بالبارود إلى حد كبير. «وهنا كُتِبَ «طبيب مسكين».

وكان هو، بلا شك، الذي حفر التقويم على هذا الحجر. ما هذا الذي في يدك؟ عتلة؟ أعطني إياها!».

كان عمود إشعال مدفعه لا يزال في يده. قام بتبديل مفاجئ للآلتين، واستدار نحو المقعد والطاولة اللذين أكلهما الدود، وضربهما بضغ ضربات حوّلتهما إلى أشلاء.

قال للسجان بغضب: «ارفع الضوء إلى أعلى! انظر بين تلك الشظايا بعناية، يا جاك. وانظر! ها هي سكينتي»، قذفها له، «افتح هذا السرير، وابحث في القش. وأنت، ارفع الضوء أعلى!».

وبنظرة تهديد للسجان، زحف على الموقد، وحقق إلى المدخنة، وضرب ورفع جوانبها بالعتلة، وانشغل بالعمل على قضبانها الحديدية. وفي غضون بضعة دقائق، سقط بعض الملاط والغبار، فأدار وجهه لتجنبه؛ وفيه، وفي رماد الخشب القديم، وداخل شق في المدخنة التي انزلق فيها سلاحه أو أغمدته فيه، تلمس بيده لمساة حذرة.

«لا شيء في الخشب. ألم تجد شيئاً في القش، يا جاك؟». «لا شيء».

«دعنا نجتمعها معاً في منتصف الزنزانة. هيا! أشعلهم، يا أنت!»
أشعل السجان الكومة الصغيرة، وانطلقت النيران عالية وساخرة. انحنى الجميع مرة أخرى للخروج من الباب المقوس المنخفض؛ تاركين الكومة تحترق، وتابعوا طريقهم عائدين إلى الفناء. يبدو أنهم استعادوا حاسة السمع عند نزولهم، حتى وصلوا إلى الفيضان الهائج مرة أخرى.

وجدوه متدفقاً متقلباً، بحثاً عن ديفارج نفسه. كانت صاحبة القديس أنطوان صاحبة وتطالب بأن يكون صاحب متجر النيذ في مقدمة الحراسة على الضابط الذي دافع عن الباستيل وأطلق النار على الشعب. خلاف ذلك، لن يساق الضابط إلى قصر بلدية باريس (Hotel de Ville) للحكم عليه. وخلاف ذلك، سيهرب الضابط، وتبقى دماء الشعب دون انتقام (تلك الدماء التي أصبحت فجأة ذات قيمة، بعد سنوات عديدة من عدم القيمة).

في صخب عالم الانفعال والاحتجاج هذا، الذي بدا أنه يحيط بهذا الضابط العجوز المتجهم، البادي للعيان في معطفه الرمادي وحليته الحمراء، لم يكن هناك سوى شخصية واحدة ثابتة تمامًا، وكانت امرأة. «انظروا، ها هو زوجي!»، صاحت مشيرة إليه. «انظروا إلى ديفارج!». وقفت ثابتة بالقرب من الضابط العجوز المتجهم، وظلت ثابتة بالقرب منه؛ ظلت ثابتة بالقرب منه خلال الشوارع عندما حمّله ديفارج والباقون؛ ظلت ثابتة بالقرب منه عندما اقترب من وجهته، وبدأ يُضرب من الخلف؛ ظلت ثابتة بالقرب منه عندما انهالت عليه بغزارة أمطار من طعنات وضربات تتجمع منذ زمن طويل؛ وكانت قريبة جدًا منه عندما سقط ميتًا تحتها، إلى حد أنها شعرت بالحيوية فجأة، وضعت قدمها على رقبته، وقطعت رأسه بسكينها القاسي الذي كان جاهزًا منذ فترة طويلة.

وحانت الساعة، عندما كان على صاحبة القديس أنطوان تنفيذ فكرته الرهيبة المتمثلة في رفع الرجال للمصاييح لإظهار ما يمكن

أن يكونه وأن يفعله. ارتفعت دماء القديس أنطوان، وانخفضت دماء الطغيان والهيمنة باليد الحديدية -على درجات قصر بلدية باريس حيث يرقد جسد الضابط- على نعل حذاء السيدة ديفارج، التي داست على الجثة لتشييتها وتقطيع أوصالها. «اخفض المصباح هناك!»، صاح القديس أنطوان بعد أن نظر حوله سعيًا إلى وسيلة جديدة للموت. «ها هو أحد جنوده، لتتركه لحراسته!». رُفِع الحارس المتأرجح، واندفع البحر البشري نحوه.

بحر من مياه سوداء ومُهَدَّدة، ومن أمواج نائرة مُدْمَرَة، لم تُدْرِك أعماقها بعد، ولم تُعرَف قواها بعد. بحر عديم الرحمة من أشكال متمايلة مضطربة، وأصوات الانتقام، ووجوه اكتسبت صلابتها في أفران المعاناة بحيث لم تُعد حتى لمسة الشفقة ترك أي أثر عليها.

وفي هذا المحيط من الوجوه، حيث كان كل تعبير شرس وغاضب مفعم بالحياة، كانت هناك مجموعتان من الوجوه -تضم كل منها سبعة، من حيث العدد- تتناقض بشكلٍ ثابتٍ مع البقية، بحيث لم يحمل موج البحر قطُّ مثل هذا الحطام الذي لا يُنسى. سبعة وجوه لسجناء، أطلقت سراحهم فجأة العاصفة التي فجرت قبرهم، وحملتهم عاليًا: كلهم خائفون، كلهم ضائعون، كلهم يتساءلون ويندهشون، كأنما حان يوم الحشر، وكان أولئك الذين فرحوا من حولهم بمنزلة أرواح ضائعة. وهناك سبعة وجوه أخرى، محمولة إلى أعلى، سبعة وجوه ميتة، تنتظر جفونها المتدلية وعيناها نصف المرئية يوم الحشر. وجوه جامدة الشعور، لكن عليها تعبير معلق، وليس ملغياً؛ وجوه، بالأحرى،

في صمّتٍ مخيفٍ، كأنها لم ترفع بعد جفون الأعين المتساقطة، وتشهد
بشفاه فارقتها الدماء: «أنتم فعلتم ذلك!».

سبعة سجناء مطلقي السراح، وسبعة رؤوس دموية على الحراب،
ومفاتيح القلعة الملعونة ذات الأبراج الثمانية القوية، وبعض الرسائل
المُكشّفة، تذكارات أخرى لسجناء من الزمن القديم، ماتوا بقلوب
مكسورة منذ فترة طويلة - هذا، وذاك - مثل خُطى القديس أنطوان التي
يتردد صداها عاليًا وهي تجوب شوارع باريس في منتصف يوليو من عام
١٧٨٩. والآن، فلتهزم السماء خيال لوسي دارني، وتبقي هذه الأقدام
بعيدة عن حياتها! ذلك أن تلك الأقدام متهورة، ومجنونة، وخطيرة. وفي
السنوات الطوال التي تلت كسر البرميل عند باب متجر ديفارج للنبيذ،
لم تكن تسهل تنقيتها بعد أن اصطبغت باللون الأحمر.

الفصل الثاني والعشرون

البحر لا يزال هائجاً

لم يبتهج القديس أنطوان المُنْهَك سوى أسبوعٍ واحدٍ؛ حيث استمتع بتليين قدرٍ يسيرٍ من الخبز الصلب والمرير، إلى أقصى حدٍّ ممكن، فضلاً عن متعة العناق الأخوي والتهاني، بينما جلست السيدة ديفارج على منضدتها، كالعادة، تشرف على الزبائن. لم تضع السيدة ديفارج وردة في رأسها؛ ذلك أن أُخوة الجواسيس الهائلة أصبحت، حتى في أسبوعٍ واحدٍ قصير، شديدة الحذر من أن تثق برحمة القديس أنطوان. وتأرجحت مصابيح شوارع ضاحية القديس أنطوان بمرونة تنذر بالخطر.

جلست السيدة ديفارج، بذراعيها مطويتين، في ضوء الصباح وحرارته، تتأمل متجر النبيذ والشارع. فقد ضم كلاهما العديد من أكوام المتسكعين، قذرين وبائسين، لكنَّ شعوراً واضحاً بالقوة بدا الآن شعوراً متوجّساً على كربهم. كانت أكثر طواقي النوم رثانة، أكثرها ميلاً على الرؤوس البائسة، تحمل هذه الدلالة الملتوية: «أعرف وأنا أرتدي هذه الطاقية مدى صعوبة إبقاء الحياة في داخلي؛ لكن، هل تعرف كيف أصبح من السهولة بالنسبة إليّ، أنا الذي أرتديها، تدمير الحياة فيك؟».

كل ذراع عارية هزيلة، كانت بلا عملٍ من قبل، قد وجدت الآن هذا العمل جاهزاً لها دائماً، بحيث يمكنها أن تضرب. وكانت أصابع النساء الحائكات شرسة، بفضل الخبرة، مما جعلها قادرة على التمزيق. كما شهد مظهر القديس أنطوان تغييراً؛ فقد تعرضت صورته للطرق منذ مئات السنين ليصل إلى هذا المظهر، وأثرت الضربات الأخيرة بقوة في تعبيره.

جلست السيدة ديفارج تراقبه في استحسانٍ مكبوتٍ، المرغوب لدى زعيمة نساء القديس أنطوان. انشغلت واحدة من أعضاء الأخوية في الحياكة بجانبها. كانت المرأة قصيرة وممتلئة إلى حدٍّ ما، زوجة لبقال جائع، وأم لطفلين؛ وقد استحقَّت هذه المرأة المناضلة بالفعل امتداحها بلقب «المرأة المنتقمة».

«أنصتي!»، قالت المرأة المنتقمة، «استمعي، إذن! من سيأتي؟». اندفعت همهمة سريعة الانتشار، كأنما انطلق فجأة قطار من البارود من أقصى حدود ضاحية القديس أنطوان الخارجية إلى باب متجر النبيذ. قالت السيدة: «إنه ديفارج، صمتاً، أيها الوطنيون!».

دخل ديفارج لاهثاً، وخلع قبعة حمراء كان يرتديها، ونظر حوله! قالت السيدة مرة أخرى: «استمعوا، في كل مكان! استمعوا إليه!». وقف ديفارج لاهثاً أمام خلفية من الأعين المتلهفة والأفواه المفتوحة، التي تشكَّلت خارج الباب. ونهض واقفاً كلُّ من كان داخل متجر النبيذ. «قل، إذن، يا زوجي. ما هذا؟».

«أخبار من العالم الآخر!».

«وكيف ذلك، إذن؟»، صاحت السيدة بازدراء، «العالم الآخر؟».

«هل يتذكر الجميع هنا فولون العجوز، الذي قال للجائعين إنهم قد يأكلون العشب، ومات وذهب إلى الجحيم؟».

أجابت جميع الحناجر: «نتذكره كلنا!».

«الأخبار عنه، إنه بيننا!».

تساءلت جميع الحناجر ثانية: «بيننا! وهو ميت؟».

«لم يمّت! كان يخافنا كثيرًا - ولديه سبب لذلك - إلى درجة أنه تظاهر بالموت، وأقام جنازة صورية كبيرة. لكنهم وجدوه حيًا، مختبئًا في الريف، وأحضروه. لم أراه إلا الآن، وهو في طريقه إلى قصر بلدية باريس، سجينًا. لقد قلت إن لديه سببًا ليخاف منا. قولوا جميعًا! هل كان لديه سبب؟».

هذا الخاطيء العجوز البائس الذي يزيد عمره على سبعين سنة، لو لم يكن يعرف ذلك بعد، لكان عرفه في قرارة نفسه إذا كان في إمكانه سماع الصيحة المُجيبة.

تبع ذلك لحظة صمتٍ عميقٍ. نظر ديفارج وزوجته بثباتٍ إلى بعضهما. وانحنت المرأة المنتقمة، وسُمع صوت جر الطبلّة وهي تحركها عند قدميها خلف الطاولة.

قال ديفارج بصوتٍ حازمٍ: «أيها الوطنيون! هل نحن مستعدون؟».

وعلى الفور استقرت سكين السيدة ديفارج في حزامها. كانت

الطبول تُقرع في الشوارع، كأنما الطبلّة والطبال يطيران معاً بفعل السحر. وكانت المرأة المنتقمة تُطلق صرخات مرعبة، وترفع ذراعيها حول رأسها مثل آلهة الانتقام الأربعين في وقت واحد، منتقلة من بيت إلى بيت، توقظ النساء.

كان الرجال مخيفين في غضبهم الدموي، وهم ينظرون من النوافذ، ويمسكون بما لديهم من أسلحة، ويتدفقون إلى الشوارع؛ بينما كان مظهر النساء مشهداً تقشعر له أبدان أكثر الناس جرأة. فمن تلك المهن المنزلية التي نتجت عن فقرهن المدقع، ومن أطفالهن، ومن شيوخهن ومرضاهن الجائمين على الأرضية الجرداء جائعين وعراة، انطلقت النساء راكضات بشعرهن المتطاير، يدفعن بعضهن وأنفسهن، إلى الجنون بأعنف الصرخات والأفعال. أُلقي القبض على الوغد فولون، يا أختاه! أُلقي القبض على فولون العجوز، يا أماه! أُلقي القبض على فولون الفاسق، يا بنتاه! ثم ركضت عشرات أخريات وسطهن، يضربن صدورهن، ويمزقن شعورهن، صارخات فولون حي! فولون الذي قال للجائعين إنهم قد يأكلون العشب! فولون الذي قال لوالدي العجوز إنه قد يأكل العشب، عندما لا يوجد لديّ خبز لأعطيّه! فولون الذي قال خبر طفلي إنه قد يمتص العشب، عندما يجف ثدياي من العوز! يا عدرا، هذا فولون! يا جنتنا بعد معاناتنا! اسمعني، يا طفلي الميت وأبي الذابل: أقسم راکعة على هذه الحجارة أن أنتقم لكما من فولون! أيها الأزواج والأشقاء والشباب، أعطونا دم فولون، أعطونا رأس فولون، أعطونا قلب فولون، أعطونا جسد فولون وروحه، مزقوا فولون إرباً،

وادفنوه في الأرض، حتى ينمو العشب منه! بهذه الصرخات، أخذت أعداداً من النساء، وقد أصابهن جنون أعمى، يدرن حولهن، ويضربن ويمزقن أصدقاءهن حتى سقطن في إغماء عاطفي، ولم ينقذهن من الدوس تحت الأقدام سوى رجالهن.

ومع ذلك، لم تضع لحظة واحدة؛ ولا لحظة! كان هذا الفولون في قصر بلدية باريس، وربما يُطلق سراحه، هذا مستحيل، إذا عرف القديس أنطوان ما سبَّبه من آلام وإهانات وخطايا! توافد الرجال والنساء المسلحون من الضاحية بسرعة كبيرة، ساحبين خلفهم -بقدره قوية على السحب- حتى هؤلاء الحثالة الأخيرة، إلى درجة أنه في غضون ربع ساعة لم يكن هناك مخلوق بشري في حضان القديس أنطوان، بل عدد قليل من الرفاق العجائز والأطفال الباكين.

لا.. ففي ذلك الوقت، كانت قاعة الاستجواب تكتظ بهم -حيث يوجد هذا الرجل العجوز، القبيح والشرير- وفاضت جموعهم في الفضاء المفتوح والشوارع المجاورة، وكان الزوجان ديفارج، والمرأة المنتقمة، وجاك ثلاثة، في الصف الأول، وليس على مسافة كبيرة منه في القاعة.

«انظروا!»، صرخت السيدة وهي تشير بسكينها، «انظروا الوغد العجوز مقيّداً بالحبال. من الجيد أنهم ربطوا مجموعة من العشب على ظهره. ههه! ههه! لقد أحسنوا صنعاً. دعه يأكلها الآن!». وضعت السيدة سكينها تحت ذراعها، وشفقت بيديها كما لو كانت في مسرحية.

أخذ الناس الذين يقفون وراء السيدة ديفارج مباشرة، يشرحون

سبب رضاها لمن يقفون وراءهم، وأولئك يشرحون مرة أخرى للآخرين، وأولئك للآخرين، والشوارع المجاورة تدوي بالتصفيق. وبالمثل، خلال ساعتين أو ثلاث ساعات من الثرثرة وغريلة العديد من الكلمات، كانت تعبيرات السيدة ديفارج المتكررة عن نفاذ الصبر تنتقل بسرعة رهيبية إلى مسافة بعيدة: وهو ما تحقق بسهولة شديدة؛ لأن بعض الرجال الذين تسلقوا العمارة الخارجية، بالاستعانة ببعض تمارين رائعة لخفة الحركة، للنظر من النوافذ، كانوا يعرفون السيدة ديفارج جيداً، قاموا بدور التلغراف بينها وبين الحشد خارج المبنى.

وأخيراً أشرقت الشمس عالياً، أصاب شعاع لطيف منها، أشبه بأملٍ أو حماية، رأس السجين العجوز مباشرة. كان هذا التعاطف أكثر من أن يحتمله الناس؛ ففي لحظة، ذهب حاجر الغبار والقش أدراج الرياح، بعد أن ظل قائماً فترة طويلة عجيبة، وتمكّن القديس أنطوان من الإمساك بالسجين!

انتشر الخبر مباشرة إلى أبعد حدود الحشد، وما كاد ديفارج يقفز من فوق درابزين وطاولة، ويعانق المجرم البائس عناقاً مميّناً، حتى تبعته السيدة ديفارج، وأدارت يدها لتدخلها في أحد الجبال التي كان مقيداً بها. ولم تكن المرأة المنتقمة وجاهك ثلاثة قد لحقا بهما بعد، ولم يكن الرجال عند النوافذ قد انقضوا بعد على القاعة، مثل الطيور الجارحة من أعشاشها العالية، حتى بدا أن الصراخ يرتفع في جميع أنحاء المدينة: «أخرجوه! أحضروه إلى المصباح!».

خفضوه ورفعوه ورأسه بارز وهم يهبطون به سلالم المبنى؛ الآن،

على ركبتيه؛ الآن، على قدميه؛ الآن، على ظهره؛ يجزّونه، ويضربونه، ويخنقونه، بمجموعات العشب والقش التي دفعتها مئات الأيدي في وجهه؛ مُمزَّقًا، ومجروحًا، ومصابًا بكدمات، ولاهثًا، ونازفًا، لكنه يتوسل ويتضرع دائمًا طلبًا للرحمة؛ والآن، مليءً بعذابٍ شديدٍ يحثُّه على المقاومة، في ظل مساحة صغيرة واضحة حوله بينما يسحب الناس بعضهم إلى الوراء حتى يروه؛ والآن، يسحبونه كجذع شجرة من خشب ميت عبر غابة من السيقان؛ وينقلونه إلى أقرب زاوية شارع، حيث يتأرجح أحد المصاييح القاتلة، وهناك سمحت له السيدة ديفارج بالرحيل - كما تفعل القطعة مع الفأر - ونظرت إليه بصمتٍ وبثباتٍ، بينما يستعدون، وبينما كان يتوسل إليها، كانت النساء تصرخ في وجهه بحماسٍ طوال الوقت، والرجال يصيحون بصرامة مطالبين بقتله والعشب في فمه. رفعوه مرة عاليًا، فانقطع الحبل، وأمسكوا به صارخين؛ ورفعوه مرتين عاليًا، فانقطع الحبل، وأمسكوا به صارخين؛ ثم تحلَّى الحبل بالرحمة وأمسكه، وسرعان ما كان رأسه على رمح، مع وجود كمية من العشب في فمه تكفي ليرقص كل سكان ضاحية القديس أنطوان عند رؤيته.

لم تكن هذه نهاية العمل السيئ لهذا اليوم؛ ذلك أن القديس أنطوان أخذ يصرخ ويرقص حتى غلى دمه الغاضب مرة أخرى، عند سماعه مع انتهاء اليوم أن صهر القتل، وهو أحد أعداء الشعب وممن أهانوه، كان قادمًا إلى باريس تحت حراسة خمسمائة جندي، في سلاح الفرسان وحده. فكتب القديس أنطوان جرائمه على أوراق مشتعلة، وقبض عليه - كان من الممكن انتزاعه من قلب جيش وحمله ليلحق بفولون - وضع

رأسه وقلبه على الحراب، وحمل الغنائم الثلاث لهذا اليوم ومضى في موكب الذئاب يجوب الشوارع.

لم يرجع الرجال والنساء إلى أطفالهم قبل حلول الظلام، وجدوهم يكون وبلا خبز؛ وعندئذٍ، حوصرت محلات الخبازين البائسة بطوابير طويلة منهم، تنتظر بصبرٍ شراء خبز رديء. وبينما ينتظرون يبطنون خائفة وفارغة، يحاولوا على الوقت باحتضان بعضهم بعضاً لانتصارات اليوم، وتحقيقها مرة أخرى من خلال الثروة. وتدرجياً، تقلصت سلاسل هؤلاء البائسين وتلاشت؛ وبدأت الأضواء الضعيفة تسطع في النوافذ العالية، وأوقدت نيران هزيلة في الشوارع، حيث أخذ الجيران يطبخون بشكلٍ مشترك، وبعدها يتناولون العشاء عند أبواب بيوتهم.

وجبات عشاء ضئيلة، وغير كافية، وخالية من اللحوم؛ مثلها مثل الصلصة التي يُغمس فيها الخبز البائس، ومع ذلك، أضفت الصلصة البشرية غذاء على تلك الوجبات الصلبة، بعثت بعض شرارات البهجة منها. وأخذ الآباء والأمهات، الذين شاركوا بنصيبٍ كاملٍ في أسوأ فترات اليوم، يلعبون بلطفٍ مع أطفالهم الضعفاء؛ وأخذ العشاق، مع هذا العالم حولهم وأمامهم، يتحابون ويأملون.

كان الوقت صباحاً تقريباً، عندما غادرت آخر مجموعة من الزبائن متجر ديفارج للنبيذ، وقال السيد ديفارج للسيدة زوجته، بصوت أجش، بينما يغلق الباب:

«حان الوقت أخيراً، يا عزيزتي!».

«إييه، حسناً!»، أجابت السيدة، «تقريباً».

نامت صاحبة القديس أنطوان، ونام الزوجان ديفارج؛ ونامت حتى المرأة المنتقمة مع بقالها الجائع، وارتاحت الطيلة. كان صوت الطيلة هو الصوت الوحيد في صاحبة القديس أنطوان الذي لم يغيره الدم والاستعجال. كان في إمكان المرأة المنتقمة، بصفتها حارسة الطيلة، أن توقظها وتُخرج منها نفس الخطاب السابق قبل سقوط الباستيل، أو القبض على فولون العجوز، لكن الأمر ليس كذلك مع نغمات الرجال والنساء الخشنة في حضن القديس أنطوان.

الفصل الثالث والعشرون

النار تشتعل

حدث تغيير في القرية التي يوجد بها النبع، حيث يخرج مصلح الطرق يوميًا لطرق الحجارة على الطريق السريع في مقابل الحصول على قطع من الخبز، تصلح كُرُقَع تُبقي على كل من روحه الجاهلة المسكينة وجسده الفقير المُنهك. لم يعد السجن المُقام على الصخرة مُهيمنًا مثلما كان في الماضي؛ فهناك جنود لحراسته، وإنما ليس الكثير؛ وهناك ضباط لحراسة الجنود، دون أن يعرف أحد منهم ما سيفعله رجاله أكثر من: أنه ربما ليس ما أمر به.

امتد الريف مسافة بعيدة وعلى نطاقٍ واسعٍ في حالة مُدْمَرَة، لا تثمر شيئًا سوى الخراب. كل ورقة خضراء، وكل ورقة عُشب وورقة قمح، كانت ذابلة وفقيرة مثل الشعب البائس. كان كل شيء منحنياً، ومكسبًا، ومضطهدًا ومكسورًا؛ المساكن، والأسوار، والحيوانات المستأنسة، والرجال، والنساء، والأطفال، والتربة التي تحملهم - كلها مهترئة.

كان صاحب السيادة (غالبًا رجل نبيل جدير بالتقدير) نعمة وطنية، أضفى على الأشياء طابع الفروسية، وكان مثلاً مهذبًا للحياة المترفة والمتألقة، وأكثر من ذلك بكثيرٍ لتحقيق الغرض نفسه. ومع ذلك، فإن

صاحب السيادة^(١) كطبقة قد أوصل الأمور، بطريقة أو بأخرى، إلى هذه الحالة. ومن الغريب أن تلك الكائنات، المُجهزة خصيصاً لصاحب السيادة، سرعان ما تجف وتُعتَصِر! هناك بالتأكيد شيء قصير النظر في الترتيبات الأبدية! لكن هذا ما حدث؛ وبعد استخراج آخر قطرة دم من الحجر، وإدارة آخر مسمار لولبي في المعصرة كثيراً إلى حد الانهيار، وأخذت الآن تدور وتدور دون أي تجد ما تعصره، بدأ صاحب السيادة في الهروب من ظاهرة في غاية الانحطاط منخفضة للغاية وغير مُبررة.

على أن هذا لم يكن التغيير الذي حدث في القرية، وفي العديد من القرى المماثلة. فقد ظل صاحب السيادة يضغط عليها ويعتصرها عشرات السنين، ونادراً ما يشرفها بحضوره للتمتع بلذة الصيد التي يجدها أحياناً في صيد الناس وأحياناً في صيد الوحوش، حتى إنه، من أجل الحفاظ عليها، أحال مساحات جميلة إلى مساحات برية وقاحلة. كلا؛ لقد كان التغيير يتمثل في ظهور وجوه غريبة من طبقة دنيا، وليس في اختفاء ملامح الطبقة العليا المنحوتة، وغير تلك المزخرفة والمزينة والجميلة التي يتمتع بها صاحب السيادة.

ففي تلك الأوقات، بينما كان مُصلِح الطرق يعمل وحده وسط التراب، دون أن يزعج نفسه كثيراً بأنه من تراب وإلى التراب يعود، لأن ما يشغل تفكيره في الغالب هو ما سيحصل عليه من عشاء قليل، وفي مقدار ما سياكله إذا حصل على طعام. في تلك الأوقات، عندما

(١) السيد (Monseigneur): استخدمت كلمة «السيد» في حالة المفرد، كما جاءت في النص الأصلي، وإن كانت تشير إلى الطبقة الأرستقراطية - (المترجمة).

يرفع عينيه عن عمله المنفرد، ويتطلع إلى المشهد، كان يرى شخصية خشنة تقترب سيرًا على الأقدام، وهو ما يندر في تلك الأجزاء، لكنه أصبح الآن وجودًا متكررًا. ومع تقدُّم هذا الشخص، كان مصلح الطرق يتبين دون دهشة أنه رجل أشعث الشعر، ذو مظهر بربري تقريبًا، طويل القامة، يرتدي حذاء خشبيًا أخرق حتى في نظر مصلح الطرق، كما كان متجهماً، فظًا، أسمر البشرة، وغارقًا في الوحل والتراب من الطرق السريعة العديدة، مبللًا برطوبة مستنقعات العديد من الأراضي المنخفضة، ومُغطى بالأشواك والأوراق والطحالب التي علقت به خلال سيره في العديد من الطرق الجانبية عبر الغابات.

وفد إليه مثل هذا الرجل، كشبح، عند الظهر في طقس يوليو، بينما كان جالسًا على كومة من الحجارة تحت جرف، متخذًا منه مأوى للاحتماء من وابل البرد.

نظر إليه الرجل، ونظر إلى القرية في الوادي، وإلى الطاحونة، وإلى السجن المُقام على الصخرة، وعندما حدد هذه الأشياء في ذهنه المظلم، قال بلهجة مفهومة بالكاد:

«كيف تسير الأمور، يا جاك؟».

«كل شيء على ما يرام، يا جاك».

«فلنتصافح، إذن!».

تصافحا، وجلس الرجل على كومة من الحجارة.

«ألا يوجد عشاء؟».

«لا شيء سوى العشاء الآن»، قال مصلح الطرق، بوجه جائع.

«إنها الموضوعة»، زمجر الرجل، «لا أجد عشاء في أي مكان».

أخرج غليوناً مسوداً، وملاًه، وأشعله بآلة من الحجر الصوان والفولاذ، وسحب نفساً حتى توهج ساطعاً: ثم أمسكه فجأة وأسقط فيه شيئاً من بين سبابته وإبهامه، فاشتعلت فيه النيران، وأطلق نفخة من الدخان.

«فلنتلامس، إذن»، جاء دور مصلح الطرق ليقول العبارة هذه المرة، بعد مراقبة هذه العملية. تشابكت يداهما ثانية.

«الليلة؟»، قال مصلح الطرق.

«الليلة»، أجاب الرجل، وهو يضع الغليون في فمه.

«أين؟».

«هنا».

جلس هو ومصلح الطرق على كومة من الحجارة ينظران بصمتٍ إلى بعضهما، والبرد يتدفق بينهما مثل شحنة صغيرة من الحراب، إلى أن بدأت السماء تصفو فوق القرية.

ثم قال المسافر، منتقلاً إلى حافة التل: «أرني!».

أجاب مصلح الطرق، بإصبع ممدودة: «انظر! تنزل من هنا، ومباشرة عبر الشارع، وتتجاوز النبع...».

قاطعه الآخر، وأدار عينيه نحو المشهد أمامه: «فليذهب ذلك كله إلى الجحيم! لا أعبر أي شوارع، ولا أتجاوز أي نبع. حسناً؟».

«حسنًا! على مسافة فرسخين تقريبًا وراء قمة ذلك التل، فوق القرية».

«جيد، ومتى ينتهي عملك؟»

«عند غروب الشمس».

«هل يمكنك أن توقظني قبل أن تغادر؟ لقد مشيت ليلتين دون راحة. دعني أنهى غليوني، ثم أنام كطفل، هل ستوقظني؟»
«بالتأكيد».

أنهى عابر السبيل تدخين غليونه، ووضعه في صدره، وخلع حذاءه الخشبي الكبير، واستلقى على ظهره فوق كومة الحجارة، ونام بعمق على الفور.

بينما كان مصلح الطريق يجتهد في عمله الترابي، وموجات غيوم البرد تنقشع كاشفة عن شرائط السماء وخطوطها الساطعة، التي استجابت لها ومضات فضية على المشهد الطبيعي، بدا الرجل الضئيل (الذي يرتدي الآن قبعة حمراء، بدلًا من قبعة الزرقاء) مفتونًا بالرجل النائم فوق كومة الحجارة. وكثيرًا ما كانت عيناه تتجه نحوه، إلى درجة أنه أخذ يستخدم أدواته بشكل ميكانيكي؛ بل كان في مقدور المرء أن يقول إنه استخدمها على نحوٍ رديءٍ للغاية. أحس مصلح الطرق برهبة أمام هذا الوجه البرونزي، والشعر الأسود الأشعث واللحية، والقبعة الحمراء الصوفية الخشنة، والملابس الفظة المصنوعة من خليط من نسيج مغزولٍ منزليًا وجلود الوحوش المشعرة، والبنية القوية التي

أضعفها بؤس العيش، وشفته المضمومتان بتجهّمٍ ويأسٍ في أثناء النوم. كان المسافر قد قطع مسافة طويلة؛ تقرّحت قدماه، وتورّم كاحلاه ونزفا. وكان حذاؤه الكبير المحشو بأوراق الشجر والعشب ثقيلاً، لجرّه لعديد من الفراسخ الطويلة؛ وغمرت الثقوب ملابسه، مثلما غمرته القروح. انحنى مصلح الطريق بجانبه، محاولاً إلقاء نظرة خاطفة على الأسلحة الخفية أو غير الخفية التي يحملها في صدره؛ لكن، عبثاً، لأنه نام وذراعاها متقاطعتان فوق صدره، مثل إطباق شفّيته بحزم. بدت المدن المُحصنة لمصلح الطرق -بحواجزها، وبيوت الحراسة، والبوابات، والخنادق، والجسور المتحركة- كأنها مجرد هواء أمام هذا الشخص. وعندما أبعد عينيه عنها لينظر إلى الأفق ويتجوّل ببصره حوله، رأى في خياله البسيط شخصياتٍ مماثلة في أنحاء فرنسا كافة، تميل إلى المراكز ولم يُوقفها أي عائق، تميل إلى المراكز في جميع أنحاء فرنسا.

نام الرجل، غير مباليّ بزخات البرد وفترات الإشراق، ولا بأشعة الشمس على وجهه وظله، ولا بكتل الجليد الباهتة المتساقطة على جسده، ولا بالألماس الذي حوّلت الشمس الجليد إليه، إلى أن انخفضت الشمس في الغرب وبدأت السماء تتوهج. ثم أيقظه مصلح الطرق بعد أن جمع أدواته وأصبح كل شيء جاهزاً للنزول إلى القرية.

«جيد!»، قال النائم وهو ينهض على كوعه، «فرسخان وراء قمة

التل؟»

«تقريباً».

«تقريباً، جيد!»

توجّه مصلح الطرق إلى بيته، والتراب يتحرك أمامه وفقاً لهبوب
الريح، وسرعان ما وصل إلى النبع، وحشر نفسه بين الأبقار الهزيلة التي
أُحضرت إلى هناك لتشرب، وبدأ حتى إنه يهمس لها في سياق همساته
للقرية كلها. وبعد أن تناول أهل القرية عشاءهم المتواضع، لم يتسللوا
إلى الفراش كما يحدث عادة، لكنهم خرجوا من بيوتهم وجلسوا عند
أبوابها مرة أخرى، وظلوا هناك. سرت عند الأبواب عدوى غريبة من
الهمس، كما سرت أيضاً عدوى غريبة أخرى، عندما تجمعوا عند النبع
في الظلام تمثّلت في النظر بترقّب إلى السماء في اتجاه واحد فقط.
اضطرب السيد جايل، كبير موظفي المنطقة، وشعر بعدم الارتياح؛
فخرج وحده إلى سطح بيته، ونظر في هذا الاتجاه أيضاً؛ وألقى نظرة من
خلف مداخنه إلى الوجوه المظلمة بجانب النافورة أدناه، وأرسل كلمة
إلى حارس الكنيسة الذي يحتفظ بمفاتيحها ليخبره بأن الحاجة قد تدعو
لاحقاً إلى قرع ناقوس الخطر.

ازداد الليل عمقاً، وتحركت الأشجار المحيطة بالقصر القديم،
حفاظاً على حالة تفرّده، في مواجهة ريح صاعدة، كأنها تهدد كومة البناء
الضخمة القائمة في الظلام. ركض المطر بعنفٍ على درجات سُلّمِي
الشرفة وقرع الباب الكبير، مثل مرسال سريع يُوقِظ مَنْ في الداخل؛
ومرّت اندفاعات الرياح المضطربة عبر القاعة، بين الرماح والسكاكين
القديمة، وصعدت وهي تنوح على السُّلم، وهزت ستائر السرير الذي
نام فيه آخر ماركيز. شرقاً، وغرباً وشمالاً، وجنوباً عبر الغابة، سار
أربعة أشخاص ثقيلي الخطى وغير مهندمين، يسحقون العشب العالي

ويحطمون الأغصان، ويتقدمون بحذرٍ للالتقاء في الفناء. انطلقت أربعة أضواء هناك، وابتعدت في اتجاهاتٍ مختلفة، ثم عاد السواد ليغطي كل شيء مرة أخرى.

على أن السواد لم يدم فترة طويلة؛ فقد بدأ القصر الآن يعلن عن وجوده بشكلٍ غريبٍ، من خلال ضوءٍ خاص به، كما لو أنه يزداد إشراقاً. ثم لمع خط وامض خلف الواجهة الأمامية، مُتَقِيًا الأماكن الشفافة، ومُظهِراً أماكن الدرابزينات والأقواس والنوافذ. ثم ارتفع إلى أعلى، وازداد اتساعاً وإشراقاً. وسرعان ما اندلعت ألسنة اللهب من عشرات النوافذ الكبيرة، واستيقظت الوجوه الحجرية، محدقة وسط النيران.

ارتفعت همهمة خافتة حول المنزل، من الأشخاص القلائل الذين تُركوا هناك، وركب شخص على سرج حصان وانطلق بعيداً. هناك اندفاع ورذاذ في الظلام، وسُحِب اللجام عند الوصول إلى نبع القرية، ووقف الحصان مُزْبِداً عند باب السيد جابيل. «النجدة، جابيل! النجدة، جميعاً!». انطلق ناقوس الخطر بصبرٍ نافذٍ، لكن النجدة الأخرى (إن وجدت) لم تأت. وقف مصلح الطرق، ومائتان وخمسون صديقاً مُعِيناً، بأذرعٍ مطوية عند النبع، ينظرون إلى عمود النار في السماء. «لا بد أن ارتفاعه يصل إلى أربعين قدماً»، قالوا بحزن؛ دون أن يتحرك أحد أبداً.

انطلق الفارس الذي خرج من القصر، وحصانه المُزبد، خلال القرية، وصعدا المنحدر الحجري، إلى السجن المقام على الصخرة. عند البوابة، كانت مجموعة من الضباط ينظرون إلى النار؛ ووقفت بعيداً عنهم مجموعة من الجنود. «النجدة، أيها السادة، أيها الضباط! القصر

يحترق. يمكن إنقاذ الأشياء الثمينة من النيران من خلال المساعدة السريعة! النجدة، النجدة!». نظر الضباط نحو الجنود الذين ينظرون إلى النار؛ ولم يُصدروا لهم أي أوامر؛ وأجابوا، مع هز أكتافهم وقضم شفاههم، «يجب أن يحترق».

وبينما كان الفارس يهبط من التل مرة أخرى ويحترق الشارع، كانت القرية تضيء. كان مصلح الطرق، والمائتان والخمسون صديقاً معيناً، الذين ألهمتهم -رجالاً ونساء معاً- فكرة الإضاءة، قد اندفعوا إلى منازلهم، يضعون الشموع عند كل لوح صغير باهت من الزجاج. أدَّت الندرة العامة لكل شيء في القرية إلى استعارة الشموع عنوة، إلى حدٍّ ما، من السيد جايل. وفي لحظة من التردد والامتناع من جانب ذلك الموظف، أشار مصلح الطرق، الذي كان في يوم من الأيام شديد الخضوع للسلطة، إلى أن العربات تصلح لإشعال النيران بها، وقد تستخدم في شي خيول البريد.

تُرِكَ القصر ليشتعل ويحترق. في هدير الحريق وهياجه، بدا أن رياحاً ملتهبة حمراء، تنطلق مباشرة من المناطق التي استحالت جحيماً، تعصف بالصرح. ومع صعود اللهب وهبوطه، ظهرت الوجوه الحجرية كأنها في عذاب. وعندما سقطت كتل كبيرة من الحجارة والأخشاب، حُجِبَ الوجه الذي توجد على أنفه نقرتان، وسرعان ما كافح للخروج من الدخان مرة أخرى، كأن وجه الماركيز القاسي يحترق ويصارع النار. احترق القصر؛ واحترقت الأشجار القريبة التي حاصرتها النيران، وذبلت؛ أما الأشجار البعيدة، التي أشعلتها الشخصيات الأربعة

الشرسة، فقد غمرت الصرح المشتعل بغابة جديدة من الدخان. وفي الحوض الرخامي للنافورة، أخذ الرصاص والحديد المنصهران يغليان؛ وجف الماء؛ وتلاشت قمم طفايات الحريق في الأبراج، مثل الجليد قبل الحرارة، وتدفقت إلى أربع آبار وعرة من اللهب. تشعبت من الجدران الصلبة شقوق وانقسامات كبيرة، مثل البلّور؛ ودارت الطيور المذهولة في أنحاء المكان وسقطت في الفرن؛ وابتعدت أربع شخصيات شرسة - شرقاً، وغرباً، وشمالاً، وجنوباً - على طول الطرق التي يغطيها الليل، مسترشدة بالمنارة التي أشعلوها، نحو وجهتهم التالية. وكانت القرية المضيفة قد استولت على ناقوس الخطر، وأقصوا قارع الأجراس الرسمي، وأخذوا يتولون قرع الجرس فرحاً.

ولم يقتصر الأمر على ذلك؛ فأهل القرية -الذين أدارت رؤوسهم المجاعة، والنيران، وقرع الأجراس - تذكروا أن السيد جابيل كانت له علاقة بتحصيل الإيجارات والضرائب، على الرغم من أن ما حصل عليه في الأيام الأخيرة لم يكن سوى قسط صغير من الضرائب، ولم يحصل على أي إيجار على الإطلاق؛ ومع ذلك، تلهفوا على مقابله. أحاطوا بمنزله، واستدعوه لعقد اجتماع شخصي معه. عندئذٍ أغلق السيد جابيل بابه بإحكام، وانسحب ليفكر في الأمر. أسفر الاجتماع عن انسحاب جابيل مرة أخرى، وذهب إلى سطح منزله خلف كومة مداخله؛ وقرر هذه المرة أنهم إذا اقتحموا بابه (كان رجلاً جنوبيًا ضئيل الجسم، ذا مزاج انتقامي)، فسوف يلقي نفسه، برأسه، من فوق الحاجز، ويسحق رجلاً أو اثنين أدناه.

ربما أمضى السيد جابيل ليلة طويلة فوق السطح هناك، حيث أمده القصر البعيد بالنار والشموع، وكان الطُّرق على بابه، إلى جانب أصوات رنين الفرح بديلاً للموسيقى؛ ناهيك بمصباح مشؤوم معلق على الطريق أمام بوابة مركز البريد، حيث أظهرت القرية ميلاً قوياً لإنزال المصباح وتعليق جابيل محله. يا له من ارتباك قلق أن تمضي ليلة صيفية كاملة على حافة المحيط الأسود، على استعدادٍ للقفز فيه كما قرر السيد جابيل! لكن الفجر الودود ظهر أخيراً، وانطفأت الشموع التي كانت تندفق في أنحاء القرية كافة، وتفرّق الناس بسعادة، ونزل السيد جابيل حاملاً معه حياته طوال تلك الفترة.

على بُعد مائة ميل، وفي ضوء حرائق أخرى، كان هناك موظفون آخرون أقل حظاً في تلك الليلة والليالي الأخرى، وجدتهم الشمس المشرقة معلقين في شوارع كانت هادئة ذات يوم، حيث وُلدوا وترعرعوا. وهناك أيضاً قرويون آخرون وسكان بلدات أقل حظاً من مصلح الطرق وزملائه، نجح الموظفون والجنود في الانقضاء عليهم وشنقوهم بدورهم. على أن الشخصيات الشرسة كانت تتجه بثبات شرقاً، وغرباً، وشمالاً، وجنوباً، مهما كان الأمر. ومن يُشنق، تحرقه النيران. ولم يتمكن أي موظف، بأي قدر من الرياضيات، من أن ينجح في حساب ارتفاع أعواد المشانق التي يمكن أن تصب المياه وتطفئ النيران.

الفصل الرابع والعشرون

الانجذاب إلى صخرة المغناطيس

استهلكت العاصفة ثلاث سنوات في مثل هذه النيران المتأججة وهيجان البحر؛ اهتزّت الأرض الصلبة بسبب اندفاع المحيط الغاضب الذي لم ينحسر، لكنه دائماً في حالة تدفق، أعلى وأعلى، مما أثار رعباً وتعجباً الناظرين على الشاطئ، ونُسجت ثلاثة أعياد ميلاد أخرى للوسي الصغيرة بالخيط الذهبي في النسيج الهادئ لحياة بيتها.

في كثير من الليالي والكثير من الأيام، كان نزلاء البيت يستمعون إلى الأصدااء في الزاوية، بقلوبٍ خذلتهم عندما سمعوا تزامح الأقدام. ذلك أن خُطى الأقدام أصبحت في أذهانهم كخطى شعب مضطرب تحت علم أحمر؛ ومع الإعلان عن أن بلدهم في خطر، تحولت إلى خطى وحوش برية، بسبب السحر الرهيب الذي استمر فترة طويلة.

كان صاحب السيادة، كطبقة، قد نأى بنفسه عن ظاهرة عدم تقديره: عن كون وجوده غير مرغوب في فرنسا، إلى حد تعرّضه لخطرٍ كبيرٍ يتمثل في طرده منها، ومن هذه الحياة في آن. مثله مثل الرجل الريفي الأسطوري الذي أثار الشيطان بآلامٍ لا حصر لها، وشعر برعبٍ شديدٍ عند رؤيته، إلى درجة أنه لم يستطع أن يسأل عدوه أي سؤال، وهرب

على الفور. ولذا، بعد أن قرأ السيد الصلاة الربانية عكسياً بجرأة لعدد كبير من السنوات، وأعد العديد من التعاويذ القوية الأخرى لإخضاع «الشرير»، لم يكذب يراه في رعبه حتى ولى هرباً.

اختفت عين الثور اللامعة من البلاط، أو ربما كان ذلك علامة لإعصار من الرصاص الوطني. لم تكن قط عيناً جيدة للرؤية بها -لطالما كان فيها ذرة كبرياء إبليس، ورفاهية ساردانابالوس^(١)، وعمى الخلد^(٢) - لكنها تسربت واختفت. كما زال البلاط برمته، من تلك الدائرة الداخلية الضيقة إلى حلقتها الخارجية الفاسدة من الدسائس والفساد والتضليل. وزالت العائلة الملكية؛ فقد حوصرت في قصرها و«أوقفت أعمالها»، عندما وصلت الأخبار الأخيرة.

جاء شهر أغسطس من عام ١٧٩٢، وبحلول ذلك الوقت، كان صاحب السيادة مشتتاً في كل مكان وعلى نطاق واسع. وكان طبيعياً أن يصبح بنك تيلسون في لندن بمنزلة المقر الرئيسي لصاحب السيادة، ومكان تجمعهم الكبير. من المفترض أن تطارد الأرواح الأماكن التي تلجأ إليها أجسادها أكثر من غيرها، فكان صاحب السيادة الذي لا يملك جنيهاً يطارد المكان الذي اعتاد أن توجد فيه جنيهاً. علاوة على ذلك، كان البنك هو البقعة التي تأتي إليها الأنباء الفرنسية، التي يمكن الاعتماد

(١) ساردانابالوس (Sardanapalus) ومعروف أيضاً باسم آشور بانيبال (Ashurbanipal): ملك الإمبراطورية الآشورية الحديثة من عام ٦٦٩ قبل الميلاد حتى وفاته عام ٦٣١، ويُعتبر آخر ملوك آشور العظماء - (المترجمة).

(٢) الخلد (mole): حيوان بري صغير الجسم نسبياً، يعيش أغلب وقته في جحر خاص به تحت سطح الأرض - (المترجمة).

عليها، بشكل أسرع. مرة أخرى: كان بنك تيلسون سخياً، وكرماً إلى حد كبير مع العملاء القدامى الذين فقدوا مكانتهم العالية. ومرة أخرى: هؤلاء النبلاء، الذين رأوا العاصفة القادمة في الوقت المناسب، وتوقعوا النهب أو المصادرة، قاموا بتحويلات مالية حكيمة إلى بنك تيلسون، وكان إخوانهم المحتاجون يسمعون دائماً عن وجودهم هناك. ولا بد أن نضيف إلى ذلك أن كل وافد جديد من فرنسا كان يُعلن عن نفسه وأخباره في تيلسون، كأنه أمر طبيعي تقريباً. ولهذه الأسباب المختلفة، كان بنك تيلسون يُعد في ذلك الوقت موقعاً مهماً لتبادل الأنباء عن فرنسا. وهو ما كان معروفاً جيداً للجمهور، ولذلك كثرت الاستفسارات التي تُطرح هناك، إلى درجة أن البنك كان يكتب أحياناً آخر الأخبار في سطر أو نحو ذلك، ويعلقها على نوافذ البنك، ليقرأها جميع الذين يمرون خلال تمبل بار.

في فترة ما بعد الظهر ليوم ضبابي رطب، جلس السيد لوري على مكتبه، ووقف تشارلز دارني متكئاً عليه، ومتحدثاً معه بصوتٍ منخفضٍ. أصبح الآن عرين التوبة -الذي كان مُخصصاً للمقابلات مع ممثلي البنك- موقعاً لتبادل الأخبار، وممتلئاً عن آخره. جرى ذلك الحديث قبل موعد الإغلاق بنحو نصف ساعة أو نحو ذلك.

قال تشارلز دارني، متردداً إلى حد ما: «على الرغم من أنك أصغر رجل عاش حياته على الإطلاق، لا يزال يتعين عليّ أن أقترح عليك...».

قال السيد لوري: «أنا فاهم، تعني أنني كبير في السن؟».

«الطقس غير مستقر، والرحلة طويلة، ووسائل سفر محل شك،

وبلد يفتقر إلى التنظيم، ومدينة قد لا تكون حتى آمنة بالنسبة إليك».

قال السيد لوري، بثقة بشوشة: «عزيزي تشارلز، أنت تلمس بعض الأسباب التي تدفعني إلى الذهاب، وليس البقاء بعيداً. إنني آمن بما يكفي؛ فلن يهتم أحد بالتدخل في شؤون رجل عجوز يبلغ من العمر ثمانين عاماً، بينما هناك الكثير من الأشخاص الذين يستحقون التدخل في شؤونهم. أما فيما يتعلق بكونها مدينة تفتقر إلى التنظيم؛ فلو لم تكن غير منظمة، لن توجد حاجة إلى إرسال شخص من بنكنا هنا إلى بنكنا هناك، شخص يعرف المدينة والأعمال التجارية القديمة، ويحظى بثقة مؤسسة تيلسون. أما بالنسبة إلى وسائل السفر غير المؤكدة، والرحلة الطويلة، والطقس الشتوي؛ فإذا لم أكن مستعداً لتحمل بعض المضايقات من أجل تيلسون، بعد كل هذه السنوات، فمن عساه أن يتحملها؟».

قال تشارلز دارني، قلقاً إلى حدٍّ ما، كمن يفكر بصوتٍ عالٍ: «أتمنى الذهاب إلى هناك».

صاح السيد لوري: «بالفعل! أنت شخص لطيف عند الاعتراض وتقديم المشورة! هل تتمنى الذهاب إلى هناك؟ وأنت فرنسي المولد؟ أنت مستشار حكيم».

«عزيزي السيد لوري، لأنني فرنسي المولد، مرّرت في ذهني كثيراً هذه الفكرة (التي لم أقصد، بأي حال، أن أتفوّه بها هنا). لا يسع المرء إلا أن يفكر، بعد أن كان متعاطفاً مع البائسين، وترك شيئاً لهم»، تحدث هنا بأسلوبه الرصين السابق، «إنهم قد يستمعون إليه، وأن يمتلك القدرة

على إقناعهم بضبط النفس. في الليلة الماضية فقط، بعد أن تركتنا، عندما كنت أتحدث مع لوسي...».

كرر السيد لوري: «عندما كنت تتحدث مع لوسي، نعم. وأتساءل، ألا تخجل من ذكر اسم لوسي! وتتمنى، في هذا الوقت من النهار، أن تذهب إلى فرنسا!».

قال تشارلز دارني بابتسامة: «ومع ذلك، لن أذهب. يتعلق الأمر أكثر بقولك إنك ذاهب».

«وأنا ذاهب بالفعل. الحقيقة هي، عزيزي تشارلز»، نظر السيد لوري في اتجاه البنك البعيد هناك، وخفض صوته، «لا يمكنك أن تتصور الصعوبة التي نواجهها في إدارة أعمالنا، والخطر الذي يهدد دفاترنا وأوراقنا هناك. ويعلم الرب العواقب الوخيمة التي قد تلحق بأعدادٍ من الناس إذا تم الاستيلاء على بعض وثائقنا أو إتلافها؛ وهذا قد يحدث في أي وقت، كما تعرف، فمن ذا الذي يستطيع أن يقول إن باريس لن تُحرق اليوم، أو تُنهب غدًا! والآن، الاختيار الحكيم لهذه الوثائق بأقل تأخير ممكن، ودفنها، أو إبعادها عن طريق الأذى، ليس في مقدور أحد غيري (دون إضاعة الوقت الثمين)، وبالكاد ما يقدر على ذلك أي شخص غيري، إن وجد. وهل أتردد عندما يعرف بنك تيلسون هذا ويقول -بنك تيلسون، الذي أكلت خبزه طيلة ستين عامًا- لأنني أعاني من تصلب المفاصل قليلًا؟ لماذا، أنا صبي، يا سيدي، مقارنة بنصف دزينة من العاملين العجائز هنا!«.

«كم أنا معجب بشجاعة روحك الشابة، سيد لوري».

قال السيد لوري، وهو ينظر إلى البنك البعيد ثانية: «ياااه! هذا هراء، يا سيدي! ويا عزيزي تشارلز، عليك أن تتذكر أن إخراج الأشياء من باريس في هذا الوقت الحالي، بغض النظر عن ماهية هذه الأشياء، هو أقرب إلى المستحيل. وفي الحقيقة أمكن جلب الأوراق والأشياء الثمينة إلينا هنا اليوم تحديدًا (وأنا أتحدث بسرية تامة؛ فلا يصح لرجال الأعمال الهمس بذلك، حتى لك)، وأحضرها أغرب حاملين يمكنك تخيلهم، كان رأس كل منهم معلقًا بشعرة واحدة في أثناء عبوره الحواجز. في وقتٍ آخر، كانت طرودنا تأتي وتذهب، بنفس السهولة التي نمارس بها أعمالنا في إنجلترا القديمة. لكن الآن، توقف كل شيء».

«وهل تذهب الليلة حقًا؟».

«نعم، سوف أذهب الليلة بالفعل؛ فقد أصبحت القضية ملحة للغاية، ولا تقبل التأخير».

«وهل ستأخذ أحدًا معك؟».

«عُرِضت عليّ اقتراحات بجميع أنواع الأشخاص، لكنني لن أقول شيئًا لأي منهم. وأنوي أخذ جيري؛ فقد كان حارسي الشخصي في ليالي الأحد لفترة طويلة سابقة، وقد اعتدته. ولن يشك أحد في أن جيري ليس سوى بولدوج إنجليزي، أو أن لديه أي تصميم في رأسه سوى الطيران على أي شخص يلمس سيده».

«يجب أن أقول ثانية إنني معجب بشدة بشجاعتك وشبابك من كل قلبي».

«يجب أن أقول ثانية، هذا هراء، هراء! بعد الانتهاء من تنفيذ هذه المهمة الصغيرة، ربما أقبل اقتراح بنك تيلسون بالتقاعد والعيش في راحة، لوقتٍ كافٍ، إذن، للتفكير في التقدم في السن».

دار هذا الحوار في مكتب السيد لوري المعتاد، حيث احتشد أصحاب السيادة على بُعد ياردة أو ياردتين، متفخرًا بما سيفعله للانتقام لنفسه من الأوغاد قبل مرور فترة طويلة. كان هذا هو أسلوب السيد في ظل انتكاساته كلاجئ، كما كان أسلوب المبالغة الأرثوذكسية البريطانية الأصلية، في الحديث عن هذه الثورة الرهيبة كأنها الحصاد الوحيد المعروف، تحت السماء، الذي لم يُزرع - كأنه لم يحدث أي شيء على الإطلاق، أو أُغفل القيام به، مما أدى إلى ذلك - كأن المراقبين لملايين البائسين في فرنسا، والموارد التي أسيء استخدامها وانحرفت عن مسارها وكان يجب أن تحقق لهم الازدهار، لم يروا منذ سنوات أن ذلك قادمًا حتمًا، ولم يسجلوا بكلمات واضحة ما رأوه. كان يصعب على أي رجل عاقل يعرف الحقيقة أن يتحمّل مثل هذا التبجح، بالإضافة إلى خطط السيد المفرطة لاستعادة وضعٍ استنفد نفسه تمامًا، واستنفدت السماء والأرض، كما استنفدت نفسها. كان من الصعب تحملها دون بعض الاحتجاج من قِبَل أي رجل عاقل يعرف الحقيقة. وكان هذا التبجح الذي يدور حول أذنيه، مثل تشويشٍ مزعجٍ للدم في رأسه، يضيف إلى عدم الارتياح الكامن في عقله، مما أصاب تشارلز دارني بالاضطراب بالفعل، ولا يزال يُبقيه على هذه الحال.

كان سترافير، المحامي أمام محكمة الملك، من بين المتحدثين،

وقد تقدم كثيرًا على طريق حصوله على منصبٍ في الدولة، وبالتالي كان صوته عاليًا في تناوله للموضوع: يعرض على السيد وسائله لتفجير الناس وإبادتهم من على وجه الأرض، والاستغناء عنهم؛ وإنجاز العديد من الأشياء المماثلة، التي تشبه في طبيعتها القضاء على النصور برش الملح على ذيول السلالة. استمع دارني إليه بشعورٍ معينٍ من الاعتراض؛ ووقف متحيرًا بين الابتعاد حتى لا يسمع أكثر من ذلك، والبقاء ليتدخل بكلمته، بينما كان الشيء الذي سيحدث يواصل التشكُّل.

اقترب مدير البنك من السيد لوري، ووضع أمامه رسالة متسخة وغير مفتوحة، وسأله عما إذا كان قد اكتشف بعد أي أثر للشخص الذي وُجِّهَتْ إليه؟ وضع صاحب البنك الرسالة بالقرب من دارني، الذي سرعان ما تمكَّن من قراءة العنوان، لأنه كان يحمل اسمه الصحيح. كان العنوان، بعد ترجمته إلى الإنجليزية:

«عاجل جدًّا. إلى السيد سان إيفريموند، الماركيز الفرنسي سابقًا.

عن طريق السادة تيلسون وشركاه، المصرفيين، لندن، إنجلترا».

في صباح يوم الزفاف، طلب الدكتور مانيت طلبًا مُلحًا وصريحًا من تشارلز دارني، وهو إبقاء هذا الاسم سرًّا بينهما، ما لم يرق هو -الطبيب- بحلّه من هذا الالتزام. لم يعرف أي شخص آخر أن هذا اسمه؛ ولم تتشكك زوجته في الأمر؛ كما لم يعرف السيد لوري أي شيء عن ذلك. قال السيد لوري، ردًّا على صاحب البنك: «كلا، أعتقد أنني أحلت الأمر إلى الجميع هنا الآن، ولم يتمكن أحد أن يخبرني أين يمكن العثور على هذا الرجل».

كانت عقارب الساعة تقترب من توقيت إغلاق البنك، وتوجد مجموعة عامة من تيار المتحدثين أمام مكتب السيد لوري؛ فرفع يده بالرسالة مستفسراً. نظر إليها صاحب السيادة، المتجسد في شخص هذا اللاجئ المتأمر والساخط. وهذا، وذاك، والآخر، ولدى كل منهم شيء مهين يقولونه، بالفرنسية أو الإنجليزية، فيما يتعلق بالماركيز الذي لم يعثر عليه أحد.

قال أحدهم: «أعتقد أنه ابن شقيق الماركيز المذهب الذي قُتل؛ لكنه، على أي حال، خليفة منخط، ويسعدني القول إنني لم أعرفه قط». وقال آخر: «جبان تخلى عن منصبه منذ بضع سنوات»، وكان صاحب السيادة هذا قد خرج من باريس، وساقاه إلى أعلى ونصف مختنق في حمولة من القش.

وقال ثالث، وهو ينظر إلى العنوان بنظارته خلال مروره العابر: «لقد أصابته عدوى المذاهب الجديدة، فاتخذ موقف المعارضة من الماركيز الأخير، وتخلّى عن العقارات عندما ورثها، وتركها لقطيع الرعاع، أمل أن يعوضوه الآن بما يستحقه».

«مهلاً؟»، صاح سترافير الجعجاع، «هل فعل ذلك؟ هل هو هذا النوع من الرجال؟ دعونا نلقي نظرة على اسمه سيئ السمعة. الزميل دي. إن.!».

لم يستطع دارني أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك، فلمس السيد سترافير على كتفه، وقال:

«أنا أعرف هذا الرجل».

قال سترايفر: «أتعرفه، بحق جوبيتر؟ يؤسفني ذلك».

«لماذا؟».

«لماذا، سيد دارني؟ ألم تسمع ماذا فعل؟ لا تسأل لماذا، في هذه الأوقات».

«لكنني أسأل لماذا؟».

«إذن، أقول لك مرة أخرى، سيد دارني، يؤسفني ذلك. يؤسفني أن أسمعك تطرح أيًا من هذه الأسئلة غير العادية. فهذا هو رجل أصابته عدوى أشد أنواع الأفكار الشيطانية فسادًا وكُفْرًا، لم يعرف التاريخ مثلها، فتخلى عن ممتلكاته لأشرس حثالة على وجه الأرض ارتكبت جرائم قتل بالجملة، وتسألني لماذا يؤسفني أن الرجل الذي يُوجه الشباب يعرفه؟ حسنًا، لكنني سأجيب عن سؤالك. إنه يؤسفني لأنني أعتقد أن مثل هذا الوغد ملوث، هذا هو السبب».

حرصًا على السر، تمالك دارني نفسه بصعوبة كبيرة، وقال: «ربما لم تفهم الرجل».

قال سترايفر المتنمر: «أعرف كيف أخرجك، سيد دارني، وسأفعل ذلك. إذا كان هذا الرجل محترمًا، فأنا لا أفهمه، ويمكنك أن تخبره بذلك، مع تحياتي. يمكنك أيضًا أن تخبره، نقلًا عني، أنني أتعجب أنه بعد أن تخلى عن ممتلكاته من متاع الدنيا ومنصبه لهؤلاء الغوغاء السفاحين، لماذا لا يضع نفسه على رأسهم. لكن، لا، أيها السادة»،

قال سترايفر، وهو ينظر حوله ويطلق أصابعه، «إنني أعرف شيئاً عن الطبيعة البشرية، وأقول لكم لن تجدوا أبداً مثل هذا الرجل، الذي يثق بهؤلاء الرعايا ذوات القيمة العالية، ويضع نفسه تحت رحمتهم. لا، أيها السادة، سيتركهم خلفه في وقت مبكر جداً من الاشتباك، ويتسلل مبتعداً».

بهذه الكلمات، وطققة أخيرة لأصابعه، شق السيد سترايفر طريقه إلى شارع فليت، وسط استحسان عام من سامعيه. أصبح السيد لوري وتشارلز دارني وحدهما في المكتب، بعد أن غادر الجميع البنك.

قال السيد لوري: «هل ستتولى أنت مسؤولية الرسالة؟ هل تعرف لمن تُسلمها؟».

«نعم، أعرف».

«هل ستتعهد بأن توضح له أننا نفترض أنها أُرسلت إلى هنا، على أمل معرفة إلى من نوجهها، وأنها كانت هنا منذ فترة؟».

«سأفعل ذلك. هل تنوي التوجه إلى باريس من هنا؟».

«من هنا، في الثامنة».

«سأعود لتوديعك».

شعر دارني بضيقٍ شديدٍ من نفسه، ومن سترايفر، ومعظم الرجال الآخرين. وبذل قصارى جهده ليشق طريقه إلى موقع هادئ في تمبل بار، وفتح الرسالة، وقرأها. وهذا ما احتوته:

«سجن آباي، باريس».

« ٢١ يونيو ١٧٩٢ »

«السيد الماركيز السابق

«بعد أن تعرضت حياتي للخطر لفترة طويلة على أيدي أهل القرية، أُلقي القبض عليّ، بعنف وإهانة شديدين، وقطعت رحلة طويلة سيرًا على الأقدام إلى باريس، وقد عانيت كثيرًا على الطريق، وهذا ليس كل شيء؛ فقد دُمّر بيتي... سُوي بالأرض.

إن الجريمة التي سُحّنت بسببها، سيدي الماركيز السابق، وسيتم استدعائي بسببها أمام المحكمة، وسأفقد حياتي (من دون مساعدتك السخية)، هي، كما يقولون لي، خيانة صاحب الجلالة الشعب، لأنني قمت بعمل ضده من أجل مهاجر. وعبثًا حاولت إقناعهم أن ما قمت به كان من أجلهم، وليس ضدهم، وفقًا لأوامرك. وعبثًا حاولت إقناعهم أنني قبل الاستيلاء على ممتلكات المهاجرين، كنت قد حوّلت الضرائب التي توقفوا عن دفعها؛ ولم أجمع منهم أي إيجار؛ ولم ألجأ إلى أي إجراء. كان ردهم الوحيد أنني قمت بذلك لصالح مهاجر، وأين هو هذا المهاجر؟

آه! سيدي الكريم الماركيز السابق، أين هذا المهاجر؟ أصبح في نومي، أين هو؟ أسأل السماء، ألن يأتي ليخلصني؟ لا جواب.

آه يا سيدي الماركيز السابق، إنني أرسل صرختي البائسة عبر البحر، على أمل أن تصل إلى أذنيك من خلال بنك تيلسون العظيم المعروف في باريس!

حُبًّا في السماء، والعدالة، والكرم، وشرف اسمك النبيل، أتوسل إليك، سيدي الماركيز السابق، أن تساعدني وتطلق سراحني. خطئي هو أنني كنت مخلصًا لك، يا سيدي الماركيز السابق، أتوسل إليك أن تكون مخلصًا لي!

من هنا، من سجن الرعب هذا، حيث أقترَب كل ساعة أكثر وأكثر من الهلاك، أرسل إليك، سيدي الماركيز السابق، مؤكِّدًا خدمتي البائسة التعيسة. مؤسفة وغير السعيدة.

المنكوب

جائيل».

أثارت هذه الرسالة القلق الكامن في ذهن دارني، وبعثت فيه حياة قوية. كان الخطر الذي يواجهه خادم عجوز صالح، جريمته الوحيدة هي الإخلاص لنفسه وعائلته، يحدق إلى وجهه بتوبيخٍ شديدٍ، إلى درجة أنه يخفي وجهه تقريبًا عن المارة، خلال سيره ذهابًا وإيابًا في تمبل بار يفكر فيما يجب أن يفعله.

كان يعرف جيدًا أنه لم يتخذ مسلكًا مكتملاً، في ظل رعبه من الأفعال التي بلغت ذروتها في الأعمال الرديئة التي مارسها بيت عائلته القديمة سيئة السمعة، وفي شكوكه الساخطة تجاه عمه، وفي النفور الذي شعر به ضميره تجاه النسيج المتداعي الذي كان من المفترض أن يحافظ عليه. كان يعرف جيدًا أنه في حبه للوسي، كان تخليه عن مكانته

الاجتماعية، رغم أنه لم يكن جديدًا على ذهنه بأي حال من الأحوال، كان متسرّعًا وغير مكتمل. كان يعرف أنه كان يجب أن ينفذ ذلك بشكلٍ منهجي ويشرف عليه، وأنه كان ينوي القيام بذلك، وأنه لم يقم به قطّ.

لقد واجه ظروفًا عديدة؛ تمثّلت في: السعادة التي حققها في الموطن الإنجليزي الذي اختاره، وضرورة أن يعمل دائمًا بنشاطٍ، والتغيرات السريعة والمصاعب التي حدثت في ذلك الوقت وتتابعت بسرعة فائقة، إلى درجة أن أحداث هذا الأسبوع قضت على خطط الأسبوع الماضي غير المكتملة، ثم أعادت أحداث الأسبوع التالي كل شيء كما كان مرة أخرى؛ وكان يعرف تمامًا أنه استسلم لقوة هذه الظروف: ليس دون قلق، وإنما دون مقاومة مستمرة ومتراكمة. وكان يعرف تمامًا أنه يراقب الزمن لتحديد توقيت أوان العمل، وأنهم تقلبوا وكافحوا حتى مر الوقت، وأخذ النبلاء يغادرون فرنسا عبر كل طريق سريع أو جانبي، وكانت ممتلكاتهم في طريقها للمصادرة والتدمير، وأسماءهم تُمحى؛ كان يعرف ذلك جيدًا، بقدر ما يمكن أن تعرفه أي سلطة جديدة في فرنسا وتتهمه بسبب ذلك.

لكنه لم يظلم أحدًا، ولم يسجن أحدًا. لقد رفض تمامًا مطالبة الناس بقسوة بدفع مستحقّاته، إلى درجة أنه تخلى عنها بإرادته، وألقى بنفسه في عالم لا حظوة له فيه، وفاز بمكانه الخاص هناك، وكسب قوته بنفسه. كان السيد جابيل قد تولى مسؤولية القرية الفقيرة وما تشمله بناء على تعليمات مكتوبة؛ بُغية الرفق بأهلها، ومنحهم القليل الذي يمكنه تقديمه - مثل الوقود الذي يسمح لهم كبار الدائنون بالحصول عليه في الشتاء، والمحصول الذي يمكن إنقاذه من القبضة نفسها في الصيف -

وما من شك أن الأدلة والبراهين تضمنت هذه الحقيقة، حفاظاً على سلامته، بحيث يمكن أن تظهر الآن.

وقد عززت هذه الرسالة ذلك القرار اليائس الذي بدأ تشارلز دارني في اتخاذه، وهو أن يذهب إلى باريس.

نعم. كان مثل ذلك البحار، في القصة القديمة، الذي دفعته الرياح والتيارات تحت تأثير صخرة المغناطيس التي كانت تجذبه إليها، وعليه أن يذهب. كان كل ما يخطر بباله يجرفه، أسرع وأسرع، وأكثر ثباتاً، إلى ذلك الجاذب الرهيب. وكان قلقه الكامن يتمثل في وجود أهداف سيئة تعمل في أرضه التعيسة بواسطة أدوات سيئة؛ وأنه هو الذي لم يكن يخفى عليه أنه أفضل منهم، لم يكن هناك ليحاول أن يفعل شيئاً لحقن الدماء، وتأكيد مطالب الرحمة والإنسانية. ومع هذا القلق الذي يخنقه أحياناً ويوبّخه أحياناً أخرى، توصل إلى مقارنة حادة بينه وبين ذلك الرجل العجوز الشجاع الذي كان شعوره بالواجب قوياً للغاية. أعقبت هذه المقارنة (الضارة له) على الفور سخرية صاحب السيادة، التي لسعته بمرارة، وكذا سخرية سترافير، التي كانت قبل كل شيء فظة ومزعجة، لأسباب قديمة. ثم جاء دور رسالة جابيل: نداء من سجين بريء - معرض لخطر الموت - موجه إلى عدالته وشرفه وسمعته الطيبة. اتخذ قراره؛ يجب أن يذهب إلى باريس.

نعم. كانت صخرة المغناطيس تجذبه، ويجب أن يبحر، حتى يرتطم بها. لم يكن يعرف أي صخرة هي؛ ولم ير أي خطر. تراءت أمامه النية التي دفعته إلى القيام بهذا العمل، على الرغم من أن ما قام به لم يكن

مكتملاً، وتصور أنها ستجعله يحظى بالامتنان في فرنسا عند تقديمه لنفسه لتأكيد ذلك. ثم تراءت أمامه تلك الرؤية المجيدة لفعل الخير، التي كثيراً ما كانت سراباً خادعاً للعديد من العقول الطيبة، بل وتخيل حتى نفسه يؤثر في توجيه هذه الثورة الهائجة التي كانت تنطلق بعنفٍ مخيفٍ. وبينما كان يسير ذهاباً وإياباً بعد أن اتخذ قراره، رأى من الأفضل ألا تعرف لوسي ولا والدها بالأمر إلا بعد رحيله. يجب تجنب لوسي ألم الانفصال، أما والدها، الذي يتردد دائماً في تحويل أفكاره نحو الأرض القديمة الخطرة، فيجب أن يعرف هذه الخطوة، كخطوة اتخذت، وليست في ميزان الترقب والشك. لم يناقش مع نفسه مدى مسؤولية والدها في عدم اكتمال وضعه، وذلك لقلقه المؤلم من أجل تجنب إحياء ارتباطات قديمة بفرنسا في ذهنه، على أن هذا الظرف أيضاً كان له تأثير في مساره.

أخذ يسير جيئةً وذهاباً مشغولاً للغاية بالأفكار، حتى حان الوقت للعودة إلى بنك تيلسون، وتوديع السيد لوري. وبمجرد وصوله إلى باريس، سيقدم نفسه لهذا الصديق القديم؛ لكنه لن يفصح له الآن عن نيته. كانت عربة تجرها خيول البريد جاهزة عند باب البنك، وكان جيري منتعلاً حذاءه عالي الساق وجاهزاً.

قال تشارلز دارني للسيد لوري: «لقد أوصلت تلك الرسالة. ولا أود تحميلك أي إجابة خطية، لكنك ربما تحصل على إجابة شفوية؟» قال السيد لوري: «سأفعل ذلك، وبسهولة، إن لم يكن الأمر خطيراً».

«كلا على الإطلاق. على الرغم من أنه موجه إلى سجين في سجن آباي».

«ما اسمه؟»، سأله السيد لوري، ومفكرته مفتوحة في يده.

«جاييل».

«جاييل، وما الرسالة الموجهة إلى جاييل التعيس في السجن؟».

«ببساطة، «أنه تلقى الرسالة، وسوف يأتي»».

«هل أخبره بموعد محدد؟».

«سيبدأ رحلته في ليلة الغد».

«وهل أخبره باسم شخص؟».

«كلا».

وقام بمساعدة السيد لوري في لف نفسه بعددٍ من المعاطف والعباءات، وخرج معه من الجو الدافئ في البنك القديم إلى الهواء الضبابي في شارع فليت. وقال له السيد لوري عند الفراق: «برجاء إبلاغ حبي للوسي، ولوسي الصغيرة، واعتنِ بهما حتى أعود». هز تشارلز دارني رأسه وابتسم بشكٍّ، بينما كانت العربة تبتعد.

في تلك الليلة -الرابع عشر من أغسطس- سهر لوقت متأخر، وكتب رسالتين تتسمان بعاطفة شديدة؛ إحداهما إلى لوسي، يشرح فيها الالتزام القوي الذي يقع على عاتقه بالذهاب إلى باريس، ويوضح لها بالتفصيل أسباب شعوره بالثقة بأنه لن يتورط في أي خطر شخصي هناك. وكانت الرسالة الثانية إلى الطبيب، يعهد إليه فيها برعاية لوسي

وطفلتهما العزيزة، مع تناول الموضوعات نفسها بأقوى التأكيدات، وكتب إلى كليهما أنه سيبحث إليهما برسائل لتأكيد سلامته، فور وصوله. كان يومًا صعبًا، ذلك اليوم الذي أمضاه معهما، وهي المرة الأولى التي يخفي فيها شيئًا عن حياتهم المشتركة. كان من الصعب أن يحافظ على تلك الخدعة البريئة، ولم يتشككوا فيه على الإطلاق. لكن نظرة حنونة على زوجته، التي كانت سعيدة ومشغولة للغاية، جعلته يصمم عدم إخبارها بما ينتظره (كان متحمسًا لإخبارها، فمن الغريب بالنسبة إليه أن يتصرف في أي شيء دون مساعدتها الهادئة)، ومر اليوم بسرعة. في وقت مبكر من المساء، احتضنها، واحتضن ابنته التي تحمل اسم والدتها ولا يقل حبه لها عن حبه لوالدتها، متظاهرًا بأنه سيعود بعد قليل (مُدعيًا أنه على موعد مع شخص وهمي، وكان قد أخفى حقيقة مملوءة بالملابس)، وهكذا خرج إلى الضباب الكثيف في الشوارع الثقيلة، بقلب أثقل.

كانت القوة غير المرئية تجذبه إليها بسرعة، الآن، وكان المد والجزر والرياح جميعًا تتجه باستقامة وقوة نحوها. ترك الرسالتين مع حارس جدير بالثقة، لتسليمهما قبل منتصف الليل بنصف ساعة، وليس قبل ذلك. ركب حصانًا إلى دوفر؛ وبدأ رحلته. كانت صرخة السجين المسكين التي عزز بها قلبه الغارق، «حُبًّا في السماء، والعدالة، والكرم، وشرف اسمك النبيل!»، هي ما جعلته يترك كل ما هو عزيز على الأرض خلفه، ويطوف بعيدًا إلى صخرة المغناطيس.

نهاية الكتاب الثاني

الكتاب الثالث

مسار العاصفة

الفصل الأول

سري للغاية

سار المسافر ببطء في طريقه، متجهًا من إنجلترا إلى باريس في خريف عام ١٧٩٢. كان من الممكن أن يواجه عددًا كبيرًا من الطرق السيئة، والمركبات السيئة، والخيول السيئة التي كانت لتؤخره، لو كان ملك فرنسا المخلوع البائس على عرشه بكل مجده. لكن الزمن المتغير كان محفوظًا بعقبات أخرى غير هذه. فقد كانت توجد عند كل بوابة مدينة ومركز ضرائب ريفي فرقة من المواطنين المجاهدين ببنادقهم الوطنية، في حالة تأهب قصوى؛ يُوقفون جميع القادمين والعائدين، ويستجوبونهم، ويفحصون أوراقهم، ويبحثون عن أسمائهم في قوائم لديهم، ثم يرُدُّونهم على أعقابهم، أو يسمحون لهم بالمرور، أو يوقفونهم ويلقون القبض عليهم، حسبما يرى تقديرهم أو خيالهم المتقلَّب أنه الأفضل للجمهورية التي يبرز فجرها، جمهورية واحدة لا تتجزأ، جمهورية الحرية والمساواة والإخاء، أو الموت.

قطع تشارلز دارني عدة فراسخ قليلة على الأراضي الفرنسية في رحلته، عندما بدأ يدرك أنه لا أمل له في العودة على طول هذه الطرق الريفية إلى أن يُعلن مواطنًا صالحًا في باريس. ومهما يحدث الآن،

يجب أن يواصل رحلته إلى نهايتها. لم تُغلق أمامه أي قرية صغيرة، ولم يُشيد حاجز عادي على الطريق خلفه، لكنه كان يعلم أن باباً حديدياً آخر في تلك السلسلة يحُول بينه وبين إنجلترا. تملّكه احتراس شامل؛ إلى درجة أنه إذا أُلقي القبض عليه في شبكة، أو نُقل إلى وجهته في قفص، لما شعر بفقدان حريته بأكثر مما يشعر الآن.

لم يوقفه هذا الاحتراس الشامل على الطريق السريع عشرين مرة في كل مرحلة فحسب، بل أدى أيضاً إلى تأخير تقدّمه عشرين مرة في اليوم؛ عن طريق اللحاق به وإعادته، أو تجاوزه وإيقافه احتياطياً، أو الانطلاق إلى جانبه لمراقبته. مرّت عدة أيام على رحلته في فرنسا وحده؛ عندما ذهب إلى الفراش متعباً، في بلدة صغيرة على الطريق السريع، لا تزال بعيدة عن باريس.

لم يكن في وسعه أن يصل إلى هذا الحد إلا بسبب الرسالة التي بعث بها جابيل المنكوب من سجنه في آباي. وقد واجه صعوبة كبيرة في مخفر في هذه البلدة الصغيرة، إلى درجة شعوره بأن رحلته قد وصلت إلى أزمة؛ لذلك، لم يكن مندهشاً، بقدر ما يمكن أن يندهش المرء، أن يجد نفسه وقد أوقف في منتصف الليل في ذلك التزل الصغير الذي أُحيل إليه حتى الصباح.

أيقظه موظف محلي جبان وثلاثة وطنيين مسلحون يرتدون قبعات حمراء خشنة، جلسوا على سريره يدخنون الغليون.

قال الموظف: «أيها المهاجر، سأرسلك إلى باريس تحت الحراسة».

«أيها المواطن، أنا لا أرغب في شيء أكثر من الوصول إلى باريس، ويمكنني الاستغناء عن الحراسة».

«صمتاً!»، زمجر أحد أصحاب القبعات الحمراء، وضرب الغطاء بمؤخرة بندقيته، «اصمت أيها الأرستقراطي!».

فقال الموظف الجبان: «كما يقول الوطني الصالح، أنت أرستقراطي، ويجب أن يصحبك حارس، وأن تدفع ثمن ذلك».

«ليس لديّ خيار»، قال تشارلز دارني.

صاح الرجل العابس نفسه، الذي يرتدي القبعة الحمراء: «خيار! استمع إليه! كما لو أن حمايته من قضبان المصايح ليست فضلاً!».

قال الموظف: «كما يقول الوطني الصالح دائماً. انهض وارنّد ملابسك، أيها المهاجر».

امثل دارني. أعادوه إلى المخفر، حيث كان الوطنيون الآخرون يرتدون قبعات حمراء خشنة، ويدخنون، ويشربون، وينامون، بالقرب من نيران الحراسة. وهنا دفع ثمنًا باهظًا للحراسة، وبالتالي بدأ الرحلة مع الحراس على الطرق المبللة الرطبة في الساعة الثالثة صباحًا.

ضمّت الحراسة اثنين من الوطنيين على الخيول، يرتديان قبعات حمراء، وأشرطة ثلاثية الألوان، ومسلحين بالبنادق والسيوف الوطنية، وسار كلٌّ منهما على أحد جانبيه.

كان كل مرافق يقود حصانه، لكن حبلاً رخوًا رُبط أحد طرفيه بلجام حصان دارني، وظل الطرف الآخر يحيط بمعصم أحد الوطنيين.

انطلقوا على هذا النحو، والمطر الحاد يتساقط على وجوههم: يهرولون بـحُطى ثقيلة فوق رصيف المدينة غير المستوي، ثم يخرجون إلى الطرق المغطاة بالوحل. ساروا في هذه الحالة دون تغيير، باستثناء الخيول والسرعة، واجتازوا جميع الفراسخ الموحلة التي تفصلهم عن العاصمة.

سافروا في الليل، وتوقفوا لمدة ساعة أو ساعتين عند الفجر، ثم استلقوا حتى الغسق. كان الحارسان يرتديان ملابس بائسة للغاية، إلى درجة أنهم استعانوا بالقش ولقَّوه حول أرجلهم العارية، ووضعوه على أكتافهم الخشنة لحمايتها من البلل. وبصرف النظر عن الانزعاج الشخصي من وجود حراسة، وبصرف النظر عن اعتبارات الخطر الحالي الناجم عن حالة الشُّكر المزمّن لدى أحد الوطنيين الذي يحمل بندقيته بتهور شديد، لم يسمح تشارلز دارني لهذه القيود المفروضة عليه أن توقظ أي مخاوف جدية في صدره؛ ذلك أنه فكر، بينه وبين نفسه، أنه ما من علاقة بين هذا كله وظروف قضية فردية لم تُنظر بعد، والإفادات التي أكدها سجين أباي ولم تُقدم بعد.

لكنهم عندما وصلوا إلى بلدة بوفيه -وهو ما حدث في المساء، وكانت الشوارع مليئة بالناس- لم يستطع أن يخفي عن نفسه أن مظهر الأمور كان مُقلقاً للغاية. تجمَّع حشد متوعد لرؤيته يترجل في ساحة مكتب البريد، وتعالّت أصوات كثيرة صائحة: «يسقط المهاجر!».

توقف عن محاولة إخراج نفسه من سرجه، وعاد إلى وضعه باعتباره المكان الأكثر أماناً، ثم قال:

«مهاجر، يا أصدقائي! ألا ترونني هنا، في فرنسا، بمحض إرادتي؟»

«أنت مهاجر ملعون»، صاح حداد، متجهًا إليه بغضبٍ من وسط الحشد، وييده مطرقة: «وأنت أرسقراطي ملعون!».

وضع مدير مكتب البريد نفسه بين هذا الرجل ولجام الفارس (الذي كان من الواضح أنه يسعى نحوه)، وقال بهدوء: «دعه وشأنه، دعه وشأنه! سوف يُحاكم في باريس».

«يُحاكم!»، كرر الحداد، ملوحًا بمطرقته: «آه! ويُدان كخائن». وهنا هتف الحشد تعبيرًا عن الموافقة.

نظر دارني إلى مدير مكتب البريد، الذي كان يدير رأس حصانه إلى الفناء (بينما جلس الوطني المخمور بهدوء على سرج حصانه متطلعًا، والحبيل حول معصمه)، وبمجرد أن تمكّن من أن يسمع الناس صوته قال:

«أيها الأصدقاء، أنتم تخذعون أنفسكم، أو أنكم مخدوعون. أنا لست خائنًا».

صاح الحداد: «إنه يكذب! إنه خائن منذ صدور المرسوم. لقد صودرت حياته لصالح الشعب. حياته الملعونة ليست ملكه!».

في اللحظة التي رأى فيها دارني اندفاعًا في أعين الحشد، الذي يمكن أن يهجم عليه في لحظة أخرى، أدار مدير مكتب البريد حصانه نحو الفناء، وتقدم الحارسان من جانبي حصانه، وأغلق مدير البريد البوابات المزدوجة المجنونة وسدها بقضبان حديدية. ضربها الحداد بمطرقته، وتذمر الحشد، ولم يحدث أكثر من ذلك.

سأل دارني مدير مكتب البريد، بعد أن شكره، ووقف بجانبه في
الفناء: «ما هذا المرسوم الذي تحدث عنه الحداد؟».

«صدر فعلاً، إنه مرسوم لبيع ممتلكات المهاجرين».
«ومتى صدر؟».

«في اليوم الرابع عشر من هذا الشهر».

«اليوم الذي غادرت فيه إنجلترا!».

«يقول الجميع إنه ليس سوى مرسوم واحد من عدة مراسيم،
وسيصدر غيرها - إن لم تكن صدرت بالفعل - وتقضي بنفي جميع
المهاجرين، والحكم بالموت على جميع العائدين، وهذا ما قصده
عندما قال إن حياتك ليست ملكك».

«لكن تلك المراسيم لم تصدر بعد؟».

قال مدير مكتب البريد وهو يهز كتفيه: «وما أدراني! ربما صدرت،
وربما ستصدر. الأمران سيّان. ماذا تريد؟».

استراحوا على بعض القش في دور علوي حتى منتصف الليل،
ثم انطلقوا ثانية بعد أن نامت البلدة كلها. لم تكن ندرة النوم الواضحة
بمنزلة أقل التغيرات الجامحة العديدة التي يمكن ملاحظتها على الأشياء
المألوفة، وجعلت هذه الرحلة الجامحة غير واقعية. بعد رحلة طويلة
ووحيدة على طرق موحشة، كانوا يصلون إلى مجموعة من الأكواخ
الفقيرة، ليست غارقة في الظلام، بل تتلأأ جميعها بالأضواء، ويجدون
الناس يدورون متشابكي الأيدي، بطريقة شبحية في جوف الليل، حول

شجرة ذابلة من أشجار الحرية، أو يتجمعون معاً ويغنون إحدى أغاني الحرية. ولحسن الحظ، كانت بوفيه نائمة في تلك الليلة، مما ساعدهم على الخروج منها والانطلاق مرة أخرى إلى العزلة والوحدة: يجلبون في البرد والبلل السابقين لأوانهما، بين الحقول الفقيرة التي لم تُنتج ثمار الأرض في ذلك العام، وتناثرت بين بقايا المنازل المحترقة المسودة، وبظهور دوريات وطنية مفاجئة من الكمائن على طريقهم، وتفرض رقابة صارمة على جميع الطرق.

وجدتهم ضوء النهار أخيراً أمام جدار باريس. وعندما وصلوا إلى الحاجز، وجدوه مغلقاً ويخضع لحراسة مشددة.

سألهم مسؤول حازم المظهر، بعدما استدعاه الحارس: «أين أوراق هذا السجين؟».

من الطبيعي أن تصدم هذه الكلمة البغيضة شارل دارني، فطلب من المتحدث ملاحظة أنه مسافر حر ومواطن فرنسي، وتحت حراسة فرضتها عليه حالة البلد المضطربة، ودفع ثمن هذه الحراسة.

كرر الشخص نفسه، دون أن يلتفت إليه على الإطلاق: «أين أوراق هذا السجين؟».

كان الوطني المخمور يضع الأوراق في قبعته، فأخرجها منها. ألقى الشخص المسؤول نفسه نظرة على رسالة جابيل، فظهرت عليه علامات الاضطراب والدهشة، ونظر إلى دارني باهتمام بالغ.

ترك الحراسة والشخص الذي يحرسه دون أن ينبس ببنت شفة،

وذهب إلى غرفة الحراسة. في هذه الأثناء، ظل الثلاثة جالسين فوق خيولهم خارج البوابة. وفي ظل حالة الترقب هذه، نظر تشارلز دارني حوله، ولاحظ أن حراسة البوابة تضم خليطاً من الجنود والوطنيين، وعدد الوطنيين يفوق بكثير عدد الجنود؛ وأن دخول عربات الفلاحين التي تجلب الإمدادات إلى المدينة، وكذا حركة المرور المماثلة والمتاجرين، كان يسيراً بما يكفي، بينما كان الخروج صعباً للغاية، حتى لأبسط الناس. كان هناك خليط من الرجال والنساء، ناهيك بحيوانات نقل الأحمال والمركبات من مختلف الأنواع، في انتظار الخروج؛ لكن عملية تحديد الهوية التي تسبق الخروج كانت صارمة للغاية، بحيث كان مرورهم عبر الحاجز يتسم ببطء شديد. أدرك بعض هؤلاء الأشخاص أن دورهم في الفحص لا يزال بعيداً جداً، فاستلقوا على الأرض للنوم أو التدخين، بينما تحدث آخرون معاً، أو أخذوا يتسكعون. وكانت القبعة الحمراء، والشارة ثلاثية الألوان، شائعة بين الرجال والنساء على حد سواء.

ظل دارني يراقب كل هذه الأشياء وهو جالس فوق حصانه نحو نصف ساعة، ثم وجد نفسه في مواجهة المسؤول نفسه، الذي أمر الحارس بفتح الحاجز. ثم سلم الحارسين، المخمور والمتزن، إيصالاً باستلام الشخص الذي كان تحت حراستهما، وطلب منه أن يترجل عن حصانه؛ فامثل لذلك. استدار الوطنيان، وهما يقودان حصانه المتعب، وانطلقا بعيداً دون دخول المدينة.

رافق دارني المسؤول إلى غرفة الحراسة، التي تفوح منها رائحة

النبيذ والتبغ العاديين، حيث كان بعض الجنود والوطنيين، النائمين منهم والمستيقظين، المخمورين والمتزنين، وفي حالات محايدة مختلفة بين النوم والاستيقاظ، والسكر والاتزان، واقفين ومضجعين. وبالمثل، لم يكن ضوء غرفة الحراسة مستقرًا؛ حيث كان جزء منه مستمدًا من مصابيح الزيت الآخذة في الأفول ليلاً، والجزء الآخر من النهار الملبد بالغيوم. كانت بعض السجلات مفتوحة على أحد المكاتب، يشرف عليها ضابط ذو مظهر خشن داكن اللون.

قال الضابط للرجل الذي اقتاد دارني، وهو يأخذ قصاصة من الورق ليكتب عليها: «أيها المواطن ديفارج، هل هذا هو المهاجر إيفريموند؟»
«إنه هو».

«كم عمرك، يا إيفريموند؟».

«سبعة وثلاثون».

«هل أنت متزوج، يا إيفريموند؟»

«نعم».

«أين تزوجت؟».

«في إنجلترا».

«بلا شك. أين زوجتك، يا إيفريموند؟».

«في إنجلترا».

«بلا شك. سوف نرسلك، يا إيفريموند، إلى سجن لا فورس».

هتف دارني: «يا للسماء! بأي قانون، ولأي جريمة؟».

رفع الضابط بصره للحظة عن قصاصة الورق.

«لدينا قوانين جديدة، يا إيفريموند، وجرائم جديدة، منذ أن كنت هنا»، قالها بابتسامة قاسية، واستمر في الكتابة.

«أنأشذك أن تلاحظ أنني جئت إلى هنا طواعية، استجابة لذلك النداء أمامك، الذي كتبه زميل مواطن، ولا أطالب بأكثر من إتاحة الفرصة للقيام بما أريد دون إبطاء، أليس هذا من حقي؟».

«المهاجرون ليس لديهم حقوق، يا إيفريموند»، كان الرد عديم الإحساس. ظل الضابط يكتب حتى انتهى، وقرأ لنفسه ما كتبه، وجفف الحبر بالرمل، ثم سلمه إلى ديفارج، مع عبارة «سري للغاية».

أشار ديفارج بالورقة إلى السجين، بأن يرافقه؛ أطاع السجين، ورافقتهما حراسة تضم حارسين من الوطنيين المسلحين.

وفي أثناء هبوطهم سلم غرفة الحراسة، ويتجهون إلى باريس، سأله ديفارج، بصوتٍ منخفضٍ: «هل أنت الذي تزوج ابنة الدكتور مانيت، الذي كان سجيناً في الباستيل، الباستيل الذي لم يعد موجوداً؟».

«نعم»، أجاب دارني، وهو ينظر إليه بدهشة.

«اسمي ديفارج، ولديّ متجر نبيذ في ضاحية القديس أنطوان، ربما سمعت عني».

«أنت زوجتي إلى بيتك لتستعيد والدها؟ نعم!».

بدت كلمة «زوجة» بمنزلة تذكير كئيب لديفارج، ليقول بنفاد صبر

مفاجئ: «باسم تلك الأنثى الحادة المولودة حديثاً، التي تُسمَّى المقصلة، لماذا أتيت إلى فرنسا؟».

«لقد سمعتني، قبل دقيقة، أقول السبب؛ ألا تصدق أنها الحقيقة؟».

«حقيقة سيئة بالنسبة إليك»، قال ديفارج، متحدثاً بحاجبين معقودين، وناظرًا أمامه مباشرة.

«في الواقع أنا ضائع هنا، كل شيء هنا غير مسبوق، متغير للغاية، مفاجئ وغير عادل، إلى درجة أنني ضائع تماماً، هل يمكنك أن تقدم لي القليل من المساعدة؟».

«لا، لا يمكنني»، أجاب ديفارج، وهو ينظر دائماً إلى الأمام مباشرة.

«هل تجيبني عن سؤال واحد؟».

«ربما، حسب طبيعته، يمكنك أن تقول ما هو».

«في هذا السجن الذي سأذهب إليه ظلمًا، هل يمكنني التمتع ببعض التواصل الحر مع العالم الخارجي؟».

«سوف ترى».

«لن أدفن هناك، ويُحكَم عليّ مُسبقًا، ودون أي وسيلة لعرض قضيتي؟».

«سوف ترى، لكن، ماذا إذن؟ لقد دُفِن آخرون في سجون أسوأ، قبل اليوم».

«لكنني لم أسجن أحدًا قطُّ، أيها المواطن ديفارج».

نظر إليه ديفارج نظرة قاتمة، بحثًا عن إجابة، ثم تابع سيره في صمّ مطبق ثابت. وكلما غرق بعمق في هذا الصمت، تضاعف الأمل في أن يلين قليلًا؛ أو هكذا اعتقد دارني، ولذلك سارع إلى القول:

«من الأهمية بمكان بالنسبة إليّ (كما تعلم، أيها المواطن، حتى أفضل مني، مدى الأهمية)، أن أتمكن من إبلاغ السيد لوري من بنك تيلسون، وهو رجل إنجليزي موجود الآن في باريس، هذه الحقيقة البسيطة التي لا تحتاج إلى أي تعليق، وهي أنني مُلقى بي في سجن لا فورس، هل ستفعل ذلك من أجلي؟».

أجاب ديفارج بإصرارٍ: «لن أفعل أي شيء من أجلك، واجبي تجاه بلدي وشعبي، لقد أقسمت أن أخدم بلدي وشعبي، ضدك، لن أفعل أي شيء من أجلك».

شعر تشارلز دارني بعدم جدوى أن يتوسّل إليه أكثر، كما شعر بجرح كبريائه. وخلال سيرهما في صمت، لم يكن في وسعه إلا أن يرى كيف اعتاد الناس مشهد السجناء الذين يمرون في الشوارع؛ بالكاد ما لاحظته الأطفال، أدار عددٌ قليلٌ من المارة رؤوسهم، وأشار عدد قليل بأصابعهم إليه كأرستقراطي، وفيما عدا ذلك، لم تكن رؤية رجل يرتدي ملابس جيدة ويذهب إلى السجن أكثر لفتًا للنظر من رؤية عامل يرتدي ملابس العمل ويذهب إلى عمله. وفي أحد الشوارع الضيقة المظلمة القدرة التي مروا بها، كان خطيب متحمس، يقف على كرسي منخفض بلا ظهر، يواجه جمهورًا متحمسًا ويتحدث عن الجرائم التي ارتكبتها الملك والعائلة المالكة ضد الشعب. أدرك تشارلز دارني لأول مرة من الكلمات

القليلة التي التقطها من شفتي هذا الرجل أن الملك مسجون، وأن السفراء الأجانب غادروا باريس، لكنه لم يسمع شيئاً على الإطلاق طوال الطريق (باستثناء بوفيه)، فقد عزلته تمامًا الحراسة والمراقبة الشاملة.

لقد أدرك الآن أنه يواجه مخاطر أكبر بكثير من تلك التي كانت تحيط به عندما غادر إنجلترا، كما أدرك أن المخاطر تفاقمت حوله بسرعة، وقد تزداد سرعة تفاقمها أسرع وأسرع. لم يكن في وسعه إلا أن يعترف لنفسه بأنه ربما لم يكن ليقوم بهذه الرحلة، لو كان في مقدوره التنبؤ بأحداث الأيام القليلة الماضية. ومع ذلك، لم تكن هواجسه مظلمة كما قد تبدو، إذا تخيلها على ضوء ما حدث لاحقًا. ففي ظل مستقبل مضطرب، مستقبل مجهول وغامض، يصبح الأمل سذاجة. كانت المذبحة الرهيبة، التي استمرت أيامًا وليالي، وتركت في غضون بضع دورات من الساعة علامة كبيرة من الدم على وقت الحصاد المبارك، بعيدة عن معرفته، كأنها على بُعد مائة ألف عام. أما «الأنثى الحادة المولودة حديثًا التي تُسمى المقصلة»، فبالكاد ما كان اسمها معروفًا له، أو لعامة الناس، والأفعال المروعة التي كان من المقرر أن تحدث قريبًا، ربما لم تكن مُتخيلة حينذاك في أذهان فاعليها. كيف يمكن لها أن توجد وسط مفاهيم غامضة لعقلٍ دميٍّ؟

كان يتنبأ باحتمالية أو يقين تعرضه لمعاملة غير عادلة في الاحتجاز، فضلًا عن المشقة، والانفصال القاسي عن زوجته وطفله، لكنه لم يكن يخشى شيئًا واضحًا أبعد من ذلك. وصل إلى سجن لا فورس وهذا في ذهنه، وهو ما كان كافيًا لحمله إلى فناء السجن الكئيب.

فتح رجل ذو وجه منتفخ الباب القوي، وقَدَّم له ديفارج «المهاجر إيفريموند».

«يا للشيطان! كم عددهم!»، صاح الرجل ذو الوجه المنتفخ.
أخذ ديفارج إيصال الاستلام دون أن يهتم بالتعجب الذي أبداه
السجان، وانسحب مع زميله الوطنيين.
«يا للشيطان، أقولها ثانية!» صاح السجان، وغادر مع زوجته، «كم
عددهم!».

لم تجد زوجة السجان إجابة عن سؤاله، فاكثفت بأن تقول: «على
المرء أن يتحلى بالصبر، يا عزيزي!». دخل ثلاثة سجانين استجابة
لجرس دقته، ورددوا المشاعر نفسها، ثم أضاف أحدهم: «من أجل
حب الحرية»؛ وهو الشعار الذي بدا في ذلك المكان كأنه خاتمة غير
مناسبة.

كان سجن لا فورس سجنًا كثيبًا، مظلمًا وقذرًا، تفوح منه رائحة
النوم الكريه الفظيعة. ومن العجيب سرعة تجلي نكهة النوم المسجون
المزعجة في كل هذه الأماكن التي لا تحظى برعاية جيدة!
«سري للغاية، أيضًا»، تذمر السجان، وهو ينظر إلى الورقة المكتوبة،
«كأن المكان ليس ممتلئًا بالفعل إلى حد الانفجار!».

لصق الورقة على ملف، وكان مزاجه سيئًا. انتظر تشارلز دارني متعته
الإضافية لمدة نصف ساعة: يسير أحيانًا جيئةً وذهابًا في الغرفة القوية
ذات الأقواس؛ ويستريح أحيانًا على مقعد حجري؛ وفي الحالتين،

يحدق إليه رئيس السجانة ومروؤسيه حتى تنطبع صورته في ذاكرتهم.
وأخيراً، قال الرئيس وهو يحمل مفاتيحه: «تعال! تعال معي أيها
المهاجر».

خلال ظلمة السجن الكئيب، رافقه مسؤوله الجديد عبر الممر
والسلم؛ وكانت العديد من الأبواب تصطك وتُغلق خلفهما، إلى أن
وصلا إلى غرفة كبيرة منخفضة مقببة، تزدهم بسجناء من الجنسين.
جلست النساء على طاولة طويلة: يقرآن ويكتبن، ويحكّن، ويخيطن،
ويطرزن، ووقف معظم الرجال خلف كراسيهم، أو يتسكعون جيئة
وذهاباً في الغرفة.

ابتعد الوافد الجديد عن هذه الصُّحبة؛ إذ ربط على نحوٍ غريزي بين
السجناء والجرائم المخزية والعار. لكن ذروة غرابة رحلته الطويلة غير
الواقعية تجلّت في قيامهم جميعاً في الحال لاستقباله، بكل رُقي السلوك
المعروف في ذلك الوقت، وبكل لطف الحياة ومجاملاتها.

على أن هذه الكياسة كانت ضبابية بغرابة، بسبب الظلمة التي تخيم
على السجن، بحيث أصبحت شبحية إلى أبعد الحدود وسط القذارة
والبؤس غير اللائقين التي شوهدت من خلالهما، حتى إن تشارلز دارني
بدا كأنه يقف بصحبة الموتى. كانوا جميعاً أشباحاً! شبح الجمال،
شبح الفخامة، شبح الأناقة، شبح الكبرياء، شبح الرعونة، شبح الذكاء،
شبح الشباب، شبح الشيخوخة، ينتظرون جميعاً تسريحهم من الشاطئ
المقفر، وإليه يديرون جميعاً أعينهم التي تغيرت بموتهم عند مجيئهم
إلى هنا.

أصابه ذهولٌ شلَّ حركته، أما السجنان الذي يقف إلى جانبه، والسجانة الآخرون الذين يتحركون في المكان - وكان يمكن أن يبدو مظهرهم على ما يرام من حيث ممارسة وظائفهم العادية - فقد بدوا في غاية الفظاظة المفرطة، في مقابل الأمهات الحزينات والبنات المزهريات اللاتي كن هناك؛ مع أشباح المرأة المغربية، والمرأة الجميلة الشابة، والمرأة الناضجة مرفَّهة النشأة، بحيث كان انعكاس كل التجارب والاحتمالات، التي قدمها مشهد الظلال، مبالغاً فيه إلى أقصى حد؛ بالتأكيد، الجميع أشباح. وبالتأكيد، كانت الرحلة الطويلة غير الواقعية سبباً في تقدم المرض الذي أوصله إلى هذه الظلال القاتمة! تقدّم رجل يتمتع بمظهرٍ مهذبٍ ولباقةٍ في الحديث، قائلاً: «باسم الرفاق الذين تجمعهم هذه المحنة، يشرفني أن أرحب بك في لا فورس، وأن أواسيك في الكارثة التي جلبتك بيننا، وأتمنى أن تنتهي هذه المحنة قريباً بفرح! سيكون من الوقاحة في مكان آخر، لكن الأمر هنا ليس كذلك، أن أسأل عن اسمك وحالتك؟».

نهض تشارلز دارني، وقدم المعلومات المطلوبة بكلماتٍ مناسبة قدر استطاعته.

ثم قال الرجل، متتبّعاً بعينه رئيس السجنان، الذي يتحرك عبر الغرفة: لكنني آمل أنك لست تحت بند «سري للغاية»؟.

«أنا لا أفهم معنى المصطلح، لكنني سمعتهم يقولون ذلك».

«آه، يا لها من مأساة! نحن نأسف لذلك كثيراً! لكن عليك أن تتحلّى بالشجاعة؛ فقد كان العديد من أفراد جماعتنا تحت بند «سري

للغاية»، في البداية، على أن الأمر لم يستمر إلا فترة قصيرة». ثم أضاف رافعاً صوته: «يحزنني إبلاغ المجموعة... «سري للغاية»».

سرت همهمة من الإشفاق عندما مرّ تشارلز دارني عبر الغرفة إلى باب شبكي، حيث ينتظره السجنان، وكانت العديد من الأصوات -وضحت بينها أصوات النساء الرقيقة الرحيمة- تبعث إليه بالتمنيات الطيبة والتشجيع. استدار عند الباب الشبكي، ليشكرهم من قلبه. أُغلق الباب تحت يد السجنان؛ واختفت الأشباح عن بصره إلى الأبد.

انفتح باب صغير على سلم حجري يؤدي إلى أعلى، وبعد أن صعدا أربعين درجة (أحصاها بالفعل السجين الذي مضى على قدومه نصف ساعة)، فتح السجنان باباً أسود منخفضاً، دخلا منه إلى زنزانة انفرادية؛ كانت باردة ورطبة، لكنها لم تكن مظلمة.

«زنزانتك»، قال السجنان.

«لماذا أنا في حبس انفرادي؟».

«كيف لي أن أعرف!».

«هل يمكنني شراء قلم، وحبر، وأوراق؟».

«لم أتلّق مثل هذه الأوامر. سوف تأتيك زيارة، وعندئذٍ يمكنك أن تسأل، أما في الوقت الحاضر، يمكنك شراء طعامك، ولا شيء أكثر من ذلك».

احتوت الزنزانة على كرسي، وطاولة، وفراش من القش. وبينما كان السجنان يفحص بشكل عام هذه الأشياء والجدران الأربعة قبل أن

يخرج، طاف خيال هائم في ذهن السجين المتكئ على الحائط المقابل له، أن هذا السجن كان منتفخاً بشكل غير صحي، وجهه وجسمه، بحيث يبدو كأنه غرق وامتلأ بالماء. وعندما ذهب السجن، أخذ يفكر بالطريقة الهائلة نفسها: «الآن تُركتُ، كأنني ميت». وعندئذٍ توقف لينظر إلى الفراش، ثم أشاح بصره عنه وهو يشعر باشمئزاز؛ وفكر: «وهنا، في هذه المخلوقات الزاحفة، أول حالة للجسم بعد الموت».

«خمس خطوات في أربع خطوات ونصف، خمس خطوات في أربع خطوات ونصف، خمس خطوات في أربع خطوات ونصف». سار السجن ذهاباً وإياباً في زنزانه بحسب قياساتها؛ وارتفع هدير المدينة مثل الطبول المكتومة، مُضافاً إليها موجة عارمة من الأصوات. «صنع أحذية، صنع أحذية، صنع أحذية». حسب السجن القياسات ثانية، وسار بخطى أسرع، ليستجمع ذهنه بعيداً عن تلك العبارة الأخيرة المكررة. «الأشباح التي اختفت بعد إغلاق الباب الصغير، كان بينها مظهر سيدة متشحة بالسواد، تتكئ على فتحة نافذة، وهناك ضوء يسطع على شعرها الذهبي، وبدت مثل **** دعنا نركب أحصنتنا مرة أخرى، في سبيل الله، عبر القرى المضئئة والناس جميعاً مستيقظين! **** صنع أحذية، صنع أحذية، صنع أحذية. **** خمس خطوات في أربع خطوات ونصف». وبهذه العبارات المتقطعة، التي تتقاذف وتندرج إلى أعلى من أعماق عقله، سار السجن أسرع وأسرع، واستمر يحسب ويحسب بعنادٍ، وتغير هدير المدينة كثيراً؛ فما زال يدوي كالطبول المكتومة، وإنما مع عويل الأصوات التي عرفها، في الصخب الذي ارتفع فوقهم.

الفصل الثاني

حجر الشحذ

كان بنك تيلسون، الذي تأسس في حي سان جيرمان في باريس، يقع في جناح منزل كبير، يوجد بالقرب منه فناء، ويفصله من الشارع جدارٌ عالٍ وبوابة قوية. وكان المنزل ملكًا لأحد النبلاء العظماء وعاش فيه إلى أن هرب من الاضطرابات، مرتديًا زي طباخه الخاص، وعبر الحدود. لم يكن سوى وحش يهرب من مطاردة الصيادين، ومع ذلك لم يكن في تقمصه يختلف عن صاحب السيادة نفسه، الذي انشغل ذات يوم ثلاثة رجال أقوياء، إلى جانب الطباخ المعني، في إعداد وتقديم شراب الشوكولاتة إلى شفتيه.

رحل صاحب السيادة، وبراً الرجال الأقوياء الثلاثة أنفسهم من خطيئة الحصول على أجره المرتفع، وذلك بقولهم إنهم على أتم الاستعداد والرغبة في قطع رقبته على مذبح فجر الجمهورية الناشئة، التي لا تتجزأ، جمهورية الحرية والمساواة والأخوة، أو الموت. حُجز منزل صاحب السيادة بداية، ثم صودر. ونظرًا إلى أن كل الأشياء تحركت بسرعة كبيرة، وصدر مرسوم تلو مرسوم بسرعة عنيفة، فقد استولى مبعوثو القانون الوطنيون، في الليلة الثالثة من شهر سبتمبر

الخريفي، على منزل صاحب السيادة، وميزوه بالألوان الثلاثة، وكانوا يشربون البراندي في عُرفه الحكومية.

إن أي مؤسسة مالية في لندن تجد نفسها في مثل الظروف التي تحيط ببنك تيلسون في باريس، لسرعان ما يدفعها ذلك إلى تصفية أعمالها وإشهار إفلاسها في الجريدة الرسمية. فماذا كان يمكن أن تقوله رصانة المسؤولية والاحترام البريطانيين عن وجود أشجار البرتقال داخل صناديق في فناء بنك، أو حتى عن وجود تمثال لكيوبيد على طاولة المحاسب؟ على أن مثل هذه الأشياء كانت موجودة. كانت إدارة بنك تيلسون قد قامت بطلاء تمثال كيوبيد بالجير الأبيض، لكن رؤيته لا تزال ممكنة على السقف، في أروع ما يكون من الكتان، مُحدَقًا (كما يفعل كثيرًا) إلى المال من الصباح إلى المساء. لا بد أن الإفلاس قد حل حتمًا بسبب هذا الوثني الشاب، في شارع لومبارد، لندن، وأيضًا بسبب فجوة مكسوة بالستائر خلف الصبي الخالد، وكذا بسبب مرآة داخل الحائط، وكذلك بسبب موظفين ليسوا من كبار السن على الإطلاق، ممن رقصوا في الأماكن العامة عند أدنى استفزاز. ومع ذلك، في مقدور بنك تيلسون الفرنسي أن يتعامل مع هذه الأشياء بشكل جيد للغاية؛ وما دامت الظروف متماسكة، لم يخش أي شخص منها ولم يسحب أمواله.

أما عن الأموال التي سوف تُسحب من بنك تيلسون من الآن فصاعدًا، وماذا سيبقى هناك، ضائعًا ومنسيًا؛ وعن الأواني والجواهر التي سينالها التشوه في مخابئ تيلسون، بينما يصدأ المودعون في السجون، وقد يلقون حتفهم بعنف؛ وعن عدد الحسابات لدى تيلسون

التي لن تُسوى أبدًا في هذا العالم، ويجب ترحيلها إلى العالم الآخر؛ فلم يكن في إمكان أي رجل أن يقول، في تلك الليلة، أكثر مما يمكن أن يقوله السيد جارفيس لوري، على الرغم من أنه فكر مليًا في هذه الأسئلة. جلس بجانب نار موقدة حديثًا من خشب (حَلَّت البرودة في السنة الفاسدة العقيمة قبل الأوان)، وظهر على وجهه الصادق الشجاع ظل أعمق مما يمكن أن يلقيه المصباح المعلق، أو يعكسه بشكل مشوه أي شيء في الغرفة... ظلال تنم عن الرعب.

كان يشغل غرفًا في البنك، إخلاصًا للمؤسسة الذي أصبح جزءًا منها، مثل نبات اللبلاب قوي الجذور. ومن قبيل المصادفة أنهم استمدوا نوعًا من الأمان من احتلال الوطنيين للمبنى الرئيسي، لكن الرجل العجوز الصادق لم يحسب حساب ذلك قط؛ فلم يكن مباليًا بهذه الظروف، لأنه يقوم بواجبه. وعلى الجانب الآخر من الفناء، تحت صف من الأعمدة، يوجد موقف واسع للعربات، حيث لا تزال بعض عربات صاحب السيادة تقف بالفعل. وعُلّق مشعلان كبيران متوهجان على عمودين، وفي ضوئهما برز حجر شحذ كبير في الهواء الطلق: شيء مُثَبَّت دون اتقان، ويبدو أنه نُقل على عجل من دكان حداد مجاور، أو أي ورشة أخرى. نهض السيد لوري ونظر من النافذة إلى هذه الأشياء غير المؤذية، وارتجف، ثم عاد إلى مقعده بجوار النار. لم يكتف بفتح النافذة الزجاجية، وفتح أيضًا الستارة الشبكية خارجها، ثم أغلقهما مرة أخرى مرتجفًا، من خلال إطاره.

من الشوارع التي تقع خلف السور العالي والبوابة القوية، أتت مهمة الليل المألوفة للمدينة، مع رنين يصعب وصفه بين الحين

والآخر، رنين غريب وغير مألوف، كأن أصوات غير معتادة وذات طبيعة رهيبة تصعد إلى السماء.

قال السيد لوري وهو يشبك يديه: «حمدًا لله، لا يوجد أحد قريب وعزيز عليّ في هذه المدينة المروعة هذه الليلة، ليرحم الله جميع المعرضين للخطر!».

وبعد فترة وجيزة، دق جرس البوابة الكبير، ففكر قائلاً: «لقد عادوا!»، وجلس يستمع، لكن الفناء لم يشهد أي اقتحام صاحب، كما توقع؛ ثم سمع صوت إغلاق البوابة ثانية، وساد الهدوء على كل شيء.

أثارت حالة العصبية والرغبة التي سيطرت عليه ذلك الشعور بالقلق الغامض فيما يتعلق بالبنك، وهو الشعور الذي من الطبيعي أن يوقظه أي تغيير كبير، في ظل إثارة مثل هذه المشاعر. كان المكان تحت حراسة جيدة، فنهض ليذهب إلى الأشخاص الجديرين بالثقة، الذين كانوا يشاهدونه. وهنا انفتح بابه فجأة، واندفع شخصان إلى الداخل، فارتد إلى الخلف في اندهاش عند رؤيتهما.

لوسي ووالدها! لوسي وذراعاها ممتدتان إليه، وب نظرة الجدية القديمة المركزة والمكثفة، بحيث بدا كأنها انطبعت على وجهها صراحة لتمنحها القوة والعزيمة في هذه المرحلة من حياتها.

صاح السيد لوري، لاهثًا ومرتبكًا: «ما هذا؟ ما الأمر؟ لوسي! مانيت! ماذا حدث؟ ماذا أتى بكما إلى هنا؟ ما هذا؟».

مع نظرتها المثبتة عليه، في شحوبها واضطرابها، قالت وهي تلهث بين ذراعيه، متوسلة: «آه، يا صديقي العزيز! زوجي!».

«زوجك، يا لوسي؟».

«تشارلز».

«ماذا عن تشارلز؟».

«هنا».

«هنا، في باريس؟».

«إنه هنا منذ عدة أيام؛ ثلاثة أو أربعة أيام، لا أعرف كم يومًا، لا يمكنني أن أستجمع أفكاري. لقد جاء إلى هنا لإنجاز مهمة تتسم بالشهامة، لكننا لا نعرفها. أوقفوه عند الحاجز، وأرسلوا به إلى السجن».

أطلق الرجل العجوز صرخة لم يتمكن من كبثها. وفي اللحظة نفسها تقريبًا، دق جرس البوابة الكبيرة مرة أخرى، وتدفق ضجيج عالٍ من الأقدام والأصوات إلى الفناء.

«ما هذا الضجيج؟»، سأل الطبيب وهو يستدير نحو النافذة.

صاح السيد لوري: «لا تنظر! لا تنظر إلى الخارج! يا مانيت، حرصًا على حياتك، لا تلمس الستائر!».

استدار الطبيب واضعًا يده على قفل النافذة، وقال بابتسامة باردة جريئة:

«يا صديقي العزيز، لقد عشت حياة ساحرة في هذه المدينة. كنت سجينًا في الباستيل. بمجرد أن يعرف أي وطني في باريس، باريس؟»

بل في فرنسا، أنني كنت سجيناً في الباستيل، إلا ويلمسني كي يغمرني بالعناق، أو يحملني منتصراً. لقد منحني ألبي القديم قوة عبرت بنا الحاجز، وأكسبتنا أخباراً عن تشارلز هناك، وأوصلتنا إلى هنا. عرفت أن الوضع سيكون على هذا النحو. وكنت أعرف أن في إمكاني مساعدة تشارلز من كل خطر. أخبرت لوسي بذلك... ما هذا الضجيج؟ وضع يده ثانية على النافذة.

صاح السيد لوري، يائساً تماماً: «لا تنظر! لا، يا لوسي، عزيزتي، ولا أنت أيضاً!». أحاطها بذراعه وضمها. «لا تخافي يا حبيبتي، أقسم لك بصدق إنني لا أعرف أي ضرر حدث لتشارلز، لم يكن لدي أي شك حتى في وجوده في هذا المكان المميت. في أي سجن هو؟». «لا فورس!».

«لا فورس! لوسي، يا طفلي، إذا كنت شجاعة وخدمت في حياتك -وكنت دائماً شجاعة وخدمة- فعليك تهيئة نفسك الآن، لتفعلي بالضبط ما أطلبه منك؛ لأن الأمر يعتمد على ذلك أكثر مما تتصورين، أو ما يمكنني قوله. لا توجد أي مساعدة يمكنك تقديمها لعمل أي إجراء الليلة؛ لا يمكنك الخروج من هنا على الإطلاق. أقول هذا، لأن ما أدعوك إلى القيام به من أجل تشارلز، هو أصعب شيء يمكن القيام به على الإطلاق. يجب أن تكوني مطيعة، وساكنة، وهادئة على الفور؛ وأن تسمح لي أن أضعك في غرفة خلفية هنا. يجب أن تتركينا، أنا ووالدك، وحدنا لمدة دقيقتين؛ وبما أن هناك حياة وموت في العالم، يجب عليك تنفيذ ذلك دون إبطاء».

«سوف أطيعك، أرى في وجهك أنك تعرف أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر غير هذا. أعرف أنك صادق».

قَبَّلَهَا العجوز وأسرع بها إلى غرفته، وأدار المفتاح. ثم عاد مسرعاً إلى الطبيب، وفتح النافذة، كما فتح الستارة جزئياً. وضع يده على ذراع الطبيب، ونظرا معاً إلى الفناء.

شاهدا حشدًا من الرجال والنساء: لم يكن عددهم كافيًا، أو قريبًا بما يكفي، لملء الفناء: لا يزيد مجموع عددهم على أربعين أو خمسين. كان مُلاك المنزل قد سمحوا لهم بالدخول من البوابة، فأسرعوا للعمل عند حجر الشحذ؛ الذي يبدو بوضوح أنه أُقيم هناك لأغراضهم، كموقع مناسب ومنعزل.

لكن، يا لهم من عمالة فظيعة، ويا له من عمل فظيع!

كان حجر الشحذ مُزود بمقبض مزدوج، ويديره بجنون رجلان. وبينما كان شعرهما الطويل يرفرف إلى الخلف، كلما رفعت دورات حجر الشحذ وجهيهما، ظهر الوجهان أكثر فظاعة وقسوة من وجوه أكثر المتوحشين شراسة في أكثر أشكال التنكر بربرية. كانت تلتصق بوجهيهما حواجب زائفة وشوارب زائفة، وكان وجهاهما البشعان دامين ويتصببان عرقًا، وفي حالة من الفوضى والولولة، ويحدقان ويلمعان بإثارة وحشية ورغبة في النوم. وبينما كان هذان الشريران يديران ويديران حجر الشحذ، أخذت خصلات شعرهما المتلبدة تتدلَّى حينًا إلى الأمام فوق عينيهما، وحينًا إلى الخلف فوق عنقيهما، وحملت بعض النساء النبيذ إلى أفواههن حتى يشربن. ومع الدماء المتساقطة،

وقطرات النبيذ المتساقطة، وسيل الشرارات المنبعث من الحجر، بدا كل محيطهم الشرير دمًا ونازًا. لم يكن في وسع العين أن تكتشف مخلوقًا واحدًا في المجموعة خاليًا من لطفة الدم. كان الرجال يشقون طريقهم متدافعين للوصول إلى حجر الشحذ؛ رجال عراة حتى الخصر، وبقع الدم تغطي جميع أنحاء أطرافهم وأجسادهم؛ رجال يرتدون جميع أنواع الخرق البالية، وبقع الدم تغطي تلك الخرق؛ رجال ينطلقون بشكلٍ شيطاني بغنائم من الدانتيل والحريير والشرائط النسائية، وبقع الدم تصبغ تمامًا تلك الأشياء التافهة. الفؤوس والسكاكين والحرايب والسيوف، التي جلبوها لشحذها، اصطبغت جميعها بلون الدم. رُبِطت بعض السيوف المقطوعة بمعاصم من يحملونها بشرائط من الكتان وقطع من الملابس: أربطة من أنواع مختلفة، لكنها تصطبغ بلونٍ واحدٍ قاتم. وعندما ينتزع هؤلاء المهتاجون أسلحتهم من تيار الشرر وينطلقون بها في الشوارع، كان اللون الأحمر نفسه يبدو في أعينهم المسعورة؛ أعين كان أي ناظر غير وحشي على استعدادٍ للتضحية بعشرين عامًا من حياته، ليحوّلها إلى حجرٍ بمسدسٍ جيد التوجيه.

شُوهد هذا كله في لحظة؛ مثلما يمكن لرجل يغرق، أو أي مخلوق بشري في منعطف خطير، أن يرى عالمًا إذا كان موجودًا هناك. ابتعدا عن النافذة، وتطلع الطبيب إلى صديقه، باحثًا عن تفسير في وجه صديقه الشاحب.

«إنهم...»، همس السيد لوري، وهو ينظر بخوفٍ إلى الغرفة المغلقة: «إنهم يقتلون السجناء. فإذا كنت على يقين مما تقوله؛ إذا كنت تمتلك حقًا القوة التي تعتقد أنك تمتلكها - والتي أعتقد أنك تمتلكها -

عليك تعريف نفسك لهؤلاء الشياطين، وتوجه إلى لا فورس. ربما فات الأوان، لا أعرف، لكنك يجب ألا تتأخر دقيقة واحدة!».

ضغط الدكتور مانيت على يده، وأسرع حاسر الرأس خارج الغرفة، وعندما وصل إلى الفناء، كان السيد لوري قد أعاد فتح الستارة.

شعره الأبيض المتدفق، ووجهه المميز، والثقة المتهورة في أسلوبه وهو يضع الأسلحة جانباً مثل الماء، حمله في لحظة إلى قلب الحشد عند الحجر. ساد الصمت لحظات، ثم عجلة، وهمهمة، ونبرة غير مفهومة من صوته، وراه السيد لوري، محاطاً بالجميع في وسط صفٍّ من عشرين رجلاً، متراسين كتفًا بكتف ويدًا بكتف، ويسرعون صارخين: «يعيش سجين الباستيل! النجدة لقريب سجين الباستيل في لا فورس! فلنفسح المكان لسجين الباستيل في المقدمة! أنقذوا السجين إيفريموند في لا فورس!»، وتتردد ألف صيحة مستجيبة.

أغلق الشبكة مرة أخرى بقلبٍ يخفق، ثم أغلق النافذة والستارة وأسرع إلى لوسي، وأخبرها أن الناس ساعدوا والدها وذهبوا بحثًا عن زوجها. وجد معها طفلتها والآنسة بروس، لم يخطر بباله قطُّ أن يفاجأ بمظهرهن إلا بعد وقت طويل، عندما جلس يراقبهن في الهدوء الذي يعرفه الليل. في ذلك الوقت، سقطت لوسي في ذهول على الأرض عند قدميه، متشبثةً بيده. كانت الآنسة بروس قد وضعت الطفلة على سريرها، وسقط رأسها تدريجيًا على الوسادة بجانب وديعتها الجميلة. يا لهذه الليلة الطويلة الطويلة، مع أنين الزوجة المسكينة! وبألهذه الليلة الطويلة الطويلة، مع عدم عودة والدها وعدم وصول أي أنباء!

دق جرس البوابة الكبيرة مرتين آخرين في الظلام، وتكرر الاقتحام،
ودار حجر الشحذ بصخبٍ. «ما هذا؟»، صرخت لوسي خائفة. قال
السيد لوري: «صمتًا! تُشحذ هناك سيوف الجنود. المكان الآن ملكية
وطنية، ويُستخدَم كمستودع أسلحة، يا حبيبتى».

دق الجرس مرتين آخرين إجمالًا، لكن نوبة العمل الأخيرة كانت
ضعيفة ومتقطعة. بعد وقت قصير بدأ فجر اليوم، فصل السيد لوري
نفسه بهدوء عن اليد المتشبثة، وأطل بحذرٍ مرة أخرى. كان رجلًا
ملطخًا الدماء، إلى حد أنه ربما جندي مصاب بجروح بالغة، يتسلل إليه
وعيه في حقل من القتلى، ينهض من الرصيف بجانب حجر الشحذ،
وينظر حوله إلى الفراغ. وبعد فترة وجيزة، لمح هذا القاتل المُنهَك
إحدى عربات صاحب السيادة في هذا الضوء الضئيل، فسار مترنحًا إلى
تلك العربة الرائعة، وصعد إلى بابها، ثم دخل وأغلق الباب عليه ليأخذ
قسطًا من الراحة على وسائدها الأنيقة.

كان حجر الشحذ الكبير، كوكب الأرض، قد دار عندما نظر السيد
لوري ثانية، وكانت الشمس حمراء فوق الفناء، لكن حجر الشحذ
الأصغر وقف وحده هناك في هواء الصباح الهادئ، وقد اكتسى باحمرار
لم تمنحه له الشمس قَطُّ، ولن تسلبه إياه أبدًا.

الفصل الثالث

الظل

كان أحد أول الاعتبارات التي طرأت على ذهن السيد لوري التجاري، عندما حانت ساعات العمل، هو: أنه ليس من حقه تعريض بنك تيلسون للخطر، من خلال إيواء زوجة سجين مهاجر تحت سقف البنك. كان مستعداً للمخاطرة بممتلكاته الخاصة، وسلامته، وحياته من أجل لوسي وطفلتها، دون لحظة تردد، لكن العُهدَة الكبيرة التي عُهد إليه بها لم تكن ملكه؛ وفيما يتعلق بتلك المهمة التجارية، فقد كان رجل أعمال يتسم بالصرامة.

اتجه ذهنه في البداية إلى ديفارج، وفكر في البحث عن متجر النبيذ مرة أخرى والتشاور مع صاحب المتجر، فيما يتعلق بأكثر المساكن أماناً في هذه المدينة التي أصابها التشتت. لكنه عاد ونبذ الاعتبار نفسه الذي طرأ إلى ذهنه؛ ذلك أن ديفارج يعيش في أكثر الأحياء عنفاً، ولا شك أنه يتمتع بنفوذٍ هناك، وينخرط بعمقٍ في أعماله الخطرة.

حان وقت الظهر ولم يُعد الطبيب، وكل دقيقة تأخير تميل إلى تعريض البنك للخطر؛ لذا تشاور السيد لوري مع لوسي. قالت إن والدها تحدث عن استئجار مسكن لفترة قصيرة، في ذلك الحي الذي يقع

بالقرب من مبنى البنك. ونظرًا إلى عدم تعارض هذه الفكرة مع العمل التجاري، وبما أنه يتوقع أنه حتى لو سار كل شيء على ما يرام مع تشارلز وأطلق سراحه، فلن يأمل في مغادرة المدينة، فقد خرج السيد لوري بحثًا عن مثل هذا المسكن، ووجد بالفعل مكانًا مناسبًا يقع في موقع مرتفع في شارع فرعي منعزل، حيث كانت الستائر المغلقة في جميع النوافذ الأخرى في ساحة حزينة مرتفعة من المباني تشير إلى منازل مهجورة.

وعلى الفور نقل لوسي وطفلتها والأنسة بروس إلى هذا المسكن؛ ومنحهن ما استطاع من سُبُل الراحة، وأكثر بكثير مما لديه هو نفسه. وترك جيرى معهن؛ لأنه ضخم بما يكفي لسد مدخل، كما يمكنه أن يتحمّل الضرب الشديد على رأسه، ثم عاد إلى مشاغله، ظل ذهنه مضطرب وحزين عليهن، ومر اليوم معه بطيئًا ومتناقلًا.

لقد أنهك ذهنه وأنهك نفسه، حتى أغلق البنك أبوابه، أصبح وحيدًا مرة أخرى في غرفته التي أمضى فيها الليلة السابقة، وأخذ يفكر فيما يجب القيام به بعد ذلك، عندما سمع وقع أقدام على السلم. وما هي إلا لحظات حتى وقف أمامه رجل، ونظر إليه نظرة ثابتة، ثم خاطبه باسمه. قال السيد لوري: «تحت أمرك، هل تعرفني؟».

كان رجلًا قوي البنية، شعره مجعد داكن، يتراوح عمره من خمسة وأربعين إلى خمسين عامًا.

ودون أي تغيير في التأكيد، أجاب مُكرّرًا العبارة:

«هل تعرفني؟».

«لقد رأيتك في مكان ما».

«ربما في متجرني للنبيذ؟».

قال السيد لوري، باهتمام وانفعال شديدين: «أنت قادم من عند دكتور مانيت؟».

«نعم. أنا قادم من عند دكتور مانيت».

«وماذا يقول هو؟ ماذا يرسل إليَّ؟».

وضع ديفارج في يده القلقة قصاصة ورق مفتوحة. كانت تحمل كلماتٍ بخط الطبيب:

«تشارلز آمن، لكنني لا أستطيع حتى الآن مغادرة هذا المكان بأمان. لقد مُنِحتَ معروفًا، إن حامل هذه الورقة لديه رسالة قصيرة من تشارلز إلى زوجته. دع حاملها يرى زوجته».

كان مكتوبًا على الورقة: سجن لا فورس، منذ ساعة.

قال السيد لوري، بارتياحٍ وفرحٍ بعد قراءة هذه المذكرة بصوتٍ عالٍ: «هل سترافقني إلى حيث تقيم زوجته؟».

أجاب ديفارج: «نعم».

لم يلحظ السيد لوري بعد الطريقة المتحفظة والميكانيكية الغريبة التي تحدث بها ديفارج. ارتدى قبعته ونزلا إلى الفناء، وهناك وجدا امرأتين؛ إحداهما منشغلة في الحياكة.

«السيدة ديفارج، بالتأكيد!»، قال السيد لوري، الذي تركها في الحالة نفسها بالضبط منذ نحو سبعة عشر عامًا.

«إنها هي»، قال زوجها.

«هل تذهب السيدة معنا؟»، سأل السيد لوري، عندما رأى أنها تتحرك مع تحركهما.

«نعم، لكي تتمكن من التعرف على الوجوه ومعرفة الأشخاص، هذا من أجل سلامتهن».

بدأ السيد لوري يندesh من أسلوب ديفارج، ونظر إليه بريبة، ثم قاد الطريق. تبعتهما المرأتين. كانت الثانية هي المرأة المنتقمة.

اجتازوا الشوارع المتداخلة بأسرع ما يمكن، وصعدوا سلم المنزل الجديد. أدخلهم جيرى، ووجدوا لوسي وحدها تبكي. استبشرت من الأخبار التي نقلها إليها السيد لوري عن زوجها، وأمسكت باليد التي سلّمها رسالته؛ دون أن تفكر كثيرًا فيما كانت تفعله تلك اليد بالقرب منه في الليل، وربما، لولا المصادفة، ماذا كان يمكن أن تفعله.

«عزيزتي، تشجعي.. أنا بخير، ولوالدك نفوذ حولي. لا يمكنك الإجابة عن رسالتي. قبّلي طفلتنا من أجلي».

هذا كل ما كتبه. ومع ذلك، كان كثيرًا بالنسبة إليها هي التي تلقّتها، إلى حد أنها تحوّلت من ديفارج إلى زوجته، وقبّلت إحدى اليدين المنهمكتين في الحياكة. كان تصرفًا عاطفيًا، ومحبًا، وشاكرًا، وأنثويًا؛ لكن اليد لم تستجِب، بل كانت باردة وثقيلة، وواصلت حياكتها مرة أخرى.

كان هناك شيء في لمستها ما جعل لوسي تتراجع. توقفت عن وضع الرسالة في حضنها، ونظرت برعبٍ -ويدها لا تزال على رقبتها- إلى السيدة ديفارج. قابلت السيدة ديفارج الحاجبين والجهة المرفوعين بنظرة باردة جامدة.

تدخل السيد لوري ليوضح الأمر: «عزيزتي، هناك احتجاجات متكررة في الشوارع. ورغم أنه من غير المرجح أن تزعجك تلك الاحتجاجات، ترغب السيدة ديفارج في رؤية من لديها القدرة على حمايتهم في مثل هذه الأوقات، حتى يمكنها معرفتهم... حتى يمكنها التعرف عليهم. وأعتقد...»، توقفت كلمات السيد لوري المطمئنة تلك، حيث أثر فيه كثيرًا سلوك الثلاثة الحجري، «أعتقد أنني أوضحت الأمر، أيها المواطن ديفارج؟».

نظر ديفارج بكآبة إلى زوجته، ولم يُجِب سوى صوت أجش يدل على الموافقة.

قال السيد لوري، وهو يبذل قصارى جهده من تملق، بلهجته وأسلوبه: «من الأفضل، يا لوسي، أن تأتي بطفلتنا العزيزة إلى هنا، وكذا الآنسة الطيبة بروس. الآنسة بروس الطيبة، يا ديفارج، هي سيدة إنجليزية، ولا تعرف الفرنسية».

السيدة المعنية، التي كانت على اقتناع راسخ بأنها أكثر من نداء لأي أجنبي، لم تكن لتهتز بسبب محنة أو خطر، وظهرت بأذرع مطوية، ووقعت عينها بداية على المرأة المنتقمة، وقالت لها بالإنجليزية:

«حسنًا، أنا بالتأكيد سليطة اللسان! أتمنى أن تكوني بخير!»، ومنحت السيدة ديفارج سعالًا بريطانيًا، لكنَّ المرأتين لم تعبراها أي اهتمام.

«هل هذه طفلة؟»، سألت السيدة ديفارج، متوقفة عن عملها لأول مرة، وتشير بإبرة الحياكة - كأنها إصبع القدر - إلى لوسي الصغيرة.

أجاب السيد لوري: «نعم، سيدتي، هذه هي ابنة سجيننا المسكينة الحبيبة، وطفلة الوحيدة».

بدا الظل المرافق للسيدة ديفارج ومن معها يقع على الطفلة مُهدِّدًا وقاتمًا، إلى درجة أن والدتها ركعت غريزيًا على الأرض بجانبها، وضممتها إلى صدرها. وبدأ الظل المرافق للسيدة ديفارج ومن معها يقع على الأم والطفلة معًا، مُهدِّدًا وقاتمًا.

قالت السيدة ديفارج: «هذا يكفي يا زوجي، لقد رأيتهم، يمكننا أن نذهب».

لكن أسلوبها المكتوم كان يحمل ما يكفي من التهديد - تهديد ليس ظاهرًا أو مُقدِّمًا، وإنما غير واضحٍ ومحجوب - لتنبه لوسي لتقول، وهي تضع يدها المستجدية على ثوب السيدة ديفارج:

«ستكونين طيبة مع زوجي المسكين. لن تؤذيه. سوف تساعدني على رؤيته إذا استطعت؟».

أجابت السيدة ديفارج، وهي تنظر إليها بهدوء تام: «زوجك ليس من شأني هنا، إن ابنة والدك هي التي تخص عملي هنا».

«من أجلي، إذن، كوني رحيمةً بزوجي. من أجل طفلي! وهي

سوف تضم يديها معاً وتتوسل إليك لتكوني رحيمة. نحن نخافك أكثر من هؤلاء الآخرين».

تلقت السيدة ديفارج تلك الكلمات باعتبارها إطراءً، ونظرت إلى زوجها. أما ديفارج، الذي كان يقضم ظفر إبهامه في اضطراب وينظر إليها، فقد ظهر على وجهه تعبير أكثر صرامة.

سألت السيدة ديفارج بابتسامة خفيفة: «ماذا يقول زوجك في تلك الرسالة الصغيرة؟» النفوذ؛ هل يقول شيئاً يمس النفوذ؟».

قالت لوسي، وهي تُخرج الورقة على عجلٍ من صدرها، وإن كان بعينين مذعورتين موجهتين نحو المرأة التي وجهت إليها السؤال وليس نحو الرسالة: قال «إن لوالدي نفوذاً كبيراً من حوله».

قالت السيدة ديفارج: «وبالتأكيد سيؤدي نفوذه إلى إطلاق سراحه! دعيه يفعل ذلك».

صرخت لوسي، بجدية شديدة: «كزوجة وأم، أناشذك أن تشفقي عليّ، ولا تمارسي أي سلطة تمتلكينها ضد زوجي البريء، بل تستخدمينها لصالحه. وأنتِ أختي بوصفك امرأة، فكري بي كزوجة وأم!».

نظرت السيدة ديفارج ببرودٍ، كمعادتها دائماً، إلى المتوسلة، والتفتت إلى صديقتها المرأة المنتقمة وقالت:

«لم نفكر كثيراً في الزوجات والأمهات اللواتي اعتدنا رؤيتهن منذ أن كنا صغاراً مثل هذه الطفلة، وأصغر منها بكثير؟ لقد عرفنا أن

أزواجهن وآباءهن أُلقي بهم في السجن وأبعدوا عنهم، لفترات طويلة في كثير من الأحيان؟ رأينا طوال حياتنا أخواتنا النساء يعانين، هن وأطفالهن، من الفقر، والعري، والجوع، والعطش، والمرض، والبؤس، والقمع، والإهمال من جميع الأنواع؟».

أجابت المرأة المنتقمة: «لم نر شيئاً آخر».

قالت السيدة ديفارج، وهي توجه عينيها مرة أخرى إلى لوسي: «لقد تحمّلنا هذا فترة طويلة. عليك أن تحكمي! هل من المحتمل أن تكون مشكلة زوجة وأم عزباء بمنزلة مشكلة كبيرة بالنسبة إلينا الآن؟».

استأنفت حياكتها وخرجت. تبعها المرأة المنتقمة، ثم خرج ديفارج وأغلق الباب.

قال السيد لوري، وهو يرفعها: «تشجعي، عزيزتي لوسي، تشجعي، تشجعي! كل شيء يسير على ما يرام معنا حتى الآن؛ أفضل كثيراً مما حدث في الآونة الأخيرة للعديد من النفوس المسكينة، ارفعي روحك المعنوية، واشكري الله من قلبك».

«لستُ ناكرة للجميل، كما آمل؛ لكن تلك المرأة المروعة تلقي بظلالها عليّ وعلى كل آمالي».

قال السيد لوري: «كفى، كفى! ما هذا اليأس في الصدر الصغير الشجاع؟ ظلال حقاً! بلا مضمون، يا لوسي».

لكن ظلال أسلوب عائلة ديفارج كانت تخيم بظلامها عليه أيضاً، وتثير داخل نفسه شعوراً بالقلق.

الفصل الرابع

هدوء في العاصفة

لم يعد دكتور مانيت إلا في صباح اليوم الرابع من غيابه، لقد أخفى الكثير من أحداث تلك الفترة المروعة، بقدر ما يمكن إخفاؤه، عن لوسي؛ وأخفاه عنها جيداً، بحيث لم تعرف إلا بعد وقتٍ طويلٍ -عندما تباعدت المسافة بينها وبين فرنسا- أن ألف ومائة سجين أعزل من الجنسين، ومن جميع الأعمار، قتلهم عامة الناس؛ وأن أربعة أيام وليالٍ قد أظلمت بسبب هذا الفعل المروع؛ وأن الهواء من حولها تلوث بالقتلى. لم تعرف سوى الهجوم على السجون، وأن جميع السجناء السياسيين كانوا في خطر، وأن الحشود جرّت بعضهم إلى الخارج وقتلوهم.

أبلغ الطبيب السيد لوري -مع توصيته بالسرية، التي لم يكن في حاجة إلى تأكيدها- أن الحشد أخذه، مروراً بمشهد مذبحه، إلى سجن لا فورس، وأنه وجد في السجن محكمة منعقدة، نصبت نفسها بنفسها؛ يحضر أمامها السجناء منفردين، وتُصدر أوامرها بسرعة: إما بذبحهم، وإما إطلاق سراحهم، وإما (في حالات قليلة) إعادتهم إلى زنازينهم، وأنه، بعد أن قاده مرافقوه إلى هذه المحكمة، وأعلن عن نفسه بالاسم والمهنة، وبأنه ظل لمدة ثمانية عشر عاماً سجيناً سرياً دون اتهام في

سجن الباستيل؛ وأن أحد أفراد المحكمة قام وتعرّف عليه، وأن هذا الرجل كان ديفارج.

وبناء على ذلك، فقد تأكد من خلال السجلات الموجودة على الطاولة، أن صهره من بين السجناء الأحياء، وناشد المحكمة بشدة -التي كان بعض أعضائها نائمين وبعضهم مستيقظاً، وبعضهم ملوثاً بالقتل، وبعضهم نظيفاً، وبعضهم متزناً، والبعض الآخر غير متزن- من أجل حياة صهره وحرّيته، وأن المحكمة، بعد التحيات المحمومة الأولى التي أغدقتها عليه باعتباره أحد المتضررين البارزين في ظل النظام المخلوع، قررت أن يمثل تشارلز دارني أمام المحكمة، غير القانونية، للنظر في حالته. وأنه ما إن بدا أنهم على وشك إطلاق سراح صهره على الفور، حتى اصطدمت الموجة التي كانت في صالحه بقيود غير مبررة (غير مفهومة للطبيب)، مما أدى إلى تداول بضع كلمات سرية بين أفراد المحكمة. وأن الرجل الذي يجلس كرئيسٍ أبلغ الدكتور مانيت بعد ذلك أن السجنين يجب أن يظل محتجزاً، لكنه -إكراماً للدكتور مانيت- سيكون آمناً، وأنه على الفور، بناء على إشارة، نُقل السجنين إلى داخل السجن مرة أخرى؛ لكنه، الطبيب، التمس بقوة الإذن بالبقاء ليطمئن إلى أن صهره لم يُسلّم -دون حقد أو سوء حظ- إلى الجمع الذي كانت صرخاته القاتلة خارج البوابة تغطي على وقائع المحكمة؛ وأنه حصل على هذا الإذن، وبقي في قاعة الدم تلك حتى زال الخطر.

أما المشاهد التي رآها هناك، مع فترات قصيرة متقطعة من فترات الطعام والنوم القليل، فسوف تظل غير مروية. أذهلته الفرحة الجنونية

للسجناء الذين نجوا من الموت، لكنها لا تكاد تقل عن ذهوله من الشراسة الجنونية ضد أولئك الذين جرى تقطيعهم إلى أشلاء. وقال إن سجيناً واحداً أطلق سراحه ليخرج إلى الشارع حرّاً، لكن أحد المتوحشين طعنه بالخطأ برمح وهو يتجه إلى الشارع. وعندما طُلب من الطبيب أن يذهب إليه ويضمّد الجرح، خرج الطبيب من البوابة نفسها، فوجده بين مجموعة من السامريين^(١)، يجلسون على جثث ضحاياهم. وبتناقضٍ وحشي، مثل أي شيء في هذا الكابوس الفظيع، ساعدوا المُعالِج، واعتنوا بالرجل الجريح وأحاطوه برعاية رقيقة -صنعوا له نقالة، وتولوا حراسته بعناية في المكان- ثم أمسكوا بأسلحتهم وغرقوا مجدداً في مذبحه مروعة للغاية، إلى درجة أن الطبيب غطى عينيه يديه، وأغمى عليه وسط هذا المشهد.

كان السيد لوري يستمع إلى هذه الأسرار، بينما يراقب وجه صديقه البالغ من العمر الآن اثنين وستين عاماً، مما أثار في داخله هاجس بأن مثل هذه التجارب المرعبة قد تُعيد إحياء الخطر القديم. لكنه لم يرَ صديقه قَطُّ في مظهره الحالي: لم يعرفه على الإطلاق في شخصيته الحالية. فالطبيب يشعر الآن، وللمرة الأولى، أن معاناته كانت قوة وقدرة. لأول مرة يشعر أنه، في وسط تلك النار المتأججة، قد تمكّن ببطء من تشكيل الحديد الذي يمكنه أن يكسر باب سجن زوج ابنته، ويُنقذه. «كل شيء يتجه نحو نهاية جيدة، يا صديقي، ليس مجرد هدر وخراب. وكما

(١) السامريون: مجموعة فاعلي الخير؛ مثل السامري الصالح في إنجيل لوقا ١٠ [٣٧-٣٠] - (الترجمة).

كانت طفلي الحبيبة مفيدة في إعادتي إلى نفسي، سأكون مفيداً الآن في استعادة أعز جزء من نفسها إليها. بمساعدة السماء سأفعل ذلك!»، وهكذا تحدث دكتور مانيت. صدّقه جارفيس لوري، عندما رأى الأعين المشتعلة، والوجه الحازم، والنظرة القوية الهادئة، وتحمل الرجل الذي بدت له حياته دائماً كأنها توقفت مثل الساعة لسنوات عديدة، ثم انطلقت مرة أخرى بطاقة كانت كامنة في أثناء توقفه عن العمل المفيد.

هناك أشياء أعظم مما كان على الطبيب أن يتصدى لها، في ذلك الوقت، كانت ستستسلم أمام عزمه الدؤوب. ففي حين ظل في مكانه كطبيب، يخدم جميع طبقات البشر -العبيد والأحرار، الأغنياء والفقراء، الأشرار والأخيار- استخدم نفوذه الشخصي بحكمة شديدة، بحيث سرعان ما أصبح الطبيب المفتش على ثلاثة سجون، من بينها لا فورس. يمكنه الآن أن يؤكد للوسي أن زوجها لم يُعدّ محبوساً وحده، بل اختلط بعموم السجناء؛ فقد كان يرى زوجها أسبوعياً، ويجلب لها رسائل لطيفة من شفتيه مباشرة، وفي بعض الأحيان كان زوجها نفسه يرسل إليها برسالة (وإن لم تكن قطُّ بيد الطبيب)، لكن لم يُسمَح لها بالكتابة إليه: فمن بين العديد من الشكوك الجامحة حول المؤامرات داخل السجون، أشار أعنفها إلى المهاجرين المعروف بأن لديهم صداقات أو اتصالات دائمة خارج البلد.

كانت حياة الطبيب الجديدة هذه حياة قلقة بلا شك؛ ومع ذلك، رأى السيد لوري الحصيف أنها تضم فخراً جديداً مستديماً. لا شيء غير لائق يشوب الفخر؛ كان طبيعياً مُستحباً. لكنه نظر إليه كشيء جدير

بالملاحظة. كان الطبيب يعرف أن سجنه يرتبط في ذهني ابنته وصديقه، حتى ذلك الوقت، بمحتته الشخصية وحرمانه وضعفه. والآن، بعد أن تغيرَّ الوضع، وعرف أنه اكتسب من خلال تلك التجربة القديمة قوى يتطلع إليها كلاهما من أجل سلامة تشارلز ونجاته في النهاية، أسعده هذا التغيير، إلى درجة أنه أخذ زمام المبادرة والتوجيه، وطلب منهما بوصفهما الضعفاء، أن يعتمدا عليه بوصفه القوي. لقد انعكست المواقف النسبية السابقة بينه وبين لوسي، وإنما فقط بقدر ما يمكن أن يعكسها الامتنان والمودة الأكثر حيوية؛ فلم يكن ليفخر إلا بتقديم بعض الخدمات لها، هي التي قدمت له الكثير. قال السيد لوري، بطريقته الذكية الودودة: «كان من الغريب حدوث ذلك، لكن كل شيء طبيعي وصحيح. لذا، تولَّ القيادة، يا صديقي العزيز، واحتفظ بها؛ لا يمكن أن تتولاها يداك أفضل من يديك».

ومع ذلك، وعلى الرغم من أن الطبيب حاول جاهداً، ولم يتوقف قطُّ عن محاولة إطلاق سراح تشارلز دارني، أو على الأقل تقديمه للمحاكمة، فإن التيار العام في ذلك الوقت كان أقوى وأسرع منه للغاية. بدأ العصر الجديد؛ حُكِمَ الملك، وحُكِمَ عليه بالموت، وقُطِعَ رأسه، أُعلنت جمهورية الحرية والمساواة والإخاء أو الموت، جمهورية النصر أو الموت ضد العالم بالسلاح. رفر العلم الأسود ليلاً ونهاراً من أبراج كنيسة نوتردام العظيمة، وجرى استدعاء ثلاثمائة ألف رجل للثورة ضد طغاة الأرض؛ ثاروا في جميع أنحاء فرنسا، كأن أسنان التين قد زُرعت وأنتجت ثماراً على قدم المساواة في التلال والسهول، على الصخور،

في الحصى، والطين الغريني، تحت سماء الجنوب المشرقة، وتحت غيوم الشمال، في الوديان والغابات، في الكروم وأراضي الزيتون، وبين العشب المحصود وقش الذرة، على طول الضفاف المثمرة للأنهار الواسعة، وفي رمال شاطئ البحر. أي قلق شخصي كان يمكنه أن يقف في مواجهة طوفان السنة الأولى من الحرية؛ الطوفان الذي يرتفع من أسفل، ولا يسقط من أعلى، ونوافذ السماء مغلقة، غير مفتوحة!

لم يكن هناك توقف، ولا شفقة، ولا سلام، ولا فاصل من راحة مطمئنة، ولا قياس للزمن. وعلى الرغم من أن الأيام والليالي تدور بانتظام، مثلما كانت الحال عندما كان الزمن في بدايته، وكان المساء والصباح هما اليوم الأول، لم يكن هناك أي حساب آخر للزمن. لقد أصبحت السيطرة عليه مفقودة في ظل حُمى مُستعرة أصابت الأمة، كما تُفقد في حالة حُمى تصيب مريضًا واحدًا. الآن، كسر الجلاذ الصمت غير الطبيعي الذي خيم على المدينة بأكملها، فأظهر للشعب رأس الملك؛ والآن، وفي الوقت نفسه تقريبًا، أظهر رأس زوجته الجميلة التي أمضت ثمانية أشهر مُرهقة من الترمُّل والبؤس في السجن، ليشيب رأسها. ومع ذلك، وبمراعاة قانون التناقض الغريب الذي ينطبق على جميع هذه الحالات، كان الزمن طويلًا، بينما ينطلق بسرعة هائلة. أُقيمت محكمة ثورية في العاصمة، فضلًا عن أربعين أو خمسين ألف لجنة ثورية في أنحاء البلد كافة؛ صدر قانون الاشتباه، الذي ألغى كل ضمان للحرية أو الحياة، وسُلِّم أي شخص صالح وبريء إلى أي شخص سيئ ومذنب؛ واكتظت السجون بأشخاصٍ لم يرتكبوا أي جريمة، ولم يتمكنوا من

الحصول على أي جلسة استماع؛ وأصبحت هذه الأشياء بمنزلة النظام والطبيعة الراسخة لأشياء مُعينة، وبدت كأنها من العادات القديمة قبل أن يبلغ عمرها عدة أسابيع. وفوق ذلك كله، هناك شخصية بشعة أصبحت مألوفة كأنها كانت أمام أنظار العامة منذ بدء العالم: إنها شخصية امرأة حادة تُسمى المقصلة.

كانت موضوع المزاح الشائع؛ فهي أفضل علاج للصداع، وتنجح في منع الشعر من الشيب، وتضفي نعومة غريبة على البشرة، وهي شفرة الحلاقة الوطنية التي تحلق أنعم حلاقة: كل من ذهب لتقيل المقصلة، كان ينظر من خلال نافذتها الصغيرة، ويعطس في الكيس. كانت علامة على تجدد الجنس البشري، لقد حُلَّت محل الصليب. كان البعض يرتدي نماذج منها على الصدور التي نُزِع منها الصليب، وينحني لها الناس ويؤمنون بها حيثما أنكروا الصليب.

لقد قطعت الكثير من الرؤوس، حتى إنها اصطبغت، هي والأرض التي لوَّثتها، بلون أحمر عَفِن. كانت تُفكك إلى أجزاء، مثل لعبة أحجية لشيطان صغير، ثم تُجمَع مرة أخرى كلما دعت الحاجة إلى ذلك. لقد أَسَكَّت الفصيح، وقضت على القوي، وأبادت الجميل والصالح. في صباح واحد، قُطِعَت في دقائق معدودة رؤوس اثنين وعشرين صديقاً من ذوي المكانة العامة الرفيعة: كان واحدٌ وعشرون منهم أحياءً وواحد ميتاً. كان اسم الرجل القوي^(١) الذي ورد في العهد القديم، قد هبط ليتخذه الموظف الرئيسي الذي يتولى تشغيلها؛ لكنه، مع هذا التسليح،

(١) يقصد شمشون الذي ورد اسمه في التوراة - (المترجمة).

كان أقوى ممن سُمِّي باسمه، وأشدَّ عَمَى، ويمزق بوابات هيكل الله^(١) كل يوم.

كان الطبيب يسير بين هذه الأهوال، والقطيع الذي ينتمي إليها، برأسٍ ثابتٍ: واثقاً من قوته، ومثابراً بحذرٍ لتحقيق هدفه، دون أن يشك أبداً في أنه سينقذ زوج لوسي في النهاية. لكن تيار الزمن كان كاسحاً، قوياً وعميقاً، جارفاً الزمن بعيداً بشراسة، إلى حد استمرار تشارلز في السجن لمدة عام وثلاثة أشهر، عندما كان الطبيب ثابتاً وواثقاً. أصبحت الثورة أكثر شراً وتشتتاً في شهر ديسمبر، إلى درجة أن أنهار الجنوب كانت مثقلة بجثث الغرقى بعنفٍ ليلاً، كما أُطلقت النار على السجناء في صفوف وميادين تحت أشعة الشمس الشتوية الجنوبية. ومع ذلك، سار الطبيب بين الأهوال برأسٍ ثابتٍ. لم يكن في باريس رجل أكثر شهرة منه في ذلك اليوم؛ ولا رجل في مثل وضعه الغريب. كان صامتاً، وإنسانياً، ولا غنى عنه في المستشفى والسجن، ويستخدم مهنته على قدم المساواة بين القتلة والضحايا، كان رجلاً متميزاً. وفي ممارسته لمهارته، أبعده مظهر وقصة أسير الباستيل عن جميع الرجال الآخرين؛ لم يكن محل اشتباه أو موضع شكٍّ، كأنما بُعث بالفعل إلى الحياة قبل نحو ثمانية عشر عاماً، أو كأنه روحٌ تتحرك بين البشر.

(١) الإشارة إلى رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ٣: ١٦ - «أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم؟» - (المترجمة).

الفصل الخامس

قاطع الأخشاب

سنة وثلاثة أشهر، خلال ذلك الوقت كله، لم تكن لوسي متأكدة قط، من ساعة إلى أخرى، إلا من أن المقصلة ستقطع رأس زوجها في اليوم التالي. كانت عربات النقل المفتوحة تهتز بشدة وهي مليئة بالمحكوم عليهم بالإعدام، خلال سيرها يوميًا عبر الشوارع الصخرية. فتيات جميلات؛ نساء مشرقات، بشعر بني، وشعر أسود، وشعر رمادي؛ شباب؛ رجال أشداء وشيوخ؛ بشر نبلاء المولد وفلاحو المولد؛ كانوا جميعًا بمنزلة نبذ أحمر للمقصلة، يخرجونهم إلى النور يوميًا من الأقبية المظلمة للسجون البغيضة، ويحملونهم إليها خلال الشوارع لإرواء عطشها المفترس. الحرية، والمساواة، والإخاء، أو الموت؛ والخيار الأخير كان أسهل ما يمكن منحه، أيتها المقصلة!

لو كانت مفاجأة الكارثة التي حلّت بها، وعجلات الزمن الدوّارة، قد أذهلت ابنة الطبيب وجعلتها تنتظر النتيجة في يأسٍ خاملٍ، لحدث معها ما حدث مع الكثيرين، لكنها، منذ الساعة التي أخذت فيها الرأس الأشيب إلى حضنها الغض النظر في عليّة القديس أنطوان، كانت وفيّة لواجباتها، وكانت أكثر وفاء في موسم المحنة، كما هي حال جميع المخلصين وذوي النيات الحسنة دائمًا.

بمجرد استقرارهم في مسكنهم الجديد، وانشغال والدها في روتين أعماله، تولّت ترتيب المنزل الصغير تمامًا كما لو كان زوجها موجودًا. كان لكل شيء مكانه المحدد ووقته المحدد، تولّت تعليم لوسي الصغيرة على نحوٍ منتظمٍ، كما لو كانوا معًا جميعًا في منزلهم الإنجليزي. وكانت الراحة الصريحة الوحيدة تقريبًا لعقلها الثقيل تكمن في الأساليب البسيطة التي خدعت بها نفسها لإظهار اعتقادها بأنهما سيجتمعان معًا قريبًا: الاستعدادات الصغيرة لعودته السريعة، وضع كرسيه وكتبه جانبًا؛ هذا بالإضافة إلى الصلاة المهيبة في الليل لسجين عزيز على وجه الخصوص، من بين العديد من النفوس التعيسة في السجن وظل الموت.

لم يتغيّر مظهرها كثيرًا، كانت ثيابها الداكنة البسيطة، الشبيهة بثياب الحداد، التي كانت ترتديها هي وطفلها، أنيقة وتعتني بها مثل الثياب المشرقة التي ترتديانها في الأيام السعيدة. فقدت نضرتها، وأصبح تعبير وجهها القديم والمُتعمّد ثابتًا وليس عرضيًا؛ غير ذلك، حافظت على جمالها ورونقها. وفي بعض الأحيان، عند تقبيل والدها في الليل، كان حزنها الذي كبته طوال اليوم ينفجر، وتقول إن اعتمادها الوحيد تحت السماء يقتصر عليه. وكان يجيبها دائمًا بحزم: «لا يمكن أن يحدث له أي شيء دون علمي، وأنا أعرف أن في إمكاني إنقاذه، يا لوسي».

لم يكن قد مضى على حياتهم الجديدة عدة أسابيع، عندما قال لها والدها، عند عودته إلى المنزل ذات مساء:

«عزيزتي، توجد نافذة علوية في السجن، يمكن لتشارلز الوصول

إليها أحياناً في الساعة الثالثة بعد الظهر، عندما يتمكن من الوصول إليها -وهو ما يتوقف على العديد من الاحتمالات والأحداث العارضة- يعتقد أنه قد يراك في الشارع، إذا وقفت في مكانٍ معينٍ يمكنني أن أريك إياه. لكنك لن تتمكّني من رؤيته، يا طفلي المسكينة؛ وحتى إن استطعت، فمن غير الآمن لك أن تُظهري أي علامة تدل على أنك تعرفت عليه».

«أوووه، دلني على المكان يا أبي، وسأذهب إلى هناك كل يوم».

منذ ذلك الوقت، وفي جميع الأحوال الجوية، تذهب وتنتظر ساعتين. تكون هناك عندما تدق الساعة الثانية، وتستدير عائدة باستسلام في الرابعة. كانت تأخذ طفلتها معها، إذا لم يكن الجو رطباً أو عاصفاً بالنسبة إلى الطفلة؛ وتذهب وحدها في أوقات أخرى، لكنها لم تفوت يوماً واحداً.

كانت تقف عند زاوية مظلمة وقذرة في شارعٍ متعرج صغير، كان المسكن الوحيد في تلك الزاوية هو كوخ لرجل يقطع الأخشاب بمنشاره إلى أطوال محددة من أجل الوقود؛ بينما كان الجدار بمنزلة كل شيء في المكان. لاحظها قاطع الأخشاب في اليوم الثالث من وجودها هناك.

«طاب يومك، أيتها المواطنة».

«طاب يومك، أيها المواطن».

لقد تحدد الآن هذا النمط من الحديث بموجب مرسوم. ظهر طوعية في البداية، منذ فترة، بين الوطنيين الأكثر حماسة؛ لكنه أصبح الآن قانوناً يسري على الجميع.

«تسيرين هنا ثانية، أيتها المواطنة؟».

«أنت تراني، أيها المواطن!».

كان قاطع الأخشاب رجلاً قصير القامة وكثير الإيماءات (كان ذات يوم مُصلحًا للطرق)؛ وقد ألقى نظرة على السجن، وأشار إليه وهو يضع أصابعه العشر أمام وجهه لتمثيل القضبان، واختلس من خلالها النظر مازحًا.

قال: «لكن هذا ليس من شأني»؛ واستمر في قطع أخشابه.

بحث عنها في اليوم التالي، وبادرها بالكلام لحظة ظهورها.

«ماذا؟ هل تسيرين هنا مرة أخرى، أيتها المواطنة؟».

«نعم، أيها المواطن».

«آه! معك طفلة أيضًا! هذه أمك، أليس كذلك، يا مواطنتي

الصغيرة؟».

اقتربت لوسي الصغيرة من والدتها، وهمست، «هل أقول نعم، يا

ماما؟».

«نعم، يا عزيزتي».

«نعم، أيها المواطن».

«آه! لكن هذا ليس من شأني، عملي هو عملي، انظر منشاري!

أسميَّه المقصلة الصغيرة. لالالالالا! ثم تسقط رأسه!».

سقطت قطعة خشب وهو يتكلم، فألقتها في سلة.

«اسمي شمشون مقصلة الحطب. انظري هنا، مرة أخرى! لولولو، لولولو! وتسقط رأسها! والآن، الدور على طفل. دغدغة، دغدغة؛ فوضى، فوضى! ويسقط رأسه. العائلة كلها!».»

ارتجفت لوسي وهو يلقي قطعتي خشب آخرين في سلتة. كان من المستحيل أن توجد هناك بينما قاطع الأخشاب يعمل، أو أن توجد في مجال رؤيته. ومنذ ذلك الحين، وضماناً لحسن نيّته، كانت دائماً تتحدث إليه أولاً، وغالباً ما تمنحه نقوداً لشرب الخمر، وكان يتلقاها بسهولة.

كان رجلاً فضولياً؛ وأحياناً عندما تنساه تماماً، وهي تحديق إلى سطح السجن وشبكة قضبانها، وتوجّه قلبها إلى زوجها، كانت تفيق لتجده ينظر إليها، وركبته على مقعده ومنشاره متوقف عن العمل. وعندئذٍ يقول عادة: «لكن هذا ليس من شأني!»، ويعود بسرعة إلى منشاره ثانية.

كانت لوسي تقضي ساعتين يومياً في هذا المكان، في جميع الأحوال الجوية - في ثلوج الشتاء وصقيعه، في رياح الربيع القاسية، في أشعة شمس الصيف الحارقة، في أمطار الخريف، ثم ثانية في ثلوج الشتاء وصقيعه - وكل يوم، عند مغادرتها، تُقبّل جدار السجن. رآها زوجها (هكذا عرفت من والدها) ربما مرة واحدة كل خمس أو ست زيارات للمكان؛ وربما مرتين أو ثلاث مرات على التوالي؛ وقد لا يراها طوال أسبوع أو أسبوعين. كان يكفي أن يتمكن من رؤيتها، وأن يراها عندما تسنح له الفرصة؛ وبناء على هذا الاحتمال، كانت تنتظر يومياً، سبعة أيام في الأسبوع.

واصلت مهمتها هذه إلى شهر ديسمبر، ووالدها لا يزال يسير بين الأهوال بنبات. وصلت إلى الزاوية المعتادة في فترة ما بعد الظهر، والثلوج تتساقط قليلاً. كان يومًا احتفاليًا مليئًا بالابتهاج الجامح. في أثناء قدومها، رأت المنازل مزينة بحِراب صغيرة، وقبعات حمراء صغيرة معلقة عليها، علاوة على الشرائط ثلاثية الألوان، والشعار الموحد (حيث كانت الحروف ثلاثية الألوان هي المفضلة)، جمهورية واحدة لا تتجزأ؛ الحرية، والمساواة، والإخاء، أو الموت!

كان المتجر البائس لقاطع الأخشاب صغيرًا جدًا، بحيث لم توفر واجهته بأكملها مساحة تتسع لهذا الشعار. أحضر شخصًا يكتبه من أجله، إلا أن هذا الشخص اضطر إلى حشر كلمة الموت بصعوبة بالغة. ورفع على سطح بيته رمحًا وقبعة، كما يجب على أي مواطن صالح، وعلى إحدى النوافذ علّق منشاره المنقوش عليه عبارة «المقصلة الصغيرة المقدسة»؛ ذلك أن تلك الأنثى الحادة العظيمة كانت في ذلك الوقت مقدسة شعبياً. كان متجره مغلقًا ولم يكن موجودًا، مما أشعر لوسي بالراحة وأتاح لها أن تنعم بوحدة هادئة.

لكنه لم يكن بعيدًا؛ فسرعان ما سمعت حركة مضطربة وصراخًا قادمًا، فملأها بالخوف. وبعد لحظة، تدفق حشد من الناس حول الزاوية بجانب جدار السجن، وفي وسطهم كان قاطع الأخشاب ويده في يد المرأة المتنقمة. لم يكن عددهم أقل من خمسمائة شخص، يرقصون مثل خمسة آلاف شيطان. لم تكن هناك موسيقى أخرى غير غنائهم. رقصوا على أنغام أغنية الثورة الشعبية، مع الحفاظ بانسجامٍ على إيقاع شرس مثل

صرير الأسنان. رقص الرجال والنساء معاً، ورقصت النساء معاً، ورقص الرجال معاً، حسبما تجمعهم المصادفة معاً. كانوا بداية مجرد عاصفة من القبعات الحمراء الخشنة والخرق الصوفية الخشنة؛ لكنهم، عندما امتلأ المكان وتوقفوا عن الرقص حول لوسي، ظهرت بينهم صورة مروعة لشخصية راقصة مجنونة. تقدموا، تراجعوا، ارتطمت أيدي بعضهم ببعض، تشبث رؤوس بعضهم ببعض، استداروا كلٌّ بمفرده، أمسك بعضهم ببعض وداروا في أزواج، حتى سقط الكثير منهم. وبينما كان من سقطوا لا يزالون في الأسفل، تشابكت أيادي الباقين يداً بيد، وداروا جميعاً معاً: ثم تفككت الحلقة؛ وفي حلقات منفصلة من اثنين وأربعة، أخذو يدورون ويدورون حتى توقفوا جميعاً في وقت واحد؛ ثم بدؤوا من جديد، يرتطمون، يتشبثون، ويمزقون، ثم يعكسون الدوران؛ وداروا جميعاً في اتجاه آخر. وفجأة توقفوا ثانية، وتمهلوا، وضبطوا الإيقاع من جديد، واصطفوا بعرض الطريق العام، ورؤوسهم منحنية إلى الأسفل وأيديهم مرفوعة، وانطلقوا صارخين. لا يمكن لأي قتال أن يماثل نصف فظاعة هذا الرقص. كان دون شك رياضة فاشلة - شيء كان بريئاً في يوم ما، تحوّل إلى شيء شيطاني - تحوّلت هواية صحية إلى وسيلة لإثارة الدماء، وإرباك الحواس، وتغليظ القلب. مثل هذه النعمة التي كانت مرئية فيه، جعلته أقيح، وأظهرت كيف أصبحت كل الأشياء الجيدة بطبيعتها مشوهة ومنحرفة. كان الصدر البكر المكشوف هذا، والرأس الجميل الشبيه بالطفل مشتت الانتباه، والقدم الرقيقة التي تندفع في هذا المستنقع من الدماء والقاذورات - كلها نماذج للزمن المفكك.

هذه هي الكارمنيول^(١). بينما مرّت الحشود، تاركة لوسي خائفة وحائرة عند مدخل بيت قاطع الأخشاب، تساقطت ثلوج خفيفة بهدوء وانتشر بلون أبيض ناعم، كأنما لم يوجد قطُّ.

«آه، يا أبي!»، لأنها رآته واقفاً أمامها عندما رفعت عينيها اللتين حجبتهما للحظات بيدها: «هذا مشهد قاسٍ وسيء».

«أعرف يا عزيزي، أعرف. لقد رأيت هذا المشهد عدة مرات. لا تخافي! لن يؤذيكَ أحد منهم».

«لست خائفة على نفسي، يا والدي. لكنني عندما أفكر في أن زوجي تحت رحمة هؤلاء الناس...».

«سنجعله فوق رحمتهم قريباً جداً. لقد تركته يتسلق إلى النافذة، وجئت لأخبرك. لا يوجد أحد هنا ليرى؛ يمكنك تقبيل يدك في اتجاه أعلى سقف يشبه الرفوف».

«سوف أفعل ذلك يا أبي، وأرسل إليه روعي معها!».

«ألا يمكنك رؤيته، عزيزتي المسكينة؟».

«لا، يا أبي»، قالت لوسي، متلهفة باكية، وهي تُقبّل يدها، «لا».

وقع خطوات في الثلج، إنها السيدة ديفارج. قال الطبيب: «أحييك أيتها المواطنة». أجابت بشكل عابر: «أحييك أيها المواطن». لا شيء أكثر من ذلك. ثم مضت السيدة ديفارج، مثل ظل على الطريق الأبيض.

(١) الكرمينول (La Carmagnole): أغنية ورقصة فرنسية انتشرت خلال الثورة الفرنسية - (المترجمة).

«أعطني ذراعك يا حبيبي، ولنغادر في بهجة وشجاعة، من أجله.
أحسنْتُ صُنْعًا». غادرا المكان. «لن يذهب ذلك سدى. سوف يُستدعى
تشارلز غدًا». «غدًا!».

«ليس لدينا وقت نضيعه. أنا على أتم استعداد، لكن هناك احتياطات
يجب اتخاذها، ولا يمكن اتخاذها إلا بعد استدعائه فعلاً للمثول أمام
المحكمة. لم يتلق الإشعار بعد، لكنني أعلم أنه سوف يُبلِّغ اليوم بأنه
مُستدعى غدًا، وسيُنقل إلى الكونسيرجيري^(١)؛ والمعلومات تأتيني في
الوقت المناسب. أنتِ لست خائفة؟».

بالكاد استطاعت الإجابة: «أنا أثق بك».

«ثقي بي تمامًا. اقتربت نهاية ترقبك، يا حبيبي. سوف يعود إليك
في غضون ساعات قليلة؛ لقد شملته بكل حماية. يجب أن أرى لوري». «
توقف. سمعا دويًا ثقيلًا لعجلات، يعرف كلاهما جيدًا ما يعنيه.
واحد، اثنان، ثلاثة. ثلاث عربات نقل مكشوفة تبتعد بأحمالها المخيفة
فوق الثلوج الصامتة».

«يجب أن أرى لوري»، كرر الطبيب، وهو يديرها في اتجاه آخر.
كان الرجل العجوز الصامد لا يزال في البنك، ولم يتركه قط. كان
يخضع هو وكتبه إلى طلبات متكررة تتعلق بالتملكات التي صودرت
وتحولت إلى ممتلكات وطنية. كان ينقذ ما يمكنه إنقاذه ويردُّها

(١) الكونسيرجيري (Conciergerie): محكمة وسجن سابق في باريس - (المترجمة).

لأصحابها. لا يوجد رجل أفضل منه ليتمسك بما كان لدى بنك تيلسون ويحافظ عليه، وعلى سلامته.

أشارت سماء حمراء وصفراء معتمة، وضباب متصاعد من نهر السين، إلى اقتراب الظلام، وقد حل الظلام تقريبًا عندما وصلا إلى البنك. كان المقر الفخم لإقامة صاحب السيادة مُدمَّرًا ومهجورًا تمامًا. فوق كومة من الغبار والرماد في الفناء، كُتبت العبارات التالية: ممتلكات وطنية. جمهورية واحدة لا تتجزأ؛ الحرية، والمساواة، والإخاء، أو الموت!

من ذلك الشخص الذي أتى إلى السيد لوري -شخص وضع معطفه الخاص بركوب الخيل على الكرسي- ويجب ألا يراه أحد؟ من ذلك الشخص الذي وصل مؤخرًا، وتركه السيد لوري وخرج مضطربًا ومندهشًا ليأخذ المرأة الأثيرة لديه بين ذراعيه؟ لمن بدا أنه يكرر كلماتها المتعثرة، عندما رفع صوته وأدار رأسه نحو باب الغرفة التي خرج منها قائلاً: «نُقل إلى الكونسيرجيري، ومُستدعى غدًا؟».

الفصل السادس

الانتصار

تكوّنت المحكمة المرعبة من خمسة قضاة، ومدّع عام، وهيئة محلفين عنيدة؛ وتجتمع يوميًا، وتصدر قوائمها كل مساء، ويقرأها مسؤولو السجون المختلفة على سجنائهم. وكانت نكتة السجن المعتادة هي: «اخرجوا واستمعوا إلى صحيفة المساء، أنتم يا من هناك بالداخل!».

«تشارلز إيفريموند، المدعو دارني!».

وهكذا بدأت أخيرًا صحيفة المساء في لا فورس.

وعند النداء على اسم، يتوجه صاحبه إلى مكان مخصص لمن أعلن عنه بهذه الطريقة المميّنة. كان لدى تشارلز إيفريموند، المسمى دارني، سبب لمعرفته بهذه العادة؛ فقد رأى المئات يموتون هكذا.

نظر إليه السجناء المنتفخ، الذي يرتدي نظارة للقراءة، ليتأكد أن السجنين توجّه إلى مكانه، ثم استكمل قراءة القائمة مع وقفة قصيرة مماثلة عند كل اسم. ضُمَّت القائمة ثلاثة وعشرين اسمًا، لكن الرد جاء من عشرين اسمًا فقط؛ ذلك أن أحد السجناء الذين ذُكرت أسماءهم

مات في السجن ونُسي، واثنان جرى إعدامهما بالفعل بالمقصلة ونُسيا. قُرئت القائمة في الغرفة المقبية، حيث رأى دارني حشد السجناء في ليلة وصوله. لقد لقي كلُّ منهم حتفه في المذبحة، ومات كل مخلوق بشري اعتنى به وفارقه منذ ذلك الحين، قد مات على المشنقة.

تبادل الجميع كلمات وداعٍ ولطفٍ متعجلة، وسرعان ما انتهى الوداع. كان هذا يحدث كل يوم. وانشغل مجتمع لا فورس في إعداد بعض ألعاب السمر، وحفلة موسيقية صغيرة، لذلك المساء. تزامن السجناء على القضبان وذرفوا الدموع هناك؛ وكان عليهم إعادة شغل عشرين مكاناً في وسائل الترفيه المُعدّة. كان الوقت المتبقي، في أحسن الأحوال، قصيراً إلى ساعة الإغلاق، عندما يجري تسليم الغرف والممرات المشتركة إلى الكلاب الكبيرة التي تظل تراقب هناك طوال الليل. لم يكن السجناء فاقدين للإحساس أو الشعور؛ بل نبعت أساليبهم من أحوال الزمن. وبالمثل، مع وجود فارق بسيط، أدى نوع من الحماس أو الانتشاء -معروف، بلا شك- إلى قيام بعض الأشخاص بتحدي المقصلة دون داعٍ، والموت عن طريقها؛ ولم يكن ذلك مجرد تفاخر، بل عدوى جامحة أصابت عقول الشعب المهتزة بشدة. ففي مواسم الأوبئة، قد ينجذب بعضنا خفية إلى المرض... ميل عابر رهيب إلى الموت بالوباء. لدينا جميعاً غرائب مخبأة في صدورنا، تحتاج فقط إلى ظروف لاستحضارها.

كان الممر المؤدي إلى الكونسيرجيري قصيراً ومظلمًا؛ وكانت الليلة في زنازينه المسكونة بالحشرات طويلة وباردة. وفي اليوم التالي،

مَثْلُ خمسة عشر سجينًا أمام المحكمة قبل استدعاء اسم تشارلز دارني. أُدين الخمسة عشر جميعًا، واستغرقت محاكماتهم جميعًا ساعة ونصفًا.

وفي النهاية، نودي على «تشارلز إيفريموند، المُسمى دارني».

جلس قضاته على منصة القضاء وهم يرتدون قبعات من الريش؛ وغير ذلك، كان غطاء الرأس السائد هو القبعة الحمراء الخشنة بالشرائط ثلاثية الألوان. ولو نظر إلى هيئة المحلفين والجمهور المضطرب، لربما اعتقد أن الترتيب المعتاد للأمور قد انعكس؛ بحيث أصبح المجرمون يحاكمون الشرفاء. كان أدنى وأقسى وأسوأ سكان المدينة، التي لم تخلُ قطُّ من عدد كبير من المنحطين والقساة والأشرار، بمنزلة النفوس التي توجَّه المشهد: التعليق الصاخب، والتصفيق، والرفض، وتوقع النتيجة والتعجيل بها دون تدقيق. من بين الرجال، كان الجزء الأكبر مُسلحًا بطريقٍ مختلفة؛ ومن بين النساء، كانت بعضهن مسلحات بالسكاكين، وبعضهن بالخناجر، وبعضهن يأكلن ويشربن خلال متابعتهن، وانهمكت العديد منهن في الحياكة. ومن بين هؤلاء الأخيرات، كانت إحداهن تحمل قطعة احتياطية من الحياكة تحت ذراعها في أثناء عملها. وقفت هذه المرأة في الصف الأمامي، إلى جانب رجل لم يره سجيننا منذ وصوله إلى الحاجز، لكنه تذكَّره مباشرة باسم ديفارج. لاحظ أنها همست مرة أو مرتين في أذنه، وأنها بدت زوجته؛ لكن أكثر ما لاحظته فيهما هو أنهما، على الرغم من وقوفهما بالقرب منه قدر الإمكان، لم ينظرا إليه قطُّ، بدا أنهما ينتظران شيئًا بتصميمٍ عنيد؛ ووجَّها بصريهما نحو هيئة المحلفين، ولم ينظرا إلى

أي شيء آخر. جلس الدكتور مانيت، مرتدياً ثوبه الهادئ المعتاد، تحت منصة الرئيس. وبقدر ما يمكن للسجين أن يرى، كان هو والسيد لوري الرجلين الوحيدين هناك، غير المرتبطين بالمحكمة، ويرتديان ملابسهما المعتادة. لم يرتديا زي الكرمانبول الخشن.

اتهم المدعي العام تشارلز إيفريموند، المُسمّى دارني، بأنه مهاجر، وصودرت حياته لصالح الجمهورية بموجب المرسوم الذي نفى جميع المهاجرين تحت طائلة الموت. لم يكن المرسوم يحمل أي تاريخ منذ عودته إلى فرنسا. وها هو ذا، وها هو المرسوم؛ وقد أُلقي القبض عليه في فرنسا، ورأسه مطلوب.

صرخ الجمهور: «اقطعوا رأسه! عدو الجمهورية!».

قرع الرئيس جرسه لإسكات تلك الصرخات، وسأل السجين عن مدى صحة أنه عاش سنوات عديدة في إنجلترا؟ هذا صحيح دون شك.

ألم يكن مهاجرًا في ذلك الوقت؟ ماذا كان يطلق على نفسه؟

يأمل، بمعنى القانون وروحه، أنه ليس مهاجرًا.

ولم لا؟ أراد الرئيس أن يعرف.

لأنه تخطى طوعية عن لقب كان يكرهه، وعن مكانة كان يكرهها، وغادر بلده - قبل استخدام كلمة مهاجر بالمعنى المقبول حاليًا لدى المحكمة - ليعيش بجهد في إنجلترا، وليس على حساب جهد الشعب الفرنسي المثقل بالأعباء

وما الدليل على ذلك؟

قدّم اسمي شاهدين: ثيوفيل جابيل، وألكسندر مانيت.

لكنه تزوج في إنجلترا؟ ذكره الرئيس.

صحيح، لكنها ليست امرأة إنجليزية.

هل هي مواطنة فرنسية؟

نعم، بحكم الولادة.

ما اسمها واسم عائلتها؟

«لوسي مانيت، الابنة الوحيدة للدكتور مانيت، الطبيب الصالح الذي يجلس هناك».

كان لهذه الإجابة تأثير بهيج في الجمهور؛ انطلقت صيحات تمجيد للطبيب الصالح المعروف، عبر أنحاء القاعة. تحركت مشاعر الناس على نحوٍ شديد الغرابة، إلى درجة أن الدموع انهمرت على الفور على عدة وجوه شرسة كانت تحديق إلى السجين قبل لحظة، كأنها تتوق بفارغ الصبر إلى انتزاعه من مكانه وإخراجه إلى الشارع وقتله.

وعلى هذا النحو، سار تشارلز دارني خطوات قليلة على طريقه الخطير، وفقاً لتعليمات الدكتور مانيت المتكررة. وكانت المشورة الحذرة نفسها توجه كل خطوة أمامه، وتمهد له كل شبر على طريقه.

وتساءل الرئيس، لماذا عاد إلى فرنسا في ذلك الوقت، وليس قبل ذلك؟

أجاب أنه لم يعد قبل ذلك لأنه ببساطة لا يملك وسيلة للعيش في فرنسا، باستثناء ممتلكاته التي تخلى عنها؛ بينما عاش في إنجلترا عن

طريق إعطاء دروس في اللغة الفرنسية وآدابها. وقد عاد في هذا التوقيت بناء على التماس وإلحاح خطي من مواطن فرنسي، أكد أن حياته معرضة للخطر بسبب غيابه. لقد عاد لإنقاذ حياة مواطن والإدلاء بشهادته، مهما كانت المخاطر الشخصية التي تترتب على ذلك، من أجل إظهار الحقيقة. هل يُعتبر هذا الموقف إجرامياً في نظر الجمهورية؟

صاحت الحشود بحماس: «لا!»، ودق الرئيس جرسه لتهدئتهم. لكنهم لم يهدؤوا، واستمروا في الصياح «لا!»، حتى توقفوا بمحض إرادتهم.

طلب الرئيس اسم ذلك المواطن. وأوضح المتهم أن هذا المواطن هو شاهده الأول. كما أشار بثقة إلى رسالة المواطن التي أخذت منه عند الحاجة، وأنه لا يشك في وجودها بين الأوراق المعروضة على الرئيس. لقد حرص الطبيب على وجود الرسالة هناك -وأكد له أنها ستكون هناك- وفي هذه المرحلة من الإجراءات يجري تقديمها وقراءتها. استدعى المواطن جابيل لتأكيد ذلك، وفعل. كما ألمح المواطن جابيل، بلباقة وأدب لا حدود لهما، إلى أن ضغط الأعمال المفروضة على المحكمة من جانب العديد من أعداء الجمهورية، الذين عليها التعامل معهم، قد ناله تجاهلاً قليلاً في سجن آباي -وفي الواقع، غاب بالأحرى عن ذاكرة المحكمة الوطنية- حتى قبل ثلاثة أيام؛ عندما استدعى للمثول أمامها، وأطلق سراحه بعد إعلان هيئة المحلفين أنها على اقتناع بأن الاتهام الموجه إليه أُجيب عنه، بالنسبة إليه، باستسلام المواطن إيفريموند، المسمى دارني.

ثم جاء دور استجواب الدكتور مانيت. وقد ترك ارتفاع شعبيته الشخصية ووضوح إجاباته انطباعًا كبيرًا. لكنه واصل حديثه، وأوضح أن المتهم كان صديقه الأول عند إطلاق سراحه من سجنه الطويل؛ وأن المتهم بقي في إنجلترا، مخلصًا دائمًا ومكرسًا نفسه له ولابنته في منفيهما؛ وأنه كان بعيدًا كل البعد عن تأييد الحكومة الأرستقراطية هناك، بل حوكم بالفعل وكاد يفقد حياته كعدو لإنجلترا وصديق للولايات المتحدة. وعندما عرض هذه الظروف بأقصى قدر من الرصانة وبقوة الحقيقة والجدية المباشرة، أصبحت هيئة المحلفين والجمهور على قلب رجل واحد. وأخيرًا، عندما ناشد بالاسم السيد لوري، وهو رجل إنجليزي كان حاضرًا في ذلك الوقت وكان مثله شاهدًا في تلك المحاكمة الإنجليزية ويمكنه تأكيد روايته عنها، أعلنت هيئة المحلفين أنهم سمعوا ما يكفي، وأنهم مستعدون للإدلاء بأصواتهم إذا رغب الرئيس. عند كل تصويت (أدلى المحلفون بأصواتهم علانية وبشكل فردي)، كان الجمهور يطلق صيحات استحسان؛ كانت جميع الأصوات في صالح السجين، وأعلن الرئيس إطلاق سراحه.

ثم بدأ أحد تلك المشاهد العجيبة التي كان الجمهور يُرضي بها أحيانًا تقلبهم، أو دوافعهم الأفضل نحو الكرم والرحمة، أو التي اعتبروها بمنزلة تعويض عما يتضخم داخله من الغضب القاسي. ما من أحد يمكنه أن يقرر الآن إلى أي من هذه الدوافع ترجع هذه المشاهد العجيبة؛ فمن المحتمل أنها مزيج من الثلاثة، مع هيمنة الدافع الثاني. فبمجرد إعلان حكم البراءة، سالت الدموع بحرية مثلما كانت الدماء

تسيل في وقت آخر، وانهاالت الأحضان الأخوية على السجين من أكبر عدد ممكن من الجنسين الذين اندفعوا إليه، إلى درجة أنه بعد حبسه الطويل وغير الصحي كان في خطر الإغماء من الإرهاق؛ ومع ذلك، كان يعرف جيدًا أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم، الذين يحركهم تيار آخر، كانوا سيندفعون نحوه بنفس القوة ليمزقوه إربًا وينثرون أشلاءه في الشوارع.

كان إبعاده الآن لإفساح المجال أمام المتهمين الآخرين، الذين من المقرر محاكمتهم، سببًا في إنقاذه من هذه المداعبات. فقد كان من المقرر محاكمة خمسة أشخاص معًا بوصفهم أعداء للجمهورية، لأنهم لم يساعدوها بالقول أو الفعل. أسرع المحكمة لتعويض نفسها والأمة عن فرصة ضائعة، إلى درجة أن هؤلاء الخمسة نزلوا إليه قبل أن يغادر المكان، محكومًا عليهم بالموت خلال أربع وعشرين ساعة. أخبره أولهم بذلك، بعلامة الموت المعتادة في السجن، وهي إصبع مرفوعة، وأضافوا جميعًا عبارة «تعيش الجمهورية!».

وفي واقع الأمر، لم يكن لدى هؤلاء الخمسة جمهورٌ يطيل إجراءاتهم؛ فعندما خرج هو والدكتور مانيت من البوابة، التفَّ حولهم حشدٌ كبيرٌ، بدا أنه يضم كل وجه رآه في المحكمة ... باستثناء وجهين، بحث عنهما دون جدوى. وعند خروجه، أقبلت عليه الحشود من جديد، يبكون، ويتعانقون، ويتصايحون، بالتناوب وكلهم معًا، حتى بدا أن تيار النهر الذي وقع على ضفته المشهد المجنون، قد جُنَّ جنونه، كما جُنَّ جنون الناس على الشاطئ.

أجلسوه على كرسي كبير كان معهم وأخرجوه، إما من المحكمة نفسها، وإما من إحدى غرفها أو ممراتها. ألقوا فوق الكرسي علماً أحمر، بينما ربطوا على الجزء الخلفي منه رمحاً توجد قبعة حمراء على قمته. في عربة الانتصار هذه، لم تستطع حتى توسلات الطبيب أن تمنع حمله إلى منزله على أكتاف الرجال وسط بحر مضطرب من القبعات الحمراء تتأرجح حوله، وتقذف من الأعماق العاصفة إلى المشهد حطام الوجوه، إلى درجة أنه شك أكثر من مرة في أن عقله يعاني من حالة ارتباك، وأنه يركب عربة النقل المكشوفة في طريقه إلى المقصلة.

حملوه في موكب أشبه بحلم جامع، يعانقون كل من يقابلونه ويشيرون إليه. وبعد أن احمرّت الشوارع الثلجية باللون الجمهوري السائد، وهم يتجولون فيها ويطؤونها، كما سبق أن خضّبوها تحت الثلوج بصبغة حمراء أعمق، حملوه على هذا النحو إلى فناء المبنى الذي يعيش فيه. كان والدها قد أسرع إلى ابنته كي تستعد لاستقبال زوجها. وعندما وقف زوجها على قدميه، سقطت مغشياً عليها بين ذراعيه.

وبينما كان يضمهما إلى قلبه ويدير رأسها الجميل بين وجهه والحشد المتزاحم، حتى تلتقي دموعه وشفاتها دون أن يرى أحداً، بدأ عدد قليل من الناس يرقصون. وعلى الفور، شارك الباقي في الرقص، وفاض الفناء بالكرمانبول. ثم رفعوا امرأة شابة من الحشد إلى الكرسي الشاغر، لحملها بوصفها إلهة الحرية، واندفعوا إلى الشوارع المجاورة، وعلى طول ضفة النهر، وفوق الجسر، وقد اندمج كل منهم في الكرمانبول وأخذوا يدورون مندفعين إلى مناطق أخرى.

بعد أن أمسك بيد الطبيب، الذي وقف منتصبًا وفخورًا أمامه؛ وبعد أن أمسك بيد السيد لوري، الذي جاء لاهثًا من شدة كفاحه في مواجهة سيل الكرمانبول؛ وبعد تقبيل لوسي الصغيرة، التي رُفعت لتشبك ذراعيها حول رقبتة؛ وبعد احتضان الأنسة بروس المتحمسة والوفية، التي رفعت ابنته؛ أخذ زوجته بين ذراعيه وحملها إلى غرفتهما.

«لوسي! حبيبتي! أنا بأمان».

«يا عزيزي تشارلز، دعني أشكر الله على هذا وأنا راکعة على ركبتي، كما أفعل في صلاتي له».

أحنوا جميعًا رؤوسهم وقلوبهم بخشوع، وعندما عادت بين ذراعيه مرة أخرى، قال لها: «والآن تحدثي إلي والدك، يا عزيزتي. لم يكن في مقدور أي رجل في فرنسا كلها أن يفعل ما فعله والدك من أجلي».

وضعت رأسها على صدر والدها، مثلما وضعت رأسه المسكين على صدرها منذ زمن بعيد بعيد. كان سعيدًا بنجاحه في إعادة زوجها إليها، ونال تعويضًا عن معاناته، وكان فخورًا بقوته. عاتبها قائلاً: «يجب ألا تكوني ضعيفة يا حبيبتي. لا ترتجفي هكذا. لقد أنقذته».

الفصل السابع

طرق على الباب

«لقد أنقذته». لم يكن ذلك حلمًا آخر من الأحلام التي كثيرًا ما رأى فيها أنه يعود إلى بيته؛ فقد كان هنا حقًا، ومع ذلك ارتجفت زوجته، وسيطر عليها خوف غامض، لكنه ثقيل الوطأة.

كان الهواء حولها كثيفًا ومظلمًا للغاية، والناس متعطشون إلى الانتقام بشدة ومتقلبون، والأبرياء يُقتلون باستمرار بسبب الشك الغامض والحقْد الأسود، وكان من المستحيل نسيان أن الكثير من الأبرياء -مثل زوجها، وغيره من الأعماء بالنسبة إلى الآخرين بمثل معزة زوجها لها- يواجهون كل يوم المصير الذي نجا منه، إلى حد أن قلبها لم يخفف من عبئه كما شعرت أنه يجب أن يخفف منه. بدأت تتساقط ظلال فترة ما بعد الظهيرة الشتوية، ولا تزال العربات المربعة تتدحرج حتى الآن في الشوارع. طارد عقلها تلك العربات، بحثًا عنه بين المُدانين. ثم تشبثت أكثر بوجوده الحقيقي، وزاد ارتجافها.

أظهر والدها، تشجيعًا لها، سموًا رحيماً تجاه ضعف هذه المرأة، كان من الرائع رؤيته. لا توجد الآن علية، ولا صناعة أحذية، ولا مائة وخمسة، والبرج الشمالي! لقد أنجز المهمة التي حددها لنفسه، وأوفى بوعده، وأنقذ تشارلز؛ فليعتمدوا عليه جميعاً.

كان تدبير منزلهم مقتصدًا للغاية: ليس فقط لأن هذا هو أكثر طرق الحياة أمانًا، التي تنطوي على أقل قدر من الإهانة للناس، وإنما أيضًا لأنهم ليسوا أغنياء؛ وكان على تشارلز، طوال فترة سجنه، أن يدفع ثمنًا باهظًا مقابل طعامه الرديء، وحراسته، ومعيشة السجناء الأكثر فقرًا. جزئيًا لهذا السبب، وجزئيًا لتجنب وجود جاسوس منزلي، لم يكن لديهم خادم؛ بينما أسدى لهم المواطن والمواطنة، اللذان يعملان كبوابين عند بوابة الفناء، خدمات عرضية؛ وأصبح جيرى (الذي نقله إليهم السيد لوري بالكامل تقريبًا) خادمهم اليومي، ولديه سرير هناك ينام فيه كل ليلة.

كان مرسوم الجمهورية الأولى التي لا تتجزأ، جمهورية الحرية والمساواة والإخاء أو الموت، يقضي بأن يُكتب على باب أو عمود باب كل منزل اسم كل سجين بشكل مقروء وبأحرف من حجم معين، وعلى ارتفاع مناسب معين من الأرض. ولذلك، كان اسم السيد جيرى كرانشر يُزين عمود الباب أدناه على النحو الواجب. ومع زيادة عمق ظلال الظهيرة، ظهر صاحب هذا الاسم نفسه، من فوق كتف رسام استخدمه الدكتور مانيت لإضافة اسم تشارلز إيفريموند، المسمى دارني، إلى القائمة.

في ظل الخوف وعدم الثقة الشاملين، اللذين خيمت ظلماتهما على تلك الفترة، تغيرت جميع أساليب الحياة المعتادة غير المؤذية. ففي المنزل الصغير الذي شغله الطبيب، كما هي الحال في العديد من المنازل الأخرى، كانت البنود الاستهلاكية اليومية المطلوبة تُشتري كل مساء، بكميات صغيرة، ومن متاجر صغيرة مختلفة. فقد كانت

الرغبة العامة تكمن في تجنب جذب الانتباه، وإعطاء أقل فرصة ممكنة للحديث والحسد.

تتولى الآنسة بروس والسيد كرانشر، منذ بضعة أشهر، أداء مهمة متعهد التمويلين: تحمل الآنسة بروس المال، ويحمل السيد كرانشر السلة. يخرجان بعد ظهر كل يوم، عندما تُضاء المصابيح العامة، ويشتريان المواد الضرورية، ويحضرانها إلى المنزل. على الرغم من أن الآنسة بروس، من خلال ارتباطها الطويل بعائلة فرنسية، ربما كان من المفترض أنها تعرف الكثير من لغتهم بقدر ما تعرف من لغتها إذا رغبت، لكنها لم تكن راغبة في ذلك. وبالتالي، لم تكن تعرف عن هذا «الهراء» (كما كانت تحب تسمية تلك اللغة) أكثر مما يعرفه السيد كرانشر. لذلك، كان أسلوبها في التسويق يتلخص في إلقاء اسم على رأس صاحب المتجر دون أي حديث عن طبيعة السلعة المطلوبة؛ فإذا لم يكن الاسم مطابقاً للشيء الذي تريده، تبحث حولها عن السلعة المطلوبة، وتضع يدها عليها، وتظل متشبثة بها حتى ينتهي إبرام الصفقة. كانت تساوم دائماً، بأن ترفع -تعبيراً عن السعر الذي تراه عادلاً- إصبعاً واحدة أقل من عدد الأصابع التي يرفعها التاجر، مهما كان العدد.

«والآن، سيد كرانشر»، قالت الآنسة بروس، وعيناها حمراوان من السعادة: «إذا كنت مستعداً، فأنا على استعداد».

أعلن جيرى بصوت أجش أنه في خدمة الآنسة بروس. لقد استنفد كل صده منذ فترة طويلة، وإنما ما من شيء يمكن أن يسوي شعره الشائك ويخفضه إلى أسفل.

قالت الآنسة بروس: «نحتاج إلى كل أنواع الأشياء، وسنمضي وقتًا ثمينًا لشرائها. نريد شراء نبذ، من بين بقية الأشياء. سوف نجد ذوي الشعر الأحمر يشربون أنخابًا لطيفة، أينما نشتره».

أجاب جيرى: «أعتقد أن الأمرين سيأتان إلى حد كبير، يا آنسة، سواء كانوا يشربون في صحتك أو في صحة الصديق العجوز».

«من هو؟»، سألت الآنسة بروس.

أوضح السيد كرانشر، خجلًا، أنه يعني «إبليس العجوز».

قالت الآنسة بروس: «ها! ما من حاجة إلى مترجم لشرح معنى هذه المخلوقات. ليس لديها سوى معنى واحد، وهو القتل في منتصف الليل، والأذى».

صاحت لوسي: «صمتًا، عزيزتي! أرجوك، أرجوك، كوني حذرة!».

قالت الآنسة بروس: «نعم، نعم، نعم، سأتوخى الحذر. لكنني أستطيع أن أقول فيما بيننا، إنني آمل ألا يوجد في الشوارع اختناق بالبصل والتبغ على شكل عناق في كل مكان. والآن، يا عصفورتي، لا تتحركي أبدًا بعيدًا عن تلك النار حتى أعود! اعتني بالزوج العزيز الذي تمكنت من استعادته، ولا تحركي رأسك الجميل بعيدًا عن كتفه كما تفعلين الآن، حتى تشاهدينني مرة أخرى! هل لي أن أطرح سؤالًا، دكتور مانيت، قبل أن أذهب؟».

أجاب الطبيب مبتسمًا: «خذي حريتك».

قالت الآنسة بروس: «بالله عليك، لا تتحدث عن الحرية. لدينا ما يكفي من ذلك».

احتجت لوسي: «صمتًا، عزيزتي! مرة أخرى؟».

قالت الأنسة بروس وهي تومئ برأسها للتأكيد: «حسنًا، يا حلوتي، ملخص الأمر أنني من رعايا جلالة الملك جورج الثالث»، وانحنت الأنسة بروس عندما ذكرت الاسم، «وعلى هذا النحو، يتمثل مبدئي الأساسي في: إرباك سياستهم، وإحباط حيلهم الخبيثة، ونعلق عليه آمالنا، حفظ الله الملك!».

أخذ السيد كرانشر، في ولاء شديد، يكرر الكلمات بعد الأنسة بروس بصوتٍ مزمجر، مثل شخص في الكنيسة.

قالت الأنسة بروس، باستحسان: «أنا سعيدة لأنك تملك الكثير من صفات الرجل الإنجليزي، وإن كنت أتمنى ألا يصب صوتك هذا البرد. والآن السؤال، يا دكتور مانيت...» - كانت هذه المخلوقة الطيبة تتظاهر بالتهوين من أي شيء يُشكّل مصدر قلق كبير عليهم جميعًا، وتطرحه بهذه الطريقة العابرة - «ألا يوجد أي أمل، حتى الآن، لخروجنا من هذا المكان؟».

«أخشى لم يحن الأوان بعد؛ لا يزال يمثل خطرًا على تشارلز».

«وا أسفاه»، قالت الأنسة بروس وهي تكتم بمرح تنهيدة وتنظر إلى شعر حببيتها الذهبي في ضوء النار: «إذن يجب أن نتحلى بالصبر وننتظر: هذا كل شيء. يجب أن نرفع رؤوسنا ونقاتل بتواضع، كما اعتاد أخي سليمان أن يقول. هيا بنا، سيد كرانشر! لا تتحركي، يا عصفورتي!».

خرجتا تاركين لوسي، وزوجها، ووالدها، والطفلة، بجوار نار

مشتعلة. كان من المتوقع أن يعود السيد لوري من المؤسسة البنكية الآن. أضاءت الأنسة بروس المصباح، لكنها وضعت في ركن جانبي لكي يمكنهم الاستمتاع بضوء النار دون إزعاج. جلست لوسي الصغيرة بجانب جدها وقد شبكت يديها في ذراعه، وبدأ يروي لها، بنبرة لا ترتفع كثيرًا فوق الهمس، قصة جنية عظيمة وقوية فتحت جدار سجن وأخرجت أسيرًا كان قد قدّم لها خدمة ذات يوم. كان كل شيء هادئًا وساكنًا، وزاد شعور لوسي بالارتياح.

وفجأة صاحت: «ما هذا؟».

«عزيزتي!» قال والدها وتوقف عن قصته، ووضع يده على يدها: «سيطري على نفسك. يا لها من حالة مضطربة تعنين منها! أقل شيء... لا شيء... يزعجك! أنت، يا ابنة أبيك!».

قالت لوسي معذرة، بوجه شاحب وصوت متلعثم: «اعتقدت، يا أبي، أنني سمعت وقع أقدام غريبة على السلم». «حبيبتي، السلم ساكن كالموت».

وما إن قال هذه العبارة، حتى كانت هناك ضربة على الباب.

«آه يا أبي، يا أبي. ما هذا! عليك إخفاء تشارلز. أنقذه!».

قال الطبيب، وهو ينهض ويضع يده على كتفها: «يا طفلي، لقد أنقذته. أي ضعف هذا يا عزيزتي! دعيني أذهب إلى الباب».

أخذ المصباح في يده، وعبر الغرفتين الخارجيتين المتداخلتين، وفتح الباب. حدثت قعقة أقدام فطة على الأرض، ودخل الغرفة أربعة

رجال قساة يرتدون قبعات حمراء، ومسلحون بالسيوف والمسدسات.

قال الأول: «المواطن إيفريموند، المُسمى دارني».

«من يبحث عنه؟»، أجاب دارني.

«أنا أبحث عنه. نحن نبحث عنه. أنا أعرفك يا إيفريموند. لقد

رأيتك أمام المحكمة اليوم. أنت سجين الجمهورية مرة أخرى».

أحاط به الأربعة، حيث وقف وتشبث به زوجته وطفلته.

«قل لي كيف ولماذا أنا سجين مرة أخرى؟».

«يكفي أن تعود إلى الكونسيرجيري مباشرة، وستعرف الغد. سوف

تمثل غداً أمام المحكمة».

بعد هذه الكلمات، تحرك الدكتور مانيت -الذي حوّلته هذه الزيارة

إلى حبر، إلى درجة أنه وقف والمصباح في يده، وأنه تمثال صُنع

لحمل المصباح- ووضع المصباح جانباً، وواجه المتحدث، وأمسكه،

ليس بغير رفق، من الجزء الأمامي الفضفاض لقميصه الصوفي الأحمر،

وقال:

«قلت إنك تعرفه. فهل تعرفني؟».

«نعم، أعرفك، أيها المواطن الطبيب».

وقال الثلاثة الآخرون: «كلنا نعرفك، أيها المواطن الطبيب».

نظر ذاهلاً من واحد إلى آخر، وبعد صمت قصير قال بصوت

منخفض:

«هلا أجبتني عن سؤاله، إذن؟ كيف حدث هذا؟».

قال الأول على مضض: «أيها المواطن الطبيب، هناك بلاغ مقدم ضده إلى قسم ضاحية القديس أنطوان، هذا المواطن»، مشيرًا إلى الرجل الثاني الذي دخل، «من ضاحية القديس أنطوان».

أوماً المواطن المُشار إليه برأسه، وأضاف:

«إنه متهم من جانب ضاحية القديس أنطوان».

«متهم بماذا؟»، سأل الطبيب.

قال الأول على مضض كما كان من قبل: «أيها المواطن الطبيب، لا تسأل أكثر من ذلك، إذا كانت الجمهورية تطلب منك توضيحات، فلا شك أنك كويتي صالح ستكون سعيدًا بتقديمها. الجمهورية تأتي قبل الجميع. الشعب هو الأسمى. إيفريموند، نحن على عجلة من أمرنا».

«كلمة واحدة»، توسّل الطبيب «ألا تخبرني من الذي اتّهمه وأبلغ عنه؟».

أجاب الأول: «هذا مخالف للقواعد، لكن يمكنك أن تسأل الرجل الذي ينتمي إلى ضاحية القديس أنطوان».

أدار الطبيب عينيه إلى ذلك الرجل. تحرك الرجل في قلق، وفرك لحيته قليلاً، وقال أخيراً:

«حسنًا! هذا ضد القواعد فعلاً. لكن التهمة موجهة إليه، وبشكل خطير، من المواطن والمواطنة ديفارج. ومن شخص آخر».

«من الشخص الآخر؟».

«هل تسأل، أيها المواطن الطيب؟».

«نعم».

نظر الرجل المنتمي إلى صاحبة القديس أنطوان نظرة غريبة، وقال:

«إذن، ستعرف الرد غدًا. أما الآن، أنا أبكم!».

الفصل الثامن

أوراق اللعب

لم تكن الأنسة بروس، لحسن حظها، مدركة للكارثة الجديدة التي حلّت في المنزل؛ وشقّت طريقها على طول الشوارع الضيقة، وعبرت النهر بجوار جسر بونت-نوف (Pont-Neuf)، وأخذت تحسب في ذهنها عدد المشتريات التي لا غنى عن شرائها. سار السيد كرانشر إلى جانبها، حاملاً السلة. نظر كلاهما إلى اليمين وإلى اليسار في معظم المتاجر التي مرّا بها، وكانا ينظران بحذرٍ إلى كل تجمع من الناس المتجمهرين، ويتبعدان عن طريقهم تجنباً لأي مجموعة شديدة التحمس من المتحدثين. كانت أمسية باردة، وأظهر النهر الضبابي، الذي تحجبه عن العين الأضواء المشتعلة، وتحجبه عن الأذن الضوضاء الشديدة، أماكن تمرّك المراكب التي يعمل فيها الحدادون، ويصنعون البنادق لجيش الجمهورية. ويل للرجل الذي يحتال على ذلك الجيش، أو يحصل على ترقية غير مستحقّة! من الأفضل ألا تنبت لحيته أبداً، لأن شفرة الحلاقة الوطنية جاهزة لتحلّقه تماماً.

الآنسة بروس، بعد أن اشترت بعض السلع من البقالة، وكمية من الزيت للمصباح، تذكرت النبيذ الذي يريدونه. ألقت نظرة خاطفة

إلى العديد من متاجر النبيذ، وتوقفت عند علامة «الجمهوري الصالح بروتوس من العصور القديمة»، التي لم تكن بعيدة عن القصر الوطني، الذي كان اسمه مرة (ومرتين) التويلري، حيث أثار مظهر الأشياء خيالها. بدا مظهره أكثر هدوءًا من أي مكان مشابه مرَّ به؛ وعلى الرغم من لونه الأحمر بالقبعات الوطنية، لم يكن احمراره مثل البقية. استطلعت رأي السيد كرانشر ووجدته من رأيها، فتوجهت الآنسة بروس إلى «الجمهوري الصالح بروتوس من العصور القديمة» ومعها فارسها.

اقترب الزبونان الغريبان من الطاولة، وأوضحا ما يريدان، لكنها لاحظا الأضواء الدخانية؛ والناس يدخنون والغليون في أفواههم ويلعبون الورق ببطاقاتٍ متهاكة والدومينو بقطعٍ مصفرة؛ والعامل عاري الصدر والذراعين والملطخ بالسخام وهو يقرأ مجلة بصوت عالٍ، ويستمتع إليه الآخرون؛ والأسلحة التي يرتديها البعض أو يضعونها جانبًا لارتدائها فيما بعد؛ واثنين أو ثلاثة من الزبائن الذين غلبهم النعاس فناموا، وبدوا في هذه الوضعية مع ستراتهم الشعبية السوداء الفظة عالية الكتفين، مثل الدببة أو الكلاب النائمة.

وفي أثناء عملية قياس نبيذهم، ترك رجل زميله في أحد الأركان، وقام ليغادر. وفي ذهابه، كان عليه أن يواجه الآنسة بروس، وبمجرد أن واجهها، صرخت الآنسة بروس وشفقت بيديها.

في لحظة، وقف الجميع. كان اغتيال شخص على يد شخص آخر بسبب اختلاف في الرأي هو الحدث الأكثر احتمالاً. نظر الجميع لرؤية شخص يسقط، لكنهم لم يروا سوى رجل وامرأة يقفان يحقدان

إلى بعضهما. الرجل يبدو على مظهره الخارجي أنه فرنسي وجمهوري أصيل؛ بينما تبدو المرأة بوضوح إنجليزية. ما قاله أتباع «بروتوس الجمهوري الصالح من العصور القديمة» بعد هذه النهاية المخيبة للآمال، باستثناء أنه كان شيئاً ثرثاراً وصاحباً للغاية، كان يمكن أن يبدو باللغة العبرية أو الكلدانية بالنسبة إلى الأنسة بروس وحاميتها، على الرغم من أنهما كانا آذاناً صاغية. لكن دهشتيهما حالت دون أن تسمع أذناهما أي شيء. ويجب هنا تسجيل أن الأنسة بروس لم تكن غارقة هي فقط في هذه الحالة من الدهشة والاضطراب، بل إن السيد كرانشر -على الرغم من أنه بدا كأنه في حالة منفصلة وفردية- كان في حالة من الدهشة العظمى.

«ما الأمر؟»، قال الرجل الذي تسبب في صراخ الأنسة بروس؛ متحدثاً بصوتٍ مزعجٍ وفظاً (وإن كان بنبرة منخفضة)، وباللغة الإنجليزية.

«أوه، سولومون، عزيزي سولومون!»، صرخت الأنسة بروس، وصفقت بيديها مرة أخرى، «لم تقع عيناى عليك، ولم أسمع منك منذ فترة طويلة، وأجذك هنا!».

«لا تناديني سولومون. هل تريدان التسبب في موتي؟»، سألهما الرجل بطريقة خفية وخائفة.

«أخي، أخي!»، صرخت الأنسة بروس، وأجهشت في البكاء. «هل سبق أن كنت صارمة معك لتسألني مثل هذا السؤال القاسي؟».

قال سولومون: «أمسكي إذن لسانك المتطفل، وأخرجني إذا كنت

تريد التحدث معي. ادفعي ثمن النبيذ الذي اشتريته واخرجي، من هذا الرجل؟».

«السيد كرانشر»، أجابت الأنسة بروس، وهي دامعة العينين وتهز رأسها المحب والحزين تجاه شقيقها الذي لم يكن حنوناً بأي حال من الأحوال».

قال سولومون: «فليخرج أيضاً، هل يظنني شبحاً؟».

من الواضح من نظرات السيد كرانشر أنه كان يظنه شبحاً، ومع ذلك، لم يقل كلمة واحدة. أما الأنسة بروس، فقد نظرت باكية إلى أعماق حقيبة يدها، وبصعوبة كبيرة دفعت ثمن نبيذها. وفي أثناء قيامها بذلك، التفت سولومون إلى أتباع «بروتوس الجمهوري الصالح من العصور القديمة»، وألقى عليهم بضع كلمات توضيحية باللغة الفرنسية، مما دفعهم جميعاً إلى أماكنهم وشواغلهم السابقة.

«والآن»، قال سلومون، بعد أن توقف عند زاوية الشارع المظلمة، «ماذا تريدون؟».

صاحت الأنسة بروس: «يا لك من أخ قاسٍ يقابلني بمثل هذه التحية ولا يُظهر لي أي عاطفة، وأنا التي لم يُصرفني عن حبك أي شيء قط!». «هكذا، اللعنة!»، قال سولومون، وهو يربت على شفتي الأنسة بروس بشفتيه، والآن هل أنت راضية؟».

اكتفت الأنسة بروس بهز رأسها، وبكت في صمت.

قال شقيقها سولومون: «إذا كنت تتوقعين مني أن أتفاجأ، فأنا

لست مندهشًا. كنت أعرف أنك هنا؛ فأنا أعرف معظم الناس المقيمين هنا. وإذا كنت لا تريد حقًا تعريض وجودي للخطر - وهذا ما أكاد أعتقد - فاذهبي في طريقك في أسرع وقتٍ ممكن، ودعيني أذهب في طريقي، أنا مشغول، أنا موظف».

قالت الآنسة بروس بحزنٍ، وهي ترفع عينيها المشحونتين بالدموع: «أخي الإنجليزي سولومون، الذي كان يتمتع بجميع المؤهلات ليصبح أحد أفضل وأعظم الرجال في بلده الأصلي، أصبح الآن موظفًا بين أجانب، ويا لهم من أجانب! كنت أفضل أن أرى الصبي العزيز مستلقيًا على...».

صرخ شقيقها، مقاطعًا: «قلت ذلك! كنت أعرف ذلك، تريد أن تكوني سبب موتي، سأصبح مشتبهًا به، بسبب أختي. والآن، وأنا أشق طريقي إلى الأمام!».

صاحت الآنسة بروس: «لا سمح الله الكريم الرحيم! أفضل ألا أراك مرة أخرى، عزيزي سولومون، رغم أنني أحبتك بصدق، وسأظل أحبك بصدق، قل لي كلمة حنونة واحدة فقط، وأخبرني أنه لا يوجد بيننا أي غضب أو جفاء، ولن أستبقيك أكثر من ذلك».

يا لطيفة الآنسة بروس! كأن الجفاء بينهما كان بسبب ذنب ارتكبه، كأن السيد لوري لا يعرف منذ سنوات، في تلك الزاوية الهادئة في سوهو، أن هذا الأخ الغالي قد أنفق أموالها وتركها!

كان ينطق الكلمة الحنونة، على أي حال، وإن كان باستعلاءٍ وتفضُّل متبرم أكثر بكثير مما كان يمكن أن يظهره إذا كانت مزاياهما ومواقفهما النسبية معكوسة (وهو ما يحدث دائمًا، في أنحاء العالم كافة)، عندما

لمسه السيد كرانشر على كتفه، وتدخل بصوتٍ أجش وغير متوقع ليوجّه إليه السؤال الغريب التالي:

«أقول! هل يمكن أن أطلب منك معروفًا؟ هل اسمك جون سولومون أم سولومون جون؟».

التفت الموظف نحوه بريية مفاجئة، لم يكن قد نطق بكلمة من قبل. قال السيد كرانشر «تعال! تكلم، أنت تعرف» (وهذا، بالمناسبة، كان أكثر مما يستطيع أن يفعله بنفسه). «جون سولومون أم سولومون جون؟ إنها تدعوك سولومون، ولا بد أنها تعرف ذلك، لأنها أختك. وأنا أعرفك باسم جون، كما تعلم. أيهما يأتي أولاً؟ وبالمثل، فيما يتعلق باسم بروس، هذا لم يكن اسمك عبر البحار».

«ماذا تعني؟».

«حسنًا، أنا لا أعرف كل ما أعنيه، لأنني لا أستطيع أن أتذكر ماذا كان اسمك عبر البحار».

«لا تتذكر؟».

«لا، لكنني أقسم إنه اسم من مقطعين».

«فعلًا؟».

«نعم، كان عند الآخرين يتكوّن من مقطع واحد. أنا أعرفك، أنت كنت جاسوسًا-شاهدًا في محكمة أولد بيلي. باسم «أبو الكذب»^(١)، أبيك، ماذا كان اسمك حينذاك؟».

(١) يصف الكتاب المقدس الشيطان بأنه «أبو الكذب» - المقصود إبليس، إنجيل يوحنا، الإصحاح ٤٤: ٨ - (الترجمة).

قال صوت آخر، متدخلًا: «بارساد».

صراح جيري: «هذا هو الاسم، أراهن على ذلك بألف جنيه!».

كان المتحدث الذي تدخل في الحديث هو سيدني كارتون؛ وقد وضع يديه خلفه، تحت تنوره معطف الفروسية الذي يرتديه، ووقف عند مرفق السيد كرانشر بإهمالٍ بمثل طريقة وقوفه في محكمة أولد بيلي نفسها.

«لا تنزعجي، عزيزتي الأنسة بروس. لقد فاجأت السيد لوري مساء أمس عند حضوري إلى منزله، واتفقنا على ألا أذهب إلى أي مكان آخر، إلى أن يصبح كل شيء على ما يرام، أو ما لم يكن في وسعي أن أكون مفيدًا. وقد أتيت هنا ملتمسًا محادثة قصيرة مع أخيك. أتمنى لو كان لديك أخ موظف أفضل من السيد بارساد، وأتمنى من أجلك، ألا يكون السيد بارساد من «خراف السجون»».

كانت كلمة خروف في ذلك الوقت تعني الجاسوس الذي يعمل لصالح السجان. زاد شحوب الجاسوس الشاحب، وسأله كيف تجرأ... قال سيدني: «سأخبرك، لقد رأيتك مصادفة، يا سيد بارساد، في أثناء خروجي من سجن الكونسيرجيري، بينما كنت أتأمل الجدران، قبل ساعة أو أكثر، لديك وجه لا يُنسى، وأنا أتذكر الوجوه جيدًا. أثارت رؤيتي لك هناك فضولي؛ وسبب ذلك ليس غريبًا عليك، يربطك بمصائب صديق تعس للغاية الآن. فمشيت في اتجاهك. دخلت إلى متجر النبيذ هنا، في أعقابك مباشرة، وجلست بالقرب منك. لم أجد صعوبة في استنتاج طبيعة عملك، من حديثك غير المتحفظ، والشائعات

التي تدور علناً بين معجبيك. وتدرّيجاً، بدا لي أن ما قمت به عشوائياً، قد تحوّل إلى هدف، يا سيد بارساد».

«وما الهدف؟»، سأل الجاسوس.

«قد يكون من المزعج، وربما من الخطر، أن أشرح في الشارع. فهل لك أن تتفضّل بمنحي صحبتك، بسرية، لبعض الدقائق؛ في مكتب بنك تيلسون، على سبيل المثال؟»
«تحت التهديد؟».

«أوه! هل قلت ذلك؟»

«إذن، لماذا يجب أن أذهب إلى هناك؟».

«حقاً، سيد بارساد، لا أستطيع أن أقول، إذا كنت لا تستطيع».

سأل الجاسوس بتردد: «هل تقصد أنك لن تقول، يا سيدي؟».

«أنت تفهمني بوضوحٍ شديدٍ، سيد بارساد، لن أفعل».

لقد أدّت رعونة سلوك كارتون المستهترة إلى المساعدة بقوة على تعزيز سرعته ومهارته في مثل هذه المهمة التي كانت تدور في ذهنه، ومع مثل هذا الرجل الذي كان عليه أن يتعامل معه. أدركت عينه المتمرسّة ذلك، واستفاد منه إلى أقصى حدّ.

ألقي الجاسوس نظرة تأنيب على أخته، قائلاً: «والآن، لقد أخبرتك بذلك. إذا نتج عن ذلك أي مشكلة، فهذا من صنّعك».

قال سيدني: «تعال، تعال، سيد بارساد! لا تكن جاحداً. فلولا احترامي الكبير لأختك، ربما لم أكن لأقدّم لك اقتراحاً بسيطاً أود تقديمه لمصلحتنا المتبادلة. هل تأتي معي إلى البنك؟».

«سوف أسمع ما لديك لتقوله. نعم، سأذهب معك».

«أقترح توصيل أختك أولاً بأمانٍ إلى زاوية شارعها. دعيني أمسك بذراعك، يا آنسة بروس؛ فهذه المدينة ليست جيدة، في هذا الوقت، لأن تسييري في الشارع دون حماية. ونظرًا إلى أن مرافقك يعرف السيد بارساد، سأدعوه إلى السيد لوري معنا. هل نحن مستعدون؟ هيا، إذن!». تذكرت الآنسة بروس بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، وحتى نهاية حياتها، أنها عندما ضغطت بيديها على ذراع سيدني ونظرت في وجهه، وتوسّلت إليه ألا يؤذي سولومون، شعرت بعزيمة قوية في ذراعه ونوع من الإلهام في عينيه، لا يتناقضان مع أسلوبه الخفيف فحسب، بل غيرًا الرجل أيضًا وارثقيا به. كانت مشغولة جدًا آنذاك بمخاوفها على الأخ الذي لا يستحق عاطفتها، وبطمينات سيدني الودية، إلى حد أنها لم تُولِ انتباهًا كافيًا إلى ما لاحظته.

تركاها عند زاوية الشارع، وقاد كارتون الطريق إلى السيد لوري، الذي كان على بُعد بضع دقائق سيرًا على الأقدام. سار جون بارساد، أو سولومون بروس، إلى جانبه.

كان السيد لوري قد انتهى لتوّه من تناول عشائه، ويجلس أمام قطعة أو قطعتين صغيرتين مبتهجتين من الخشب تشتعل فيهما النيران؛ ربما ينظر إلى ليهيهما بحثًا عن صورة ذلك الرجل المُسن الأصغر سنًا من بنك تيلسون، الذي سبق ونظر إلى الفحم الأحمر في رويال جورج في دوفر، منذ سنوات عديدة. أدار رأسه عند دخولهما، وبدأ عليه الدهشة التي تبدو على المرء عند رؤية شخص غريب.

قال سيدني: «شقيق الأنسة بروس، سيدي، السيد بارساد».
كرر الرجل العجوز: «بارساد؟ بارساد؟ هناك ارتباط بهذا الاسم،
والوجه أيضًا».

قال كارتون بيروود: «أخبرت أن وجهك يلفت النظر، سيد بارساد.
تفضل بالجلوس».

عندما أخذ كرسيه بنفسه، أوضح الارتباط الذي أراده السيد لوري،
بأن قال بعبوس: «كنت شاهدًا في تلك المحاكمة». تذكر السيد لوري
على الفور، ونظر إلى زائرته الجديد نظرة اشمئزاز واضحة.

قال سيدني: «لقد تعرّفت الأنسة بروس على السيد بارساد، باعتباره
الأخ الحنون الذي سمعت أنت عنه، وقد اعترف هو بالقرابة. أنتقل الآن
إلى أخبار أسوأ؛ لقد أُلقي القبض على دارني ثانية».

صاح الرجل العجوز مذعورًا: «ماذا تقول! لقد تركته سالمًا وحرًا
منذ ساعتين، وأنا على وشك العودة إليه!».

«اعتقل رغم كل ذلك. متى اعتُقل، يا سيد بارساد؟».

«الآن، إن كان اعتُقل حقًا».

قال سيدني: «السيد بارساد هو أفضل مصدرٍ ممكن للمعلومات،
يا سيدي. وقد عرفت بوقوع الاعتقال من حديثٍ دار بين السيد بارساد
وصديق وزميل له من الخراف وهما يحتميان زجاجة نبيذ. فقد ترك
الرُّسل عند البوابة، ورأى البواب يُدخلهم. ما من شك في أنهم اعتقلوه
ثانية».

قرأت عين السيد لوري الثاقبة في وجه المتحدث أن الإسهاب في هذه النقطة ضياعٌ للوقت. ارتبك، لكنه شعر أن هناك شيئاً قد يعتمد على حضور ذهنه؛ فسيطر على نفسه، وانتبه بصمت.

قال له سيدني: «الآن، أنا على يقينٍ من أن اسم الدكتور مانيت ونفوذه قد يجعلانه في وضعٍ جيدٍ غداً؛ قلت إنه سيمثل أمام المحكمة مرة أخرى في الغد، سيد بارساد؟».

«نعم؛ أعتقد ذلك».

«... في وضعٍ جيدٍ غداً كما هي الحال اليوم، لكن ذلك قد لا يحدث. أعترف لك، يا سيد لوري، أنني منزعج من عدم قدرة الدكتور مانيت على الحيلولة دون هذا الاعتقال».

قال السيد لوري: «ربما لم يكن على علمٍ بذلك مسبقاً».

«لكن هذا الظرف بالذات يثير القلق، عندما نتذكر مدى ارتباطه بصهره».

«هذا صحيح»، أقر السيد لوري، ويده المضطربة على ذقنه، وعينه المضطربتان على كارتون.

قال سيدني: «باختصارٍ، هذه فترة يائسة، تُلعب خلالها مباريات يائسة من أجل رهانات يائسة. دَع الطيب يلعب اللعبة الفائزة؛ وسألعب أنا اللعبة الخاسرة. حياة أي رجل هنا لا تستحق الشراء. أي شخص يحمله الناس إلى المنزل اليوم، قد يُدان غداً. والآن، الرهان الذي قررت اللعب من أجله، في حالة حدوث الأسوأ، هو صديق في الكونسيرجيري. والصديق الذي أنوي الفوز به هو السيد بارساد».

قال الجاسوس: «أنت في حاجة إلى أوراق لعب جيدة، يا سيدي».
«سوف أكشف أوراقتي. سوف أرى ماذا لديّ. سيد لوري، أنت تعرف مدى فظاظتي؛ أتمنى أن تعطيني القليل من البراندي».
وضع البراندي أمامه، شرب كأسًا كاملة، ثم شرب كأسًا ثانية كاملة، ودفع الزجاجة بعيدًا وهو يمعن في التفكير.

«سيد بارساد»، تابع بنبرة شخص ينظر حقًا إلى أوراق اللعب، «خروف السجون، مبعوث اللجان الجمهورية، تارة سجان وتارة سجين، ودائمًا جاسوس ومخبر سري؛ وهو أكثر قيمة هنا كونه إنجليزيًا، ذلك أن الرجل الإنجليزي أقل عُرضة للشك في شهادته من شهادة رجل فرنسي يقدّم نفسه لأرباب عمله تحت اسمٍ مستعار. هذه ورقة لعب جيدة جدًا. فالسيد بارساد، الذي يعمل الآن في خدمة الحكومة الفرنسية الجمهورية، كان يعمل سابقًا في خدمة الحكومة الإنجليزية الأرستقراطية، عدوة فرنسا والحرية. هذه ورقة لعب ممتازة. وهنا يصبح الاستنتاج واضحًا وضوح الشمس في هذه المنطقة التي تخيم عليها الشكوك: أن السيد بارساد، الذي لا يزال يتقاضى أجرًا من الحكومة الإنجليزية الأرستقراطية، هو جاسوس بيت^(١)، عدو الجمهورية الغادر

(١) ويليام بيت الأصغر (William Pitt the Younger, 1759-1806): أصغر رئيس وزراء لبريطانيا العظمى، وآخر رئيس وزراء لها من عام ١٧٨٣ حتى صدور قوانين الاتحاد عام ١٨٠٠، ثم أصبح أول رئيس وزراء للمملكة المتحدة من يناير ١٨٠١. ترك منصبه في مارس ١٨٠١، لكنه شغل منصب رئيس الوزراء مرة أخرى من عام ١٨٠٤ حتى وفاته في عام ١٨٠٦. يُعرف باسم «بيت الأصغر» لتمييزه عن والده، ويليام بيت الأكبر، الذي شغل أيضًا منصب رئيس الوزراء سابقًا - (المترجمة).

الرابض في أحضانها، الخائن والعميل الإنجليزي الذي يتسبب في كل الأذى الذي يتحدث عنه الناس كثيرًا، ويصعب العثور عليه. هذه ورقة لا يمكن التغلب عليها. هل عرفت أوراقِي يدي، سيد بارساد؟».

ردَّ الجاسوس، بقلبي إلى حدٍّ ما: «لا أفهم لعبتك».

«ألعب بورقة الآس، إدانة السيد بارساد في أقرب لجنة قسم. انظر إلى يدك، سيد بارساد، وانظر ما لديك من أوراق. لا تتعجل».

جذب الزجاجة بالقرب منه، وسكب كأسًا كاملة أخرى من البراندي، وشربه. رأى أن الجاسوس كان خائفًا من أن أشرب حتى أصل إلى حالة مناسبة لتوجيه اتهام فوري له. وعندئذٍ، سكب كأسًا أخرى وشربها.

«انظر إلى الأوراق في يدك بعناية، سيد بارساد، خذ وقتك».

كانت يدًا أسوأ مما يظن. رأى فيها السيد بارساد أوراقًا خاسرة، لا يعرف عنها سيدني كارتون شيئًا. فقد طُرد من وظيفته المُشرِّفة في إنجلترا لكثرة أذائه اليمين الكاذب هناك - ليس لأنه لم يكن مرغوبًا هناك؛ فإسبابنا الإنجليزية للتباهي بتفوقنا على السرية والجواسيس ترجع إلى تاريخ حديث للغاية - ويعرف أنه عبَّر القناة الإنجليزية، وقَبِلَ العمل في خدمة الحكومة الفرنسية: أولاً، كشيطان يمارس الإغواء والتنصت على مواطني بلده هناك، وتدرجيًا كشيطان يمارس الإغواء والتنصت على الفرنسيين أنفسهم. يعرف أنه في ظل الحكومة المخلوعة كان جاسوسًا على ضاحية القديس أنطوان وعلى متجر ديفارج للنبيذ؛ وأنه تلقى من الشرطة الساهرة رؤوس معلومات عن سجن الدكتور مانيت وإطلاق

سراحه وتاريخه، تكفي كمدخلٍ له ليتمكّن من إجراء حديثٍ ودي مع الزوجين ديفارج، وقد حاول ذلك مع السيدة ديفارج لكنه أخفق تمامًا. كان يتذكر دائماً بخوفٍ وارتعاشٍ، أن تلك المرأة الرهيبة كانت تواصل الحياكة عندما تحدث إليها، وتنظر إليه بشكلٍ يُنذرُ بالسوء بينما كانت أصابعها تتحرك. وقد رآها مرارًا وتكرارًا، منذ ذلك الحين، في ضاحية القديس أنطوان تُخرج سجلاتها المنسوجة، وتندد بأشخاصٍ ما تلبث المقصلة أن تبتلع حياتهم حتمًا. وكان يعرف، مثلما يعرف كل شخص يمارس نفس عمله، أنه لم يكن آمنًا قط؛ وأن الهروب مستحيل؛ وأنه مُقيدٌ بإحكامٍ تحت ظل الفأس؛ وأنه رغم أقصى محاولاته للمراوغة والخيانة تعزيرًا للإرهاب السائد، فإن كلمة واحدة قد تقضي عليه. وبمجرد إدانته، على تلك الأسس الخطيرة التي طرأت للتوّ في ذهنه، يتوقع أن هذه المرأة الرهيبة، التي رأى العديد من الأدلة على شخصيتها القاسية، سوف تقدم ضده سجلها القاتل، وتلغي فرصته الأخيرة في الحياة. وبالإضافة إلى أن الرجال السريين جميعًا سرعان ما يصابون بالرعب؛ وتوجد هنا بالتأكيد أوراقٌ كافية لبذلة سوداء واحدة، تبرر غضب حاملها عندما يقلبها.

قال سيدني، بهدوءٍ شديدٍ: «يبدو أن الأوراق التي في يدك لا تعجبك. هل تلعب؟».

قال الجاسوس، بأكثر الأساليب وضاعة، ملتفتًا إلى السيد لوري: «أعتقد، يا سيدي، أن في مقدوري مناشدة رجل نبيل في مثل سنك وكرمك أن تسأل هذا الرجل الآخر، وهو أصغر منك سنًا بكثير، ما إذا

كان في إمكانه، تحت أي ظرف من الظروف، التوفيق بين لعب ذلك الآس الذي تحدث عنه وبين وضعه. أعترف أنني جاسوس، وأنه يُعتبر عملاً مشيناً؛ على الرغم من ضرورة أن يمارسه شخص ما، لكن هذا الرجل ليس جاسوساً، فلماذا يحط من قدر نفسه إلى هذا ليجعل من نفسه جاسوساً؟».

أجاب كارتون نفسه، وهو ينظر إلى ساعته: «سوف أَلعب الآس، سيد بارساد، دون أي تردد، خلال دقائق قليلة جداً».

قال الجاسوس، مع سعيه الدائم لجذب السيد لوري إلى المناقشة: «كنت أتمنى، أيها السيدان، «أن احترامكما لأختي...».

قال سيدني كارتون: «ليس في وسعي أن أشهد باحترامي لأختك بشكل أفضل من إنقاذها نهائياً من أخيها».

«أنت لا تفكر في ذلك، سيدي؟».

«لقد حسمت أمري تماماً في هذا الموضوع».

نعومة أسلوب الجاسوس، التي تتنافر بشكل غريب مع خشونة ملابسة المتباهية، وربما مع سلوكه المعتاد، اصطدمت بغموض كارتون -الذي كان لغزاً للرجال أكثر حكمة وأمانة منه- بحيث تعثر أسلوبه هذا وخذله. وبينما كان في حيرة في أمره، قال كارتون، مستأنفاً مظهره السابق كرجل يتأمل أوراق اللعب:

«وفي الحقيقة، بعد أن أعدت التفكير الآن مرة أخرى، لديّ انطباع قوي بأن لديّ هنا ورقة لعب جيدة أخرى، لم أحسبها بعد. ذلك الصديق

والزميل الخروف، الذي قال عن نفسه إنه يرمى في سجون الريف؛ من هو؟».

قال الجاسوس بسرعة: «إنه فرنسي، أنت لا تعرفه».

«فرنسي، هه؟»، كرر كارتون، متأملاً، بادياً كأنه لم يلاحظه على الإطلاق، رغم أنه ردد كلمته: «حسنًا. قد يكون كذلك».

قال الجاسوس: «إنه فرنسي، أوكد لك؛ على الرغم من عدم أهمية ذلك».

كرر كارتون، بالطريقة الميكانيكية نفسها: «على الرغم من عدم أهمية ذلك، على الرغم من عدم أهمية ذلك؛ لا، ليس مهمًا. لا. ومع ذلك، فأنا أعرف الوجه».

«لا أعتقد. أنا متأكد من ذلك. هذا غير ممكن».

«هذا... غير... ممكن»، تمتم سيدني كارتون، مستعيداً أحداث ماضية، ومع شرب كأسه (التي كانت لحسن الحظ صغيرة). «هذا... غير ممكن. إنه يتحدث الفرنسية جيداً؛ وإن كان، كما أعتقد، مثل رجل أجنبي؟».

قال الجاسوس: «إنه ريفي».

صاح كارتون، ضارباً على الطاولة بيده المفتوحة؛ إذ أومض ضوء واضح في ذهنه: «كلا. أجنبي! إنه كلاي! متكرراً، لكنه نفس الرجل. كان هذا الرجل أماناً في أولد بيلي».

«الآن، أنت متسرع يا سيدي»، قال بارساد بابتسامة زادت من ميل

أنفه المعقوف إلى جانب واحد، «ها أنت تمنحني حقاً ميزة عليك. كلاي (الذي أعترف دون تحفظ، بعد انقضاء هذه الفترة الزمنية، كان شريكاً لي) مات منذ عدة سنوات. وقد رافقته في مرضه الأخير. دُفن في لندن، في كنيسة القديس بانكراس. وقد حالت عدم شعبيته بين جموع الأشرار حينذاك دون السير في جنازته، لكنني ساعدت في وضعه في نعشه».

هنا تنبه السيد لوري، من موقع جلوسه، إلى ظل عفريت ملحوظ على الحائط. وبتتبعه مصدر الظل، اكتشف أنه ناتج عن ارتفاع مفاجئ غير عادي وتصلب كل الشعر المرتفع والمتصلب أصلاً على رأس السيد كرانشر.

قال الجاسوس: «لنكن عقلانيين، ولنكن منصفين. ولأبين لك كم أنت مخطئ، وأن افتراضك لا أساس له من الصحة، سأضع أمامك شهادة دفن كلاي، التي يصدف أنني أحملها في محفظتي منذ ذلك الحين». أخرجها بيد سريعة وفتحها. «ها هي. أوه، انظر إليها، انظر إليها! يمكنك أن تمسكها بيدك. إنها ليست مزورة».

وهنا أدرك السيد لوري أن الانعكاس على الحائط يستطيل. ونهض السيد كرانشر وتقدم إلى الأمام. لم يكن شعره ليبدو أكثر عنفاً عند نهايته، لو كان في تلك اللحظة قد ارتدى زي البقرة ذات القرن المجعد في المنزل الذي بناه جاك.

وقف السيد كرانشر إلى جانب الجاسوس، دون أن يدعه يراه، ولمس كتفه مثل حاجب محكمة شبحي.

قال السيد كرانشر، بوجه صامت وجامد: «هذا روجر كلاي، أيها السيد. إذن، وضعته في نعشه؟».

«نعم».

«ومن أخرج منه؟».

انحنى بارساد إلى الوراء على كرسيه، وقال متلعثمًا: «ماذا تقصد؟».

قال السيد كرانشر: «أعني أنه لم يدخل هذا النعش قطُّ. لا! ليس هو! وأنا مستعد لقطع رأسي، إذا كان داخل هذا النعش».

نظر الجاسوس حوله إلى السيدين؛ ونظر كلاهما في دهشة لا توصف إلى جيري.

قال جيري: «أقول لك إنك دفنت حجارة الرصف والتراب في ذلك التابوت. لا تتمادى وتخبرني أنك دفنت كلاي، كانت خدعة، أنا واثنان آخران نعرف ذلك».

«كيف تعرف ذلك؟».

قال السيد كرانشر هادراً: «ما شأنك؟ يا إلهي! إنه أنت الذي أحمل ضده ضغينة قديمة، أليس كذلك، مع احتيالك المخزي على التجار! يمكنني أن أمسك بحلقك وأخنقك مقابل نصف جنيه».

سيدني كارتون، الذي أصابته هو والسيد لوري دهشة من هذا التحول في العمل، فقد طلب هنا من السيد كرانشر أن يهدئ من روعه ويشرح موقفه.

أجاب متهرباً: «في وقت آخر، يا سيدي؛ فالوقت الحالي غير

مناسب للشرح». ما أوكدّه هو أنّه يعرف جيّدًا أنّ كلاي لم يدخل قطُّ إلى ذلك التابوت. دعه يقول إنه دخل فيه، ولو بكلمة واحدة من مقطع لفظي واحد، أو أمسك بحلقه وأخنقه مقابل نصف جنيه؛ وقد كرر السيد كرانشر هذا العرض باعتباره عرضًا سخياً للغاية، «أو أخرج وأعلن عن ذلك».

قال كارتون: «همم! أرى شيئًا. معي ورقة أخرى، سيد بارساد. من المستحيل هنا، في باريس المستعرة، والشك الذي يملأ الهواء، أن تنجو من الإدانة، عندما تكون على اتصالٍ بجاسوسٍ أرستقراطي آخر ينتمي إلى أسلافك أنفسهم، ويحيط به -علاوة على ذلك- لغز حول تظاهره بالموت وعودته إلى الحياة مرة أخرى! مؤامرة في السجون، من أجنبي ضد الجمهورية. ورقة لعب قوية... ورقة لعب تقود إلى المقصلة مباشرة! هل تلعب؟».

أجاب الجاسوس: «لا! أنا أستسلم. أعترف أننا لم نكن نتمتع بشعبية بين الغوغاء الغاضبين، إلى حد أنني ابتعدت وحدي عن إنجلترا خشية التعرض لخطر الموت، وظل كلاي يتنقل من مكان إلى آخر، ولم يكن ليفلت على الإطلاق لولا تلك الخدعة. أما كيف يعرف هذا الرجل بهذه الخدعة، فهذا أعجب العجب بالنسبة إليّ».

أجاب السيد كرانشر المشاكس: «لا تزعج رأسك أبدًا بشأن هذا الرجل، ستواجه مشكلة كافية عند إيلاء انتباهك لهذا الرجل. وانظر هنا! مرة أخرى!» -لم يستطع السيد كرانشر أن يمنع نفسه من استعراضه المتفاخر بسخائه- «سأمسك بحلقك وأخنقك مقابل نصف جنيه».

أدار خروف السجون بصره إلى سيدني كارتون، وقال بمزيد من الحزم: «لقد وصل الأمر إلى نقطة جوهرية. سرعان ما أذهب إلى عملي، ولا يمكنني أن أتأخر. أخبرني أن لديك اقتراحًا، ما هو؟ ما من فائدة الآن لتطلب مني الكثير. لو طلبت مني أن أفعل أي شيء في مكتبي، بما يعرض رأسي لخطرٍ إضافي كبير، من الأفضل حفظًا على حياتي اختيار الرفض وليس الموافقة. باختصارٍ، يجب أن أقوم بهذا الاختيار. أنت تتحدث عن اليأس، نحن جميعًا يائسون هنا. تذكر! قد أتهمك إذا رأيت ذلك مناسبًا، ويمكنني أن أشق طريقي عبر الجدران الحجرية بيمين أقسمه، وكذلك يمكن للآخرين. والآن، ماذا تريد مني؟»

«ليس كثيرًا، أنت سجّان في الكونسيرجيري؟».

قال الجاسوس بحزم: «أقولها لك مرة واحدة وإلى الأبد، لا يوجد شيء اسمه الهروب ممكن».

«لماذا تخبرني بما لم أطلبه؟ أنت سجّان في الكونسيرجيري؟».

«نعم، في بعض الأحيان».

«هل يمكنك ذلك حسب اختيارك؟».

«يمكنني الدخول والخروج عندما أشاء».

ملاً سيدني كارتون كأسًا أخرى بالبراندي، وسكبها ببطء على الموقد، وشاهد الخمر يتساقط. وبعد أن سالت كلها، نهض قائلاً:

«كنا نتحدث حتى الآن أمام هذين الرجلين، فمن الأفضل ألا تقع مزايا أوراق اللعب بيني وبينك فقط. تعال الآن إلى الغرفة المظلمة هنا، لتبادل كلمة أخيرة وحدنا».

الفصل التاسع

اللعبة جاهزة

بينما كان سيدني كارتون وخروف السجون في الغرفة المظلمة المجاورة، يتحدثان بصوتٍ منخفضٍ بحيث لم يُسمع لهما صوت، نظر السيد لوري إلى جيري في شكٍّ وريبة كبيرين. لم تكن طريقة تلقي هذا التاجر الأمين تلك النظرة توحى بالثقة؛ فقد بدّل الساق التي استراح عليها، كما لو أن لديه خمسين من تلك الأطراف، ويجرّبها جميعاً؛ كما تفحص أظفار أصابعه باهتمامٍ مريبٍ للغاية؛ وكلما التقت عينا السيد لوري بعينيه، يصيبه نوعٌ غريبٌ من السعال القصير، يتطلب وضع جوف اليد أمامه، ونادراً ما يُعرف، إن عُرف، أنه داء يصاحب الانفتاح التام للشخصية.

«جيري»، قال السيد لوري، «تعال هنا».

تقدم السيد كرانشر إلى الأمام بشكلٍ جانبي، يسبقه إحدى كتفيه.

«ماذا كنت تعمل، إلى جانب عملك كمرسال؟».

بعد بعض التوضيح، مصحوباً بنظرة مقصودة على راعيه، خطرت

في ذهن السيد كرانشر فكرة مضيئة للرد: «عملاً ذا طبيعة زراعية».

قال السيد لوري، ملوحًا بإصبعه السبابة بغضبٍ: «عقلي تساوره
الظنون كثيرًا بأنك استخدمت بنك تيلسون المحترم والعظيم ستارًا
لك، وأنت كنت تمارس عملاً غير قانوني سيئ السمعة. إذا كان هذا
صحيحًا، فلا تتوقع مني أن أصادقك عندما تعود إلى إنجلترا. إذا كان
هذا صحيحًا، لا تتوقع مني أن أحفظ سرّك. لن يحتال أحد على بنك
تيلسون».

توسّل السيد كرانشر بخجلٍ: «آمل يا سيدي، أن رجلًا نبيلًا مثلك
حظيت بشرف العمل معه في عملٍ غريبٍ حتى شاب رأسي، سيفكر
مرتين قبل إيدائي حتى لو صح الأمر... أنا لا أقول إنه صحيح، لكن
حتى لو كان صحيحًا. ويجب أن يوضع في الحسبان أنه حتى لو كان
صحيحًا، فلن يكون له، حتى في هذه الحالة، جانب واحد؛ بل جانبان.
قد يوجد في الوقت الحاضر أطباء يجمعون جنيهااتهم حيث لا يجمع
التاجر النزيه فارديناته^(١)... ملاليم! لا، ولا حتى نصف ملاليمه...
نصف ملاليمه! لا، ولا حتى ربعها؛ ويودعون أموالهم مثل الدخان في
بنك تيلسون، ويوجهون أعينهم الطبية نحو ذلك التاجر خفية، ويدخلون
ويخرجون من عرباتهم الخاصة... آه! مثل الدخان، إن لم يكن أكثر.
حسنًا، هذا احتيال أيضًا على بنك تيلسون. فأنت لا يمكنك التفرقة في
المعاملة. وها هي السيدة كرانشر -أو كانت على الأقل في العصور
القديمة في إنجلترا، وستكون غدًا إذا توفرت الأسباب- تصلي مرة

(١) فاردن (farden): وحدة نقدية بريطانية سابقة تساوي رُبع البنس، وسوف أستخدم بدلًا منها
كلمة مليم - (المترجمة).

أخرى ضد عملي إلى درجة تدميره - تدميره تمامًا! في حين لا تصلي زوجات الأطباء... أمسكوا بهن إذن! أو، إذا صلين، تكون صلاتهن من أجل مزيد من المرضى، وكيف يمكنك إيجاد أحد بشكلٍ صحيحٍ دون الآخر؟ ثم ماذا عن متعهدي دفن الموتى، وماذا عن موظفي الأبرشية، وماذا عن حراس الكنائس، وماذا عن الحراس الخاصين (كلهم جشعون ومتورطون)؛ لن يكسب المرء كثيرًا من ذلك الأمر، حتى لو كان صحيحًا. والقليل الذي يحصل عليه الرجل، لن ينجح معه أبدًا، سيد لوري. لن يفيدَه أبدًا؛ لذلك يرغب طوال الوقت أن يخرج من هذا المسار، إن تمكّن من رؤية طريق الخروج، بمجرد دخوله... حتى لو كان الأمر صحيحًا».

«آه!»، صاح السيد لوري، أو بالأحرى مستسلمًا، «أنا مصدوم من رؤيتك».

واصل السيد كرانشر: «والآن، ما أود أن أعرضه عليك بتواضع، يا سيدي، حتى إن صح الأمر، ولا أقول إنه صحيح...».

قال السيد لوري: «لا تراوغ».

«لا، لن أفعل يا سيدي»، أجاب السيد كرانشر كأنما ذلك بعيد عن أفكاره أو ممارسته، «... ولا أقول إنه صحيح... أود أن أعرض عليك بكل تواضع، يا سيدي، ما يلي. على ذلك المقعد المنخفض، في تمبل بار، يجلس صبي هو ابني، نشأ وكبر ليصبح رجلًا، سوف يخدمك، ويحمل رسائلك، ويخفف من أعباء وظيفتك، حتى يصل كعباك إلى حيث رأسك، إذا كانت هذه هي رغبتك. إن كان الأمر صحيحًا، وما

زلت لا أقول إنه صحيح (ولا أراوئك، يا سيدي)، دع هذا الصبي يحتفظ بمكان والده، ويعتني بأمه؛ لا تفضح والد هذا الصبي... لا تفعل ذلك، يا سيدي... ودع هذا الأب يذهب إلى مجال حفر القبور بانتظام، تكفيرًا عن عمله السابق في نبشها، ويعوض عما كان يمكن أن يحصل عليه إذا كان الأمر صحيحًا، بحفر القبور وتوطيد العزم على صيانتها في المستقبل. هذا، يا سيد لوري، قال السيد كرانشر، وهو يمسح جبهته بذراعه كإعلان عن وصوله إلى نهاية خطابه، «ما أود أن أقدمه لك، بكل احترام يا سيدي. فالمرء لا يستطيع أن يرى كل هذا الترويع الذي يحدث حوله، من حيث عدد المواطنين مقطوعي الرؤوس، يا إلهي، وفرة كافية تؤدي إلى خفض السعر إلى مستوى أجرة الحمالين، دون أن يفكر في الأشياء بجدية. وهذه هنا ستكون لي، حتى إن كان الأمر صحيحًا، وأتوسل إليك أن تضع في اعتبارك أن ما قلت للتو كان لسبب وجيه، وكان يمكنني أن أخفيه عنك».

قال السيد لوري «هذا صحيح على الأقل، لا تقل المزيد الآن، قد أظل صديقك، إذا كنت تستحق ذلك، وكانت توبتك فعلية... وليس بالكلمات، لا أريد مزيدًا من الكلمات».

كان السيد كرانشر يفرك جبهته، عندما عاد سيدني كارتون والجاسوس من الغرفة المظلمة. قال كارتون: «وداعًا، سيد بارساد، هكذا توصلنا إلى اتفاق، وليس لديك ما تخشاه مني».

جلس على كرسي قرب الموقد، في مواجهة السيد لوري، وعندما أصبحا وحدهما، سأله السيد لوري ماذا فعل؟

«ليس كثيرًا. إذا ساءت الأمور مع السجين، ضمنت الوصول إليه مرة واحدة».

تغيّرت ملامح السيد لوري.

قال كارتون: «هذا كل ما يمكنني فعله. فقد يؤدي اقتراح الكثير إلى وضع رأس هذا الرجل تحت فأس المقصلة، وكما قال هو نفسه، ما من شيء يمكن أن يحدث له أسوأ من إدانته. من الواضح أن الموقف ضعيف، ليس لنا حيلة».

قال السيد لوري: «لكن الوصول إليه إذا ساء الأمر أمام المحكمة، لن ينقذه».

«لم أقل قط أنه سينقذه».

أخذت عينا السيد لوري تحدقان تدريجيًا إلى النار؛ فتعاطفه مع حبيبته، وخيبة الأمل الشديدة من اعتقاله الثاني، أضعفهما تدريجيًا. إنه رجل عجوز الآن، وغلب عليه القلق مؤخرًا، وانهمرت دموعه.

قال كارتون بصوتٍ مختلفٍ: «أنت رجل طيب، وصديق حقيقي، سامحني إذا لاحظت أنك متأثر. لا يمكنني رؤية والدي يبكي وأجلس بجواره دون اكتراث، ولا يمكنني احترام حزنك أكثر، لا يمكنني أن أرى والدي يبكي وأجلس غير مكترث. لكنك تحررت من تلك المحنة».

على الرغم من أنه قال الكلمات الأخيرة منزلقًا إلى أسلوبه المعتاد، كان في نبرة صوته وفي لمستته شعورٌ واحترامٌ حقيقيان، أن السيد لوري

لم يكن مستعداً له تماماً، لأنه لم يرَ الجانب الأفضل منه قطُّ. أعطاه يده، وضغط عليها كارتون برفقٍ.

قال كارتون: «نعود إلى زوجة دارني المسكينة. لا تخبرها عن هذه المقابلة أو هذا الترتيب، لأنها لن تتمكن من الذهاب لرؤيته. ربما تظن أن الأمر مُدبَّر، في أسوأ الأحوال، لإبلاغه بوسيلة لتوقع الحُكم». لم يفكر السيد لوري في ذلك، ونظر بسرعة إلى كارتون ليرى ما إذا كان الأمر يدور في ذهنه. وبدا له ذلك؛ فقد بادله النظرة، ومن الواضح أنه فهمه.

قال كارتون: «قد تفكر زوجته في ألف شيء، وأي شيء منها لن سيزيد سوى متاعبها. لا تحدّثها عني. كما قلت لك عندما جئت لأول مرة، كان من الأفضل ألا أراها. يمكنني أن أمد يدي للقيام بأي عملٍ مفيدٍ صغيرٍ لها، يتيسَّر ليدي القيام به، دون أن أراها. أنت ذاهب إليها، أمل ذلك؟ لا بد أنها تشعر بوحشة شديدة هذه الليلة». «أنا ذاهب الآن، مباشرة».

«هذا يسعدني، إنها شديدة الارتباط بك والاعتماد عليك.. كيف تبدو؟».

«تبدو قلقة وحزينة، لكنها جميلة جداً».

«آآه!».

كان صوتاً طويلاً حزيناً، أشبه بالتنهد... بل تقريباً مثل النحيب؛ وجذب عيني السيد لوري إلى وجه كارتون، الذي كان متجهاً نحو النار.

انطلق منه ضوء أو ظل (لم يستطع الرجل العجوز أن يحدد أيهما)، انطلق بسرعة بمثل سرعة اجتياح التغيير لجانب التل في يوم مشرقٍ عاصف؛ ورفع قدمه ليعيد أحد جذوع الأشجار المشتعلة الصغيرة، التي كانت تندرج إلى الأمام. كان يرتدي معطف الفروسية الأبيض وحذاءً طويلَ الساق، كانا رائحين حينذاك، وجعله ضوء النار الذي يلامس أسطحها الخفيفة يبدو شاحبًا للغاية، بشعره البني الطويل، غير المشذب، يتدلى مسدلاً حوله. كان عدم اكتراثه بالنار ملحوظاً بما يكفي لاستدعاء كلمة احتجاج من السيد لوري؛ فقد كان حذاؤه لا يزال على الجمر الساخن للجنح المشتعل، عندما انكسر تحت ثقل قدمه.

قال: «لقد نسيتَه».

انجذبت عينا السيد لوري ثانية إلى وجهه. وعندما لاحظ الانطباع الغائم الذي خيم على الملامح الوسيمة الطبيعية، وكان تعبير وجوه السجناء حاضراً في ذهنه، ما جعله يتذكر بقوة بهذا التعبير.

قال كارتون، مستديرًا نحوه: «هل انتهت واجباتك هنا، يا سيدي؟».

«نعم. كما أخبرتك الليلة الماضية عندما جاءت لوسي على غير توقع، لقد قمت أخيراً بكل ما في وسعي أن أقوم به هنا. كنت أمل أن أتركهم في أمان تام، ثم أغادر باريس. لقد حصلت على تصريح بالمغادرة، وكنت مستعداً للذهاب».

صمت كلاهما.

قال كارتون بحزن: «لقد عشت حياة طويلة، يمكنك أن تتذكرها وتأملها، يا سيدي؟».

«أنا في عامي الثامن والسبعين».

«لقد كنت مفيدًا طوال حياتك؛ تعمل بثبات وباستمرار؛ موضع ثقة واحترام وتقدير؟».

«كنت رجل أعمال، منذ أن بلغت مبلغ الرجال. وفي واقع الأمر، يمكنني القول إنني كنت رجل أعمال منذ أن كنت صبيًا».

«انظر إلى الموقع الذي تشغله في سن الثمانية والسبعين. ما أكثر من سيفتقدونك عندما تتركه فارغًا!».

أجاب السيد لوري وهو يهز رأسه: «عازب عجوز وحيد، لن يوجد أحد يبكي علي».

«كيف تقول ذلك؟ ألن تبكي هي عليك؟ ألن تبكي طفلتها؟».

«نعم، نعم، شكرًا لله. لم أقصد تمامًا ما قلته».

«إنه شيء نشكر الله عليه. أليس كذلك؟».

«بالتأكيد، بالتأكيد».

«إذا أمكنك أن تقول، بصدق، لقلبك المنعزل هذه الليلة، «لقد عجزت عن أن أضمن لنفسي حبًّا وتعلقًا، وامتنانًا أو احترامًا أي مخلوق بشري؛ لقد عجزت عن الفوز بأي مكانة متعاطفة في أي ناحية من النواحي؛ لم أفعل شيئًا جيدًا أو مفيدًا يتذكرني به الناس!» عندئذٍ سيصبح الثمانية وسبعون عامًا بمنزلة ثمانية وسبعين لعنة ثقيلة، أليس كذلك؟».

«حقًا ما قلته، يا سيد كارتون. أعتقد ذلك».

أدار سيدني عينيه مرة أخرى نحو النار، وبعد صمتٍ لبضع لحظات،
قال:

«أود أن أسألك: هل تبدو طفولتك بعيدة؟ هل الأيام التي جلست فيها على ركبة والدتك تبدو بعيدة جدًا؟».

ورددًا على أسلوبه اللطيف، أجاب السيد لوري:

«قبل عشرين عامًا، نعم؛ في هذا المرحلة من حياتي، لا. ذلك أنني، كلما اقتربت أكثر فأكثر من النهاية، أرتحل حول الدائرة، أقرب وأقرب إلى البداية. يبدو أنه نوعٌ من التمهيد والاستعداد للطريق. لقد تأثر قلبي الآن بالعديد من الذكريات التي كانت نائمة منذ فترة طويلة؛ ذكريات أُمي الشابة الجميلة (وأنا عجوز!)، وذكريات العديد من الارتباطات في الأيام التي لم يكن فيها ما نسميه العالم، حقيقياً بالنسبة إليّ، ولم تكن أخطائي مؤكدة في داخلي».

صاح كارتون، وقد احمرَّ وجهه: «أنا أفهم هذا الشعور! ولذلك، أنت الأفضل؟».

«آمل ذلك».

أنهى كارتون المحادثة هنا، بأن نهض لمساعدته على ارتداء معطفه الخارجي. عاد السيد لوري إلى الموضوع قائلاً: «لكنك أنت... أنت شاب».

قال كارتون: «نعم، أنا لست عجوزًا، لكن طريقي في فترة الشباب لم يكن قطُّ الطريق إلى الشيخوخة. اكتفيت مني».

قال السيد لوري: «ومني أيضًا، أنا متأكد. هل ستخرج؟».

«سأسير معك إلى بوابة منزلها. أنت تعرف عاداتي المتشردة والمضطربة. ولا تقلق إذا وجدتني أتجول في الشوارع فترة طويلة؛ سأعود في الصباح. هل تذهب إلى المحكمة غدًا؟».

«نعم، لسوء الحظ».

«سأكون هناك، وإنما فقط كواحدٍ من الحشد. جاسوسي سيجد لي مكانًا. أمسك ذراعي، يا سيدي».

أمسك السيد لوري بذراعه، وهبط السلم وخرجا إلى الشارع. وصلا إلى وجهة السيد لوري بعد بضع دقائق. تركه كارتون هناك، لكنه ظل على مسافة قصيرة ثم عاد إلى البوابة مرة أخرى، بعد إغلاقها، ولمسها. كان قد سمع عن ذهابها اليومي إلى السجن. قال وهو ينظر حوله: «لقد خرجت إلى هنا، واستدارت في هذا الاتجاه، لا بد أنها داست على هذه الحجارة كثيرًا، سوف أتبع خطواتها».

كانت الساعة العاشرة ليلاً عندما وقف أمام سجن لا فورس، حيث وقفت هي مئات المرات. رأى قاطع الأخشاب يدخن غليونيه عند باب متجره، بعد أن أغلقه.

توقف سيدني كارتون قائلاً: «طابت ليلتك، أيها المواطن»؛ ذلك أن الرجل نظر إليه بفضولٍ.

«طابت ليلتك، أيها المواطن».

«كيف حال الجمهورية؟».

«أنت تقصد المقصلة، ليست مريضة؛ ثلاثة وستون اليوم. سنصعد إلى مائة قريباً. يشكو شمشون ورجاله أحياناً من الإرهاق. ها ها ها! إنه مضحك للغاية، شمشون هذا. يا له من حلاق!».

«هل تذهب كثيراً لرؤيته...».

«في أثناء الحلاقة؟ دوماً.. كل يوم.. يا له من حلاق! هل رأيته في أثناء العمل؟».

«مطلقاً».

«اذهب وشاهده عند وجود مجموعة كبيرة لديه. وعليك أن تكتشف بنفسك، أيها المواطن. لقد حلق الثلاثة والستين اليوم، في مدة أقل مما يستغرقه تدخين غليونين! أقل من غليونين، أقسم بشرفي!».

أمسك الرجل الضئيل المبتسم بالغليون الذي يدخنه، ليشرح كيف يقيس سرعة الجلاذ، شعر كارتون برغبة متزايدة في قتله، فاستدار مبتعداً.

قال قاطع الأخشاب: «لكنك لست إنجليزياً، على الرغم من أنك ترتدي ملابس إنجليزية؟».

«نعم»، قال كارتون، متوقفاً مرة أخرى، وأجاب من فوق كتفه.

«أنت تتحدث مثل الفرنسيين».

«أنا طالب قديم هنا».

«آها، فرنسي مثالي! طابت ليلتك، أيها الإنجليزي».

«طابت ليلتك، أيها المواطن».

أَلَحَّ الرجل القصير، صائِحًا خلفه: «عليك أن تذهب وتشاهد ذلك الكلب المضحك، وخُذْ غليونًا معك!».

لم يكن سيدني قد ابتعد كثيرًا عن الأنظار، عندما توقف في منتصف الشارع تحت مصباح متوهج، وكتب بقلمه الرصاص على قصاصة ورق. ثم سار بخطواتٍ ثابتة، كشخصٍ يتذكر الطريق جيدًا، وقطع عدة شوارع مظلمة وقذرة - أقدر بكثيرٍ من المعتاد، لأن أفضل الطرق العامة ظَلَّتْ دون تنظيف في أوقات الرعب تلك - وتوقف عند متجر صيدلي، كان مالكة يغلقه بيديه، متجر صغير، قاتم، ملتوٍ، يقع في طريق متعرج أعلى التل، ويملكه رجل قصير، قاتم، ملتوٍ.

وبعد أن تمنى لهذا المواطن أيضًا ليلة سعيدة، عندما واجهه عند منضدته، وضع قصاصة الورق أمامه. «يا للعجب!»، صَفَّر الصيدلي بهدوءٍ وهو يقرأها. «مرحى! مرحى! مرحى!».

لم يلتفت سيدني كارتون، وقال الصيدلي:
«هذا لك، أيها المواطن؟».

«نعم، لي».

«هل ستحرص على عزلها عن بعضها، أيها المواطن؟ هل تعرف عواقب مزجها؟».

«تمامًا».

صنع بعض العبوات الصغيرة وأعطائها له. وضعها، واحدة تلو الأخرى، في صدر معطفه الداخلي، أحصى ثمنها ودفعه، ثم غادر

المتجر متأنياً. قال، وهو ينظر إلى القمر: «لا يوجد شيء آخر أقوم به حتى الغد، لا أستطيع النوم».

لم تكن طريقة متهورة، تلك التي قال بها هذه الكلمات بصوت عالٍ تحت الغيوم سريعة الإبحار، ولم تكن تعبيراً عن الإهمال أكثر من تعبيرها عن التحدي. كانت الطريقة المستقرة لرجلٍ متعبٍ، تجوّل وكافح وضلّ الطريق، لكنه وجد طريقه أخيراً ورأى نهايته.

منذ فترة طويلة، عندما اشتهر بين منافسيه الأوائل كشابٍ واعدٍ للغاية، شيع والده إلى القبر. وكانت والدته قد توفيت قبل سنوات. وخلال سيره في الشوارع المظلمة، بين الظلال الثقيلة، والقمر والغيوم يبحران فوقه، تبادرت إلى ذهنه تلك الكلمات المهيبة، التي قرئت عند قبر والده. «أنا هو القيامة والحياة، يقول الرب. من آمن بي، ولو مات، فسيحيا؛ وكل من كان حياً وآمن بي، فلن يموت إلى الأبد»^(١).

في مدينة يهيمن عليها الفأس، وهو يسير وحيداً في الليل، ويزداد الحزن طبيعياً داخله من أجل الثلاثة والستين الذين قُتلوا في ذلك اليوم، ولضحايا الغد الذين ينتظرون هلاكهم في السجون، وغيرهم الذين ينتظرون في الغد التالي والغد الذي يليه، ربما كان يسهل العثور على سلسلة الارتباط التي جلبت الكلمات إلى المنزل، مثل جلب رسالة سفينة قديمة صدئة من الأعماق.. لم يسع إليها، بل كررها وواصل سيره.

(١) إنجيل يوحنا، الإصحاح ١١: ٢٥-٢٦ - (المترجمة).

في وسط اهتمام مهيب بالنوافذ المضاءة، يلجأ إليها الناس للراحة، متناسين خلال بضع ساعات هادئة الأهوال المحيطة بهم؛ وبأبراج الكنائس، حيث لم تُتَلَّ الصلوات، لأن النفور الشعبي قد قطع شوطاً طويلاً من تدمير الذات خلال سنوات الكهنة المحتالين، والناهبين، والفاسقين؛ وبالمقابر البعيدة المخصصة، كما كُتِبَ على الأبواب، للنوم الأبدي؛ وبالسجون الوفيرة؛ وبالشوارع التي تدرجت فيها العربات التي تحمل ستينيات وستينيات إلى الموت الذي أصبح مجسداً ومألوفاً، بحيث لم تنشأ بين الناس قصة حزينة عن روح مؤرقة نتيجة أعمال المقصلة؛ وباهتمام مهيب بمجمل حياة المدينة وموتها، التي تستقر بغضبٍ في توقفها الليلي القصير؛ في وسط هذا كله، عبر سيدني كارتون نهر السين مرة أخرى إلى الشوارع الأكثر هدوءاً.

كان عدد العربات في الخارج قليلاً، لأن ركاب العربات كانوا عُرضة للشك؛ فأخفى الأرستقراطيون رؤوسهم في طواقي الليل الحمراء، وارتدوا أحذية ثقيلة، وساروا بصعوبة. على أن المسارح كانت ممتلئة عن آخرها، وتدفق الناس بمرحٍ في أثناء مروره، متوجهين إلى منازلهم وهم يتجاذبون أطراف الحديث. عند أحد أبواب المسرح، وقفت فتاة صغيرة مع أمها، التي تبحث عن طريق لعبور الشارع خلال الوحل. حمل الطفلة، وقبل أن تفلت ذراعها الخجولة من رقبتها، طلب منها قبلة.

«أنا هو القيامة والحياة، يقول الرب. من آمن بي، ولو مات، فسيحيا؛ وكل من كان حياً وآمن بي، فلن يمت إلى الأبد».

والآن، بعد أن هدأت الشوارع، وامتد الليل، كانت الكلمات تتردد في أصداء وقع قدميه، وكانت في الهواء. وفي هدوء وثبات كاملين، أخذ يكررها أحياناً لنفسه في أثناء سيره؛ لكنه كان يسمعها دائماً.

انقضى الليل. وبينما كان يقف على الجسر يستمع إلى المياه وهي تتناثر على جدران مجرى نهر جزيرة باريس، حيث لمع الاختلاط الخلاب للمنازل والكاتدرائية في ضوء القمر، أقبل النهار ببرودٍ، وبدا كأنه وجه ميت من السماء. ثم شحب الليل، مع القمر والنجوم، ومات؛ وبدا لوهلة كأنما سُلِّمت الخليفة إلى سلطان الموت.

لكن الشمس البهية، حين أشرقت، بدت كأنها تنفذ إلى تلك الكلمات، ذلك العبء الليلي، مباشرة ودافئة إلى قلبه، بأشعتها الساطعة الطويلة. نظر إليها بعينين مظللتين بوقار، بدا أن جسراً من الضوء يمتد في الهواء بينه وبين الشمس، بينما يتلأل النهر تحته.

كان المد القوي، السريع جداً، والعميق جداً، واليقيني، أشبه بصديقٍ ودودٍ، في سكون الصباح. سار بجانب النهر، بعيداً عن المنازل، ونام على صِفته في ضوء الشمس ودفئها. وعندما استيقظ واستعاد طاقته ثانية، لبث هناك فترة أطول قليلاً، يراقب دوامة تدور وتدور بلا هدف، حتى امتصها النهر وحملها إلى البحر، «مثلما حدث معي».

ثم انزلت أمام عينيه سفينة تجارية، ذات شراع بلونٍ باهتٍ كورقة شجر ميتة، وطفت بجانبه، ثم تلاشت. وعندما اختفى مسارها الصامت في الماء، انتهت الصلاة التي انطلقت من قلبه، دعاء بالرحمة في كل جهالاته وأخطائه السيئة، انتهت بالكلمات التالية: «أنا هو القيامة والحياة».

عندما عاد، كان السيد لوري قد خرج بالفعل، ومن السهل تخمين أين ذهب العجوز الطيب. لم يشرب سيدني كارتون سوى القليل من القهوة، وأكل بعض الخبز. وبعد أن اغتسل وغَيَّرَ ملابسه لإنعاش نفسه، خرج إلى مكان المحاكمة.

كانت المحكمة تضج بالصخب والأزيز، عندما دفعه الخروف الأسود -الذي هرب منه الكثيرون في فزع- إلى ركن مظلم بين الحشد. كان السيد لوري هناك، وكان الدكتور مانيت هناك. كانت هي هناك تجلس بجانب والدها.

عند إحضار زوجها، ألقت نظرة عليه داعمة للغاية، مشجعة للغاية، مليئة بالحب المشوب بالإعجاب والحنان المُشفِّق؛ لكنها شجاعة جدًا من أجله، إلى درجة أنها جلبت الدماء الصحية إلى وجهه، وأضاءت نظرتَه، وحركت قلبه. إذا كانت هناك أي أعين تلاحظ تأثير نظرتها، على سيدني كارتون، لرأت التأثير نفسه بالضبط.

أمام تلك المحكمة الظالمة، لا يوجد أمر إجرائي، وإن وجد يكون ضئيلاً، يضمن لأي متهم جلسة استماع معقولة. لم تكن لتندلع مثل هذه الثورة، لو لم يُسأ استخدام جميع القوانين والأنظمة والمراسم بوحشية في البداية، بحيث بعثها جميعاً انتقام الثورة الانتحاري في مهب الريح. اتجهت جميع الأنظار إلى هيئة المحلفين. إنهم الوطنيون الأشداء والجمهوريون الصالحون أنفسهم، الذين كانوا بالأمس واليوم الذي قبله، وسيكونون في الغد واليوم الذي بعده. برز متحمساً بينهم رجلٌ بوجه متلهف، تحوم أصابعه دائماً حول شفّتيه، ما أعطى مظهره ارتياحاً

كبيراً لدى الحضور. وهناك محلف متعطش إلى الأرواح، يبدو مظهره مثل آكلي لحوم البشر، ودموي التفكير؛ إنه جاك ثلاثة من ضاحية القديس أنطوان. وكانت هيئة المحلفين بأكملها أشبه بمحلفين من الكلاب، تشكلت لمحاكمة الغزلان.

ثم اتجهت كل العين إلى القضاة الخمسة والمدعي العام. لا يوجد أي ميل إيجابي في هذا الربع من اليوم. هناك قتل شرس لا هوادة فيه. ثم سعت كل عين إلى عين أخرى في الحشد، وومضت نحوها باستحسان؛ وأومات الرؤوس بعضها لبعض، قبل أن تنحني إلى الأمام بانتباه متوتر. تشارلز إيفريموند، الملقَّب بدارني، أطلق سراحه أمس، أُعيد اتهامه، وألقي القبض عليه ثانية أمس. تسلَّم لائحة الاتهام الليلة الماضية. مشتبه به وئذان بوصفه عدوًّا للجمهورية، أرستقراطي، أحد أفراد عائلة من الطغاة، أحد أفراد عرق محظور، لأنهم استخدموا امتيازاتهم الملغاة لقمع الشعب بشكلٍ شائن. تشارلز إيفريموند، المُسمى دارني، يُعتبر باسم هذا الحظر، ميتاً تماماً بموجب القانون.

وهذا ما قاله المدعي العام، في هذا الصدد، وبأقل عدد من الكلمات.

سأل الرئيس، هل أدين المتهم علناً أم سراً؟

«علناً، سيدي الرئيس».

«ممن؟».

«ثلاثة أصوات؛ إرنست ديفارج، بائع نبيذ في حي سان أنطوان».

«حسناً».

«تيريز ديفارج، زوجته».

«حسنًا».

«ألكسندر مانيت، طبيب».

حدثت ضجة كبيرة في المحكمة، شوهد الدكتور مانيت في وسطها شاحبًا ومرتعجًا، يقف حيث كان جالسًا.

«سيدي الرئيس، أنا أحتج أمامك بسخط، لأن هذا تزوير واحتيال. أنت تعرف أن المتهم هو زوج ابنتي. وأن ابنتي، وأولئك الأعزاء عليها أعز عليّ بكثير من حياتي. من وأين هذا المتآمر الكاذب، الذي يقول إنني أدين زوج طفلي!».

«المواطن مانيت، التزم الهدوء. إن عدم خضوعك لسلطة المحكمة يعني أنك تضع نفسك خارج القانون. أما بالنسبة إلى ما هو أعز عليك من الحياة، فما من شيء أعز على المواطن الصالح من الجمهورية».

أشادت هتافات صاخبة بهذا التوبيخ. قرع الرئيس جرسه، واستأنف بحرارة.

«إذا طالبتك الجمهورية بالتضحية بطفلتك نفسها، فلن يكون واجبك سوى التضحية بها. استمع إلى ما سوف يلي. وفي غضون ذلك، ابق صامتًا!».

تعالَت الهتافات المحمومة مرة أخرى. جلس الدكتور مانيت وعينه تنظران حوله، وشفته ترتجفان. اقتربت ابنته منه. فرك الرجل المتلهف في هيئة المحلفين يديه معًا، وأعاد اليد المعتادة إلى فمه.

استُدعي ديفارج، عندما أصبحت المحكمة هادئة بما يكفي للسماح
بسماع أقواله. وبسرعة شرح قصة السجن، وكونه مجرد صبي في خدمة
الطبيب، والإفراج عنه، وحالة السجين عند إطلاق سراحه وتسليمه إليه.
تلا ذلك استجواب قصير، لأن المحكمة كانت سريعة في عملها.
«لقد قمت بخدمة جيدة عند الاستيلاء على الباستيل، أيها
المواطن؟».

«أعتقد ذلك».

وهنا صرخت امرأة متحمسة من الحشد: «كنت أحد أفضل
الوطنيين هناك. لماذا لا تقول ذلك؟ كنت ممن حملوا المدافع في ذلك
اليوم هناك، ومن أوائل من دخلوا تلك القلعة الملعونة عندما سقطت.
أيها الوطنيون، أنا أقول الحقيقة!».

كانت المرأة المنتقمة هي الذي ساعدت على هذا النحو، وسط
الثناء الحار من الجمهور. قرع الرئيس جرسه؛ لكن المرأة المنتقمة،
وقد زادها التأيد حماسة، صاحت: «أنا أتحدى هذا الجرس!»، وكانت
أيضًا موضع ثناء كثير.

«أخبر المحكمة بما فعلته في ذلك اليوم داخل الباستيل، أيها
المواطن».

«كنت أعرف»، قال ديفارج، وهو ينظر إلى زوجته، التي وقفت عند
أسفل الدرجات التي رُفع إليها، تنظر إليه بثبات: «كنت أعرف أن هذا
السجين، الذي أتحدث عنه، كان محتجزًا في زنزانة تُعرف باسم مائة

وخمسة، البرج الشمالي. عرفت ذلك منه؛ فلم يكن يعرف نفسه بأي اسم آخر سوى مائة وخمسة، البرج الشمالي، عندما كان تحت رعايتي ويصنع أحذية. وعقدت العزم، بينما معي مدفعي في ذلك اليوم، أن أفحص تلك الزنانة عندما يسقط المكان. وسقط. صعدتُ إلى الزنانة تحت إشراف أحد السجّانين، وبرفقة مواطن زميل، وهو أحد أعضاء هيئة المحلفين. فحصتها بدقة شديدة. وفي حفرة داخل المدخنة، حيث نُزع حجر ثم أُعيد إلى مكانه، وجدت ورقة مكتوبة. وها هي تلك الورقة المكتوبة. وقد جعلت من عملي فحص بعض عينات من كتابات الدكتور مانيت. وهذه هي كتابة الدكتور مانيت. وأنا أضع هذه الورقة، المكتوبة بخط الدكتور مانيت، في يد الرئيس».

«فلتقرأ تلك الورقة».

فُرئت الورقة في صمتٍ مطبقٍ وسكون؛ بينما السجين قيد المحاكمة ينظر بحبٍّ إلى زوجته، وزوجته لا تبعد نظرها عنه إلا لتنظر بقلقٍ إلى والدها، والدكتور مانيت يُبقي عينيه مثبتتين على القارئ، والسيدة ديفارج لا تبعد عينيهما عن السجين، وديفارج لا يبعد عينيه أبدًا عن زوجته السعيدة، وكل الأعين الأخرى هناك تركز على الطبيب، الذي لم يرى أيًا منهم. وكان نص الورقة كما يلي.

الفصل العاشر

حقيقة الظل

«أنا، ألكسندر مانيت، طبيب بائس، من مواليد بوفيه، ثم مقيم في باريس، أكتب هذه الورقة الحزينة في زنزاني المتواضعة في الباستيل، خلال الشهر الأخير من عام ١٧٦٧. أكتبها على فترات متقطعة، تحت وطأة صعوبات عديدة. أنوي إخفاءها في جدار المدخنة، حيث صنعت ببطء وجهد مكانًا لإخفائها. قد تجدها يدٌ عطوفة، عندما أصبح أنا وأحزاني ترابًا.

كتبت هذه الكلمات بصعوبة، مستخدمًا رأس قطعة حديدية صدئة، في بقايا سخام وفحم المدخنة، ممزوجة بالدم، في الشهر الأخير من السنة العاشرة لسجني. لقد رحل الأمل عن صدري تمامًا. أعرف من النذر الرهيبة التي لاحظتها في نفسي أن عقلي لن يظل سليمًا فترة طويلة، لكنني أعلن رسميًا أنني في هذا الوقت أمتلك عقلي السليم -فذاكرتي دقيقة وظرفية- وأنني أكتب الحقيقة، وسوف أجيب عن هذه الكلمات الأخيرة المدونة، سواء قرأها الناس أم لم يقرأوها، وأنا في حضرة العدالة الأبدية.

في إحدى الليالي المقمرة الملبدة بالغيوم، في الأسبوع الثالث من شهر ديسمبر (أعتقد الثاني والعشرين من الشهر) في عام ١٧٥٧، كنت أسير على جزءٍ منعزلٍ من رصيف نهر السين لأستنشق الهواء البارد، على بُعد ساعة من مكان إقامتي في شارع كلية الطب، عندما جاءت خلفي عربة، تندفع بسرعة كبيرة. وقفتُ جانباً لأفسح لتلك العربة مكاناً للمرور، خشية أن تدهسنني. أطل رأسٌ من النافذة، ونادى صوتُ السائق ليتوقف.

توقفت العربة بمجرد أن تمكّن السائق من كبح جماح خيوله، وناداني الصوت نفسه باسمي. أجبت. كانت العربة حينذاك قد سبقتني بكثيرٍ، إلى درجة أن رجلين كان لديهما الوقت لفتح الباب والنزول قبل أن أصل إليها.

لاحظت أن كلاّ منهما متلفع بعباءة، وبدا أنهما يخفیان نفسيهما. وبينما وقفا جنباً إلى جنب بالقرب من باب العربة، لاحظت أيضاً أنهما يبدوان في مثل عمري تقريباً، أو بالأحرى أصغر سنّاً، وأنهما متشابهان إلى حدٍّ كبيرٍ في القامة، والطريقة، والصوت، و(بقدر ما استطعت أن أرى) الوجه أيضاً.

قال أحدهما: «أنت دكتور مانيت؟».

«نعم، أنا هو».

قال الآخر: «دكتور مانيت، من بوفيه سابقاً، الطبيب الشاب، جراح خبير أصلاً، واكتسب سمعة متزايدة في باريس خلال العام أو العامين الماضيين؟».

أجبت: «أيها السادة، أنا ذلك الطبيب مانيت الذي تتحدث عنه بكرم».

قال الأول: «لقد ذهبنا إلى مقر إقامتك، ولم يحالفنا الحظ أن نجدك هناك، وبعد إبلاغنا أنك ربما تسير في هذا الاتجاه، تتبّعناك على أمل أن نلحق بك. هل تتفضّل وتدخل العربة؟».

كان أسلوبهما متغطرسًا. وبعد قول تلك الكلمات، تحرّكا بحيث يضعانني بينهما وبين باب العربة، كانا مسلحين، ولم أكن مسلحًا.

قلت «أيها السيدان، عفوًا؛ لكنني عادة ما أستفسر عمن يشرفني بطلب مساعدتي، وما طبيعة الحالة التي أُستدعى إليها».

جاءني الرد من المتحدث الثاني. «دكتور، عملاؤك من أسرة رفيعة. أما عن طبيعة الحالة، فإن ثقتنا بمهارتك تؤكد لنا أنك ستتيقن منها بنفسك بشكل أفضل مما يمكننا وصفه. هذا يكفي. هل تتفضل بدخول العربة؟».

لم يكن في وسعي أن أفعل أي شيء سوى الامتثال، ودخلت في صمت. دخل كلاهما بعدي؛ قفز الأخير، بعد رفع السلم. استدارت العربة، ومضت بسرعتها السابقة.

أكرر هذه المحادثة كما حدثت تمامًا. ليس لديّ شك في أنها هي نفسها، كلمة بكلمة. أصف كل شيء كما حدث تمامًا، مع تركيز ذهني حتى لا يحيد عن المهمة. وحين أضع الخط المتقطع الذي يلي هنا، فإنني أكف عن الكتابة في الوقت الحالي، وأضع ورقتي في مخبئها».

«انطلقت العربّة تاركة الشوارع خلفها، واجتازت الحاجز الشمالي، وخرجت إلى الطريق الريفي. وعلى بُعد ثلثي فرسخ من الحاجز - لم أستطع تقدير المسافة حينذاك، ولكن تمكّنت من ذلك بعد عبور الحاجز - خرجت من الشارع الرئيسي، وتوقفت عند منزلٍ منعزل. ترجّلنا جميعاً، وسرنا عبر ممر مشاة رطب وناعم في حديقة، حيث فاضت نافورة مُهمّلة، إلى باب المنزل. لم يُفتح الباب على الفور، ردّاً على رنين الجرس؛ وضرب أحد الرجلين الشخص الذي فتح الباب، بقفازه الثقيل على وجهه.

لم يلفت هذا السلوك انتباهي بشكلٍ خاص؛ فقد رأيت عامة الناس يُضربون أكثر من الكلاب. لكن الرجل الآخر، الذي كان غاضباً بالمثل، ضرب من فتح الباب بالطريقة نفسها بذراعه. كان مظهر الأخوين متشابهاً تماماً، إلى درجة أنني تصورت في البداية أنهما شقيقان توأم.

منذ نزولنا عند البوابة الخارجية (التي وجدناها مغلقة، وفتحها أحد الأخوين لإدخالنا، ثم أعاد إغلاقها)، سمعتُ صرخاتٍ تنطلق من غرفة علوية. اقتاداني إلى هذه الغرفة مباشرة. ارتفعت الصرخات مع صعودنا السلم، ووجدتُ مريضة تعاني من ارتفاعٍ في حمى الدماغ، مستلقية على سرير.

كانت المريضة في غاية الجمال وشابة؛ من المؤكد أنها لم تتجاوز العشرين بكثير. كان شعرها ممزقاً ومبعثراً، وذراعاها مربوطتان على جانبيها بأوشحة ومناديل. لاحظت أن هذه الأربطة كانت كلها أجزاء

من ملابس رجل نبيل، وعلى أحد تلك الأجزاء، وكان وشاحاً مزخرفاً
لثوب احتفالي، رأيت شعار النبلاء، والحرف E.

هذا ما رأيته في الدقيقة الأولى من تأملي للمريضة؛ ذلك أنها في
محاولاتها المضطربة، انقلبت على وجهها عند حافة السرير، وسحبت
طرف الوشاح إلى فمها، وبالتالي أصبح يحيق بها خطر الاختناق. كان
أول ما قمْتُ به هو مد يدي لتيسير تنفُّسها، وعند تحريك الوشاح جانباً،
لفت انتباهي التطريز في زاويته.

قلبتها برفقٍ، ووضعتُ يدي على صدرها لتهدئتها وإبقائها
في وضعية منخفضة، ونظرت إلى وجهها. كانت عيناها متسعيتين
ومتوحشتين، وكانت تطلق باستمرارٍ صرخاتٍ حادة، وتكرر الكلمات
التالية: «زوجي، وأبي، وأخي!» ثم تعد إلى اثني عشر، وتقول «صمتاً!».
تتوقف لحظة، وليس أكثر، للاستماع، ثم تبدأ الصرخات الحادة مرة
أخرى، وتكرر الصراخ «زوجي، وأبي، وأخي!»، وتعد حتى اثني عشر،
وتقول «صمتاً». لم يكن هناك اختلاف في الترتيب أو الطريقة، ولم يكن
هناك توقف، وإنما توقف منتظم للحظة في نطق هذه الأصوات.

سألت: «منذ متى وهي على هذه الحال؟».

ولتمييز الأخوين، سأدعوها الأكبر والأصغر، وأعني بالأكبر من
مارس أكبر قدرٍ من السلطة. كان الأكبر هو مَنْ أجاب: «منذ نحو هذه
الساعة من الليلة الماضية».

«هل لديها زوج، وأب، وأخ؟».

«لديها أخ».

«وهل أنا أخاطب أخاها؟».

أجاب بازدرء كبير: «لا».

«هل لديها أي ارتباط مؤخرًا بالرقم اثني عشر؟».

رد الأخ الأصغر بصبرٍ نافذٍ «مع دقائق الساعة الثانية عشرة؟».

قلت، ويدي لا تزال على صدرها، «هل رأيتما، أيها السيدان، أنني عديم الفائدة بسبب طريقة إحضاركما لي! لو عرفت ما أنا قادم لرؤيته، لكنك جئت مُزوَّدًا بما أحتاج إليه، وهكذا سوف يضيع الوقت؛ فلا يمكن الحصول على أدوية في هذا المكان المنعزل».

نظر الأخ الأكبر إلى الأصغر، الذي قال بغطرسة: «توجد علبة أدوية هنا»، وأحضرها من خزانة، ووضعها على الطاولة».

«فتحت بعض الزجاجات، وشممت رائحتها، ووضعت السدادات على شفتي. لو أردتُ استخدام أي شيء باستثناء الأدوية المخدرة، وهي سموم في حد ذاتها، لما كنت استخدمت أيًا منها.

سأل الأخ الأصغر: هل تشك في هذه الأدوية؟

«كما ترى، يا سيدي، سأستخدمها»، أجبته، ولم أقل أكثر من ذلك.

جعلت المريضة تبتلع، بصعوبة كبيرة وبعد العديد من الجهود، الجرعة التي كنت أرغب في إعطائها لها. ولما كنت أنوي تكرارها بعد فترة، ومن الضروري مراقبة تأثيرها، فقد جلست بجانب السرير. توجد

امرأة خجولٌ ومذعورة (زوجة الرجل الذي رأيناه في الطابق السفلي)، وقد تراجعت إلى أحد الأركان. كان المنزل رطبًا ومتهالكًا، ومؤثلاً دون اعتناء... من الواضح أنه شغل مؤخرًا ويُستخدم مؤقتًا. وقد ثبتت بعض الستائر القديمة السمكة بمسامير أمام النوافذ، لإخماد صوت الصراخ. ظلت الصرخات تنطلق في تتابعها المنتظم، مع صيحة «زوجي، وأبي، وأخي!»، والعد حتى اثني عشر، ثم «صمتًا!». كان هياجها عنيفًا إلى درجة أنني لم أفك الأربطة التي تقيد الذراعين، لكنني نظرت لأرى أنها غير مؤلمة. كانت شرارة التشجيع الوحيدة في الحالة هي تأثير يدي المهدئ على صدر المريضة، إلى درجة أن مظهرها كان يهدأ لدقائق في كل مرة، لكن يدي لم يكن لها أي تأثير في الصرخات؛ لا يمكن أن يوجد بندوق أكثر انتظامًا.

ولأن يدي كان لها هذا التأثير (كما أفترض)، بقيت جالسًا بجانب السرير لمدة نصف ساعة، والأخوان ينظران، قبل أن يقول أكبرهما: «هناك مريض آخر».

ذهلت وسألت، «هل هي حالة ملحة؟».

«من الأفضل أن ترى»، أجاب بلا مبالاة. وأخذ مصباحًا.

استلقى المريض الآخر في غرفة خلفية عبر سلم ثانٍ، نوع من العلية فوق إسطل. كان جزء من سقفها المنخفض مُغطى بالجص؛ بينما كان الباقي مفتوحًا على حافة السقف المبلط، وتوجد عبره عوارض خشبية.

يُخزّن التبن والقش في ذلك الجزء من المكان، وكذلك حطب الوقود، وكومة من التفاح في الرمال. كان يجب أن أعبر هذا الجزء، لأصل إلى الجزء الآخر. ذاكرتي ظرفية ولم تهتز، أختبرها بهذه التفاصيل، التي أراها جميعاً وأنا في زنزانتى هذه في الباستيل، قرب نهاية السنة العاشرة من أسري، كما رأيتهما كلها طوال تلك الليلة.

فوق بعض التبن على الأرض، ووسادة ملقاة تحت رأسه، يرقد صبي فلاح وسيم... صبي لا يزيد عمره على سبعة عشر عاماً على الأكثر. يرقد الصبي على ظهره، عاقد العزم، ويده اليمنى مشدودة على صدره، وعيناه الساطعتان تنظران إلى أعلى مباشرة. لم أستطع رؤية مكان جرحه، عندما ركعت على ركبة واحدة فوقه؛ لكنني تمكّنت من رؤية أنه يحتضر من جرح بسبب طعنة من شيء مدب.

قلت: «أنا طيب، يا زميلي المسكين، دعني أفحص الجرح».

أجاب: «لا أريد فحصه، دعه».

كان الجرح تحت يده، وهذّأته كي يسمح لي بتحريك يده بعيداً. كان الجرح طعنة سيف، تلقّاها قبل نحو عشرين إلى أربع وعشرين ساعة؛ لكن، لم يكن في مقدور أي مهارة أن تنقذه لو عولج دون إبطاء. كان يحتضر بسرعة حينذاك. عندما أدّرت عيني إلى الأخ الأكبر، رأيته ينظر إلى هذا الصبي الوسيم الذي تقترب حياته من نهايتها، كأنه طائرٌ أو أرنب جريح، وليس على الإطلاق كمخلوق بشري زميل.

قلت: «كيف حدث هذا، يا سيدي؟».

«إنه كلب صغير مجنون من العامة! عبد! أجبر أخي على أن يشهر سيفه، وسقط بسيف أخي... مثل رجل نبيل».

ما من لمسة من الشفقة، أو الحزن، أو الإنسانية، في هذه الإجابة. بدا أن المتحدث يعترف بأنه من غير الملائم أن يموت هذا النوع المختلف من المخلوقات في هذا المكان، بل كان من الأفضل أن يموت بالروتين الغامض المعتاد لنوعه من الحشرات. كان عاجزًا تمامًا عن أي شعور رحيم تجاه الصبي أو مصيره.

كانت عينا الصبي قد تحركتا ببطء نحوه وهو يتكلم، وتتحرك الآن ببطء نحوي.

«يا دكتور، إنهم فخورون جدًا، هؤلاء النبلاء؛ لكننا نحن، عامة الكلاب، فخورون أيضًا، في بعض الأحيان. إنهم ينهبوننا، ويهينوننا، ويضربوننا، ويقتلوننا؛ لكن لدينا القليل من الكبرياء المتبقية، في بعض الأحيان. هي... هل رأيته، يا دكتور؟».

كانت الصرخات والصيحات مسموعة هناك، على الرغم من خفوتها بسبب المسافة، أشار إليها، كما لو أنها ترقد أمامنا.

قلت: «نعم، رأيته».

«إنها أختي، يا دكتور. لقد نال هؤلاء النبلاء حقوقهم المخزية في طهارة وعفة شقيقاتنا لسنوات عديدة؛ لكن بيننا فتيات صالحات. أعرف ذلك، وسمعت والدي يقول ذلك. كانت فتاة طيبة، مخطوبة لشاب طيب أيضًا: مستأجر لديه، كنا جميعًا مستأجرين لديه... ذلك الرجل

الذي يقف هناك، والآخر هو شقيقه، وهو الأسوأ في سلالة سيئة».

كان الصبي يستجمع قواه الجسدية بصعوبة بالغة ليتكلم، لكن روحه تحدثت بتركيزٍ مخيفٍ.

«لقد سرقنا ذلك الرجل الذي يقف هناك؛ كما تسرقنا، نحن عامة الكلاب، تلك الكائنات المتفوقة: فرض علينا ضرائب دون رحمة، وأجبرنا على العمل لديه دون أجر، وأجبرنا على طحن الذرة في مطحنته، وأجبرنا على إطعام العشرات من طيوره الداجنة على محاصيلنا البائسة، ومنعنا من الاحتفاظ طوال حياتنا بطائرٍ داجنٍ واحد، ونهبنا وسلبنا إلى درجة أننا إذا تصادف حصولنا على القليل من اللحم، نأكله في خوف، مع إغلاق الباب والمصاريع، حتى لا يراه قومه ويأخذوه منا... أقول، لقد تعرضنا للسرقة، والمطاردة، وأصبحنا فقراء للغاية، إلى حد أن والدنا أخبرنا أنه من المخيف أن تأتي بطفلٍ إلى العالم، وأن أكثر ما يجب أن نصلي من أجله هو أن تصبح نساؤنا عاقرات وتموت سلالتنا البائسة!».

لم يسبق لي أن رأيت الشعور بالقهر يتفجر مثل النار. كنت أفترض أنه لا بد كامن في الناس في مكان ما، لكنني لم أراه يندلع قط، حتى رأيتَه في الصبي المحتضر.

«ومع ذلك، يا دكتور، تزوجت أختي. كان مريضاً في ذلك الوقت، زميلاً فقيراً، تزوجت من حبیبها لتعتني به وترিحه في كوخنا... كوخ الكلاب، كما يسميه ذلك الرجل. لم يكن قد مضى على زواجها عدة أسابيع، عندما رآها شقيق ذلك الرجل وأعجب بها، وطلب من زوجها

أن يعيرها له... فما قيمة الأزواج بيننا! كان راغبًا في ذلك، لكن أختي كانت صالحة وفاضلة، وكرهت أخاه بشدة مثل كراهيتي. ماذا فعل الاثنان بعد ذلك، لإقناع زوجها باستخدام نفوذها معها، لجعلها راغبة؟»
ببطء، تحولت عينا الصبي، المشتتان على عيني، إلى الرجلين؛ ورأيت في الوجهين أن كل ما قاله صحيح. استطعت أن أرى النوعين المتعارضين من الكبرياء يواجهان بعضهما، حتى في هذا الباستيل. كبرياء الرجل النبيل، بكل اللامبالاة والإهمال؛ وكبرياء الفلاح، بكل المشاعر المسحوقة والانتقام الغاضب.

«أنت تعرف، يا دكتور، أن من بين حقوق هؤلاء النبلاء استخدام السرج لتقييدنا نحن عامة الكلاب بالعربات ثم يسوقونها. لقد قيّدوه بعربة وساقوها. وتعرف أن من بين حقوقهم أن يبقونا في أراضيهم طوال الليل، لتهدئة الضفادع حتى لا تزعج نومهم النبيل. لقد أبقوه في الخارج ليلاً، في ضبابٍ غير صحي، ثم أمروه بالعودة إلى لجامه في النهار. لكنه لم يقتنع. لا! أخرجوه من قيد السرج في ظهر أحد الأيام ليأكل -إذا تمكن من العثور على طعام- بكى اثنتي عشرة مرة، مرة واحدة لكل ضربة جرس، ومات في حضنها».

ما من شيء بشري كان يمكنه أن يُبقي الحياة في الصبي سوى إصراره على قول كل مظلمته. أجبر ظلال الموت المتجمعة على التراجع، كما أجبر يده اليمنى المشدودة على البقاء مشدودة، وتغطي جرحه.

«ثم، بإذن ذلك الرجل وحتى بمساعدته، أخذها أخوه بعيداً؛ على

الرغم من معرفتي أنها لا بد أخبرت أخاه -وما قالت له لن يكون مجهولاً لك فترة طويلة، يا دكتور، إذا كنت لا تعرفه الآن- أخذها أخوه بعيداً، من أجل متعته ولهوه، لفترة قصيرة. رأيته تمر بجانبى على الطريق. وعندما نقلت الأخبار إلى المنزل، انفجر قلب والدنا؛ ولم ينطق قطُّ بإحدى الكلمات التي ملأت قلبه. أخذت أختي الصغيرة (لأن لديّ أختاً أخرى) إلى مكان بعيد عن متناول هذا الرجل، وحيث لن تصبح، على الأقل، تابعة له أبداً. ثم تبعت الأخ هنا، وصعدت الليلة الماضية -كلب من العامة، لكن السيف في يدي- أين نافذة الدور العلوي؟ كانت في مكان ما هنا؟».

كانت الغرفة مظلمة بالنسبة إلى نظره؛ والعالم يضيق من حوله. نظرت حولي، ورأيت آثار أقدام على القش والتبن، كأنما دار صراع.

«سمعتني وركضت نحوي. قلت لها ألا تقترب منا حتى يموت. جاء، وألقى إليّ أولاً بعض النقود؛ ثم ضربني بالسوط، لكنني، وعلى الرغم من أنني كلب من العامة، ضربته إلى درجة أنني جعلته يتراجع. فليتحطم إلى أكبر عدد ممكن من القطع ذلك السيف الذي لطخه بدمي العامي؛ استل سيفه للدفاع عن نفسه؛ اندفع نحوي بكل مهارته من أجل حياته».

كانت عيني قد لمحت، منذ لحظات قليلة، شظايا سيف مكسور ملقاة بين القش. كان سيف النبيل. وفي موضع آخر، لمحت سيفاً قديماً ملقى، بدا أنه سيف جندي.

«والآن، ارفعني يا دكتور. ارفعني. أين هو؟».

«إنه ليس هنا»، قلت وأنا أسند الصبي، وأعتقد أنه يشير إلى الأخ.
«إنه! رغم أنه فخور مثل هؤلاء النبلاء، فهو يخشى رؤيتي. أين
الرجل الذي كان هنا؟ أدر وجهي نحوه».

فعلت ذلك، رافعاً رأس الصبي على ركبتي. لكنه اكتسب في تلك
اللحظة قوة غير عادية، ورفع نفسه تماماً؛ مما أجبرني على النهوض
أيضاً، وإلا لما كنت أتمكن من الاستمرار في دعمه.

قال الصبي، مستديراً نحوه بعينين مفتوحتين، ورافعاً يده اليمنى:
«أيها الماركيز، عندما تأتي الأيام التي يتعين عليك فيها الرد على كل
هذه الأشياء، سوف أدعو أخاك، أسوأ أفراد العرق الشرير، للرد عليه
على انفراد، وأرسم عليه صليب الدم هذا، علامة على أنني سأفعل
ذلك».

وضع يده مرتين على جرح صدره، ورسم بسبابته صليباً في الهواء.
وقف لحظة وإصبعه مرفوعة؛ وعندما سقط، سقطت معه إصبعه،
فأرقدته ميتاً».

«عندما عدت إلى جانب سرير الشابة، وجدتها تهذي بنفس ترتيب
التابع بالضبط. كنت أعرف أن هذا قد يستمر ساعات عديدة، ومن
المحتمل أن ينتهي في صمت القبر.

كررت الأدوية التي أعطيتها لها، وجلست على جانب السرير حتى
تَقَدَّمَ الليل كثيراً. لم تخفف قطُّ من نوع صرخاتها الحادة، ولم تتعثر

قطُّ في وضوح أو ترتيب كلماتها. كانت دائماً: «زوجي، وأبي، وأخي! واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، أحد عشر، اثنا عشر. صمّاً!».

استمر الوضع على هذا النحو لستّ وعشرين ساعة منذ أن رأيته لأول مرة. لقد جنّت وذهبت مرتين، وكنت جالساً بجانبها مرة أخرى، عندما بدأت تتلعثم. فعلتُ القليل الذي يمكنني القيام به للمساعدة في تلك الفرصة المواتية، وبمرور الوقت غرقت في سبات، ورقدت مثل الموتى. بدا الأمر كأن الرياح والأمطار قد هدأت أخيراً، بعد عاصفة طويلة ومخيفة. أطلقتُ ذراعيها، وناديت المرأة لمساعدتي في ترتيب هيئتها والثوب الذي مزقته. أدركت حينها أن حالتها هي حالة امرأة ظهرت عليها توقعات الأمومة الأولى؛ وعندئذٍ فقدت أملِي الضئيل في حالتها. «هل ماتت؟»، سأل الماركيز، الذي سأظل أصفه بأنه الأخ الأكبر، وهو يدخل الغرفة بحذائه عالي الساق بعد أن ترجّل من حصانه.

أجبت: «لم تمت؛ لكنها تقترب من الموت».

قال، وهو ينظر إليها بشيء من الفضول: «يا لها من قوة تلك التي تتمتع بها أجساد أولئك العامة!».

أجبت: «هناك قوة هائلة في الحزن واليأس».

ضحك في البداية على كلماتي، ثم استاء منها. حرك كرسياً بقدمه بالقرب من الكرسي الذي أجلس عليه، وأمر المرأة بالابتعاد، ثم قال بصوت خافت:

«يا دكتور، عندما وجدت أخي يواجه هذه الصعوبة مع أولئك
الطباء، أوصيتُ بدعوتك لمساعدته. أنت تتمتع بسمعة طيبة، وبوصفك
شاباً تود أن تجني ثروة، ربما تفكر في مصلحتك. الأشياء التي تراها
هنا، هي أشياء تراها ولا تتحدث عنها».

استمعت إلى تنفُّس المريضة، وتجنَّبت الإجابة.

«هل تشرفني باهتمامك، يا دكتور؟».

قلت: «سيدي، في مهنتي، يظل دائماً التواصل مع المرضى في طبي
الكتمان». توخيت الحذر في إجابتي، نظراً إلى اضطراب ذهني مما
سمعتُه ورأيتُه.

كان تتبَّع تنفُّسها عسيراً، حتى إنني حاولت فحص نبضها وقلبها
بعناية. هناك حياة، وليس أكثر. عُدت إلى مقعدي، نظرت حولي،
ووجدت الأخوين يحدقان نحوي».

«أكتب بصعوبة كبيرة، البرد شديد جداً، وخائف جداً من اكتشافني
وإرسالني إلى زنزانة تحت الأرض في ظلام دامس، مما يضطرنني إلى
اختصار هذه الرواية. لا تعاني ذاكرتي من أي ارتباك أو فشل؛ يمكنها
أن تتذكر، وأن تسترجع بالتفصيل، كل كلمة قيلت بيني وبين هذين
الأخوين».

ظلت المريضة على حالتها لمدة أسبوع؛ وقرب نهايته، تمكَّنت من
فهم بعض المقاطع القليلة التي قالتها لي، وذلك بوضع أذني بالقرب

من شفتيها. سألتني أين هي، فأخبرتها؛ وسألتني من كنت، وأخبرتها. عبثاً سألتها عن اسم عائلتها. هزّت رأسها بصوتٍ خافتٍ على الوسادة، واحتفظت بسرّها، كما فعل الصبي.

لم تُتح لي الفرصة لتوجيه أي سؤال إليها، إلى أن أخبرت الأخوين أن حالتها تتدهور بسرعة، ولن تتمكن من العيش يومًا آخر. حتى ذلك الحين، وعلى الرغم من عدم رؤية أي شخص لها في حالة وعيها إلا المرأة وأنا، فقد كان أحد الأخوين أو الآخر يجلس دائمًا، شاعرًا بالغيرة، خلف الستارة على رأس السرير عندما أكون هناك. أما وقد اقتربت نهايتها، بدا كلاهما غير مهتم بالتواصل الذي أجره معها؛ كأنما -مرّت الفكرة في ذهني- أموت أنا أيضًا.

لقد لاحظت دائمًا أن كبرياءهما استاء بمرارة من أن الأخ الأصغر (كما أسميه) تبارز بالسيف مع فلاح، وأن ذلك الفلاح صبي. وبدا أن الاعتبار الوحيد الذي يؤثر في عقليهما هو أن هذا مهينٌ للغاية للأسرة، ومثير للسخرية. وكلما وقعت عيناى على عيني الأخ الأصغر، ذكّرني تعبيرهما بأنه يكرهني بشدة، لمعرفته بما عرفته من الصبي، كان أكثر لطفًا وتهذيبًا معي من الأخ الأكبر؛ لكنني رأيت هذا. كما رأيت أنني كنت عبثًا يُثقل ذهن الأخ الأكبر أيضًا.

توفيت مريضتي، قبل ساعتين من منتصف الليل؛ في وقت، حسب ساعتى، يتوافق تقريبًا مع اللحظة نفسها التي رأيتها فيها لأول مرة. كنت وحدي معها، عندما تدلى رأسها الشاب البائس بلطفٍ على جانب واحد، وانتهت كل أخطائها وأحزانها الدنيوية.

كان الأخوان ينتظران، بفارغ الصبر، في غرفة أسفل السلم، متلهفين على الرحيل. كنت قد سمعتهما، وأنا وحدي بجانب السرير، يضربان حذاءيهما بسياط الخيل، ويتسكعان صعودًا وهبوطًا.

قال الأكبر، عندما دخلت: «ماتت أخيرًا؟».

أجبت: «ماتت».

«أهنتك يا أخي»، كانت كلماته وهو يستدير.

عرض عليّ المال من قبل، وأجلت أخذه، أعطاني الآن لفافة من الذهب. أخذتها من يده، لكنني وضعتها على الطاولة. فكرت في الأمر، وقررت عدم قبول أي شيء.

قلت: «أرجو المَعذرة. كلا، في ظل هذه الظروف».

تبادلا النظرات، لكنهما أحنيا رأسيهما نحوي وأنا أنحني لهما، وافترقنا دون تبادل كلمة أخرى من أي طرف».

«أنا مرهق، مرهق، مرهق، أنهكني البؤس. لا أستطيع قراءة ما كتبته بهذه اليد الهزيلة».

«في الصباح الباكر، تركتُ لفة الذهب عند باب منزلي في صندوق صغير، عليه اسمي من الخارج. منذ البداية وأنا أفكر بقلقٍ فيما يجب أن أفعله. وقررت في ذلك اليوم أن أكتب سرًّا إلى الوزير، مُبينًا طبيعة الحاليتين اللتين أُستدعيت إليهما، والمكان الذي ذهبت إليه؛ في الواقع، مع ذكر جميع الظروف. كنت أعرف مدى تأثير البلاط، ومدى حصانة

النبلاء، وتوقعت ألا يسمع أحد أبداً عن الأمر؛ لكنني وددتُ أن أريح ذهني. أخفيت الأمر سرّاً عميقاً، حتى عن زوجتي. وقررت أن أذكر ذلك أيضاً في رسالتي. لم يساورني أي تخوف حول الخطر الحقيقي المصدق بي؛ لكنني كنت مدرّكاً أنه قد يوجد خطر على آخرين، إذا تعرض آخرون للخطر نتيجة امتلاك المعرفة التي أمتلكها.

انشغلت كثيراً في ذلك اليوم، ولم أستطع إكمال رسالتي في تلك الليلة. استيقظت قبل فترة طويلة من وقتي المعتاد في صباح اليوم التالي لإنهاء الرسالة. كان اليوم الأخير من السنة. كانت الرسالة ملقاة أمامي بعد أن أنهيتها، عندما قيل لي إن سيدة تنتظر، وترغب في رؤيتي».

«أصبحت تدريجياً أقل كفاءة تجاه المهمة التي حددتها لنفسي. الجو بارد للغاية، مظلم للغاية، وحواسي مخدّرة للغاية، والكآبة التي تخيم عليّ مروعة للغاية.

كانت السيدة شابة، وجذابة، ووسيمة لكنها من غير المتوقع أن تعيش طويلاً، كانت في حالة شديدة من الاضطراب، قدمت نفسها لي كزوجة الماركيز سان إيفريموند. ربطتُ بين اللقب الذي خاطب به الصبي الأخ الأكبر والحرف الأول المطرز على الوشاح، ولم أجد صعوبة في التوصل إلى استنتاج مفاده أنني رأيت ذلك النبيل منذ وقت قريب جداً.

لا تزال ذاكرتي دقيقة، لكنني غير قادر على كتابة كلمات الحديث الذي دار بيننا. أظن أنني مراقب من كتب أكثر من ذي قبل، ولا أعرف

في أي الأوقات يراقبونني. لقد اشتبهت جزئياً الحقائق الرئيسية لتلك القصة القاسية، واكتشفت جزئياً نصيب زوجها فيها، ولجوءه إليّ. لم تكن تعرف أن الفتاة ماتت. وقالت في حزنٍ شديدٍ إن أملها كان أن تُظهر لها في الخفاء تعاطف امرأة. كانت تأمل في درء غضب السماء عن بيتٍ كان منذ فترة طويلة كارهاً للكثيرين الذين يعانون.

وكانت لديها أسباب تدفعها إلى الاعتقاد بأن هناك أختاً صغيرة في قيد الحياة، وكانت رغبته الكبرى هي مساعدة تلك الأخت. لم أستطع أن أخبرها بأي شيء سوى وجود مثل هذه الأخت؛ لكنني لا أعرف شيئاً أكثر من ذلك. كان حافزها للمجيء إليّ، اعتماداً على ثقتي، هو الأمل في أن أتمكن من إخبارها باسم الأخت ومكان إقامتها. لكنني، كنت في هذه الساعة البائسة، أجهل كليهما».

«تخذلني قصاصات الورق هذه. أخذوا إحداها مني بالأمس، مع تحذير. يجب أن أنهى اليوم تسجيل قصتي.

كانت سيدة طيبة وعطوفة، ولم تكن سعيدة في زواجها، وكيف يمكنها أن تسعد! لم يثق بها الأخ وكرهها، ووجّه نفوذه كله ضدها. كانت تخاف منه، ومن زوجها أيضاً. وعندما رافقتها إلى الباب، رأيت طفلاً في عربتها، صبيّاً جميلاً يتراوح عمره من سنتين إلى ثلاث سنوات.

قالت، وهي تشير إليه باكية: «من أجله، يا دكتور، سأفعل كل ما في وسعي لإصلاح ما أستطيع، لن يزدهر ميراثه أبداً بغير ذلك. لديّ شعورٌ مسبق بأنه إذا لم تكن هناك كفارة طاهرة أخرى لهذا الفعل، فسوف

يُطَلَّب منه ذلك ذات يوم. ما تبقى لي لأسميه ممتلكاتي - وهو لا يتجاوز قيمة بضع جواهر - سأجعل منحها لهذه العائلة الجريحة أول مهمة في حياته، بعطف وحزن والدته المتوفاة، إذا أمكن اكتشاف الأخت».

قَبَلَت الصبي، وقالت وهي تداعبه: «هذا من أجلك، يا حبيبي. هل ستكون مخلصًا، تشارلز الصغير؟» أجابها الطفل بشجاعة، «نعم!». قَبَلَت يدها. حملت الطفل بين ذراعيها، وغادرت وهي تداعبه. لم أرها بعد ذلك قطُّ.

وبما أنها ذكرت اسم زوجها على أمل أنني أعرفه، لم أضف أي ذكر له في رسالتي. ختمت رسالتي، ولم أثق أن تخرج من يدي، وسلَّمتها بنفسني في ذلك اليوم.

في تلك الليلة، آخر ليلة في السنة، نحو الساعة التاسعة، دق على بوابتي رجلٌ يرتدي ملابس سوداء، وطلب رؤيتي. سار بهدوء خلف خادمي، إرنست ديفارج، وهو شاب، إلى أعلى السُّلم. عندما جاء خادمي إلى الغرفة التي جلست فيها مع زوجتي - آه يا زوجتي، حبيبة قلبي! زوجتي الإنجليزية الشابة الجميلة! - رأينا الرجل، الذي كان من المفترض أنه عند البوابة، يقف صامتًا خلفه.

قال هناك حالة عاجلة في شارع سان أونوريه، لن أتأخر؛ إذ كانت لديه عربة في الانتظار.

أوصلتني العربة إلى هنا، أوصلتني إلى قبري. عندما خرجت من البيت، ألقى وشاح أسود على فمي من الخلف بإحكام، وكَبَلَ يديَّ. عبر الشقيقان الطريق من زاوية مظلمة، وتعرَّفا عليَّ بإيماءة واحدة. أخرج

الماركيز من جيبه الرسالة التي كتبها، وأطلعني عليها، ثم أحرقها في ضوء فانوس كان ممسكاً به، وأطفأ الرماد بقدمه. لم تُنطق كلمة واحدة؛ أحضروني إلى هنا، أحضروني إلى قبري الحي.

لو شاء كان الله سيلين قلب أي من هذين الأخوين، خلال كل هذه السنوات المخيفة، بحيث يمنحني أي أخبار عن زوجتي العزيزة - لأعرف ولو بكلمة ما إذا كانت حية أو ميتة - لربما اعتقدت أنه لم يتخل عنهما تمامًا. لكنني أعتقد الآن أن علامة الصليب الأحمر قاتلة لهما، وليس لهما نصيب في رحمته. وأنا ألكسندر مانيت، السجين التعيس، أعلن في هذه الليلة الأخيرة من عام ١٧٦٧، في ظل عذاب لا يُطاق، أنني أدِينهما هما وأحفادهما، حتى آخر سلالته، إلى أن يأتي يوم الحساب على كل تلك الأشياء، أنا أشتكيهم إلى السماء والأرض».

انطلق صوت رهيب عند الانتهاء من قراءة هذه الوثيقة، صوت متعطش ومتلهف لا إلى شيء إلا الدم. استدعت القصة أكثر المشاعر انتقامًا في ذلك الوقت، ولم يكن في الأمة رأس إلا وسقط أمامها.

ما من حاجة تُذكر، في حضرة تلك المحكمة وذلك الجمهور، لتوضيح لماذا لم ينشر ديفارج وزوجته هذه الوثيقة على الملأ، مع الأنصاب التذكارية الأخرى التي استوليا عليها من الباستيل وسارا بها في موكب؛ لكنهما احتفظا بها، وأخفياها لإظهارها في الوقت المناسب. وما من حاجة تُذكر لإظهار أن اسم العائلة البغيض هذا كان ملعونًا منذ فترة طويلة في ضاحية القديس أنطوان، ومُدرَجًا في السجل القاتل. والرجل الذي كانت فضائله وخدماته ستدعمه في ذلك المكان

في ذلك اليوم، ضد مثل هذه الإدانة، لم تطأ قدماه الأرض قط.

والأسوأ من ذلك بالنسبة إلى الرجل المحكوم عليه بالموت، أن من اتهمه كان مواطناً مشهوراً، وصديقه الحميم، ووالد زوجته. كان أحد التطلعات المحمومة لدى عامة الناس يكمن في محاكاة الفضائل العامة المشكوك فيها في العصور القديمة، وفي تقديم القرابين والتضحية بالنفس على مذبح الشعب. لذلك، وعندما قال الرئيس (وإن لم يفعل لارتعش رأسه على كتفيه) أن طيب الجمهورية الصالح سيحوز على أفضل تقدير من الجمهورية باستئصال عائلة بغیضة من الأرستقراطيين، وسيشعر بلا شك بتوهج مقدس وابتهاج في جعل ابنته أرملة وطفلتها يتيمة، ما كان إلا أن أثارت كلماته ضجة جامحة وحماسة وطنية، وليس أي لمسة من التعاطف الإنساني.

تمت السيدة ديفارج، وهي تنظر مبتسمة نحو المرأة المنتقمة: «هل لهذا الطبيب تأثير كبير من حوله؟ أنقذه الآن، يا طبيبي، أنقذه!».

كان التهدير يرتفع مع إدلاء كل من المحلفين بصوته. تصويت ثم هدير، وتصويت ثم هدير. زئير وزئير.

كانت نتيجة التصويت بالإجماع؛ أرستقراطي قلباً ونسباً، عدو للجمهورية، سيئ السمعة وظالم للشعب. يُعاد إلى الكونسيروجيري، ويُعدم خلال أربع وعشرين ساعة!

الفصل العاوي عشر

الغسق

سقطت زوجة الرجل البائسة، زوجة الرجل البريء المحكوم عليه بالموت، عندما سمعت الحكم، كأنما أصيبت بضربة قاتلة. لم تطلق أي صوت؛ لكن الصوت داخلها كان قويًا جدًّا، متمثلًا في أنها هي تحديدًا من بين العالم كله التي يجب أن تدعمه في بؤسه ولا تزيده، إلى درجة أنه هذا الصوت سرعان ما أيقظها، حتى من تلك الصدمة.

رُفعت الجلسة، حيث يتعيَّن على القضاة المشاركة في مظاهرة عامة خارج أبواب المحكمة. لم تكن سرعة الضجة والحركة الناجمة عن إفراغ المحكمة وخروج الناس إلى العديد من الممرات قد توقفت، عندما وقفت لوسي باسطة ذراعيها نحو زوجها، دون أي شيء في وجهها سوى الحب والمواساة.

«لو أمكنني أن ألمسه! لو أمكنني أن أعانقه مرة واحدة! أيها المواطنون الصالحون، إن كان لديكم قدر من التعاطف معنا!».

لم يتبقَّ سوى سجنان، إلى جانب اثنين من الرجال الأربعة الذين أخذوه الليلة الماضية، وبارساد. تدفق الناس جميعًا إلى الاستعراض في

الشارع. اقترح بارساد على البقية: «دعها تعانقه إذن؛ إنها مجرد لحظة». وافقوا بصمتٍ، ومرّروها فوق مقاعد القاعة إلى مكان مرتفع، حيث يمكنه، من خلال الانحناء على قفص الاتهام، ضمها بين ذراعيه.

«وداعًا عزيزتي، حبيبة روعي. أباركك با حبيبتي بركات الفراق. سنلتقي مرة أخرى، حيثما يستريح المتعبون!».

كانت هذه كلمات زوجها، وهو يضمها إلى حضنه.

«أستطيع تحمّل ذلك، عزيزي تشارلز، يدعمني الله من أعلى، لا تعانٍ من أجلي، بارك طفلتنا بركات الفراق». «أرسلها إليها عن طريقك، وأقبلها عن طريقك، وأقول لها وداعًا عن طريقك».

«زوجي، لا! لحظة!»، كان يبعد نفسه عنها. «لن نفترق طويلاً، أشعر أن هذا سيحطم قلبي عن قريب. لكنني سأقوم بواجبي ما دمت أستطيع؛ وعندما أتركها، سيحيطها الله بالأصدقاء، كما فعل من أجلي». «لحق بها والدها، وكاد يجثو على ركبتيه لهما، لكن دارني مديده وأمسك به وهو يقول:

«لا، لا! ماذا فعلت، ماذا فعلت، لكي تركع لنا! نحن نعرف الآن الصراع الذي خضته في الماضي. ونحن نعرف الآن ما مررت به عندما اشتبهت في نسبي، وعندما عرفته. نحن نعرف الآن الكراهية الطبيعية التي ناضلت ضدها، وانتصرت عليها، من أجل ابنتك العزيزة. نشكر من كل قلوبنا، ومن كل حبنا وواجبنا، وليكن الله معك!».

كان جواب والدها الوحيد هو سحب يديه من خلال شعره الأبيض،
وعصرهما بصرخة ألم.

قال السجين: «ما كان يمكن أن تسير الأمور إلا على هذا النحو.
لقد تضافرت كل الأشياء معًا كما حدث. لقد كانت محاولتي، العبثية
دائمًا، للوفاء بما عاهدت أُمي المسكينة عليه هي التي جعلت وجودي
القاتل يقترب منك في البداية. لا يمكن أن يأتي الخير أبدًا من مثل هذا
الشر، والنهاية السعيدة لا تأتي بطبيعتها من بداية تعيسة. كن مطمئنًا
وسامحني. بارك الله فيك!».

عندما جاؤوا ليأخذه، تركته زوجته، ووقفت تنظر نحوه ويدها
متلامستان معًا في وضع الصلاة، وبنظرة مشرقة على وجهها، وبابتسامة
مريحة. وما إن خرج من باب السجناء، حتى استدارت ووضعت رأسها
بمحبة على صدر والدها، حاولت التحدث إليه، وسقطت عند قدميه.

عندئذٍ خرج سيدني كارتون من الزاوية الغامضة التي لم يتحرك
منها قط، وأخذها. لم يكن معها سوى والدها والسيد لوري. ارتجفت
ذراعه عندما رفعها ليسند رأسها، ومع ذلك، لم يكن الجو المحيط به
كله شفقة، بل كان فيه شيء من الفخر.

«هل أحملها إلى عربة؟ لن أشعر بوزنها أبدًا».

حملها بخفة إلى الباب، وأرقدتها بحنانٍ في عربة. دخل والدها
وصديقهما القديم إلى العربة، واتخذ هو مقعده بجوار السائق.

عندما وصلوا إلى البوابة -حيث توقف في الظلام منذ ساعات

قليلة، محاولاً معرفة حجارة الشارع الخشنة التي وطأتها قدماها - رفعها مرة أخرى، وحملها على السلم إلى غرفتها. هناك، وضعها على أريكة، وأخذت طفلتها والآنسة بروس يكيان عليها.

قال بهدوءٍ للآنسة بروس: «لا تحاولي إيقاظها، هذا أفضل لها. لا تُعيدنها إلى وعيها، هي في حالة إغماء فقط».

بكت لوسي الصغيرة، نهضت وألقت ذراعيها حوله بحماسٍ، في موجة من الحزن: «أوه، كارتون، كارتون، عزيزي كارتون! الآن بعد أن أتيت، أعتقد أنك ستفعل شيئاً لمساعدة ماما، شيئاً لإنقاذ بابا! أوه، انظر إليها، عزيزي كارتون! هل يمكنك، من بين جميع الأشخاص الذين يحبونها، أن تتحمّل رؤيتها هكذا؟».

انحنى فوق الطفلة، ووضع خدها المزهر على وجهه. ثم أبعداها عنه برفقٍ، ونظر إلى والدتها فاقدة الوعي.

قال: «قبل أن أذهب»، توقف للحظة، «هل يمكنني تقبيلها؟».

تذكّروا بعد ذلك أنه عندما انحنى ولمس وجهها بشفتيه، تمتم ببعض الكلمات. وبعدها أخبرتهم الطفلة، التي كانت الأقرب إليه، وأخبرت أحفادها عندما أصبحت عجوزاً جميلة، أنها سمعته يقول «حياة تحبينها».

عندما خرج إلى الغرفة المجاورة، التفت فجأة إلى السيد لوري ووالدها، اللذين كانا يتبعانه، وقال لوالدها:

«باستثناء الأمس، لديك نفوذٌ كبيرٌ، دكتور مانيت؛ على الأقل

يمكنك المحاولة. هؤلاء القضاة، وجميع رجال السلطة، ودودون جدًا معك، ويقدرّون خدماتك جدًا، أليس كذلك؟».

أجاب في اضطرابٍ بالغٍ وبيطٍ شديد: «لم يخفوا عني أي شيء مرتبط بتشارلز. وتلقيت منهم أقوى التأكيدات على أنني سأنقذه. وقد فعلت».

«فلتحاول مرة أخرى. لم يتبقَّ سوى ساعاتٍ قليلة وقصيرة جدًا تفصلنا عن عصر الغد، لكن، حاول».

«أعتزمُ المحاولة، لن أهدأ لحظة».

«هذا جيد. لقد عرفت من قبل طاقة مثل طاقتك تفعل أشياء عظيمة... على الرغم من أنها لم تفعل قطُّ»، أضاف بابتسامة وتنهيدة معًا، «أشياء عظيمة مثل هذه. لكن، حاول! لا قيمة للحياة عندما نسيء استخدامها، فهي تستحق هذا الجهد. ولولا ذلك، لن يكلف التخلي عنها شيئًا».

قال الدكتور مانيت: «سأذهب إلى المدعي العام والرئيس مباشرة، وسأذهب إلى الآخرين الذين من الأفضل عدم ذكر أسمائهم. سأكتب أيضًا، ولكن... انتظر! هناك احتفال في الشوارع، ولن يمكن الوصول إلى أحد حتى حلول الظلام».

«هذا صحيح. حسنًا! إنه أملٌ بائسٌ في أحسن الأحوال، ولن يزيده بأسًا التأخير حتى حلول الظلام. أود أن أعرف كيف تسير الأمور؛ ومع ذلك، انتبه! لا أتوقع شيئًا! متى يُحتمل أن ترى هذه القوى المرعبة، دكتور مانيت؟».

«بعد حلول الظلام مباشرة، كما آمل. في غضون ساعة أو ساعتين من الآن».

«سيحل الظلام بعد الرابعة بقليل. دعونا نمدد ساعة أو ساعتين. إذا ذهبت إلى السيد لوري في التاسعة، هل يمكنني معرفة ما فعلته، إما من صديقنا أو منك؟».

«نعم».

«أتمنى لك التوفيق!».

لحق السيد لوري بسيدني عند الباب الخارجي، ولمسه على كتفه في أثناء خروجه، ما جعله يستدير.

قال السيد لوري، في همس منخفض وحزين: «ليس لديَّ أمل».

«ولا أنا».

«إذا كان أيُّ من هؤلاء الرجال، أو جميع هؤلاء الرجال، على استعدادٍ لإنقاذه - وهو أقصى افتراض؛ فما قيمة حياته أو حياة أي إنسان بالنسبة إليهم! - أشك أنهم يجرؤون على ذلك بعد المظاهرة التي جرت في المحكمة».

«وأنا أيضًا. كنت أسمع في أصواتهم سقوط شفرة المقصلة».

أسند السيد لوري ذراعه إلى عمود الباب، وأحنى بوجهه عليه.

قال كارتون بلطفٍ شديدٍ: «لا تيأس، لا تحزن. لقد شجعت الدكتور مانيت على هذه الفكرة، لأنني شعرت أنها قد تكون ذات يوم مصدر عزاء لها. وإلا قد تعتقد أن «حياته قد أُهدرت عمداً أو ضاعت هباء»، وقد يزعجها ذلك».

أجاب السيد لوري، وهو يجفف عينيه: «نعم، نعم، نعم، أنت على حق. لكنه سيموت. لا يوجد أمل حقيقي».

ردّ كارتون: «نعم. سوف يموت؛ لا يوجد أمل حقيقي».

وسار بخطواتٍ ثابتة، هابطاً السُّلم.

الفصل الثاني عشر

الظلام

توقّف سيدني كارتون في الشارع، فلم يقرر تمامًا إلى أين يذهب. قال بوجه متأمل: «إلى مؤسسة تيلسون المصرفية في التاسعة. هل أحسن صنعًا، في الوقت نفسه، لو ظهرت؟ أعتقد ذلك. من الأفضل أن يعرف هؤلاء الناس أن هناك رجلًا مثلي هنا؛ إنه إجراء احترازي سليم، وقد يكون إعدادًا ضروريًا، لكن حذار، حذار، حذار! لأفكر في الأمر!». أوقف خطواته التي بدأت تميل نحو شيء ما، سار منعطفًا أو اثنين في الشارع الذي أظلم بالفعل، وتتبع الفكرة التي تدور في ذهنه إلى عواقبها المحتملة. تأكد انطباعه الأول. قال، وقد عقد العزم أخيرًا: «من الأفضل أن يعرف هؤلاء الناس أن رجلًا مثلي هنا». وأدار وجهه نحو ضاحية القديس أنطوان.

كان ديفارج قد وصف نفسه، في ذلك اليوم، بأنه صاحب متجر نبذ في ضاحية القديس أنطوان. ولم يكن يصعب على شخص يعرف المدينة جيدًا أن يجد متجره دون أن يسأل. بعد أن تأكد كارتون من موقعه، خرج ثانية من تلك الشوارع الضيقة، وتناول العشاء في مقهى، ونام بعمق بعد العشاء. لأول مرة، منذ سنوات عديدة، لم يتناول مشروبًا قويًا. منذ الليلة

الماضية لم يشرب سوى القليل من النبيذ الرقيق الخفيف. وفي الليلة الماضية، أسقط البراندي ببطء على موقد السيد لوري، مثل رجل فرغ من شرابه.

استيقظ منتعشًا نحو الساعة السابعة، وخرج إلى الشوارع مرة أخرى. وخلال سيره في اتجاه القديس أنطوان، توقف عند نافذة متجر حيث توجد امرأة؛ عدل قليلاً من ترتيب ربطة عنقه الفضفاضة، وياقة معطفه، وشعره الأشعث. وبعدها توجه مباشرة إلى متجر ديفارج، ودخل.

تصادف عدم وجود زبائن في المتجر سوى جاك ثلاثة، صاحب الأصابع المضطربة والصوت الأَجَش. كان هذا الرجل، الذي رآه في هيئة المحلفين، واقفاً يشرب أمام الطاولة الصغيرة، وهو يتحدث مع ديفارج وزوجته. ساعدت المرأة المنتقمة في الحديث، كعضوٍ منتظمٍ في المؤسسة.

دخل كارتون، واتخذ مقعدًا وطلب (بلغة فرنسية غير جيدة) قدرًا صغيرًا من النبيذ. ألقت السيدة ديفارج عليه نظرة غير مبالية، ثم نظرة حادة، ثم نظرة حادة، وبعدها تقدمت إليه بنفسها، وسألته عن طلبه.

كرر ما سبق أن قاله بالفعل.

سألته السيدة ديفارج، رافعة حاجبيها الداكنين بفضول: «إنجليزي؟».

بعد أن نظر إليها، كأن تلك الكلمة الفرنسية الواحدة كانت بطيئة

في التعبير عن نفسها له، أجاب بلكنته الأجنبية القوية السابقة. «نعم، سيدتي، نعم. أنا إنجليزي!».

عادت السيدة ديفارج إلى طاولتها لإحضار النبيذ. وبينما كان يمسك بمجلة اليعاقبة ويتظاهر بالتمعن فيها في محاولة لفهم ما بها، سمعها تقول «أقسم لك، إنه يشبه إيفريموند!».

أحضر له ديفارج النبيذ، وحيّاه تحية المساء.
«كيف؟».

«طاب مساؤك».

«أوه! طاب مساؤك، أيها المواطن»، ثم أضاف وهو يملأ كأسه:
«آه! والنبيذ جيد. أنا أشرب نخب الجمهورية».

عاد ديفارج إلى الطاولة، وقال: «بالتأكيد، يشبهه قليلاً». أجابت السيدة بصرامة: «أقول لك إنه يشبهه كثيراً». قال جاك ثلاثة بهدوء:
«أرى أنك تفكرين فيه كثيراً، يا سيدتي». وأضافت المرأة المتتمة بودّ ضاحكة: «نعم، أعتقد ذلك! وتتطلعين بسرورٍ كبيرٍ لرؤيته مرة أخرى غدًا!».

تتبع كارتون سطور وكلمات مجلته بسبابة بطيئة، وبوجه مجتهد ينم عن الاستغراق. كانوا جميعًا يميلون بأذرعهم على الطاولة متقاربين، ويتحدثون بصوتٍ منخفضٍ، وبعد صمتٍ دام بضع لحظات، نظر الجميع خلالها نحوه دون إزعاج انتباهه الخارجي عن مجلة اليعاقبة، ثم استأنفوا حديثهم.

قال جاك ثلاثة: «صحيح ما تقوله السيدة. لماذا نتوقف؟ هناك قوة كبيرة. لماذا نتوقف؟».

«حسنًا، حسنًا»، قال ديفارج، «لكن يجب على المرء أن يتوقف عند نقطة ما. لكن السؤال لا يزال، أين هذه النقطة؟».

قالت السيدة: «عند الإبادة».

«رائع!»، صاح جاك ثلاثة. وافقت بشدة أيضًا المرأة المنتقمة.

قال ديفارج، مضطربًا إلى حدٍّ ما: «الإبادة مذهب جيد يا زوجتي. وبشكلٍ عام، لا أقول شيئًا ضده. لكن هذا الطبيب عانى كثيرًا. لقد رأيته اليوم، ولاحظت وجهه عندما قرأتُ الورقة».

«لقد لاحظت وجهه!»، كررت السيدة بازدراء وغضب، «نعم. لاحظت وجهه. لاحظت أن وجهه ليس وجه صديق حقيقي للجمهورية. دعه يعتني بوجهه!».

قال ديفارج باستهجانٍ: «وقد لاحظت يا زوجتي ألم ابنته، ولا بد أنه ألم مخيف بالنسبة إليه!».

«لاحظت ابنته»، كررت السيدة، «نعم، لاحظت ابنته أكثر من مرة. لاحظتها اليوم، ولاحظتها في أيام أخرى. لاحظتها في المحكمة، ولاحظتها في الشارع بجوار السجن. دعني أرفع إصبعي...!». بدت كأنها ترفعه (وكانت أعين المستمع على مجلته دائمًا)، وتركه يسقط مع حشرة الموت على الحافة أمامها، كأنما سقطت شفرة المقصلة.

«إنها لمواطنة رائعة!»، صاح المحلف.

«إنها ملاك!»، قالت المرأة المنتقمة، واحتضنتها.

«أما بالنسبة إليك»، تابعت السيدة بعنادٍ، مخاطبة زوجها، «إذا كان الأمر يعتمد عليك -وهو، لحسن الحظ، لا يعتمد عليك- لكنت أنقذت هذا الرجل، الآن حتى».

«لا!»، احتج ديفارج، «ليس إذا كان رفع هذه الكأس سيؤدي بالغرض! لكنني سأترك الأمر هنا. أقول، لتتوقف عند هذا الحد».

قالت السيدة ديفارج بغضبٍ: «انتبه، إذن، يا جاك، وانتبه أيضًا أيتها المنتقمة الصغيرة. انتبها كلاكما! اسمعا! لقد سجّلت هذا العرق في سجلي منذ فترة طويلة بسبب جرائم أخرى ارتكبتها كطغاة وظالمين، محكوم عليه بالفناء والإبادة. واسألوا زوجي، أليس هذا صحيح».

«صحيح»، وافق ديفارج، دون أن يسأله أحد.

«في بداية الأيام العظيمة، عندما سقط الباستيل، وجد تلك الورقة التي قرأها اليوم، وأحضرها إلى المتجر. وفي منتصف الليل، عندما أصبح هذا المكان خاليًا ومغلقًا، قرأناها، هنا في هذه البقعة، على ضوء هذا المصباح. اسألوه، هل هذا صحيح».

وافق ديفارج: «هذا صحيح».

«في تلك الليلة، بعد أن قرأنا الورقة، وانطفأ المصباح، وأضاء النهار فوق تلك المصاريع وبين تلك القضبان الحديدية، أخبرته أن لديّ سرًّا أود البوح به الآن. اسألوه، هل هذا صحيح».

وافق ديفارج مرة أخرى: «هذا صحيح».

«بُحت له بالسر. ضربت هذا الصدر بهاتين اليدين كما أضربه الآن، وقلت له: «ديفارج، لقد نشأت بين صيادي السمك على شاطئ البحر، وتلك العائلة الفلاحية التي أصابها الأخوان إيفريموند بأذى شديد، كما تصف ورقة الباستيل، هي أسرتي. ديفارج، أخت ذلك الصبي الذي أُصيب بجروح قاتلة على الأرض هي أختي، وذلك الزوج هو زوج أختي، وذلك الطفل الذي لم يُولد هو طفلهما، وذلك الأخ هو أخي، وذلك الأب هو أبي، وهؤلاء الموتى هم موتاي، وهذا يستدعيني إلى الانتقام مما حدث لي! اسألوه، هل هذا صحيح».

«هذا صحيح»، وافق ديفارج مرة أخرى.

أجابت السيدة: «قل للريح والنار إذن أين تتوقفان، لكن لا تقل لي ذلك».

استمد سامعها متعة رهيبة من طبيعة غضبها المميته - يمكن للمستمع أن يشعر بمدى فرار الدم من وجهها، دون رؤيتها- وأشاد بها كلاهما بشدة. تدخل ديفارج، وهو أقلية ضعيفة، ببضع كلمات عن ذكرى زوجة الماركيز الرحيمة؛ لكن ذلك استفز زوجته، فكررت ردّها الأخير: «قل للريح والنار إذن أين تتوقفان، لكن لا تقل لي ذلك!».

دخل بعض الزبائن، ففرقت المجموعة. دفع الزبون الإنجليزي ثمن ما شربه، وأخذ يحسب مرتبًا باقي الحساب. طلب، بوصفه غريبًا، توجيهه نحو القصر الوطني. أخذته السيدة ديفارج إلى الباب، ووضعت ذراعها على ذراعه، في إشارة إلى الطريق. راودت الزبون الإنجليزي تأملات حينذاك؛ أنه ربما من الجيد الإمساك بتلك الذراع، ورفعها، وطعن ما تحتها بقوة وعمق.

لكنه مضى في طريقه، وسرعان ما ابتلعه ظل جدار السجن. خرج منه في الساعة المحددة متوجّهاً إلى غرفة السيد لوري مرة أخرى، حيث وجد الرجل العجوز يمشي جيئةً وذهاباً في قلقٍ مضطربٍ. قال إنه ظل مع لوسي حتى الآن، ولم يتركها إلا لبضع دقائق، ليأتي ويحافظ على مواعده. لم يشاهد والدها، منذ أن غادر البنك نحو الساعة الرابعة. كانت لديها بعض آمال ضعيفة في أن تنجح وساطته في إنقاذ تشارلز، لكنها كانت آمالاً ضئيلة للغاية. لقد مضى أكثر من خمس ساعات؛ أين يمكن أن يكون؟

انتظر السيد لوري حتى العاشرة؛ لكن الدكتور مانيت لم يعد بعد. ولأنه لم يكن راغباً في ترك لوسي فترة أطول، فقد اتفقا على أن يعود إليها، ثم يرجع إلى البنك مرة أخرى في منتصف الليل. وفي غضون ذلك، انتظر كارتون وحده الطبيب بجانب النار.

انتظر وانتظر، ودقت الساعة الثانية عشرة؛ لكن الدكتور مانيت لم يعد. عاد السيد لوري، دون أن يجد أي أخبار عنه، لم يحضر أي خبر. أين يمكن أن يكون؟

كانا يناقشان هذا السؤال، وعلى وشك بناء تصور ضعيف من الأمل بسبب طول غيابه، عندما سمعاه على السلم. وفي لحظة دخوله الغرفة، كان من الواضح أن كل شيء قد ضاع.

لم يُعرَف قطُّ ما إذا كان قد ذهب حقاً إلى أي شخص، أو ظل يحجب الشوارع طوال ذلك الوقت. وعندما وقف يحدّق إليهما، لم يسألوه أي سؤال، لأن وجهه أخبرهم بكل شيء.

قال: «لا يمكنني العثور عليه، ويجب أن أجده. أين هو؟».

كان رأسه وعنقه عاريين. وبينما كان يتحدث بنظرة عاجزة تتجول في كل مكان، خلع معطفه وتركه يسقط على الأرض.

«أين مقعدي؟ بحثت عن مقعدي في كل مكان، ولم أتمكن من العثور عليه. ماذا فعلوا بعملتي؟ الوقت يضغط: يجب أن أنهي ذلك الحذاء».

نظرا إلى بعضهما، ومات قلباهما في داخلهما.

قال بطريقة بائسة متدمرة: «هيا، هيا! دعني أذهب إلى العمل. أعطني عملي».

ولما لم يتلق أي إجابة، مزَّق شعره، وضرب الأرض بقدميه، مثل طفلٍ مشتت.

ناشدهم بصرخة مروعة: «لا تعذبوا بائسًا حزينًا مسكينًا. لكن أعطوني عملي! ماذا سيحدث لنا إن لم أنتهِ من هذا الحذاء الليلة؟».

لقد ضاع، ضاع تمامًا!

كان واضحًا بجلاء عدم وجود أي أمل في مناقشته أو محاولة استعادته؛ فوضع كلُّ منهما يده على كتفه - كأنما اتفقا على ذلك - مع تهدئته ليجلس أمام النار، ومع وعد بالحصول على عمله الآن. غرق في الكرسي، وأخذ يتأمل الجمر، ويزدرف الدموع. رآه السيد لوري ينكمش إلى هيئته السابقة عندما كان عند ديفارج؛ كأن كل ما حدث منذ زمن العليّة كان مجرد خيال عابر أو حلم.

أثار هذا المشهد البائس مشاعرهما ورعبيهما، على أن الوقت لم يكن مناسباً للاستسلام لمثل هذه المشاعر؛ فقد كانت ابنته الوحيدة، المحرومة من آخر أمل وسندٍ لها، تناديهما بقوة. ومرة أخرى، كأنما بالاتفاق، نظر كلُّ منهما إلى الآخر، بمعنى واحد في وجهيهما. كان كارتون أول من تكلم:

«ضاعت الفرصة الأخيرة: لم تكن كبيرة. نعم؛ من الأفضل أخذه إليها. لكن، قبل أن تذهب، هل يمكن أن تسمعي باهتمام للحظة؟ لا تسألني لماذا أضع الشروط التي سأقدمها، وأفني بالوعد الذي سأقطعه. لديَّ سببٌ... سببٌ وجيه».

أجاب السيد لوري: «ليس لديَّ شك في ذلك، قل ما عندك».

كان الشخص الجالس على الكرسي بينهما يهز نفسه طوال الوقت جيئةً وذهاباً برتابة، ويثن. تحدثا بنبرة صوت كانا سيستخدمانها لو كانا جالسين بجوار مريضٍ على سريره في الليل.

انحنى كارتون لالتقاط المعطف، الذي كاد يعلّق بقدميه. وبينما يقوم بذلك، سقطت محفظة صغيرة بخفّة على الأرض، اعتاد الطبيب أن يحملها، وتضم قوائم واجباته اليومية. تناولها كارتون، ووجد فيها ورقة مطوية. قال: «يجب أن نرى ما فيها!». أوماً السيد لوري برأسه موافقاً. فتحتها وصاح: «شكراً لله!».

«ما هذا؟»، سأل السيد لوري بلهفة.

«لحظة! اسمح لي أن أتكلّم عنها في موضعها. أولاً»، وضع يده في

معطفه، وأخرج ورقة أخرى، «هذه شهادة تمكّني من الخروج من هذه المدينة، انظر إليه. هل ترى... سيدني كارتون، رجل إنجليزي؟».

أمسك السيد لوري بالورقة وفتحها، محدقاً إلى وجهه الجاد.

«احتفظ بها لي حتى الغد. سأراه غداً، كما تتذكر، ومن الأفضل ألا تأخذها معي إلى السجن».

«ولمَ لا؟».

«لست أدري، وإنما أفضل عدم أخذها معي. والآن، خذ هذه الورقة التي تخص الدكتور مانيت ويحملها معه، إنها شهادة ماثلة تُمكنه هو وابنته وطفلتها، في أي وقت، من اجتياز الحاجز والحدود! هل ترى؟».

«نعم!».

«ربما حصل عليها أمس، كاحتياطٍ أخير وأقصى ضد الشر. ما التاريخ المدوّن عليها؟ لكن، لا يهم. لا تبقَ لتنظر إليها. ضعها بعناية مع ورقتي وورقتك. والآن، انتبه! لم أشك قطُّ، حتى خلال هذه الساعة أو الساعتين، أن لديه مثل هذه الورقة، أو يمكن أن توجد لديه. إنها جيدة، حتى تُسترد. لكنها قد تُسترد قريباً، ولديّ سبب للاعتقاد أنها سوف تُسترد».

«هل هم ليسوا في خطر؟».

«إنهم في خطرٍ كبيرٍ. وهم معرّضون لخطر الإدانة من جانب السيدة ديفارج. عرفت ذلك من شفيتها. فقد سمعت الليلة كلمات تلك المرأة، وأدركت بوضوح ألوان الخطر القوية التي تحيق بهم. لم أضِيع أي وقت؛

وعندئذٍ قابلت الجاسوس، وأكد كلامي. وهو يعرف أن قاطع الأخشاب، الذي يعيش بجوار جدار السجن، يخضع لسيطرة السيد والسيدة ديفارج، وقد أخبر السيدة ديفارج عن رؤيته لها -لم يذكر اسم لوسي قط- «وهي توجّه علامات وإشارات إلى السجناء. ومن السهل توقّع أن الاتهام سيكون الاتهام الشائع، مؤامرة للفرار من السجن، وهذا سيشمل حياتها... وربما طفلتها... وربما والدها؛ لأن كليهما شوهد معها في ذلك المكان. ما من داعٍ إلى أن تبدو مذعورًا هكذا، أنت سوف تنقذهم جميعًا».

«فليمنحني الله القدرة، يا كارتون! لكن كيف؟».

«سأخبرك كيف. سوف يعتمد الأمر عليك، ولا يمكن أن يعتمد على رجل أفضل. من المؤكد أن هذا الاتهام الجديد لن يحدث إلا بعد الغد؛ ربما ليس إلا بعد يومين أو ثلاثة أيام؛ وعلى الأرجح بعد أسبوع. أنت تعرف أن الحزن على ضحية المقصلة أو التعاطف معها يُعتبر جريمة كبرى عقوبتها الإعدام. ولا شك أن الاتهام بهذه الجريمة سوف يوجه إليها وإلى والدها، وقد تنتظر هذه المرأة (التي لا يمكن وصف صلابتها ملاحظتها) لتزيد قضيتها قوة، وتضاعف من يقينها. هل تتابعني؟».

«بانتهاءً شديد، وبثقة كبيرة فيما تقول، إلى درجة أنني الآن أغفل في الوقت الحالي»، ملامسًا ظهر كرسي الطبيب، «حتى عن هذا البؤس».

«لديك المال، ويمكنك شراء وسائل سفرٍ إلى ساحل البحر بأسرع ما يمكن للقيام بهذه الرحلة. لقد اكتملت استعداداتك منذ بضعة أيام للعودة إلى إنجلترا. عليك أن تجهز خيولك، في وقتٍ مبكرٍ من الغد، حتى تكون مستعدًا للانطلاق في الساعة الثانية بعد الظهر».

«اتفقنا!».

كان أسلوبه متحمسًا ومُلهمًا للغاية، حتى إن السيد لوري اتّقد حماسًا، وأصبح سريعًا مثل شاب.

«أنت قلب نبيل. هل قلت إننا لا يمكن أن نعتمد على رجلٍ أفضل؟ أخبرها الليلة بما تعرفه عن الخطر الكامن، وإنه يتعلق بطفلتها ووالدها. تكلم طويلًا في ذلك، لأنها يمكن أن تضع رأسها الجميل بجانب رأس زوجها بكل سرور». تردد لحظة، ثم واصل حديثه: «من أجل طفلتها ووالدها، اضغط عليها مؤكّدًا ضرورة مغادرة باريس، معهم ومعك، في تلك الساعة. أخبرها أن هذا كان الترتيب الأخير الذي خططه زوجها، أخبرها أن الأمر يعتمد على أكثر مما تجرؤ على تصديقه أو تأمل فيه. هل تعتقد أن والدها، حتى في هذه الحالة المحزنة، سوف يخضع لها؛ أليس كذلك؟».

«أنا متأكد من ذلك».

«هذا ما تصورته. عليك إتمام كل هذه الترتيبات، بهدوءٍ وثباتٍ، في الفناء هنا؛ حتى ما يتعلق بشغل مقعدك في العربة. وفي اللحظة التي آتي فيها إليك، خذني معك وانطلق».

«أفهم إذن أنني يجب أن أنتظر في جميع الظروف؟».

«تصريح خروجي في يدك مع باقي التصاريح، كما تعرف، وسوف تحجز مكاني. لا تنتظر شيئًا سوى شغل مكاني الشاغر، ثم إلى إنجلترا!».

قال السيد لوري، وهو يمسك بيده المتلهفة، وإن كانت حازمة وثابتة، «حسنًا، إذن، لن يعتمد كل شيء على رجل عجوز واحد، وإنما سيجلس بجانيبي شاب متحمس».

«ستحقق ذلك، بعون الله! أعطني وعدًا جدّيًا بأن لا شيء سيؤثر فيك لتغيير المسار الذي تعهدنا به الآن».

«لا شيء، يا كارتون».

«تذكر هذه الكلمات غدًا: إذا حدث تغيير أو تأخير في المسار - لأي سبب كان - لن يمكن إنقاذ أي حياة، وستصبح التضحية بالعديد من الأرواح حتمية».

«سوف أتذكر كل شيء. آمل أن أقوم بدوري بإخلاص».

«وآمل أن أقوم أنا أيضًا بدوري بإخلاص. والآن، وداعًا!».

على الرغم من أنه قال تلك الكلمات بابتسامة جديدة كئيبة، وعلى الرغم من أنه وضع يد الرجل العجوز على شفتيه، فلم يفارقه حينذاك. لقد ساعده إلى حد بعيد على إيقاظ الطبيب المتأرجح أمام الجمر المحتضر، وإلباسه عباءة وقبعة، وإغرائه بالعثور على مكان إخفاء المقعد والعمل اللذين لا يزال يسعى إليهما منتحبًا. سار على الجانب الآخر منه، مع حمايته وصولاً إلى فناء المنزل، حيث كان القلب المنكوب - الذي كان سعيدًا جدًا في تلك الأيام التي لا تُنسى، حين باح عن مكنون قلبه الموحش - يراقب الليلة الرهيبة. دخل الفناء وبقي هناك بضع لحظات وحده، ينظر إلى الضوء الذي يخرج من نافذة غرفتها. وقبل أن يتعد، تنفس تبرّكًا ووداعًا.

الفصل الثالث عشر

اثنان وخمسون

في سجن الكونسيرجيري الأسود، كان المحكوم عليهم بالموت اليوم ينتظرون مصيرهم. وكان عددهم يماثل عدد أسابيع السنة؛ فمن المقرر أن يتدحرج اثنان وخمسون بعد ظهر ذلك اليوم على أمواج حياة المدينة إلى البحر الأبدي الذي لا حدود له. وقبل مغادرة زنازينهم، تحدد لها شاغلون جُدّد؛ وقبل أن تختلط دماؤهم بالدماء التي أُريقت بالأمس، تحددت الدماء التي ستختلط بدمائهم في الغد.

تعرّض اثنان وخمسون شخصًا للتأنيب: من ملتزم جباية الضرائب الذي بلغ السبعين من عمره ولم تستطع ثرواته شراء حياته، إلى الخياطة التي تبلغ العشرين من عمرها ولم يستطع فقرها وخمولها إنقاذها. وكما تستولي الأمراض الجسدية، الناتجة عن رذائل الناس وإهمالهم، على الضحايا من جميع الدرجات؛ فإن الاضطراب الأخلاقي المخيف، الذي يتولّد من معاناة لا توصّف، وقمع لا يطاق، والاستهانة القاسية، يطال الجميع بالتساوي دون تمييز.

لم يدعم تشارلز دارني نفسه، وهو وحيد في زنزانته، بأي وهم مُغرٍ منذ أن جاء إليها من المحكمة؛ فقد كان يسمع إدانته في كل سطرٍ من

القصة التي سمعها. وأدرك تمامًا أن أي نفوذ شخصي لا يمكن أن ينقذه، وأن الملايين أصدرت حكمها عليه بالفعل، وأن جهود الأفراد لن تفيده بأي شيء.

ومع ذلك، لم يكن من السهل عليه، ووجه زوجته الحبيبة ماثل أمامه، أن يهيئ عقله لما يجب أن يتحمّله. كانت قبضته على الحياة قوية، ومن العسير جدًا جدًا تخفيفها؛ ومع الجهود والدرجات التدريجية أمكن أن تنحل قليلًا هنا، ويزداد إحكامها هناك. وعندما يستخدم قوته للتأثير في تلك اليد وتستسلم، تتشبّث القبضة مرة أخرى. كانت جميع أفكاره أيضًا متسركة، وقلبه مضطرب ومحموم، يقاوم الاستسلام. وإذا شعر بالاستسلام لحظة، تبدو أمامه زوجته وطفله - اللتان ستضطران إلى العيش بعده - في حالة احتجاج وستعتبران ذلك أنانية.

على أن ذلك كله كان في البداية. فلم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى برزت في ذهنه فكرة شجعته، مفادها أنه ما من عارٍ في المصير الذي عليه أن يواجهه، وأن أعدادًا كبيرة سارت في الطريق نفسه ظلمًا، وتسير فيه بثباتٍ كل يوم. ثم تبعها فكرة أخرى مفادها أن قدرًا كبيرًا من راحة البال التي سيتمتع بها الأعداء في المستقبل، تعتمد على ثباته الهادئ. ولذا، استعداد هدوءه تدريجيًا، عندما أصبح في إمكانه أن يسمو بأفكاره إلى مستوى أعلى بكثير، واستعداد الشعور بالراحة.

قبل أن يحل الظلام في ليلة إدانته، كان قد قطع مسافة طويلة على طريقه الأخير. ونظرًا إلى السماح له بشراء وسائل الكتابة ومصباح، جلس يكتب إلى أن يحين موعد انطفاء مصابيح السجن.

كتب رسالة طويلة إلى لوسي، موضحًا أنه لم يكن يعرف شيئًا عن سجن والدها، حتى سمع به منها؛ وأنه كان يجهل مثلها مسؤولية والده وعمه عن هذا البؤس، حتى قُرئت الورقة. كما أوضح أن إخفاءه الاسم الذي تخلّى عنه، كان الشرط الوحيد -المفهوم تمامًا الآن- الذي اشترطه والدها لخطبتهما، والوعد الوحيد الذي أصر عليه في صباح يوم زفافهما. توسّل إليها، إكرامًا لوالدها، ألا تسعى أبدًا لمعرفة ما إذا كان والدها قد نسي تلك الورقة، أو تذكرها (في الوقت الحالي، أو إلى الأبد)، من خلال قصة البرج، في ذلك الأحد القديم تحت شجرة الدلب القديمة العزيزة في الحديقة. وإذا كان قد احتفظ بأي ذكرى محددة لها، فلا شك أنه افترض أنها دُمّرت مع الباستيل، عندما لم يجد أي ذكر لها بين آثار السجناء التي اكتشفها الجمهور هناك ووُصفت للعالم بأسره. وتوسّل إليها -على الرغم من أنه أضاف أنه يعرف عدم ضرورة ذلك- أن تواسي والدها، من خلال إثارة إعجابه بكل وسيلة حنونة يمكن أن تفكر فيها، بحقيقة أنه لم يفعل شيئًا يستحق أن يلوم نفسه عليه، بل نسي نفسه من أجل مصلحتهما المشتركة. وأوصاها، بالإضافة إلى احتفاظها بحبّه الممتن وبركته الأخيرة، وتغلّبها على حزنها، أن تكرس نفسها لطفلتها العزيزة إلى أن يلتقيا في السماء، وأن تواسي والدها.

وكتب إلى والدها نفسه رسالة في الاتجاه نفسه؛ لكنه أخبر والدها أنه يعهد إليه صراحة برعاية زوجته وطفلته، وقد أخبره بذلك بقوة شديدة، على أمل إيقاظه من أي يأسٍ أو تراجعٍ خطيرٍ يتوقع أنه ربما يتجه نحوه.

وفي رسالته إلى السيد لوري، أوصاه بهم جميعاً، وشرح له شؤونه الدنيوية، وبعدها أضاف العديد من الجمل التي تُعبّر عن امتنانه بالصدقة ودفع الود، وهكذا انتهت الرسالة. لم يفكر في كارتون قط، كان عقله مليئاً بالآخرين، إلى حد أنه لم يفكر فيه ولا لمرة واحدة.

أسعفه الوقت لإنهاء هذه الرسائل قبل إطفاء الأنوار، وعندما استلقى على سريره المصنوع من القش، اعتقد أنه انتهى من هذه الدنيا. لكنها عادت إليه ثانية مرة خلال نومه، وأظهرت نفسها في أشكال مشرقة؛ رأى نفسه حرّاً وسعيداً، عاد إلى البيت القديم في حي سوهو (وإن لم يكن به شيء يشبه البيت الحقيقي)، أطلق سراحه دون سبب واضح، شعر بقلبه خفيفاً، وكان مع لوسي مرة أخرى، وأخبرته أن كل ذلك كان حلمًا، وأنه لم يرحل قط. فاصل من النسيان، ثم أخذ يعاني، وعاد إليها ميتاً مسالماً، ومع ذلك لم يتغير فيه شيء. وبعد فاصل آخر من النسيان، استيقظ في الصباح الكئيب غير واعٍ أين كان، أو ماذا حدث، حتى ومض في ذهنه: «هذا يوم موتي!».

وهكذا، مرّت به الساعات إلى اليوم الذي ستسقط فيه رؤوس الاثنين والخمسين. والآن، بينما كان متماسكاً ويأمل أن يتمكن من مواجهة النهاية ببطولة هادئة، بدأ شيء جديد يتبادر إلى أفكاره اليقظة، شيء كان يصعب للغاية السيطرة عليه.

لم يسبق له قط أن رأى الأداة التي ستنتهي حياته. ما مدى ارتفاعها عن الأرض، وما عدد درجات سلمها، وأين سيقف، وكيف سيلمسونه، وهل الأيدي التي ستلمسه ستصطبغ باللون الأحمر، وإلى أي اتجاه

سيدرون وجهه، وهل سيكون الأول، أو ربما الأخير. كانت هذه والعديد غيرها من الأسئلة المشابهة، قد أقحمت نفسها، على غير إرادته، مرارًا وتكرارًا، لمراتٍ لا تُحصى. كما لم تكن مرتبطة بالخوف؛ فلم يكن يشعر بأي خوف. بل كانت تنبع، بالأحرى، من رغبة غريبة تجتاحه لمعرفة ما يجب أن يفعله عندما يحين الوقت؛ رغبة لا تتسق إطلاقًا واللحظات السريعة القليلة التي تشير إليها؛ تساؤل أشبه بتساؤل روح أخرى داخله، وليس روحه.

مرّت الساعات وهو يمشي ذهابًا وإيابًا، والساعات تدق الأرقام التي لن يسمعها مرة أخرى. التاسعة ذهبت إلى الأبد، العاشرة ذهبت إلى الأبد، الحادية عشرة ذهبت إلى الأبد، وها هي الثانية عشرة تأتي ثم تذهب إلى الأبد. بعد صراع شرس مع تلك الأفكار الغريبة التي حيرته مؤخرًا، تغلب عليها. أخذ يسير ذهابًا وإيابًا، مكرّرًا أسماءهم بهدوء لنفسه. لقد انتهى أسوأ ما في الصراع، وأصبح في إمكانه أن يسير ذهابًا وإيابًا متحررًا من الأوهام المُشتتة، وأن يصلي من أجل نفسه ومن أجلهم.

مضت الثانية عشرة إلى الأبد.

أبلغوه أن الساعة الثالثة هي الأخيرة، وكان يعرف أنهم سوف يستدعونه قبل ذلك بفترة، لأن عربات النقل المكشوفة تتدحرج متناقلة بطيئة خلال سيرها في الشوارع؛ لذلك، قرر أن يضع الساعة الثانية في ذهنه باعتبارها الساعة الأخيرة، بغية تقوية نفسه في الفترة الفاصلة، حتى يتمكن بعد ذلك من تقوية الآخرين.

كان يسير بانتظامٍ ذهابًا وإيابًا، وذراعاها مطويتان على صدره، رجل مختلف تمامًا عن السجين الذي كان يسير ذهابًا وإيابًا في سجن لا فورس. سمع الساعة تدق الواحدة، فلم يُفاجأ. مضت الساعة مثل معظم الساعات الأخرى. شكر السماء بإخلاصٍ على استعادته رباطة جأشه، وفكّر: «لم يبقَ الآن سوى ساعة واحدة أخرى»، واستدار ليعاود السير.

سمع وقع أقدامٍ في الممر الحجري خارج الباب، توقف. وُضع المفتاح في القفل، وأدير. قبل فتح الباب، أو عند فتحه، قال رجل بصوتٍ منخفض، باللغة الإنجليزية: «لم يرني هنا قطُّ؛ لقد ابتعدت عن طريقه. ادخل وحدك؛ سوف أنتظر بالقرب منك، لا تضعي الوقت!». فُتح الباب، وأُغلق بسرعة. وقف سيدني كارتون أمامه وجهًا لوجه، هادئًا، مُحدِّقًا، بابتسامة مشرقة على ملامحه، وإصبع تحذيرية على شفته.

بدا على مظهره شيء مشرق ولافت للنظر، إلى درجة أن السجين شك في اللحظة الأولى أنه شبح من خياله، لكنه تكلم وكان صوت كارتون. وأمسك بيد السجين، وكانت قبضة كارتون الحقيقية.

قال كارتون: «من بين كل الناس على الأرض، لم تتوقع أن تراني؟». «لم أستطع أن أصدق أنه أنت، بالكاد يمكنني أن أصدق الآن. أنت لست...» - تسلل الخوف فجأة إلى ذهنه - «سجين؟».

«لا، أنا أمتلك بالصدفة سلطة على أحد الحراس هنا، وبفضلها أقف أمامك، لقد جئت من عندها، زوجتك، عزيزي دارني».

لوى السجين يده.

«أحمل لك طلبًا منها».

«ما هو؟».

«إنه توَّسل أكثر جدية وإلحاحًا وتأكيِّدًا، موجَّه إليك بأكثر النبرات حزنًا لصوت عزيز عليك، تتذكره جيدًا».

أدار السجين وجهه جانبًا بعض الشيء.

«ليس لديك وقت لتسألني لماذا أحمل هذا الرجاء إليك، أو ماذا يعني؛ فليس لديَّ وقت لأخبرك. يجب أن تمتثل له. اخلع الحذاء الذي ترتديه، وارْتِدِ حذائي».

كان يوجد كرسي خلف السجين، بمحاذاة جدار الزنزانة. دفع كارتون السجين إلى الأمام، وأجلسه على الكرسي، بسرعة البرق، ووقف فوقه حافي القدمين.

«انتعلِ حذائي هذا، ضع يديك عليه؛ استعن بقوة إرادتك.. بسرعة!».

«كارتون، لا مجال للهرب من هذا المكان؛ هذا مستحيل. لن يقود ذلك إلا إلى أن تموت معي، هذا جنون».

«من الجنون أن أطلب منك الهروب. لكن، هل أطلب منك ذلك؟ عندما أطلب منك أن تخرج من هذا الباب، أخبرني أنه جنون وابقَ هنا. عليك أن ترتدي ربطة عنقي بدلًا من ربطة عنقك، وكذا معطفي. وفي

أثناء قيامك بذلك، دعني آخذ هذا الشريط من شعرك، وأنفض شعرك ليصبح مثل شعري!». .

وبسرعة عجيبة، وبقوة إرادة وفعل بدتا خارتين للطبيعة تمامًا، فرض عليه كل هذه التغييرات، كان السجين مثل طفلٍ صغيرٍ بين يديه. «كارتون! عزيزي كارتون! هذا جنون، لا يمكن تحقيقه، ولا يمكن القيام به أبدًا. سبق أن حاول آخرون، وكانوا يفشلون دائمًا، أتوسل إليك ألا تضيف موتك إلى مرارة موتي». .

«هل طلبت منك، عزيزي دارني، أن تخرج من الباب؟ عندما أطلب ذلك، ارفض. يوجد قلم وحبر وورقة على هذه الطاولة، هل يدك ثابتة بما يكفي للكتابة؟». .

«كانت ثابتة عندما أتيت أنت إلى هنا». .

«عليك تثبيتها ثانية، واكتب ما سأمليه عليك. أسرع، يا صديقي، أسرع!». .

جلس دارني على الطاولة، وهو يضغط بيده على رأسه المتحير. وقف كارتون، ويده اليمنى على صدره، بالقرب منه. .

«اكتب بالضبط ما أقوله». .

«إلى من أوجه الخطاب؟». .

«لا أحد». لا يزال كارتون يضع يده على صدره. .

«هل أكتب التاريخ؟». .

«لا». .

كان السجين ينظر إلى أعلى عند كل سؤال. بينما كان كارتون ينظر إلى أسفل، وهو يقف فوقه ويده على صدره.

أملاه كارتون: «إذا كنت تتذكرين الكلمات التي تبادلناها منذ فترة طويلة، ستفهمين هذه الرسالة بسهولة عندما تقرئينها. أعرف أنك تتذكرينها، فليس من طبيعتك أن تنسيها».

كان يسحب يده من صدره؛ وتصادف أن نظر السجين إلى أعلى في دهشة متسارعة وهو يكتب، فتوقفت يده، وأطبقت على شيء ما.

سأله كارتون: «هل كتبت «تنسيها؟»».

«نعم. هل هذا سلاح في يدك؟».

«لا. أنا لست مسلحاً».

«ماذا في يدك؟».

«ستعرف في الحال. واصل الكتابة، لم يبق سوى بضع كلمات أخرى». عاد يمليه ثانية «أنا ممتنٌ لأن الوقت قد حان، حتى يمكنني إثبات ذلك. وقيامي بذلك ليس موضوعاً للأسف أو الحزن». عندما قال هذه الكلمات وعينه مثبتتان على الكاتب، تحركت يده ببطء ولطف بالقرب من وجه الكاتب.

سقط القلم من أصابع دارني على الطاولة، ونظر حوله شاردًا.

«ما هذا البخار؟» سأله دارني.

«بخار؟».

«شيء ما انطلق نحوي؟».

«أنا لا أشعر بأي شيء؛ لا يمكن أن يوجد شيء هنا. خذ القلم وانتِه. أسرع، أسرع!».

بذل السجين جهدًا لاستجماع انتباهه، كأنما يعاني من ضعف ذاكرته، أو تشوش قدراته. وبينما كان ينظر إلى كارتون بعينين غائمتين وتغيير في التنفس، نظر إليه كارتون بثباتٍ، واضعًا يده مرة أخرى في صدره.

«أسرع، أسرع!».

انحنى السجين على الورقة ثانية.

كانت يد كارتون تتسلل مرة أخرى بحذرٍ وهدوءٍ إلى أسفل «لو كان الأمر غير ذلك؛ ما كنت لأستغل الفرصة الأطول. لو كان الأمر غير ذلك»؛ وضع يده على وجه السجين «لكنت تحمّلت مسؤولية أكبر. لو كان الأمر غير ذلك...» نظر كارتون إلى القلم ورأى أنه يكتب علامات غير مفهومة.

لم تعد يد كارتون إلى صدره. نهض السجين بنظرة عتاب، لكن يد كارتون كانت قريبة وثابتة عند أنفه، والتفت ذراع كارتون اليسرى حول خصره. كافح السجين بضغفٍ بضغفٍ ثوانٍ مع الرجل الذي جاء ليضحي بحياته من أجله؛ لكنه، خلال دقيقة أو نحو ذلك، رقد ممدًا على الأرض فاقدًا للوعي.

وبسرعة، وإن كان بيدين مخلصتين مثل قلبه، ارتدى كارتون الملابس التي وضعها السجين جانبًا، ومشط شعره، وربطه بالشريط

الذي كان السجين يرتديه. ثم نادى بهدوء: «ادخل! تعال!»، فدخل الجاسوس.

قال كارتون، وهو ينظر إلى أعلى، ويركع على ركبة واحدة بجانب السجين فاقد الوعي، بعد أن وضع الورقة في صدره: «أترى؟ هل المجازفة التي ستقوم بها خطيرة إلى حدٍّ كبير جدًّا؟».

أجاب الجاسوس، مطلقًا أصابعه في خجل: «سيد كارتون، مجازفتي ليست خطيرة في سياق الأعمال هنا، إذا كنت مخلصًا في كل ما اتفقنا عليه».

«لا تخف مني، سأكون مخلصًا حتى الموت».

«يجب أن تكون مخلصًا، يا سيد كارتون، إذا أصبح العدد اثنين وخمسين بالفعل. وحين يكتمل بك وأنت في هذه الملابس، لن أشعر بأي خوف».

«لا تخف! سوف أبتعد قريبًا عن طريق إيذاك، وسوف يتعد الباقون عن هنا قريبًا، بمشيئة الله! والآن، أحضر المساعدة وخذني إلى العربية».

«أنت؟»، قال الجاسوس بعصبية.

«هو، يا رجل، من تبادلت معه. هل ستخرج من البوابة التي أدخلتني منها؟».

«بالطبع».

«كنتُ ضعيفًا وواهنا عندما أدخلتني، وأنا أضعف الآن وأنت

تخرجني؛ فقد كانت مقابلة الوداع تفوق طاقتي. يحدث مثل هذا الشيء هنا كثيرًا، بل كثير جدًا. حياتك بين يديك. أسرع! اطلب المساعدة!». توقف الجاسوس المرتجف لحظة أخيرة قائلاً: «هل تقسم ألا تخونني؟».

أجاب كارتون، ضاربًا الأرض بقدمه: «يا رجل، يا رجل! ألم أقسم لك من قبل بقسم مقدس أن أمضي قُدُمًا في هذا الأمر، فلماذا تضع اللحظات الثمينة الآن؟ خذ نفسك إلى الفناء الذي تعرفه، وضعه بنفسك في العربة، دع السيد لوري يراه، وقل له بنفسك ألا يعطيه أي علاج سوى الهواء، وأن يتذكر كلماتي في الليلة الماضية، وما وعد به في الليلة الماضية، وأن ينطلق بالعربة!».

انسحب الجاسوس، وجلس كارتون على الطاولة، وأراح جبهته على يديه. عاد الجاسوس على الفور مع رجلين.

«كيف وقع؟»، قال أحدهما وهو يفكر في الشخص الرائد على الأرض، «هل تألم بشدة عندما عرف أن صديقه قد سحب ورقة فائزة في يانصيب القديسة مقصلة؟».

قال الآخر: «بالكاد ما يصاب وطني صالح بأذى أكبر، إن لم يتمكن الأرستقراطي من سحب ورقة بيضاء».

رفع الشخص فاقد الوعي، ووضعاه على النقالة التي أحضرها إلى الباب، وانحنيا لحملها بعيدًا.

«الوقت قصير، يا إيفريموند»، قال الجاسوس، بصوتٍ تحذيري.

«أعرف ذلك جيداً»، أجاب كارتون، «اعتنِ بصديقي، أتوسّل إليك،
واتركني».

قال بارساد: «هيا إذن، يا ولديّ. ارفعه، واخرجا!».

أغلق الباب، وتُرك كارتون وحده. بذل أقصى جهده في الإصغاء،
ليستمع إلى أي صوت قد يدل على الشك أو الخطر. لم يكن هناك أي
شيء: دارت المفاتيح، واصطدمت الأبواب، ومَرَّت خطوات أقدام على
طول ممرات بعيدة؛ لم ترتفع أي صرخة أو استعجال على نحوٍ غير
مألوف. وبعد فترة قصيرة من التنفّس بحرية أكبر، جلس على الطاولة،
واستمع مرة أخرى حتى دقت الساعة الثانية.

ثم بدأت أصواتٌ أخرى تصبح مسموعة؛ أصواتٌ لم يكن يخشاها،
لأنه تكهن معناها. فُتحت عدة أبواب على التوالي، وأخيراً فُتح بابه. نظر
سجّان، في يده قائمة، ولم يقل سوى: «اتبعني، يا إيفريموند!»، فتبعه إلى
غرفة مظلمة كبيرة بعيدة. كان يوماً شتوياً مظلمًا؛ ومع الظلال في الداخل
والخارج، لم يستطع أن يُميّز إلا بصعوبة الآخرين الذين أحضروهم إلى
هناك لتقييد أذرعهم. كان البعض واقفاً، والبعض جالساً. وكان البعض
ينوح ويتحرك مضطرباً، لكن هؤلاء كانوا قلة. كانت الغالبية العظمى
صامتة وساكنة، تركّز نظراتها نحو الأرض.

بينما يقف بجوار الحائط في زاوية معتمة، وبينما يأتي بعض الاثنين
والخمسين من بعده، توقف رجل خلال مروره ليحتضنه، باعتباره
يعرفه. أثار ذلك في نفسه خوفاً شديداً من اكتشاف أمره؛ لكن الرجل
واصل سيره. ولم تمضِ لحظات قليلة حتى قامت امرأة شابة -ضئيلة

الجسم كالفتيات الصغيرات، ولها وجه جميل هزيل يخلو من أي أثر للون، وعينان كبيرتان صابرتان محدقتان - قامت من المقعد الذي رآها تجلس فيه، وجاءت للتحديث معه.

لمسته بيدها الباردة قائلة: «المواطن إيفريموند، أنا خياطة صغيرة فقيرة، كانت معك في سجن لا فورس».

تمتم مجيبًا: «صحيح. لكنني نسيت ماذا كانت تهتمك؟».

«التأمر، على الرغم من أن الرب العادل يعرف أنني بريئة. هل هذا ممكن؟ من يفكر في التأمر مع مخلوقة ضعيفة صغيرة فقيرة مثلي؟».

تأثر من الابتسامة البائسة التي تكلمت بها، إلى درجة أن الدموع بدأت تنهمر من عينيه.

«أنا لست خائفة من الموت، أيها المواطن إيفريموند، لكنني لم أفعل شيئًا. أنا لست راغبة عن الموت إذا كانت الجمهورية، التي ستقدم لنا نحن الفقراء الكثير من الخير، ستستفيد من موتي، لكنني لا أعرف كيف يمكن أن يحدث ذلك، أيها المواطن إيفريموند، وأنا مخلوقة صغيرة ضعيفة فقيرة!».

كان آخر شيء على وجه الأرض يرق له قلبه ويلين هو أن يرق ويلين لهذه الفتاة البائسة التي تثير شفقتة.

«سمعت بإطلاق سراحك، أيها المواطن إيفريموند، وكنت آمل أن يكون صحيحًا؟».

«كان صحيحًا، لكنني سُجنت مرة أخرى وأُذنت».

«إذا جاز لي أن أركب معك، أيها المواطن إيفريموند، هل تسمح لي بإمساك يدك؟ أنا لست خائفة، لكنني صغيرة وضعيفة، وهذا سيمنحني المزيد من الشجاعة».

عندما رفعت عينيها الصابرتين إلى وجهه، رأى فيهما شكًا مفاجئًا ثم دهشة. ضغط على أصابعها الشابة التي أنهكها العمل والجوع، ولمس شفتيه.

همست: «هل تموت فداء له؟».

«نعم، وفداء لزوجته وطفلته، صمتًا!».

«أووه، هل ستسمح لي بإمساك يدك الشجاعة، أيها الغريب؟».

«صمتًا! نعم يا أختي المسكينة؛ حتى النهاية».

كانت الظلال نفسها التي تتساقط على السجن، تتساقط - في الساعة نفسها في وقتٍ مبكرٍ من بعد الظهر - على الحاجز الذي يلتف الحشد حوله، عندما اقتربت عربة للتفتيش وهي تخرج من باريس.

«من القادم إلى هنا؟ من داخل العربة؟ أين الأوراق!».

قُدِّمت الأوراق، وقُرئت.

«ألكسندر مانيت، طبيب، فرنسي. أيهم هو؟».

هذا هو؛ مشيرًا إلى الرجل العجوز المسكين، التائه، الذي يتمم بشكلٍ غير واضح.

«يبدو أن المواطن الطيب ليس في كامل قواه العقلية؟ هل كانت حُمى الثورة أكثر قوة من أن يحتملها؟».

أكثر كثيرًا مما يمكنه احتمالها.

«هاه! عانى الكثيرون من ذلك. لوسي، ابنته، فرنسية، أين هي؟».

هذه هي.

«يبدو أنها هي. لوسي، زوجة إيفريموند؛ أليس كذلك؟».

هذا صحيح.

«هاه! إيفريموند لديه مهمة في مكان آخر. لوسي، طفلتها، إنجليزية، أهذه هي؟».

إنها هي وليس غيرها.

«قبّليني يا ابنة إيفريموند. أنت الآن قبّلت جمهوريًا صالحًا. شيء جديد في عائلتك؛ تذكرني ذلك! سيدني كارتون، محامي، إنجليزي، أين هو؟».

يرقد هنا، في هذه الزاوية من العربة، مُشيرًا إليه أيضًا.

«يبدو أن المحامي الإنجليزي في حالة إغماء؟».

من المأمول أن يتعافى في الهواء النقي، ويبدو أنه ليس في صحة جيدة، وقد انفصل للأسف عن صديق أصابه غضب الجمهورية.

«هل هذا كل شيء؟ ليس أمرًا مهمًا! فقد أصاب غضب الجمهورية كثيرين، وعليهم أن يطلوا من النافذة الصغيرة. جارفيس لوري. مصرفي. إنجليزي. أين هو؟».

«أنا هو. بالضرورة، كوني الأخير».

كان جارفيس لوري هو من أجاب عن جميع الأسئلة السابقة، وكان جارفيس لوري هو من ترَجَّل ووقف ويده على باب العربة، يرد على مجموعة من المسؤولين. ساروا على مهلٍ حول العربة، وصعدوا إلى صندوقها على مهل، لإلقاء نظرة على الأمتعة الصغيرة التي تحملها على سطحها؛ يتسكع سكان الريف حول العربة، ويتجمعون بالقرب من أبوابها، ويحدقون بشراهة إلى طفلة صغيرة، تحملها أمها، مدَّت ذراعها القصيرة لتلمس زوجة الأرستقراطي الذي ذهب إلى المقصلة.

«ها هي أوراقك، جارفيس لوري، مع توقيع بالموافقة».

«يمكن للمرء أن يرحل، أيها المواطن؟».

«يمكن للمرء أن يرحل. إلى الأمام، أيها السائقون! رحلة موفقة!».

«تحياتي، أيها المواطنون. وهكذا مرَّ الخطر الأول!».

كانت هذه، مرة أخرى، كلمات جارفيس لوري وهو يشبك يديه، وينظر إلى أعلى. هناك رعب في العربة، هناك بكاء، وهناك أنفاس ثقيلة يطلقها المسافرين فاقد الرشد.

سألت لوسي وهي متشبثة بالرجل العجوز: «ألَسنا نسير ببطء شديد؟ ألا يمكن حثهم على السير بشكل أسرع؟».

«سوف يبدو الأمر كأنه هروب، يا حبيبتي. يجب ألا أحثهم كثيرًا؛ فهذا قد يثير الشكوك».

«انظر إلى الوراء، انظر إلى الوراء، لترى ما إذا كنا ملاحقين!».

«الطريق خالٍ، يا أعز الناس. حتى الآن، لا أحد يلاحقنا».

نمرُّ بببوت ثنائية وثلاثية، ومزارع منعزلة، ومبانٍ مُدمّرة، ومصابغ، ومدابغ، وما شابه ذلك، أرض عراء، وطرق ذات أشجار خالية من الأوراق. أسفلنا رصيف صلب غير مستوٍ، وعلى الجانبين طين عميق ناعم. نندفع أحياناً نحو الوحل المحيط بنا، لتنفادى الحجارة التي تصطدم بنا وتهزنا؛ ونعلق أحياناً في الأخاديد والمستنقعات هناك. وعندئذٍ يزداد عذاب نفاد صبرنا، إلى حدٍّ يجعلنا نتطلع، ونحن في حالة من الذعر والاندفاع، إلى الخروج والركض والاختباء... نفعل أي شيء سوى أن نتوقف.

غادرنا الأرض العراء وأصبحنا مرة أخرى بين المباني المدمرة، والمزارع المنعزلة، والمصابغ، والمدابغ، وما شابه ذلك، أكواخ ثنائية وثلاثية، وطرق ذات أشجار خالية من الأوراق. هل خدعنا هؤلاء الرجال وأعادونا عبر طريقٍ آخر؟ أليس هذا هو المكان نفسه للمرة الثانية؟ شكرًا يا إلهي، كلا. إنها قرية. انظر إلى الوراء، انظر إلى الوراء، لترى ما إذا كنا ملاحقين! صمّتًا! إنه مركز البريد.

على مهلٍ، يجري إخراج خيولنا الأربعة؛ وعلى مهلٍ، تقف العربّة بلا خيولٍ في الشارع الصغير دون أي احتمال لأن تتحرك ثانية؛ وعلى مهلٍ، ظهرت الخيول الجديدة إلى العيان، واحدة تلو الأخرى؛ وعلى مهلٍ، يتبعها السائقون الجدد، يبلّلون ويضفرون أهداب سياطهم؛ وعلى مهلٍ، يحسب السائقون القدامى أموالهم، ويجرون إضافات خاطئة، ويصلون إلى نتائج غير مُرضية. وطوال الوقت، تنبض قلوبنا المثقلة

بمعدلٍ يفوق بكثيرٍ أسرع ركض لأسرع الخيول وُلدت على الإطلاق.
وأخيرًا، يجلس السائقون الجدد على السروج، ويُترك السائقون
القدامى. نتحرك خلال القرية، نصعد التل، ونهبط التل، وعلى الأراضي
الرطبة المنخفضة. فجأة، يتبادل السائقون الحديث بإيماءاتٍ مفعمة
بالحيوية، ويوقفون الخيول، على أردافها تقريبًا. هل نحن ملاحقون؟
«أنت! يا من داخل العربة. تكلم إذن!».

«ما هذا؟» يسأل السيد لوري، وهو ينظر من النافذة.

«كم قالوا؟».

«أنا لا أفهمك».

«... في آخر محطة. كم عدد المُقَدِّمين إلى المقصلة اليوم؟».

«اثنان وخمسون».

«قلت ذلك! رقم ممتاز! يقبل زملائي المواطنون هنا اثنان وأربعين.
عشرة رؤوس أخرى جديدة بالاستحقاق. أن تستحق الحصول عليها.
تعمل المقصلة بشكلٍ جيد. وأنا أحبها. شكرًا. إلى الأمام، هيا!».

يأتي الليل قاتمًا. يتحرك أكثر؛ يبدأ في استعادة وعيه، والتحدث
بشكلٍ واضح. يعتقد أنهما لا يزالان معًا. يسأله، باسمه، عما لديه في يده.
ارحمنا يا إلهي، ارحمنا، وساعدنا! انتبه، انتبه، وانظر ما إذا كنا ملاحقين.
تندفع الريح خلفنا، وتطير الغيوم خلفنا، ويغرق القمر خلفنا، والليل
الموحش كله يطاردنا. لكن، حتى الآن، لا يطاردنا أي شيء آخر.

الفصل الرابع عشر

انتهاء الحياكة

في تلك الفترة الحاسمة نفسها، عندما كان الاثنان والخمسون ينتظرون مصيرهم، عقدت السيدة ديفارج جلسة تشاورية، شريرة ومشؤومة، ضمّت المرأة المتتقمة وكذا جاك ثلاثة عضو هيئة المحلفين الثورية. لم تتشاور السيدة ديفارج مع هذين الوزيرين في متجر النبيذ، وإنما في سقيفة قاطع الأخشاب الذي كان يعمل سابقاً في إصلاح الطرق. لم يشارك قاطع الأخشاب نفسه في الاجتماع، بل ظل على مسافة صغيرة، مثل تابع خارجي، لا يتكلم إلا عند الحاجة، أو لإبداء الرأي إذا طُلب منه، حتى تتم دعوته.

قال جاك ثلاثة: «لكن ديفارج جمهوري صالح دون شك؟ هه؟». احتجّت المرأة المتتقمة، طويلة اللسان، في نبرة صاخبة: «ليس هناك أفضل منه، في فرنسا».

قالت السيدة ديفارج، وهي تضع يدها بعبوسٍ خفيفٍ على شفتي نائبتها: «الزمي الصمت، أيتها المتتقمة الصغيرة، استمعي لما أقوله. زوجي، زميل مواطن، جمهوري صالح ورجل جريء؛ واستحق تقدير

الجمهورية وثقتها. لكن زوجي لديه نقاط ضعفه، وهو ضعيف إلى درجة تجعله يلين تجاه هذا الطبيب».

«يا له من أمر مؤسف للغاية»، صاح جاك ثلاثة بصوتٍ أجش، وهو يهز رأسه متشككًا، ويضع أصابعه القاسية في فمه الجائع: «إنه ليس تمامًا مثل المواطن الصالح، إنه شيء يدعو إلى الأسف».

قالت السيدة: «اسمعوا، أنا لا يهمني هذا الطبيب، قد يحمل رأسه أو يفقده، ليس لديّ مصلحة فيه، الأمران سيّان عندي. لكن أسرة إيفريموند يجب إبادتها، يجب أن تلحق الزوجة والطفلة بالزوج والأب».

صاح جاك ثلاثة بصوتٍ أجش: «لديها رأس جميل جدير بذلك. كما رأيت أعينًا زرقاء، وشعرًا ذهبيًا، وبدا كلاهما ساحرًا عندما أمسك بها شمشون». كان غولًا، يتحدث مثل الذواقة.

خفضت السيدة ديفارج عينيها، وفكرت قليلًا.

قال جاك ثلاثة، متأملًا كلماته باستمتاع: «الطفلة أيضًا، لديها شعر ذهبي وعينان زرقاوان، ونادرًا ما يوجد طفل هناك، إنه مشهد جميل!».

«باختصار»، قالت السيدة ديفارج، وهي تخرج من شرودها القصير، «لا يمكنني الوثوق بزوجي في هذا الأمر. منذ الليلة الماضية، لم يعد شعوري يقتصر على أنني لا أجروّ على أن أعهد إليه بتفاصيل خططي؛ وإنما أشعر أيضًا أنني إذا تأخرت، فهناك خطر من أن يحذّرهم، وعندئذٍ قد يهربون».

صاح جاك ثلاثة: «يجب ألا يحدث هذا أبدًا؛ يجب ألا يهرب أحد،

ليس لدينا نصف العدد الكافي، يجب أن نقطع مائة وعشرين رأسًا في اليوم».

تابعت السيدة ديفارج قائلة: «بكلمة واحدة، لا يوجد عند زوجي ما عندي من أسبابٍ لملاحقة هذه العائلة حتى الإبادة، ولا يوجد عندي ما عنده من أسبابٍ للتعامل بحساسية مع هذا الطبيب. لذلك يجب أن أتصرف بنفسى. تعال هنا، أيها المواطن القصير».

تقدّم قاطع الأخشاب، الذي كان يحترمها، ويخضع لها، ويخافها خوفًا مميّتًا؛ تقدّم ويده على قبعته الحمراء.

قالت السيدة ديفارج بصرامة: أيها المواطن القصير، بالنسبة إلى تلك الإشارات التي كانت ترسلها إلى السجناء، هل أنت مستعد لأن تشهد على ذلك اليوم تحديدًا؟

صاح قاطع الأخشاب: آه، آه، لم لا! كانت تأتي كل يوم، في جميع الأحوال الجوية، من الساعة الثانية إلى الرابعة، وتُشير دائمًا؛ أحيانًا مع طفلة صغيرة، وأحيانًا من دونها. أنا أعرف ما أعرفه، لقد رأيت بعيني.

قام بكل أنواع الإيماءات في أثناء حديثه، كما لو كان تقليدًا عارضًا لبعض الإشارات المتنوعة الكثيرة التي لم يرها من قبل.

قال جاك ثلاثة: مؤامرات واضحة، واضحة بجلاء!

«ليس هناك شك في هيئة المحلفين؟»، سألتها السيدة ديفارج، تاركة عينيها تتجه إليه بابتسامة قاتمة.

«اعتمدي على هيئة المحلفين الوطنية، أيتها المواطنة العزيزة. أنا أتحدث باسم زملائي المحلفين».

قالت السيدة ديفارج، وهي تُعيد التفكير: والآن، دعني أفكر مرة أخرى! هل يمكنني أن أترك هذا الطبيب من أجل زوجي؟ ليس لدي أي شعور في الحاليتين. هل يمكنني أن أتركه؟

قال جاك ثلاثة بصوتٍ منخفضٍ: يُحسب كرأس، وليس لدينا رؤوس كافية بالفعل. سيكون من المؤسف، على ما أعتقد.

قالت السيدة ديفارج: عندما رأيتهما، كان يشاركما في إرسال الإشارات؛ لا يمكنني التحدث عن أحدهما دون الآخر؛ ويجب ألا أصمت، وأن أعهد بالقضية كلها إليه، إلى هذا المواطن القصير هنا. ذلك أنني لست شاهدة سيئة.

تنافست المرأة المتقدمة وجاك ثلاثة في احتجاجاتهما الحماسية على أنها أكثر الشهود روعة وإثارة للإعجاب. أما المواطن القصير، وخشية أن يتفوق أحدهما عليه، فقد أشاد بها كشاهدة.

قالت السيدة ديفارج: يجب أن يأخذ فرصته. لا، لا يمكنني تنحيته! أنت مشغول حتى الساعة الثالثة، ستذهب لترى المجموعة اليوم ستُعدم اليوم... أليس كذلك.

كان سؤالها موجهاً إلى قاطع الأخشاب، الذي ردَّ على عجلٍ بالإيجاب؛ مغتنماً الفرصة ليضيف أنه أكثر الجمهوريين حماسة، لكنه سيصبح في الواقع أكثر الجمهوريين تعاسة إذا حال أي شيء دون استمتاعه بمتعة تدخين غليونيه بعد الظهر، وهو يتأمل الحلاق الوطني المضحك. كان يُغالي في التظاهر هنا، إلى حد احتمال الاشتباه في أن لديه مخاوف فردية صغيرة على سلامته الشخصية، في كل ساعة

من اليوم (ربما اشتبهت فيه بالفعل السيدة ديفارج، وظهر في عينيها الداكتين اللتين نظرتا من رأسها بازدرائٍ نحوه).

قالت السيدة: أنا مشغولة بالقدر نفسه وفي المكان نفسه. وبعد أن ينتهي الأمر، لنقل في الثامنة ليلاً، تعال إليّ في القديس أنطوان لنقدم معلومات ضد هؤلاء الأشخاص في القسم.

قال قاطع الأخشاب إن لمن دواعي فخره وامتنانه أن يرافق المواطنة. نظرت إليه المواطنة، فشعر بالحرج وتهرب من نظرتها - كما قد يفعل كلب صغير - وتراجع بين خشبه، وأخفى ارتبাকে خلف مقبض منشاره. أومأت السيدة ديفارج إلى عضو هيئة المحلفين والمرأة المنتقمة أن يقتربا من الباب قليلاً، وهناك شرحت لهما وجهات نظرها الإضافية على النحو التالي:

«ستكون هي الآن في المنزل، في انتظار لحظة وفاته، وستكون في حالة حدادٍ وحزن. كما ستكون في حالة ذهنية تسمح لها بالتشكيك في عدالة الجمهورية، كما ستكون مليئةً بالتعاطف مع أعدائها.. سأذهب إليها».

صاح جاك ثلاثة مبتهجاً: «يا لكِ من امرأة ساحرة؛ يا لكِ من امرأة رائعة!» واحتضنتها المرأة المنتقمة صائحة: «آه، يا عزيزتي!».

قالت السيدة ديفارج: «خذي حياكتي»، ووضعتها بين يدي نائبتها، «وجهزيها لي في مقعدي المعتاد، واحتفظي لي بمقعدي المعتاد. توجَّهي إلى هناك مباشرة، فمن المحتمل أن يكون الحشد اليوم أكبر من المعتاد».

قالت المرأة المنتقمة في ابتهاج، وهي تضع قُبلة على خدها: أنا
أطيع أوامر رئيستي عن طيب خاطر. لن تتأخري؟
«سأكون هناك قبل البدء».

نادتها المرأة المنتقمة، لأنها كانت قد اندفعت بالفعل إلى الشارع:
وقبل وصول عربات النقل المكشوفة، تأكدي من وجودك هناك، يا
روحي، قبل وصول عربات النقل!

لَوَّحت السيدة ديفارج بيدها قليلاً، لتشير إلى أنها سمعت، ويمكن
الاعتماد عليها للوصول في الوقت المناسب؛ ثم تحركت خلال الوحل،
ودارت حول زاوية جدار السجن. كانت المرأة المنتقمة وعضو هيئة
المحلفين ينظران نحوها وهي تتبعد، ويُقدَّران عاليًا شكلها الجميل،
ومواهبها الأخلاقية الرفيعة.

شهدت تلك المرحلة العديد من النساء اللاتي وضع عليهن الزمن
يداً مشوَّهة بشكلٍ مخيف، على أن أكثرهن إثارة للخوف هي تلك المرأة
التي لا ترحم، وتشق طريقها الآن خلال الشوارع، فقد كانت تتمتع
بشخصية قوية لا تعرف الخوف، وحسَّ مرهف واستعداد، وعزيمة قوية،
ونوع من الجمال لا يضفي على صاحبه الحزم والعدوانية فحسب، بل
يشير لدى الآخرين إدراكاً غريزياً بتلك الصفات؛ وكان العصر العصيب
يمكن أن يرفعها، تحت أي ظرف من الظروف، لكنها تشبعت منذ
طفولتها بشعورٍ عميقٍ بالظلم، وكرهية متأصلة لطبقة معينة، وعندما
حانت الفرصة، تطورت إلى نَمرة، كانت بلا شفقة على الإطلاق، وإذا
كانت قد عرفت الفضيلة ذات يوم، فقد فقدتها تماماً.

لم يكن يعني لها أي شيء أن يموت رجل بريء من أجل خطايا أجداده؛ لم تره هو، بل رآته باعتباره هم، ولم يكن يعني لها شيئاً أن تصبح زوجته أرملة وابنته يتيمة؛ فهذا عقاب غير كافٍ، لأنهما كانا عدوَيها الطبيعيَّين وفريستيهما، وبالتالي ليس لديهما الحق في الحياة. ومن الميؤوس مناشدتها، نظراً إلى عدم شعورها بالشفقة، حتى على نفسها. إذا سقطت في الشارع، في أي من الاشتباكات العديدة التي شاركت فيها، لما أشفقت على نفسها؛ وإذا حُكم عليها بالإعدام غداً بالمقصلة، لما ذهبت إليها بشعور أكثر رقة من الرغبة الشديدة في تغيير مكانها مع الرجل الذي أرسلها إلى هناك.

كانت السيدة ديفارج تحمل مثل هذا القلب تحت رداثها الخشن، وكان الثوب الذي ترتديه بلا عناية مناسباً بطريقة غريبة، وبدا شعرها الداكن كثيفاً تحت قبعتها الحمراء الخشنة. أخفت في صدرها مسدساً محشوًّا، وأخفت عند خصرها خنجرًا حادًّا. وبهذه التجهيزات، سارت بخطواتٍ واثقة تليق بمثل هذه الشخصية، وبكل الحرية الرشيقة لامرأة اعتادت أن تمشي في طفولتها حافية القدمين وعارية الساقين على رمال البحر البنية، وهكذا، شقَّت السيدة ديفارج طريقها خلال الشوارع.

والآن، تنتظر رحلة العربة المسافرة، في تلك اللحظة نفسها، اكتمال حمولتها؛ وكان السيد لوري منشغلاً في الليلة الماضية، عند التخطيط لرحلة العربة المسافرة، بصعوبة اصطحاب الأنسة بروس في العربة نفسها، فلم يقتصر الأمر على مجرد تجنُّب تحميل العربة أكثر من طاقتها، بل كان من المهم تقليص الوقت الذي يستغرقه تفتيشها وتفتيش

ركابها إلى أقصى حد؛ لأن هروبهم قد يعتمد على توفير بضع ثوانٍ فقط هنا وهناك. وأخيرًا اقترح، بعد تفكيرٍ مشوب بالقلق، أن تغادر الآنسة بروس وجيري -اللذان يتمتعان بحرية مغادرة المدينة- في الساعة الثالثة، باستخدام أخف وسيلة نقل معروفة في تلك الفترة. ونظرًا إلى أنهما غير مثقلين بالأمتعة، فسرعان ما سيدركان العربة الأولى، ويتخطيانها ويسبقانها على الطريق، وبالتالي يمكنهما إعداد خيولها مسبقًا، ويسهلان إلى حدٍّ كبير تقدمها خلال ساعات الليل الثمينة، حين يكون التأخير هو الأكثر إثارة للرعب.

رَحَّبَت الآنسة بروس بهذا الترتيب في فرح، لأنها رأت فيه أملًا لتقديم خدمة حقيقية في تلك الحالة الطارئة الملحة. شاهدت هي وجيري بداية تحرك العربة، وعرفا أن من هو الشخص الذي أحضره سولومون، وقضيا نحو عشر دقائق في عذاب الترقب. والآن ينهيان ترتيباتهما لمتابعة العربة، في الوقت الذي تشق فيه السيدة ديفارج طريقها خلال الشوارع، وتقترب أكثر فأكثر من المسكن المهجور الذي كانا يتشاوران فيه.

قالت الآنسة بروس، التي كان اضطرابها كبيرًا إلى درجة أنها بالكاد ما تستطيع التحدث أو الوقوف أو الحركة أو العيش: الآن، ما رأيك، سيد كرانشر، ما رأيك في عدم انطلاقنا من هذا الفناء؟ قد يوقظ الشكوك، بعد أن انطلقت عربة أخرى بالفعل من هنا اليوم.

أجابها السيد كرانشر: رأيي، يا آنسة، هو أنك على حق. وعلى أي حال، سأقف بجانبك، سواء كان ذلك صحيحًا أو خاطئًا.

قالت الأنسة بروس وهي تبكي بشدة: أنا مُشَتَّة للغاية بين الخوف والأمل لجماعتنا الغالية، إلى درجة أنني غير قادرة على وضع أي خطة. هل أنت قادر على وضع خطة، عزيزي السيد كرانشر الطيب؟

أجاب السيد كرانشر: إذا كانت الخطة تتعلق بحياتي المستقبلية، يا آنسة، أمل ذلك. أما إذا كانت تتعلق باستخدام رأسي العتيق المبارك هذا في الوقت الحاضر، لا أعتقد ذلك. هل تقدِّمين لي معروفًا، يا آنسة، وتأخذي عِلْمًا بوعدي أن أرغب في تسجيلهما في هذه الأزمة هنا؟

صاحت الأنسة بروس، وهي لا تزال تبكي بشدة: أوه، بحق السماء! سجلهما على الفور، وأخرجهما من الطريق، مثل رجل ممتاز.

«أولاً»، قال السيد كرانشر، الذي كان يرتعش ويتحدث بوجه شاحب ومهيب، «لن أقوم بتلك الأعمال الحقيرة بعد الآن، لن أقوم بها أبدًا بعد الآن!».

أجابت الأنسة بروس: أنا متأكدة تمامًا، سيد كرانشر، أنك لن تعود إلى ذلك مرة أخرى، مهما كان، وأرجوك ألا تعتقد من الضروري ذكرها بالتحديد.

«لا، يا آنسة»، أجاب جييري، «لن أذكرها لك. ثانيًا: ما دمت قد تخليت تمامًا عن هذه الأشياء السيئة، لن أتدخل أبدًا في صلاة السيدة كرانشر، لن أتدخل بعد الآن!».

قالت الأنسة بروس، وهي تسعى جاهدة لتجفيف عينيها وتهذهة نفسها: مهما كانت الترتيبات المتعلقة بتدبير أمور المنزل، ليس لدي

شك في أن الأفضل هو وضع هذه الأمور تحت إشراف السيدة كرانشر
بالكامل... آه، يا أحبتي البائسين!

تابع السيد كرانشر، مع ميلٍ مقلقٍ للغاية إلى الخطابة كأنه فوق
منبر: علاوة على ذلك، يا آنسة، فإنني أذهب إلى حد القول... وأرجو أن
تسجلي كلماتي وتنقلها إلى السيدة كرانشر، إن آرائي حول صلاتها قد
تغيرت، ولا أمل من كل قلبي إلا أن تكون السيدة كرانشر ساجدة حاليًا.
صاحت الآنسة بروس المُشتتة: حسنًا، حسنًا، حسنًا! أمل أن تكون
ساجدة، يا عزيزي، وأمل أن تجد في تلك الصلاة تحقيقًا لتوقعاتها.

تابع السيد كرانشر، بمزيدٍ من الجدية، ومزيدٍ من البطء، ومزيدٍ من
الميل إلى الإسهاب: «أسأل الله؛ أتمنى أن أي شيء قلته أو فعلته لا
يضر أمنيّاتي الجادة لهؤلاء المساكين الآن! أسأل الله ألا تضطر كلنا إلى
الصلاة (إذا كان ذلك مناسبًا بأي حال) لإنقاذهم من هذا الخطر الكئيب
هنا! أسأل الله، يا آنسة! ما أقوله، أسأل الله!» كان هذا هو استنتاج السيد
كرانشر بعد محاولة مطولة ولكن عبثية لإيجاد استنتاج أفضل.

تابعت السيدة ديفارج شق طريقها خلال الشوارع، وأخذت تقترب
أكثر فأكثر.

قالت الآنسة بروس: إذا عدنا إلى وطننا، يمكنك الاعتماد عليّ
في إبلاغ السيدة كرانشر، بشكلٍ مثيرٍ للإعجاب، ما أتمكّن من تذكره
وفهمه مما قلته. وفي جميع الأحوال، يمكنك أن تثق بأنني سأشهد
على جديتك التامة في هذا الوقت الرهيب. والآن، أرجوك، دعنا نفكر!
سيدي المحترم كرانشر، دعنا نفكر!

تابعت السيدة ديفارج شقَّ طريقها خلال الشوارع، وأخذت تقترب أكثر فأكثر.

قالت الآنسة بروس: أليس من الأفضل أن تذهب قبلي، وتوقف العربة والخيول من القدوم إلى هنا، وتنتظرنني في مكان ما؟ اعتقد السيد كرانشر أنه قد يكون الأفضل.

«أين يمكنك انتظاري؟»، سأله الآنسة بروس.

كان السيد كرانشر في حيرة من أمره، إلى درجة أنه لم يستطع التفكير في أي مكان سوى تمبل بار. ويا للأسف! يقع تمبل بار على بُعد مئات الأميال، والسيدة ديفارج تقترب جدًا بالفعل.

قالت الآنسة بروس: عند باب الكاتدرائية. هل هذا الموقع بعيدٌ عن الطريق، بحيث يصعب عليك أن تأخذني بالقرب من باب الكاتدرائية العظيم بين البرجين؟

«لا، يا آنسة»، أجاب السيد كرانشر.

قالت الآنسة بروس: اتجه إذن، مثل أفضل الرجال، إلى محطة البريد مباشرة لإجراء هذا التغيير.

قال السيد كرانشر، مترددًا ويهز رأسه: أنا متردد في تركك وحدك، كما ترين، فنحن لا نعرف ما قد يحدث.

أجابت الآنسة بروس: نحن لا نعرف، لكن الله يعلم. لا تخف عليّ. خذني من الكاتدرائية في الساعة الثالثة، أو بالقرب منها قدر الإمكان، وأنا على يقين أن هذا أفضل من انطلاقنا من هنا. أشعر أنني متأكدة من

ذلك. هيا! بارك الله فيك يا سيد كرانشر! لا تفكر بي، وإنما في الحياة التي قد تعتمد على كلينا!

اتخذ السيد كرانشر قراره، ويدا الآنسة بروس متشابكتان في توَّسل مؤلم للغاية. وبإيماءة مشجعة أو اثنتين، خرج على الفور لتغيير الترتيبات، وتركها وحدها لتتبعه كما اقترحت.

كان اتخاذ هذا التدبير الاحترازي، والبدء في التنفيذ، مصدر ارتياح كبير للآنسة بروس. كما كان من دواعي ارتياحها أيضًا ضرورة تنسيق مظهرها، بحيث لا يلفت انتباه أحد في الشارع. نظرت إلى ساعتها، ووجدتها قد تجاوزت الثانية وعشرين دقيقة. ليس لديها وقت تضييعه، لكن عليها أن تستعد في الحال.

خافت الآنسة بروس، في اضطرابها الشديد، من الوحدة التي تشعر بها في الغرف المهجورة، ومن الوجوه شبه المُتخيَّلة التي تختلس النظر من وراء كل باب مفتوح لتلك الغرف، فأحضرت حوض من الماء البارد وبدأت تغسل عينيها المتورمتين والحمراوين. كانت تطاردها مخاوفها المحمومة، ولم تستطع تحمُّل حجب بصرها لمدة دقيقة في كل مرة بسبب تساقط الماء، لكنها كانت تتوقف باستمرارٍ وتنظر حولها لترى أنه لا يوجد أحد يراقبها. وفي إحدى تلك الوقفات، ارتدت صارخة لأنها رأت شخصًا يقف في الغرفة.

سقط الحوض على الأرض مكسورًا، وتدفقت المياه إلى أقدام السيدة ديفارج. بطرق صارمة غريبة، ومن خلال الكثير من الدم الملوث، وصلت تلك الأقدام لتلتقي بتلك المياه.

نظرت إليها السيدة ديفارج ببرودٍ، وقالت: زوجة إيفريموند؛ أين هي؟ ومض في ذهن الأنسة بروس أن الأبواب المفتوحة كلها هذه قد تشير إلى الهروب؛ فكان أول ما قامت به هو إغلاقها. ضُمَّت الغرفة أربعة أبواب، وأغلقتهم جميعًا. ثم وقفت أمام باب الغرفة التي كانت لوسي تشغلها.

تبعتها عينا السيدة ديفارج الداكنتان خلال هذه الحركة السريعة، واستقرتا عليها عندما انتهت. لم تكن الأنسة بروس جميلة؛ فالسنوات لم تروّض وحشيتها، أو تخفّف من كآبة مظهرها. لكنها كانت، هي الأخرى أيضًا، امرأة حازمة بطريقتها المختلفة، وأخذت تقيس بعينها كل بوصة في هيئة السيدة ديفارج.

قالت الأنسة بروس، وهي تتنفس: قد تكونين، كما يدل مظهرك، زوجة إبليس؛ ومع ذلك، لن تغلبي عليّ. أنا امرأة إنجليزية.

نظرت إليها السيدة ديفارج بازدراء، وإن كان مع شيء من تصور الأنسة بروس بأنهما في وضعٍ عدواني. رأت أمامها امرأة قوية وصلبة ومفتولة العضلات، كما رأى السيد لوري في نفس الهيئة امرأة ذات يدٍ قوية في السنوات الماضية. كانت تعرف جيدًا أن الأنسة بروس صديقة مخلصّة للعائلة، كما تعرف الأنسة بروس جيدًا أن السيدة ديفارج عدو شرير للعائلة.

قالت السيدة ديفارج، بحركة خفيفة من يدها نحو موقع القتل: في طريقي إلى هناك، حيث يحتفظون بمقعدي وحياكتي، جئت لتقديم تحياتي لها، في أثناء مروري. أريد أن أراها.

قالت الآنسة بروس: أعلم أن نواياك شريرة، وتأكدي أنني سأواجهك بمثلها دفاعًا عنها.

كانت كلُّ منهما تتحدث بلغتها الخاصة؛ ولم تفهم أيُّ منهما كلمات الأخرى، كما كانت كلُّ منهما يقظة للغاية، وعازمة على الاستنتاج، من الشكل والطريقة، ما تعنيه الكلمات غير المفهومة.

قالت السيدة ديفارج: لن يفيدها إخفاء نفسها عني في هذه اللحظة. يعرف الوطنيون الصالحون ما يعنيه ذلك. دعيني أراها. اذهبي وأخبريها أنني أريد رؤيتها. هل تسمعين؟

أجابت الآنسة بروس: إذا كانت عيناك عبارة عن رافعات في الفراش، وكنت أنا سريرًا إنجليزيًا بأربع قوائم، فلن يمكنهما إفقادي شظية مني. لا، أيتها المرأة الأجنبية الشريرة. أنا نَدُّك.

لم يكن من المرجح أن تستوعب السيدة ديفارج هذه الملاحظات الاصطلاحية بالتفصيل، لكنها فهمتها بما يجعلها تدرك أن المرأة لا تقيم لها وزنًا على الإطلاق.

قالت السيدة ديفارج، عابسة: «إنك امرأة معتوهة تشبه الخنزير! أنا لا أنتظر منك أي إجابة، إنني أطلب رؤيتها، إما أن تخبريها أنني أطلب رؤيتها، وإما تقفي بعيدًا عن الباب وتدعيني أدخل إليها!». قالت ذلك مع تلويحة توضيحية غاضبة من ذراعها اليمنى.

قالت الآنسة بروس: لم أفكر كثيرًا في أنني يجب أن أرغب في فهم لغتك التي لا معنى لها، لكنني على استعدادٍ لأن أقدم كل ما لديّ،

باستثناء الملابس التي أرتديها، لأعرف ما إذا كنت تشكين في الحقيقة،
أو في أي جزء منها.

لم ترفع أيٍّ منهما عينيها لحظة واحدة عن عيني الأخرى. لم تتحرك
السيدة ديفارج من المكان الذي وقفت فيه منذ أن تنبّهت الأنسة بروس
بوجودها بداية؛ لكنها تقدمت الآن خطوة واحدة.

قالت الأنسة بروس: أنا بريطانية، ويائسة. ولا يعينني الحصول على
عملة إنجليزية من بنسين. وأعرف أنه كلما طالت مدة إبقائك هنا، زاد
الأمل لعصفورتي، لن أترك حفنة من هذا الشعر الداكن على رأسك، إذا
وضعت إصبعك عليّ!

وهكذا كانت الأنسة بروس تهز رأسها وتومض عيناها بين كل
جملة سريعة وأخرى، وكانت كل جملة نفساً كاملاً، هكذا كانت الأنسة
بروس، التي لم تضرب أحداً قط في حياتها.

لكن شجاعتهما كانت ذات طبيعة عاطفية، إلى حد أنها جلبت
الدموع التي لا يمكن كبتها إلى عينيها. كانت هذه شجاعة لا تفهمها
السيدة ديفارج كثيراً، بحيث أخطأت في فهمها واعتبرتها ضعفاً.
ضحكت: «ها، ها!» «أيتها البائسة المسكينة! ما قيمتك! سوف أتوجه
إلى ذلك الطبيب». ثم رفعت صوتها ونادت: «أيها الطبيب المواطن!
يا زوجة إيفريموند! يا طفلة إيفريموند! أي شخص غير هذه الحمقاء
البائسة، أجب على المواطنة ديفارج!».

ربما كان الصمت الذي أعقب ذلك، وربما بعض الانكشاف
الكامن في تعبيرات وجه الأنسة بروس، وربما هاجس مفاجئ بصرف

النظر عن أي من التصويرين السابقين، قد همس للسيدة ديفارج أنهم رحلوا. فتحت ثلاثة أبواب بسرعة، ونظرت إلى الداخل.

«تسود هذه الغرف كلها حالة من الفوضى، كان حزم الأمتعة على عجل، وتتناثر الأشياء على الأرض. لا يوجد أحد في تلك الغرفة خلفك! دعيني ألقي نظرة».

«مطلقاً!»، قالت الآنسة بروس، التي فهمت الطلب تمامًا، كما فهمت السيدة ديفارج الإجابة.

قالت السيدة ديفارج لنفسها: إذا لم أجدهم في تلك الغرفة، يعني أنهم رحلوا، ويمكنني ملاحقتهم وإعادتهم.

وقالت الآنسة بروس لنفسها: ما دمت لا تعرفين ما إذا كانوا في تلك الغرفة أم لا، فأنت لست متأكدة مما عليك القيام به؛ ولن تعرفي، إذا استطعت أن أمنعك من معرفة ذلك. وسواء عرفت ذلك أو لم تعرفيه، لن تغادري هذا المكان ما دمتُ قادرة على منعك.

قالت السيدة ديفارج: كنت في الشوارع منذ البداية، ولم يوقفني شيء. سأمزقك إربًا، لكنني سأبعدك عن هذا الباب.

قالت الآنسة بروس: نحن وحدنا في الجزء العلوي من منزل مرتفع في فناء منعزل، ومن غير المحتمل أن يُسمع صوتنا، وأدعو الله أن يمدني بقوة جسدية لأبقيك هنا، بينما تساوي كل دقيقة من وجودك هنا مائة ألف جنيه لحبيبتني.

وصلت السيدة ديفارج إلى الباب، وبدافع غريزة اللحظة، أحاطت ذراعا الآنسة بروس بخصرها، وأمسكتها بإحكام. عبثًا حاولت السيدة ديفارج أن تكافح وتضرب؛ فقد أحكمت الآنسة بروس الإمساك بها -بقوة إصرار الحب، التي هي دائمًا أقوى بكثير من الكراهية- بل ورفعتها عن الأرض في خضم الصراع بينهما. لطمتها يدا السيدة ديفارج ومزقت وجهها؛ لكن الآنسة بروس، ورأسها لأسفل، أحاطت خصرها، وتشبثت بها بأكثر من قبضة امرأة تغرق.

وسرعان ما توقفت يدا السيدة ديفارج عن الضرب، وتحسست خصرها المطوق. قالت الآنسة بروس، بنبراتٍ مخنوقة: «إنه تحت ذراعي، لن تتمكني من سحبه. أنا أقوى منك، وأحمد الله على ذلك، سأظل ممسكة بك، حتى يُغمى على أحدنا أو يموت!». .

مدّت السيدة ديفارج يدها إلى صدرها. نظرت الآنسة بروس إلى أعلى، ورأت ما بيدها؛ أطلقته نحو عدوتها، صدر عنه وميض ودوي، وقفت وحدها... والدخان يعميها.

حدث ذلك كله في ثانية، وعندما انقشع الدخان، تاركًا سكونًا فظيغًا، انطلق في الهواء، مثل روح المرأة الغاضبة التي كان جسدها هامدًا على الأرض.

في أول حالة الخوف والرعب التي انتابتها، سارت الآنسة بروس بعيدًا عن الجسد قدر استطاعتها، وركضت هابطة على السلم لطلب مساعدة غير مجدية. ولحسن الحظ، أدركت في الوقت المناسب

عواقب ما فعلته، فهدأت من نفسها وعادت. كان يرعبها الدخول من الباب مرة أخرى؛ لكنها دخلت، بل وسارت بالقرب من الجسد، بغية أن تُحضّر قبعتها والأشياء الأخرى التي يجب أن ترتديها. ارتدتها على السلم، بعد أن أغلقت الباب وأوصدته وأخذت المفتاح. جلست على السلم بضع لحظات تتنفس وتبكي، ثم نهضت وأسرعت بالابتعاد.

ومن حسن الحظ وجود حجاب على قبعتها، وإلا لما أمكنها السير في الشارع دون إيقافها. ومن حسن الحظ أيضًا أنها كانت بطبيعتها غريبة المظهر، بحيث لم تظهر عليها أي تشوهات مثل أي امرأة أخرى. كانت في حاجة إلى الميزتين؛ ذلك أن علامات قبضة الأصابع كانت عميقة في وجهها، وكان شعرها ممزقًا، وثوبها (المُجهز على عجلٍ بأيدي غير ثابتة) متغضنًا لأنها تشبّثت به وجرتّه في مائة اتجاه.

عند عبورها الجسر، أسقطت مفتاح الباب في النهر. وصلت إلى الكاتدرائية قبل بضع دقائق من مرافقها، وانتظرت هناك. وفكرت، ماذا لو وقع المفتاح بالفعل في شبكة، ماذا لو أمكن التعرف عليه، ماذا لو فتحوا الباب واكتشفوا الجثة، ماذا لو أوقفوها عند البوابة وسجنوها واتهموها بالقتل! وفي خضم هذه الأفكار المضطربة، ظهر المرافق، ركبت العربة، وابتعدا.

سألته: هل يوجد أي ضحيح في الشوارع؟

«الضوضاء المعتادة»، أجاب السيد كرانشر. وبدأ مندهشًا من

السؤال ومن مظهرها.

«أنا لا أسمعك»، قالت الأنسة بروس، «ماذا تقول؟».

عَبثًا كرر السيد كرانشر ما قاله؛ فالآنسة بروس لم تستطع سماعه.
فكر، مندهشًا، «سأومئ برأسي إذن، ففي جميع الأحوال سترى ذلك».
وقد حدث بالفعل.

عندئذٍ، أعادت الآنسة بروس سؤالها: هل يوجد أي ضجيج في
الشوارع الآن؟

أومأ السيد كرانشر برأسه ثانية.

«أنا لا أسمع».

قال السيد كرانشر، وهو في حالة تأمل وعقله مضطرب للغاية: هل
أصبحت صماء خلال ساعة؟ ماذا حدث لها؟

قالت الآنسة بروس: أشعر كأنما حدث وميض ودوي، وأن هذا
الدوي كان آخر شيء أسمعته في هذه الحياة.

قال السيد كرانشر، وقد ازداد انزعاجه: يا إلهي! طوبى لها إن لم
تكن في حالة غريبة! ثرى ماذا تناولت لتحافظ على شجاعتهما؟ اسمعي!
ها هي أصوات تدرج تلك العربات الرهيبة! هل يمكنك سماعها، يا
آنسة؟

قالت الآنسة بروس، عندما رأت أنه يكلمها: لا يمكنني سماع أي
شيء. يا صديقي الطيب، كان هناك أولاً دوي هائل، ثم سكون هائل،
ويبدو أن هذا السكون ثابت ولا يتغير، ولن ينقطع أبدًا لبقية حياتي.

قال السيد كرانشر، وهو ينظر من فوق كتفه: إذا لم تسمع صوت
تلك العربات الرهيبة، وقد اقتربت الآن من نهاية رحلتها، أعتقد أنها لن
تسمع في الواقع أي شيء آخر في هذا العالم.
وبالفعل لم تسمع قط.

الفصل الخامس عشر

الخطى تتلاشى إلى الأبد

تمضي عربات الموت تدمدم، جوفاء قاسية، على طول شوارع باريس. ست عربات نقل تحمل نبيذ اليوم إلى المقصلة. إن جميع الوحوش المفترسة والنهمة التي تخيلناها، منذ أن تمكّن الخيال من تسجيل نفسه، تنصهر في إدراك واحد: المقصلة. ومع ذلك، لا يوجد في فرنسا، رغم ثراء تنوع تربتها ومناخها، عُشب، أو ورقة شجر، أو جذر، أو غصن، أو حبة فلفل، يمكن أن تنمو حتى تنضج في ظل ظروف أكثر يقينية من تلك التي أنتجت هذا الرعب. اسحقوا البشرية مرة أخرى بمطارق مماثلة، وسوف تلتوي متحولة إلى الأشكال المعذبة نفسها. ازرعوا نفس بذرة الاستغلال الجشع والقمع مرة أخرى، وسوف تحصد بالتأكيد نفس الثمرة وفقاً لنوعها.

تدحرج ست عربات نقل خلال الشوارع. أعد هذه العربات مرة أخرى إلى ما كانت عليه، أيها الساحر القوي، أنت أيها الزمن، وسوف تُعتبر مركبات الملوك المطلّقين، وعربات النبلاء الإقطاعيين، وأدوات زينة النساء عديمات الحياة المتبرجات، والكنائس التي لم تكن بيت الرب وإنما أوكار اللصوص، وأكواخ الملايين من الفلاحين الجائعين!

لا؛ فالساحر العظيم الذي ينفذ بمهابة نظام الخالق، لا يعكس تحولاته أبداً. في القصص العربية الحكيمة، يقول العرافون للمسحورين: «إذا تغيرت إلى هذا الشكل بمشيئة الله، فابق هكذا! ولكن، إذا ارتديت هذا الشكل من خلال مجرد سحر زائل، فاستعد صورتك السابقة!». تتدحرج عربات النقل، بلا تغيير وبلا أمل.

بدت العجلات الكثيبة للعربات الست وهي تدور كأنها تحرث أخذوداً طويلاً ملتويًا بين الناس في الشوارع. كانت تلال الوجوه تميل إلى هذا الجانب أو ذاك، وتسير المحارث بثباتٍ إلى الأمام. اعتاد السكان العاديون في المنازل على هذا المشهد، بحيث لم يُعد يوجد أشخاص في العديد من النوافذ، وفي بعض النوافذ لا يتوقف عمل الأيدي، بينما تراقب الأعين الوجوه في العربات. هنا وهناك، كان زائر يأتي لأحد السكان لرؤية المشهد؛ ثم يشير الساكن بإصبعه -بشيء من الرضا عن النفس الذي يشعر به أمين متحف أو داعية مفوض- إلى هذه العربة وإلى تلك، ويبدو أنه يخبر زائره عمّن جلس هنا بالأمس، ومن جلس هناك في اليوم السابق.

كان البعض من راكبي تلك العربات يلاحظ هذه الأشياء، وكل الأشياء التي تقع على جانب طريقهم الأخير، بتحديثٍ جامد؛ بينما يراها آخرون بنظرة متأنية واهتمام متباطئ بطرق الحياة والبشر. وهناك البعض يجلسون مطأطيء الرؤوس وغارقين في يأسٍ صامت؛ وهناك أيضًا من يحرصون على مظهرهم إلى حد أنهم يلقون على الجموع نظرات تشبه تلك التي رأوها في المسارح والصور. ويغلق العديد منهم أعينهم،

ويفكرون، أو يحاولون استجماع أفكارهم المشتتة. واحد فقط، وهو مخلوق بائس، ذو مظهر مخبول، محطّم للغاية ومخمور من الرعب، بحيث راح يغني ويحاول أن يرقص. لا أحد من العدد كله يشير شفقة الناس، سواء بنظراته أو إيماءاته.

يركب بجوار العربات حرس من فرسان مختلفين، وغالبًا ما توجه الوجوه إلى بعضهم، ويطرحون عليهم بعض الأسئلة. يبدو أنه السؤال نفسه دائمًا، إذ يليه دومًا اندفاع الناس نحو العربية الثالثة. وكثيرًا ما يشير الفرسان المجاورون للعربة بسيوفهم إلى رجل واحد فيها. فقد كان فضول الناس الرئيسي يكمن في معرفة أي واحد هو. كان يقف في الجزء الخلفي من العربة ورأسه منحني، يتحدث مع فتاة بسيطة تجلس على جانب العربة وتمسك بيده. لم يكن لديه أي فضول أو اهتمام بالمشهد حوله، ويتحدث دائمًا مع الفتاة. هنا وهناك، في شارع سان أونوريه الطويل، ترتفع هتافات ضده. وإذا حركته تلك الهتافات على الإطلاق، فذلك فقط بابتسامة هادئة، وهو يهز شعره قليلًا حول وجهه؛ إذ لا يستطيع أن يلمس وجهه بسهولة، لأن ذراعيه مقيدتان.

وقف الجاسوس، خروف السجن، على سلالم كنيسة، في انتظار وصول العربات. ألقى نظرة إلى أول عربة: ليس فيها. نظر إلى الثانية: ليس فيها. سأل نفسه «هل ضحّى بي؟»، ثم أشرق وجهه، وهو ينظر إلى الثالثة.

قال رجل خلفه: أيهم هو إيفريموند؟

«هذا هو، في الخلف هناك».

«الذي يضع يده في يد الفتاة؟».

«نعم».

صاح الرجل: ليسقط إيفريموند! إلى المقصلة جميع الأرستقراطيين!
ليسقط إيفريموند!

رجاه الجاسوس على استحياء: صمتاً، صمتاً!

«ولم لا، أيها المواطن؟».

«سوف يدفع الثمن؛ سيدفعه بعد خمس دقائق. دعه في سلام».

لكن الرجل استمر في الصباح ، «يسقط إيفريموند!»، وللحظة
تحوّل وجه إيفريموند نحوه. عندئذٍ رأى إيفريموند الجاسوس، ونظر
إليه باهتمام، ومضى في طريقه.

دقّت الساعة الثالثة، وأخذ الأخدود الذي يجري حرثه بين الناس
يستدير، ليصل إلى مكان الإعدام، وينتهي. تنهار الآن التلال الملقاة على
هذا الجانب وذاك، وتقترب خلف المحراث الأخير في أثناء مروره، لأن
الجميع يتبعون موكب المقصلة. يجلس عدد من النساء على الكراسي
أمامها، كما لو كنّ في حديقة عامة، مشغولات بالحياكة. تقف المرأة
المنتقمة على أحد الكراسي الأمامية، تبحث عن صديقتها.

تصيح بنبراتها الحادة: تيريز! من رآها؟ تيريز ديفارج!

تقول إحدى النساء الحائكات من المجموعة: لم تتخلف قطّ من قبل.

«لا. ولن تتخلف الآن»، ثم تصيح المرأة المنتقمة بغضب: تيريز.

«بصوت أعلى»، أوصتها المرأة.

آه! بصوتٍ أعلى، أيتها المرأة المنتقمة، ارفعي صوتك أعلى، لكنها بالكاد ما تسمعك. بصوت أعلى، أيتها المرأة المنتقمة، وأضيفي إلى ندائك يمينًا أو نحو ذلك، على أن ذلك بالكاد ما يجعلها تأتي. أرسلني نساء أخريات للبحث عنها في جميع الأنحاء، متباطئات في بعض الأماكن؛ مع ذلك، وعلى الرغم من قيامهن بأفعال مرعبة، فمن المشكوك فيه ما إذا كن سيذهبن بمحض إرادتهن بعيدًا بما يكفي للعثور عليها!

صاحت المرأة المنتقمة، وهي تضرب قدمها على الكرسي: يا له من حظ سيئ! وها هي عربات النقل المكشوفة! وسوف ينتهي إفريموند في لمح البصر، وهي ليست هنا! أرى حياتها في يدي، وكرسيها الفارغ جاهز لها، أبكي بغيظ وخيبة أمل!

وبينما كانت المرأة المنتقمة تهبط من فوق الكرسي، بدأت العربات في تفريغ أحمالها. كهنة القديسة المقصلة في ثيابهم التقليدية وجاهزين. ارتطام! وُرفِعَ رأس إلى أعلى، فما كان من النساء الحائكات -اللاتي بالكاد ما رفعن أعينهن للنظر إليه منذ لحظة، عندما كان بإمكانه التفكير والكلام- إلا أن يحسبن واحدًا.

أفرغت العربة الثانية حمولتها ومضى؛ ثم تأتي الثالثة. ارتطام! والنساء الحائكات -اللاتي لا يترددن أو يتوقفن أبدًا عن عملهن- يحسبن اثنتين.

نزل إفريموند المُفْتَرَض، وأنزلت الخياطة بعده. لم يتخل عن يدها الصبورة عند نزولها، بل ظل ممسكًا بها كما وعدا. أنزلها بلطفٍ وظهرها إلى الآلة الساحقة التي ترتفع وتهبط باستمرار. نظرت إلى وجهه وشكرته.

«لولاك، أيها الغريب العزيز، لما استطعت أن أكون هادئة هكذا؛ لأنني بطبعي شيء صغير فقير، ضعيف القلب؛ ولما تمكّنت من أن أرتفع بأفكاري إلى السيد المسيح، الذي سيق إلى الموت، حتى نال الأمل والراحة هنا اليوم. أعتقد أن السماء أرسلتك إليّ».

قال سيدني كارتون: أو أرسلتك أنت إليّ. أبقى عينيك عليّ، يا ابنتي العزيزة، ولا تهتمي بأي شيء آخر.

«لا يهمني أي شيء وأنا أمسك بيدك، ولن يهمني شيء عندما أتركها، إذا أسرعوا».

«سوف يسرعون، لا تخافي!».

وقف الاثنان في حشدٍ من الضحايا يتناقص بسرعة، لكنهما يتحدثان كما لو كانا وحدهما. من عين إلى عين، ومن صوت إلى صوت، ومن يد إلى يد، ومن قلب إلى قلب؛ التقى طفلا الأم الكونية، اللذان كانا متباعدين ومختلفين للغاية، اجتمعا على الطريق السريع المظلم، ليعودا معاً إلى البيت، ويرتاحا في حضنها.

«صديقي الشجاع الكريم، هل ستسمح لي أن أسألك سؤالاً أخيراً؟ أنا جاهلة جداً، وهذا يزعجني... قليلاً».

«أخبريني، ما هو».

«لديّ ابنة عم، وهي قريبتى الوحيدة وتيمة، مثلي، أحبها كثيراً. وهي تصغرني بخمس سنوات، وتعيش في منزل مزارع في الريف الجنوبي. لقد فرقنا الفقر، وهي لا تعرف شيئاً عن مصيري -لأنني لا أستطيع

الكتابة- وإذا كان في إمكاني، فكيف أخبرها! الوضع أفضل كما هو».

«نعم، نعم: الوضع أفضل كما هو».

«ما كنت أفكر فيه طوال الطريق، وما زلت أفكر فيه حتى الآن، وأنا أنظر إلى وجهك القوي اللطيف الذي يمنحني الكثير من الدعم، هو: إذا كانت الجمهورية تقدم الخير حقًا للفقراء، ويصبحون أقل جوعًا، وأقل معاناة بكافة الأشكال، فقد تعيش قريتي فترة طويلة: قد تعيش حتى إلى أن تبلغ سن الشيخوخة».

«ثم ماذا، يا أختي اللطيفة؟».

«هل تعتقد»، وهنا امتلأت بالدموع العينان التي لا تشكو وتحملت الكثير، وتباعدت الشفتان قليلاً مرتجفتين: «أن وقت انتظاري لها سيطول وأنا في الأرض الأفضل، حيث أثق أننا، أنا وأنت، سنحظى بحماية رحيمة؟».

«هذا غير ممكن، يا ابنتي؛ لا يوجد زمن هناك، ولا يوجد قلق هناك».

«أنت تريحني كثيرًا! أنا جاهلة جدًا. هل يمكنني تقبيلك الآن؟ هل حانت اللحظة؟».

«نعم».

قبّلت شفتيه؛ قبّل شفتيها؛ بارك كلّ منهما الآخر بوقار. لم ترتجف اليد الهزيلة وهو يُطلقها؛ ما من شيء أسوأ من ثبات جميل ومشرق في وجه صبور. جاء دورها قبله... ذهبت. أحصت النساء الحائكات اثنتين وعشرين.

«أنا هو القيامة والحياة، يقول الرب. من آمن بي، ولو مات، فسيحيا؛ وكل من كان حيًّا وآمن بي، فلن يموت إلى الأبد».

اختفت في أطراف الحشد همهمة العديد من الأصوات، وارتفع العديد من الوجوه، وضغط العديد من الخطوات، وهو يندفع إلى الأمام في كتلة واحدة، مثل موجة عظيمة من المياه: ثلاثة وعشرون.

تحدثوا عنه في أنحاء المدينة كافة في تلك الليلة، أن وجهه كان أكثر الوجوه سلامًا التي شوهدت هناك على الإطلاق، وأضاف الكثيرون أنه بدا شامخًا وعليه سيماء نبويًا.

طلبت واحدة من أبرز ضحايا الفأس نفسه، عند سفح الآلة نفسها، قبل وقت ليس ببعيد، السماح لها بكتابة الأفكار التي كانت تلهمها، ولو سُمح لسيدني كارتون أن يُعبّر عن أفكاره، وكانت ذات طابع نبوي، لكانت كالتالي:

أرى بارساد، وكلاي، وديفارج، والمرأة المنتقمة، وعضو هيئة المحلفين، والقاضي، وصفوفًا طويلة من الظالمين الجدد الذين نهضوا على تدمير القديم، يهلكون بهذه الأداة العقابية قبل أن تتوقف عن استخدامها الحالي. أرى مدينة جميلة وشعبًا مبهرًا ينهض من هذه الهاوية؛ وفي كفاحه من أجل أن يتحرر بحق، وفي انتصاراته وهزائمه، عبر السنوات الطويلة القادمة، أرى شرور هذا العهد والعهد السابق الذي كان هذا ميلاده الطبيعي، يكفر عن نفسه تدريجيًّا ويزول.

أرى حياة من ضحيت بحياتي من أجلهم، آمنين ومفידين
ومزدهرين وسعداء، في إنجلترا تلك التي لن أراها بعد الآن. أراها مع
طفلٍ في حضنها يحمل اسمي. أرى والدها، مستأً ومنحنياً، لكنه تعافى
ويخلص لجميع الناس في عيادته، وفي سلام. أرى الرجل العجوز
الطيب، صديقهم منذ فترة طويلة، يثريهم خلال عشر سنوات بكل ما
لديه، ويمضي بهدوء إلى جزائه.

أرى أن لي مكانة مقدسة في قلوبهم وقلوب أحفادهم، بعد أجيال.
أراها امرأة مسنة، تبكي من أجلي في ذكرى هذا اليوم. أراها وزوجها،
وقد انتهى مسارهما، مستقلّين جنباً إلى جنب في سريرهما الدنيوي
الآخر، وأعرف أن كلاّ منهما لا يشغل في روح الآخر مكانة أشرف
وأقدس من مكانتي في روحيهما.

أرى ذلك الطفل الذي يرقد على صدرها ويحمل اسمي، رجلاً يشق
طريقه في الحياة على المسار الذي خضته ذات يوم. أراه يحقق نجاحاً
كبيراً، إلى درجة أن اسمي أصبح لامعاً هناك على ضوء اسمه. وأرى
البقع التي لطخت اسمي ذات يوم قد تلاشت. أراه، في مقدمة القضاة
والمكرمين، يجلب صبياً يحمل اسمي، بجبينٍ أعرفه وشعر ذهبي، إلى
هذا المكان -الذي أصبح جميلاً، دون أي أثر لتشوّه يومنا هذا- وأسمعه
يروى للطفل قصتي، بصوتٍ رقيقٍ ومتهدجٍ.

«إن ما أفعله الآن أفضل بكثير مما فعلته من قبل، والراحة التي
أمضي إليها الآن، أفضل بكثير من أي راحة عرفتُها من قبل».

